هنري ميللر

مدار الجدي

ترجمة:
أسامة منزلجي

مدار الجدي

Author: Henry Miller
Title: Tropic of Capricon
Translator:Ossama Manzalji
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009
Arabic Copyright © Al- Mada

المـؤلـف : هنري ميللر
عنوان الكتاب : مدار الجدي
المترجم : أسامة منزلجي
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ٢٠٠٩
الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع ، أو نقله ، على أي نحو ، أو بأي طريقة سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية ، أو بالتصوير ، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك ، إلا بموافقة كتابية من الناشر ومقدماً .

All rights reserved. Not part of this publication may be reproduced stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

هنري ميللر

مدار الجدي

ترجمة: أسامة منزلجي

إهداء المؤلِّف

إليها

على متن الحافلة المبيضّة

من مقدمة Historia Calamitatum (قصة مِحَني)

غالباً ما تُثار قلوب الرجال والنساء، كما تهدأ غلواء أحزانها، بالقدوة وليس بالكلمات. ولذلك، لأنني أنا أيضاً عرفتُ بعض العزاء من حديثٍ تبادلته مع شخصٍ كان شاهداً، أنوي الآن أنْ أكتبُ عن الآلام التي نتجت عن محني، من أجل عينيّ شخص هو، على الرغم من غيابه، بحد ذاته مُعزٍّ دائم. أفعلُ هذا لكي تقارن أحزانكَ بأحزاني، وتكتشف أنَّ أحزانكَ في الحقيقة هي لا شيء، أو في الغالب ليس لها أهمية تُذكَر، وهكذا تتوصّل إلى تحمُّلها بسهولةٍ أكبر.

بيتر أبيلار[1]

١ – بيتر أبيلار (١٠٧٩ – ١١٤٢) : لاهوتي، وشاعر، ومُعلِّم، وفيلسوف. عُرِفَ أبيلار بحبّه لألويز، التي تزوَّجها ثم أُجبِرَ على تطليقها. وقد كتب سيرة ذاتية واسعة الانتشار هي " قصة مِحَني "، وله أيضاً دراسات في اللاهوت. – المترجم

حالما تسلّم الروح، يُصبِح كل ما يلي يقيناً صِرفاً، حتى وأنتَ في قلب العَماء. ومنذ البدء لم يكن هناك إلا العماء : كان دفقاً غلّفني، تنفّستُه من خلال الغلاصِم. في الطبقات السفلية، حيث سطع القمر ثابتاً ومُعتماً، كانت ناعمة وخصبة؛ وفوقها كانَ الغاب والتنافُر. وسرعان ما رأيتُ في كل شيء عكسه، نقيضه، وبين الحقيقي واللا حقيقي كانت السخرية، المفارقة. كنتُ ألدّ أعداء نفسي. لم أعجز عن تنفيذ أي عمل رغبتُ في تنفيذه. حتى وأنا طفل، حين كنتُ أفتقدُ شيئاً، أتمنّى الموت : أردتُ الاستسلام لأنني لم أرَ جدوى من الكفاح. شعرتُ أنه لا شيء يمكن إثباته، أو إقراره، أو إضافته أو إسقاطه في وجودٍ لم أختره. كان كل مَنْ حولي فاشلين، أو إذا لم يكونوا فاشلين، فمُثيرين للسخرية. خاصة الناجحون منهم. كان الناجحون يُثيرون في نفسي مللاً قاتلاً. كنتُ أتعاطف مع الخطأ، ولكن ليس التعاطُف هو ما جعلني كذلك، بل خاصيّة سلبية تماماً، ضعفٌ أزهرَ لمجرد مرأى بؤسٍ إنسانيّ. لم أساعد أبداً أحداً يتوقّع أنْ تفيده مساعدتي؛ ساعدتُ لأنني كنتُ عاجزاً عن فعل أي شيءٍ آخر. وبدت لي إرادة تغيير الأوضاع عقيمة؛ كنتُ مُقتنعاً بأنَّ لا شيء يمكن تغييره إلاّ بتغيير القلب، ومَنْ يستطيع أنْ يُغيِّر قلوب البشر؟ وبين حينٍ وآخر كان أحد أصدقائي يهتدي إلى الدين؛ فأشعر برغبةٍ في التقيُّؤ. لم يعُدْ لي حاجة إلى الله بقدر ما هو في غير حاجةٍ إليّ، وغالباً ما كنت

أقـول لنفـسي، إذا كـان هناك إله فـسـوف أقـابله بكل هدوء وأبصق في وجهه.

أشدّ مـا أزعـجني هو أنني في أول مـرة احـمـرَّ وجـهي ظنَّ النـاس كـالمعـتـاد أني ولدٌ طيّب، ولطيف، وكـريم، ومُخلص، ووفيّ. وربما كنتُ أتحلّى بتلك الخصال الحميدة فإذا كان هذا ما حدثَ فعلاً فلأنني كنتُ لا مبالياً؛ كان في استطاعتي أنْ أكونَ طيباً، ولطيفاً، وكريماً، ومُخلصاً، وما إلى ذلك، لأنني كنتُ مُتحرراً من الحَسَد؛ كان الحَسَد هو الشيء الوحيد الذي لم أقع ضحيةً له. أنا لم أحسدْ أي إنسان أو أي شيء. على العكس، فلم أضمر إلا الشفقة على كل إنسان وكل شيء.

لابد أنني منذ البداية وطّنتُ نفسي على ألاّ أحتـاج إلى أيَّ شيءٍ حاجةً ماسّة. من البداية كنتُ مُستقلاً، بطريقةٍ زائفة. لم أحتَجْ إلى أحد لأنني أردتُ أنْ أكونَ حراً، حراً في أنْ أعمل وأعطي فقط بتوجيهٍ من نزواتي. ولحظةَ يُتوقَّع أو يُطلَب مني أي شيء أنكمش. هذا هو الشكل الذي اتَخذه استقلالي. بعبارةٍ أخرى، كنتُ مُخرَّباً، مُخرَّباً منذ البداية. وكأنَّ أمي غذَّتني على السُمّ، وعلى الرغم من أنني فُطِمتُ باكراً إلا أنَّ السُمّ لم يُفارق جسمي. وحتى عندما فطمتني بدا أنني كنت لا مبالياً تماماً بذلك؛ فمُعظم الأطفال يتمرَّدون، أو يتظاهرون بالتمرُّد، أما أنا فلم أُبدي أي اهتمام بالأمر؛ كنتُ فيلسوفاً وأنا لا أزال في القماط. في المبدأ، كنتُ ضد الحياة. أي مبدأ؟ مبدأ العُقم. كل مَنْ حولي كانوا يكافحون. أما أنا فلم أبذل أقلّ جهد. فإذا بدا أنني أبذل مجهوداً فذلك فقط لكي أدخلَ السرورَ إلى قلبِ شخصٍ آخر؛ أما في أعماقي فلم أكن آبه البتّة. وإذا أعطيتني سبباً لذلك فسوف أنكِره، لأنني وُلِدتُ مع أثرٍ

ملعـون ولا شيء يمكنـه أنْ يُزيله. وقـد سـمـعتُ لاحـقاً، حين كـبـرت، أنهم أمضـوا وقتـاً طويلاً فـي محـاولة إخراجي من الرحِم. وأنـا أفهم هذا فـهـمـاً تاماً. فلماذا أتزحزح من مكاني؟ لما أغادرُ مـكاناً دافئاً وجمـيلاً، مُعـتزلاً أليفاً كل شيء يُقدَّم إليك فيه مجّاناً؟ وأقدم ذِكرى أحملها هي عن برد، وثلج وجليـد يملأ مـجروراً، والصـقـيـع على زجـاج النـوافذ، وبرودة جـدران المطبخ الخـضـراء والمتـعـرِّقـة. لماذا يعـيش الناس في منـاخات أجنبـيـة في المناطق المعـتدلة، كـمـا تُـسمّى خطأً؟ لأنَّ الناس حـمقى بالفطرة، كـسـالى بالـفطرة. ولـم أعـرف إلا بعـد أنْ تجـاوزتُ سن العـاشـرة أنَّ هناكَ بلداناً "دافئـة"، أمـاكنَ لا تضـطر فـيـهـا إلى التـصـبُّب عَـرَقـاً لـكي تكسب لقـمـة عيشـك، أو أنْ ترتجف من شدة البرد وتتظاهر بأنّه مُغذٍ ومُنشِّط. فحيـثما وُجِدَ البرد هـناك أناسٌ يهلكون أنفسهم في الكدّ وعندمـا ينجبـون أطفـالاً يتلون على مسامعهم مزمور العمل - الذي، في جوهره، لا يعبِّر إلا على مبدأ الجمود. كان أهلي من العِرق الشمالي الصِرف، أي أنهم حمقى. كل فكرة خاطئة مُبسّطة كانت تصدر عنهم. وقد ساد بينهم مبدأ النظافـة، ناهيك عن الاسـتـقامـة. كانوا نظيـفين إلى درجة مؤلمة. لـكنهم من الداخل كانـوا ينتنون. لم يحـدث مرةً واحـدة أنْ فـتـحـوا باباً يؤدي إلى الروح؛ لم يحـدث أبداً أنْ حلمـوا بأنْ يقـفزوا نحـو المجهـول. بعـد العـشـاء يغـسلون الأطبـاق على عَـجَل وتوضع في الخزانة؛ وبعـد قـراءة الصـحـيـفـة تُطوى بعناية وتوضع على الرف؛ وبعد غـسل الملابس تُكوى وتطوى وتُدَسّ في الأدراج. كل شيء كان يُدّخر من أجل الغد، لكنَّ هذا الغد لا يأتي أبداً. أمـا الحـاضـر فليس إلا جسـراً وعلى هذا الجسـر لا يكفّون عن الأنين، كما يئن العالم، ولا يفكر أبله واحد منهم في نسف ذلك الجسر.

كثيراً ما أفتش في غمرة إحساسي بالمرارة عن أسباب لإدانتهم، وهذه أفضل طريقة لإدانة نفسي. فأنا أشبههم تماماً، من أوجه كثيرة. وقد حسبت لفترةٍ طويلة أني أفلتُّ من ذلك، ولكن مع مرور الوقت أُدرِكُ أني لستُ أفضل منهم، بل أسوأ قليلاً، لأنني أرى بوضوح أكثر مما فعلوا ومع ذلك بقيتُ عاجزاً عن تغيير حياتي. وأعود بذاكرتي إلى حياتي الماضية فيبدو لي أني لم أفعل أي شيء بملء إرادتي بل دائماً تحت ضغط الآخرين. وكان الناس غالباً ما ينظرون إليّ كمُغامر؛ وليس ما هو أبعد عن الحقيقة من ذلك. مغامراتي كانت دائماً عَرَضيّة، ودائماً مفروضة عليّ، ودائماً عانيتها ولم أتنكّبها. إنني من صُلب ذلك الشعب الشمالي المتكبر، المغرور الذي لم يكن يتحلّى بأدنى قدْرٍ من حسّ المغامرة لكنهم مع ذلك جابوا الأرض، وقلبوها رأساً على عقب، ونشروا الآثار والأطلال في كل مكان. إنهم أرواح قلقة، لكنها ليست مُغامرة. أرواح معذَّبة، عاجزة عن العيش في الحاضر. وجبناء شائنون، كلهم، وأنا معهم. إذ هناك فقط مغامرة كبرى واحدة وهي المتجهة إلى أعماق النفس، ولهذا السبب، لا الزمن ولا الفراغ ولا حتى المنجزات تهمّ.

كان يحدث مرةً كل بضع سنوات أنْ أصل إلى حافة اكتشاف ذلك، لكنني كنتُ دائماً أنجح بطريقةٍ مميَّزة في تفادي الأمر. وإذا حاولت أنْ أفكِّر في عُذرٍ وجيه لا أجد إلا البيئة، الشوارع التي عرفتُها والناس الذين سكنوها. إنني لا أتذكَّر أي شارع في أميركا، أو الناس الذين سكنوا ذلك الشارع، قادرٍ على إيصال المرء إلى اكتشاف ذاته. لقد جبت شوارع الكثير من بلدان العالم لكنني لم أشعر في أيٍ منها بأني مُنحطّ ومُذلّ كما أشعر وأنا في أميركا. أتذكّر شوارع أميركا وهي تتجمّع

لتشكّل بالوعة ضخمة، بالوعة الروح التي تبتلع كل شيء وتجرّه إلى الخراء الأبدي. وفوق تلك البالوعة تتمايل روح العمل كعصا سحرية؛ وتتجاور القصور والمصانع جنباً إلى جنب، ومصانع الذخيرة ومعامل المواد الكيميائية ومصانع الفولاذ والمصحات والسجون ومصحات المجانين. إنَّ القارة برمّتها كابوس ينتج البؤس الأعظم للغالبية العظمى. لقد كنتُ واحداً، كياناً مفرداً وسط أكبر مهرجانٍ صاخب من الثراء والسعادة (الثراء الإحصائي، السعادة الإحصائية) لكنني لم أقابل رجلاً واحداً ثرياً حقاً أو سعيداً حقاً. على الأقلّ عرفتُ أني لستُ سعيداً ولستُ ثرياً، ومُشوَّشاً ومتخلفاً عن الركب. كان ذلك هو عزائي الوحيد، متعتي الوحيدة. لكنه لم يكن كافياً. كان من الأفضل لراحة بالي، لروحي لو أني عبَّرتُ عن تمرُّدي بصراحة، لو أني ذهبتُ إلى السجن من أجل ذلك، لو أنني تعفَّنتُ هناك ومُتُّ. كان حالي أفضل لو أنني، مثل المجنون تشولغوز، أطلقتُ الرصاص على شخص يُعادلُ الرئيس ماكنلي الطيب، أو شخصاً تافهاً، لطيفاً، لم يؤذِ أحداً في حياته كلها. لأنَّ في أعماقي كان هناك قاتل كامن : لقد أردتُ أنْ أشهدَ دمار أميركا، أراها تسقطُ من عليائها إلى الحضيض. أردتُ أن أشهدَ حدوث ذلك لمجرَّد الانتقام، تكفيراً عن الجرائم التي ارتُكِبَتْ في حقي وفي حق أمثالي ممَّن لم يستطيعوا أبداً أنْ يرفعوا أصواتهم ويعبّروا عن كراهيتهم، وتمرّدهم، وتعطّشهم الشرعي إلى سفك الدماء.

كنتُ نتاجاً شيطانياً لتربة شريرة. ولو أنَّ النفس لم تكن خالدة لبادت الـ " أنا " التي أكتبُ عنها منذ زمن بعيد. قد يبدو للبعض أنَّ هذا تلفيق، ولكن كل ما تخيَّلتُ أنه حدث حدثَ فعلاً، ***لي على الأقلّ***.

قد ينكره التاريخ، بما أنني لم ألعب دوراً في تاريخ قومي، ولكن حتى إذا كان كل ما أقول خطأ، ومتحامُلاً، وحاقداً، وينطوي على غلّ، حتى إذا كنتُ كاذباً ومُفسِداً، فهو مع ذلك الحقيقة العارية وينبغي تقبُّلها.

أما بالنسبة لما حدث...

*

إنَّ كل ما يحدث، حين تكون له أهمية، هو ذو طبيعة متناقضة. وقبل أنْ تظهر المرأة التي أكتبُ هذا لأجلها، كنتُ أتخيَّل أنَّ حلول المشاكل كلها موجودة هناك، في الحياة، كما يقولون. ظننتُ، حيث قابلتُها مُصادفةً، أنني أمتلك الحياة، أمتلكُ شيئاً أستطيع أنْ أغرز أسناني فيه. وبدل ذلك ضيَّعتُ الحياةَ بأكملها. مددتُ يدي لأنالَ شيئاً أرتبطُ به - فلم أجد شيئاً. ولكن حين مددتُ يدي، وأثناء محاولتي القبض عليه، والارتباط به، وجدتني خالي الوفاض كما كنتُ، لكنني مع ذلك عثرتُ على شيء لم أفتش عنه - نفسي. وجدتُ أنَّ ما رغبتُ فيه طوال حياتي ليس العيش - إذا افترضنا أنَّ ما يفعله الآخرون يُسمّى عيشاً - بل أنْ أعبِّر عن نفسي. أدركتُ أنه ليس لديّ أدنى اهتمام بالعيش، بل فقط بما أقومُ به الآن، بشيءٍ يعادلُ الحياة، ومنها في آنٍ واحد، ويتجاوزها. إنَّ الحقيقة نادراً ما تُثير اهتمامي، ولا حتى الواقعي؛ فقط ما أتخيَّل وجوده يهمّني، ذاك الذي أكتبه لكي أستمر في الحياة. ولا يهمني سواء أمتُّ اليوم أم غداً، ولم يهمني ذلك أبداً، ولكن ما يزعجني، ما يعتمل في صدري، هو أنني حتى هذا اليوم، وبعد سنين من الجهد المبذول، أعجز عن التعبير عما أفكِّرُ فيه وما أشعر به. ومنذ عهد الطفولة وأنا أسير على خُطى ذلك الشبح، لا أستمتعُ بأي شيء،

ولا أرغب في أي شيء غير نيل تلك القوة، تلك المقدرة. وكل ما عداها كذب - كل ما فعلته وقلته ولا يذهب في ذلك الاتجاه. وهذا يشكِّلُ الجزء الأكبر من حياتي.

*

كنت في جوهري أمثِّلُ تناقضاً، كما يقولون. كان الناس يعتبرونني جاداً راقي الفكر، أو مرحاً ومتهوِّراً، أو صادقاً ورصيناً، أو جاهلاً وخالي البال. لقد كنتُ هذه الأشياء كلها دفعةً واحدة - وبعيداً عن ذلك كنتُ شيئاً آخر، شيئاً لا يُخمّنه أحد، خاصة أنا. فحين كنتُ في السادسة أو السابعة كنتُ أجلسُ على طاولة عمل جدي وأقرأ له بينما هو يخيط. أتذكّره بوضوح في تلك اللحظات حين يقفُ، عندما يضغط المكواة الحامية على درزة معطف، وهو يضع يداً فوق أخرى ويُرسل بصره خارج النافذة بنظرةٍ حالمة، أتذكَّر التعبير المرتسم على وجهه، وهو واقف هناك يحلم، كان ذلك أفضل مما تحتويه الكتب التي أقرأها، وأفضل من الأحاديث التي كنا نتبادلها أو الألعاب التي لعبتها في الشارع. كنتُ أتساءل بماذا يحلم، ما الذي يجرفه بعيداً عن نفسه. لم أكن قد تعلّمتُ بعد كيف أحلم وأنا في كامل يقظتي. لطالما كنتُ صافي الفِكر، حينئذٍ، ومتماسكاً. كانت أحلام يقظته تفتنني. كنتُ أعلم أنه منفصل عمّا يفعل، وغير واعٍ لوجود أي منا، وأنه وحده وكون المرء وحده يعني أنه حرّ. أنا لم أكنْ أبداً وحدي، خاصة وأنا مع نفسي. ويبدو لي أنني كنتُ دائماً بصُحبة أحد : كنتُ أشبه بقطعة صغيرة من قرص كبير من الجبن، أعتقد أنه العالم، على الرغم من أني لم أتوقَّف لأفكِّر في الأمر. لكنني أعلم أني لست موجوداً مُنفصلاً، ولم أفكر أبداً في نفسي بوصفي قطعة

الجبن الكبيرة، إذا جاز التعبير. بحيث حتى عندما كان يتوفّر لدي سبب وجيه لأبتئس، لأتذمَّر، لأبكي، يخطر لي وهم المشاركة في بؤسٍ عالميّ، عام. حين كنتُ أبكي أتخيَّل العالم برمّته يبكي معي. ونادراً ما بكيت. في أغلب الأحيان كنت سعيداً؛ أضحك، وأقضي وقتاً. كنتُ أقضي وقتاً ممتعاً لأنني، كما قلتُ من قبل، لم أهتمّ بأي شيء مهما كان. كنتُ مُقتنعاً بأنه إذا ساءت الأمور معي فهي تسوء في كل مكان آخر. وعادةً لا تسوء الأمور إلا إذا أفرط المرء في الاهتمام. فرضَ هذا المفهوم نفسه عليَّ في مرحلة مُبكِّرة جداً من حياتي. فمثلاً، أذكُر قضية صديقي الصغير جاك لوسن. فقد أمضى عاماً كاملاً مُلازماً السرير، وهو يُعاني أسوأ الآلام. كان أفضل أصدقائي، هذا ما قاله الناس على أي حال. حسن، في أول الأمر لعلي شعرت بالأسى عليه وربما بين حينٍ وآخر كنتُ أقوم بزيارته لأسأل عن صحته؛ ولكن بعد مضيّ شهر أو اثنين أصبحتُ مُتبلِّد الإحساس أمام آلامه. قلتُ لنفسي يجب أنْ يموت وكلما أسرع في ذلك كان أفضل، وبعد أنْ فكَّرتُ في هذا تصرّفتُ على أساسه، أي، نسيتُ أمره في أسرع وقت، وتركته لمصيره. في ذلك الوقت كنتُ في الثانية عشرة من العمر وأذكُرُ أني شعرت بالفخر بقراري ذاك. وأذكر الجنازة أيضاً - كم كانت مُشينة. اجتمعَ فيها الأصدقاء والأقارب كلهم حول التابوت وهم يولولون كقِرَدة مريضة. والأم بصورة خاصة كانت مزعجة جداً. فقد كانت مخلوقة روحانية، نادرة، كانت علمانية مسيحية، كما أعتقد، وعلى الرغم من أنها لم تكن تؤمن بالمَرض ولا بالموت، نشرت حولها رائحة كريهة كفيلة بإنهاض المسيح نفسه من القبر. ولكن ليس محبوبها جاك ! كلا، كان جاك مُمدّداً هناك بارداً

كالثلج ومتصلّباً ولا يتحرَّكُ فيه ساكن. لقد كان ميتاً ولم تكن هناك طريقتان للتعبير عن وضعه. كنتُ متأكداً من ذلك وكنتُ سعيداً به. لم أهدر أي دموع عليه. لم أستطع أنْ أقول إنَّ ذلك أفضل له لأنَّ "هو" قد اختفى. إنَّ **هو** قد رحل ومعه رحلت الآلام التي عاناها والمعاناة التي سبَّبها دون قصدٍ للآخرين. قلتُ لنفسي، آمين !، ومعها أطلقتُ، بسبب الهستريا القليلة التي انتابتني، ضرطةً قوية - بجانب التابوت مباشرةً.

أذكُر أنَّ ذلك الاهتمام المفرط لم يتكوَّن لديّ إلا في الوقت الذي وقعتُ في الحب للمرة الأولى. وحتى حينئذٍ لم أبدِ الكثير من الاهتمام. ولو أني أبديتُ اهتماماً كافياً لما كنتُ هنا الآن أكتب عن ذلك : كنتُ مُتُّ كسير القلب، أو كنتُ أتمايل طَرَباً. لقد كانت تجربة سيئة لأنها علّمتني كيف أعيشُ كذبة. وعلّمتني أنْ أبتسم حين لم أرِدْ أنْ أبتسم، وأعمل في حين لم أؤمن بالعمل، وأنْ أعيش في حين لم يكن لدي سبب وجيه للاستمرار في العيش. وحتى بعد أنْ نسيتُها بقيتُ مُحتفظاً بممارسة خدعة القيام بما لا أؤمنُ به.

لقد كنتُ أتخبَّطُ في العَمَاء منذ البداية، كما قلت. لكنني أحياناً كنتُ أقترب كثيراً من المركز، من قلب الفوضى، إلى درجة أنَّه من العجيب أنَّ الأشياء لم تنفجر من حولي.

في المعتاد تُلام الحرب على كل شيء. وأنا أقول إنَّ الحرب لم يكن لها أي صلة بي، وبحياتي. في وقتٍ ما حين كان الآخرون يحصلون على وظائف مُريحة كنتُ أنا أتنقّل من وظيفة بائسة إلى أخرى، ولا أبقى في إحداها مدة كافية تُبقي على جسدي وروحي معاً. وبالسرعة التي كنتُ أتعيَّن فيها كنتُ أُطرَد منها. كنتُ أتمتع بالكثير من الذكاء لكنني كنتُ

أوحي بعدم الثقة. وحيثما ذهبت كنتُ أُثيرُ التنازُع - ليس لأنني مِثاليّ ولكن لأنني كنتُ أشبه بضوءٍ كاشفٍ يفضح غباء وعقم كل شيء. ثم إنني لم أكن مُنافقاً جيداً. وهذا ميَّزني، دون أدنى شك. كان الناس يعرفون على الفور وحالما أسأل عن وظيفة أنني لا آبه على الإطلاق سواء حصلتُ عليها أم لا. وطبعاً لم أكنْ أحصل عليها في العموم. ولكن بعد فترة من الزمن أصبحَ مجرَّد البحث عن عمل بمثابة نشاط قائم بذاته، تزجيةً للوقت، إنْ صح التعبير. فأدخل وأسأل عن كل شيء تقريباً. كان ذلك أسلوباً لقتل الوقت - وكان ذلك، في اعتقادي، أسوأ من الوظيفة نفسها. لقد كنتُ رئيس نفسي ولديَّ ساعات عملي الخاصة، ولكن خلافاً لباقي الرؤساء لم أجلبْ إلا دماري الخاص، إفلاسي الخاص. لم أكن أَمثّلُ شركة أو اتحاداً احتكارياً أو ولاية أو فدراليّة أو أنظمة حُكم - كنتُ أقرب شَبَهاً بالله، إنْ كان لابد أنْ أشبه أحداً.

استمرَّ هذا الوضع من حوالي منتصف سنوات الحرب وحتى... حسن، إلى أنْ وقعتُ في الفخ ذات يوم. وأخيراً جاء اليوم الذي رغبتُ فيه في العمل رغبة ماسّة. لقد احتجتُ إليه. ولم يكن لدي أي دقيقة أضيّعها، فقرَّرتُ أنْ أقبل آخر عمل يمكن أنْ يُعرَض عليّ، وظيفة ساع. ولجتُ مكتب الاستخدام لشركة البرق - شركة البرق الشيطانية الكونية لشمال أميركا - في آخر النهار، واستعددتُ لإتمام المهمة. كنتُ قد خرجت من المكتبة العامة للتو وأتأبَّط بعض الكتب الضخمة في الاقتصاد والماورائيات. وكم كان ذهولي عظيماً حين رفضوا قبولي للوظيفة.

الرجل الذي رفضَ قبولي كان قَزماً يعمل على لوحة المفاتيح. بدا أنه اعتبرني طالب مدرسة، على الرغم من أنه كان جلياً من استمارتي

أنني تركت المدرسة منذ زمنٍ بعيد. بل لقد شرَّفتُ نفسي على ورقة الاستمارة بلقب حائز على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا. ومن الواضح أنَّ تلك الإضافة مرَّتْ دون أنْ تُلاحَظ، أو أنَّ ذلك القَزَم ارتاب فيها فرفض طلبي. وتولاني الغضب، والسبب الرئيسي لذلك أنني للمرة الأولى في حياتي أكون جاداً. وليس فقط هذا، بل لقد ابتلعتُ كبريائي، الضخمة من نواحٍ معيَّنة. ورمتني زوجتي طبعاً بتلك النظرة الخبيثة والساخرة. قالت، إنني فعلتُ ذلك عن قصد. وأويتُ إلى السرير وأنا أفكِّر في الأمر، ولا أزال أتألَّم بشدّة، ويستفحلُ غضبي حتى آخر الليل. لم أكن منزعجاً كثيراً لأنَّ لدي زوجة وطفلة وعليَّ أنْ أعيلهما؛ فالناس لا يقدمون لكَ وظيفة لأنَّ لديكَ عائلة تعيلها، كنتُ أفهمُ هذا فهماً جيداً. كلا، ما كان يفور في صدري هو أنني قد رُفِضتُ ***أنا***، هنري ف. ميللر، الكفء، المتفوّق، الذي طلبَ أحقر عمل في العالم. هذا ما ألهبَ غضبي. ولم أتمكن من تجاوزه. واستيقظت باكراً، وحلقتُ ذقني، وارتديت أفضل ملابسي وهرعتُ مُسرعاً إلى القطار النفقي. وتوجهت على الفور إلى المكاتب الرئيسية لشركة البرق... وصعدتُ إلى الطابق الخامس والعشرين أو كائناً ما كان رقم الطابق الذي تقع فيه مهاجع الرئيس ونائبه. وطلبتُ مقابلة الرئيس. وطبعاً الرئيس كان إما خارج المدينة أو من فرط الانشغال بحيث لا يمكن أنْ يقابلني، ولكن هل يهمني أنْ أقابل نائب الرئيس، أو بالأحرى سكرتيره. فقابلت سكرتير نائب الرئيس، وكان شاباً ذكياً، متفهّماً، وأصغيت إليه. فعلتُ ذلك ببراعة، دون حماسٍ شديد، ولكن جعلتُه يفهم طوال الوقت أنه ليس من السهل إزاحتي من الطريق.

حين رفعَ سماعة الهاتف وطلب المدير العام حسبتُ أنها مجرَّد خدعة، وأنهم ينوون ينقّلونني فيما بينهم واحداً بعد آخر إلى أنْ أستسلم. ولكن حين سمعته يتكلَّم غيَّرتُ رأيي. وعندما وصلتُ إلى مكتب المدير العام، الذي كان يقع في مبنى آخر في المدينة، كانوا في انتظاري. جلستُ على أريكة مريحة من الجلد وقبلتُ سيجاراً كبيراً قُدِّمَ لي. هذا الرجل بدا على الفور مُهتماً بشكل حيويّ بالأمر. أرادني أنْ أخبره كل شيء، وبالتفصيل المملّ، وأصاخَ أذنيه الكبيرتين المُشعرتين ليلتقط أصغر معلومة جديرة بتبرير شيءٍ ما يتشكّل في رأسه. وأدركتُ أني بفعل مُصادفةٍ ما قدّمتُ له خدمة. وتركته يستخلص المعلومات مني لأنال إعجابه، مُنتبهاً طوال الوقت إلى اتجاه هبوب الريح. ومع تطوُّر الحديث لاحظتُ أنه يزداد وداً معي باطراد. وأخيراً وجدتً شخصاً يُظهِرُ بعض الثقة فيَّ ! وكان ذلك كل ما يلزمني لأباشر أحد أفضل المسارات. فبعد مرور سنين من تصيُّد الوظائف أصبحت متكيّفاً تماماً؛ كنتُ أعلم ليس فقط ***ما لا*** ينبغي أنْ أقوله، بل عرفتُ أيضاً ماذا أضمِّن كلامي وإلى ماذا ألِّمح. وفي الحال تمَّ استدعاء مساعد المدير العام وطُلِبَ منه الإصغاء إلى قصتي. وفي ذلك الوقت كنتُ قد أدركت ما هي القصة. لقد فهمتُ أنَّ هايمي - " ذلك اليهودي الضئيل "، كما كان المدير العام يُطلِق عليه - لا يحقّ له أنْ يدَّعي أنه مدير الاستخدام. كان هايمي قد اغتصب امتيازه، كان ذلك جلياً. وكان واضحاً أيضاً أنَّ هايمي يهودي وأنَّه لم تكن سمعة اليهود جيدة عند المدير العام، ولا عند السيد تويليغر، نائب الرئيس، الذي كان كالشوكة المغروزة في جنب المدير العام.

لعلَّ هايمي، " اليهودي الضئيل "، كان المسؤول عن ارتفاع نسبة اليهود بين كتائب السُعاة. لعلَّ هايمي كان حقاً الشخص الذي يتولّى التعيين في مكتب الاستخدام - أو صنستْ بليس، كما يسمّونه. وقد فهمت أنَّه قد سنحت فرصة ممتازة للسيد كلانسي، المدير العام، للإطاحة بالسيد برنز الذي كان، كما أبلغني، المدير العام على مدى ثلاثين عاماً وكان جلياً أنه قد أصبح كسولاً في عمله.

استمرَّ الاجتماع ساعات عدّة. وقبل أنْ يُختَتَم تنحّى السيد كلانسي بي جانباً وأبلغني إنه ينوي أنْ يُعيّنني ***أنا*** رئيساً على الشركة. ولكن قبل أنْ احتل منصبي سوف يطلب مني معروفاً خاصاً، وأيضاً كنوع من فترة تدريب لكي أصبح عضواً مفيداً، بالعمل كساعٍ خاص. وسوف أتلقّى راتب مدير استخدام، ولكن سوف يُدفَع لي من حسابٍ منفصل. باختصار سوف أتنقّل من مكتب إلى مكتب وأراقب مجرى أسلوب عمل كل فرد في المؤسسة. وسوف يتوجب عليَّ أنْ أقدِّم تقريراً صغيراً بين حينٍ وآخر عن سير الأمور. واقترحَ أنْ أقوم بزيارته مرةً كلَّ حين في منزله سراً لكي نتبادل بعض الحديث عن الأحوال في الفروع المائة والواحد للشركة الشيطانية الكونية للبرق في مدينة نيويورك. بعبارة أخرى سأعمل جاسوساً مدة بضعة أشهر وبعد ذلك سوف أدير المكان كله. وقد يجعلونني المدير العام أيضاً ذات يوم، أو نائب الرئيس. كان عَرضاً مُغرياً، وإنْ كان مُغلّفاً بكثير من روث الخيل. وقبلت.

في غضون بضعة أشهر كنتُ أتبوّأ صنسيت بليس أعيِّن وأطرد كالشيطان. كان المكان أشبه بالمسلخ، فليساعدني الرب. كان الأمر عبثياً من أوله وإلى آخره؛ هدر في الرجال والمواد والجهد؛ مهزلة شنيعة

معروضة على ستارة من العَرَق والبؤس. ولكن كما أنني قبلتُ عمل التجسُّس قبلتُ معه عمليةِ التعيين والطرد وكل ما يُرافقها. قلتُ نعم لكل شيء. فإذا ما قضى نائب الرئيس بمنع تشغيل المُعاقين امتنعتُ عن تشغيلهم. وإذا قال نائب الرئيس بوجوب طرد السُعاة ممّن تجاوزت أعمارهم سن الخامسة والأربعين دون سابق إنذار أطردهم دون إنذار. فعلتُ كل ما طلبوا مني أنْ أفعله، ولكن بطريقة تجعلهم يدفعون الثمن. وحين يكون هناك إضراب أعقدُ ساعديَّ وأنتظر ريثما يخمد. ولكن قبل ذلك كنتُ أحرص أولاً على أنْ يدفعوا الثمن باهظاً. لقد كان النظام كله عفناً، ولا إنسانيّاً، وقذراً، وفاسداً فساداً لا رجاء فيه ومُعقّداً، بحيث إنَّ الأمر كان يتطلّب عبقريّاً ليُضفي أي حسّ أو نظام عليه، ناهيك عن الرقة والتعاطف الإنسانيين. كنتُ ضد نظام العمل الأميركي العفن بصورةٍ كاملة، من أوله إلى آخره. كنتُ الدولاب الخامس في العربة ولم يكن لأي جانب أي فائدة لي، غير استغلالي. في الحقيقة، الكل كانوا يتعرّضون للاستغلال - الرئيس وعصابته على أيدي قوى خفيّة، المُستخدمون من قِبَل الموظفين الرسميين، وهكذا دواليك، قياماً وقعوداً وفي كل أرجاء المؤسسة. ومن مجثمي الصغير في " صنستْ بليس " كنتُ أراقب بعينٍ حادة كامل المجتمع الأميركي. كان الأمر أشبه بصفحة مأخوذة من دليل الهاتف. من ناحية الترتيب الأبجدي، والرقمي، والإحصائي، لها معنى. ولكن حين تُلقي عليها نظرة مُقرّبة، حين تتفحّص الصفحات كلٍ على حدة، أو الأجزاء منفصلة، حين تتفحَّص فرداً واحداً وترى ممّا يتألّف، وتتفحَّص الهواء الذي يتنفّسه، والحياة التي يعيشها، والفُرص التي جازف بها، ترى شيئاً شديد القذارة والانحطاط،

والحقارة، والبؤس، ومُجرَّداً من الأمل والمعنى، بحيث إنَّ الأمر أسوأ من النظر داخل فوهة بركان. كان في الإمكان رؤية جوانب الحياة الأميركية برمّتها - الاقتصادية، والسياسية، والأخلاقية، والروحية، والفنية، والإحصائيّة والمَرَضيّة. بدا أشبه بقرحة تناسلية ضخمة على أير مُتهرّئ. في الحقيقة لقد بدا أسوأ من ذلك، لأنه لم يعد هناك شي يشبه الأير. ربما في الماضي كان في ذلك الشيء حياة، وأنتج شيئاً، أو على الأقلّ منحَ لحظة متعة، لحظة إثارة. ولكن إذا نظرتَ إليه من موقعي سيبدو أشد عفونة من أسوأ جبن. والغريب أنَّ الرائحة الكريهة لم تُبعدهم... إنني أستخدم صيغة الماضي طوال الوقت، ولكن الآن الوضع هو نفسه، وربما أسوأ قليلاً. على الأقلّ الآن نجعله عفناً بصورة كاملة.

في وقت ظهور فاليسكا على مسرح الأحداث كنتُ قد عيَّنتُ عدّة كتائب من السُعاة. كان مكتبي في صنسيت بليس أشبه بمجرور مفتوح، وكانت النتانة تفوح منه. كنتُ قد غصتُ في الخندق الأمامي وكانت النتانة تأتيني من كل حدبٍ وصوب. فأولاً، الرجل الذي كنتُ قد طردته مات كسير القلب بعد وصولي ببضعة أسابيع. لقد صمد فترة كافية ليدخل عليّ عنوة ثم يموت. وقد وقع الأمر بسرعةٍ كبيرة بحيث لم تُتح ليَ الفرصة لأشعر بالذنب. ومنذ لحظة وصولي إلى المكتب كان الوضع أشبه بجحيمٍ لا ينقطع. وقبل وصولي بساعة - كنت دائماً أتأخَّر - يزدحم المكان عن آخره بطالبي العمل. واضطرّ إلى شقّ طريقي بصعوبة أثناء ارتقاء الدرَج وأقتحمُ دون مبالغة طريقي لأدخل المكان. كان هايمي أسوأ مني لأنه كان مُقيَّداً إلى المتراس إلى الحاجز. وقبل أنْ أتمكَّن من خلع قبعتي يكون عليَّ أنْ أُجيب على حفنة من المكالمات الهاتفية. كانت

تعوي حتى تستنزف قِواي قبل حتى أنْ أجلس لأباشر العمل. لم يكن هناك وقت حتى لكي أتبرَّز - حتى حلول الساعة الخامسة أو السادسة من بعد الظهر. وكان هايمي أسوأ حالاً مني لأنه مُقيَّد إلى لوحة المفاتيح. كان يجلس هناك من الساعة الثامنة صباحاً، وحتى السادسة، وهو يوزِّع صِبية البيانات. وصبي البيانات هو ساعٍ يُستعار من أحد المكاتب إلى آخر مدة يوم أو جزء من يوم. فلم يكن أي من المكاتب المائة والواحد كان لديه هيئة كاملة من الموظفين؛ وكان على هايمي أنْ يلعب الشطرنج مع صِبية البيانات بينما أنا أعمل كالمجنون لأضع القابس في الثقوب. فإذا نجحتُ بفضل معجزةٍ ما في أحد الأيام في ملء الثقوب كلها، فسوف أجد الحال في صباح اليوم التالي هو نفسه - أو أسوأ. ربما كانت عشرون في المائة من قوة العمل ثابتة؛ أما الباقي فخشبٌ طافٍ. الثابتون منهم كانوا يطردون الجُدُد. والثابتون كانوا يكسبون أربعين إلى خمسين دولاراً في الأسبوع، وأحياناً ستين أو خمسةً وسبعين، وأحياناً يصل المبلغ إلى مائة دولار في الأسبوع، بمعنى أنهم يكسبون أكثر بكثير من الكَتَبة وغالباً أكثر من مديريهم. أما الجُدُد، فكان من الصعب عليهم أنْ يكسبوا عشرة دولارات في الأسبوع. وبعضهم كان يعمل مدة ساعة واحدة ومن ثم يستقيل، وغالباً بعد أنْ يرموا بكمية من البرقيات إلى حاوية القمامة أو إلى المجرور. وحالما يتركون العمل يُطالبون بقبض مستحقاتهم فوراً، وهذا مستحيل، لأنه حسب نظام مسك الدفاتر المُعقَّد السائد لا أحد يعلم ماذا كسب أحد السُعاة إلا بعد مرور على الأقلّ عشرة أيام. في البداية كنتُ أدعو أحد طالبي العمل ليجلس إلى جواري وأشرحُ له كل شيء بالتفصيل. بقيتُ أفعل ذلك إلى أنْ فقدتُ صوتي.

وسرعات ما تعلّمتُ أنْ أوفِّر قواي للاستجوابات القاسية الضرورية. فأولاً، نصف الفتية كانوا كذابين بالفطرة إذا لم أقُل مُخادعين حتى أخمص أقدامهم. والعديد منهم كانوا قد عُيِّنوا سابقاً وطُرِدوا عدداً من المرات؛ وكان بعضهم يجدها طريقة ممتازة للعثور على عملٍ آخر، لأنَّ أداءهم لواجبهم يوصلهم إلى مئات المكاتب التي في الحالات العادية ما كان يمكن لهم أنْ يطؤوها. ولحسن الحظ كان ماكغفرن، العجوز الموثوق الذي يقوم بحراسة الباب ويُسلِّم الاستمارات الفارغة ,يتمتع بعين ثاقبة كآلة التصوير. وكان هناك الدفاتر الضخمة خلفي، التي تحتوي سجلاً لكل متقدِّم مرَّ على الشركة. وكانت السجلات أشبه بسجل الشرطة؛ مملوءة بعلامات بالحبر الأحمر، تُشير إلى تقصير هذا أو ذاك. وإذا حكمت من الظاهر أقول إنني كنتُ في موقف صعب. نصف الأسماء كانت متورطة بالسرقة، والتزييف، وإثارة الشغب، أو بالعته أو بالانحراف الخلقي أو بالبلاهة. "انتبه - إنَّ فلان الفلاني مُصاب بالصَرَع!"، " لا تستخدم هذا الرجل - إنه زنجي ! "، " حذارِ - فلان كان نزيل دانمورا أو سينغ سينغ "

لو أني كنتُ شديد التمسُّك بالرسميات ما كان عُيِّنَ أحد. كان عليَّ أنْ أتعلَّم بسرعة، وليس من السجلات أو من المحيطين بي، بل من التجربة. كان هناك ألف تفصيلٍ وتفصيل يتمُّ الحكم بواسطتها على المتقدِّم؛ كان عليَّ أنْ أستقبلهم كلهم في الحال، وبسرعة، لأنه خلال يوم واحد قصير، حتى لو كنتَ سريعاً مثل جاك روبنسن، لن تستطيع أنْ تستخدم إلا عدداً كبيراً لا أكثر. ومهما بلغ عدد الذين أعيِّنهم فهو غير كاف. اليوم التالي سوف يبدأ بالطريقة نفسها. بعض ممن أعرفهم لم

يمكثوا أكثر من يوم واحد، ولكن كان لابد لي أنْ أعيّنهم مع ذلك. لقد كان النظام خاطئاً من البداية وحتى النهاية، ولكنَّ موقعي لم يسمح لي بانتقاد النظام. عملي كان أنْ أعيِّن وأطرد. كنتُ في مركز قرص يدور ويُدوِّم بسرعة كبيرة بحيث لا شيء يمكنه أنْ يثبت عليه. كان الوضع يحتاج إلى آليّة، ولكن وِفقاً لمنطق الأعلى والأدنى لم يكن في الآليّة أي خطأ، كل شيء كان على ما يُرام وفي أحسن حال ما عدا أنَّ الأمور كانت تخرج عن السيطرة مؤقتاً. وخروج سير الأمور عن السيطرة جلبَ الصَرَع، والسرقة، والتخريب المُتعمَّد، والانحراف الخلقي، والزنوج، واليهود، والعاهرات وما إلى ذلك - وأحياناً الإضرابات والإقفال العام. وعلى الأثر، ووِفقاً لهذا المنطق، تتناول مكنسة كبيرة وتكنس بها الإسطبل حتى النظافة، أو تتناول هراوات وبنادق وتضرب بها الفقراء البلهاء الذين يُعانون من وهم أنَّ الأمور خاطئة من أساسها، حتى تعيدهم إلى رشدهم. كان من المفيد التحدُّث بين حينٍ وآخر عن الله، أو تشكيل جوقة صغيرة والغناء - وربما تبرير إحداث علاوة بين حينٍ وآخر، أي حين تكون الأمور من السوء بحيث تعجز الكلمات عن التعبير عنه. ولكن في العموم، أهم شيء كان الإبقاء على عملية التعيين والطرد؛ وطالما كان هناك رجال وذخيرة كان علينا أنْ نتقدَّم، أنْ نواظب على تطهير الخنادق. في تلك الأثناء كان هايمي لا يكفّ عن تناول الأقراص المُسببة للإسهال - بمقدار يكفي لنسف مؤخرته إذا كانت له واحدة، ولكن لم يعُد له واحدة، كان فقط يتخيَّل أنه يتبرَّز، كان فقط يتخيَّل أنه يتبرَّز في وعائه. في الحقيقة كان المسكين في حالة غشية. كان هناك مائة مكتب ومكتب يتطلّب المراقبة ولكل واحد منها مجموعته من السُعاة وهذا شيء

أسطوري، إذا لم أقُلْ افتراضيّ، وسواء أكان السُعاة حقيقيين أم وهميين، ملموسين أم غير ملموسين، كان على هايمي أنْ يوزعهم على الأماكن من الصباح وحتى الليل بينما أنا أضع القوابس في محاجرها، والتي بدورها كانت وهمية لأنه مَنْ يعرف عندما يُرسَل مُلتحِق جديد إلى أحد المكاتب إنْ كان سيصلُ إلى هناك اليوم أم غداً أم لن يصل أبداً. كان بعضهم يتوهون في الأنفاق أو في المتاهات تحت ناطحات السحاب؛ والبعض الآخر يتنقّلون على متن الحافلة المرفوعة طوال النهار لأنهم وهم يرتدون اللباس الرسمي يستطيعون أنْ يركبوا مجاناً ولعلهم لم يستمتعوا أبداً بالركوب طوال النهار على متن الخطوط المرفوعة. وبعضهم ينطلقون من جزيرة ستاتن وينتهي بهم الأمر في كارناسي، أو يُعيدهم رجال الشرطة وهم في حالة غيبوبة. والبعض ينسون أماكن سكناهم ويختفون بكل معنى الكلمة. والبعض ممَّن عيّناهم في نيويورك يظهرون في فيلادلفيا بعد ذلك بشهر وكأنه أمر عادي ومُطابق للقانون. والبعض قد ينطلقون إلى أهدافهم وفي الطريق يُقررون أنَّ من الأسهل لهم أنْ يبيعوا الصحف فيقومون ببيعها وهم يرتدون الزي الرسمي الذي أعطيناهم، إلى أنْ يتم القبض عليهم. والبعض الآخر يتوجهون مباشرة إلى قسم المراقبة، تدفعهم إلى ذلك غريزة غريبة لحب البقاء .

حين يصل هيمي في الصباح يقوم أولاً ببري أقلام الرصاص، ويؤدي ذلك باستغراق كامل مهما تراكمَ عدد المكالمات الهاتفية لأنه، كما شرحَ لي لاحقاً، إذا لم يبرِ أقلام الرصاص قبل أنْ يفعل أي شيءٍ آخر ودون تأخير فلن تُبرى أبداً. الشيء التالي هو إلقاء نظرة سريعة من النافذة لمعرفة حالة الطقس. ثم، يرسم بقلم رصاص مبريّ تواً صندوقاً صغيراً في

أعلى اللوح الإردوازي الذي يحتفظ به إلى جانبه ويُدوِّن عليه حالة الطقس. وقد أبلغني أيضاً بأنَّ هذا غالباً ما يتضح أنه حجّة غياب مفيدة. فإذا كان سُمك الثلج قدماً أو كانت الأرض مُغطّاة بالمطر المتجمِّد، حتى الشيطان سوف يُعذَر إذا لم يوزع فتية البيانات بسرعة أكبر، وقد يُعذَر مدير الاستخدام نفسه إذا لم يضع المقابس في الثقوب في مثل تلك الأيام، أليس كذلك؟ ولكن لم أفهم لماذا لم يكن يتبرَّز أولاً بدل أنْ يضع المقابس في الثقوب على لوحة المفاتيح أثناء بريه لأقلام الرصاص. وهذا الأمر شرحه لي لاحقاً. على أي حال، كان النهار دائماً يبدأ بفوضى، وشكاوى، وإمساك ومواقع شاغرة. وكان يبدأ أيضاً بضراط قوي شنيع الرائحة، وأنفاس كريهة، وأعصاب مُرهَقَة، وصَرَع، والتهاب السحايا، وأجور منخفضة، ودين متأخّر، وحذاء متهرّئ، وبأصابع أقدام مُلتهبة ومصابة بمسامير، وبأقدام مسحاء، وأقواس أقدام مكسورة، ودفاتر جيب مفقودة وأقلام حبر ضائعة أو مسروقة؛ ببرقيات طافية في المجرور، وبتهديدات من نائب الرئيس ونصيحة من المدراء، وبمشاحنات ومجادلات، بأمطار غزيرة وبأسلاك برقية مقطوعة، وبوسائل جديدة للفعالية وأخرى قديمة نُبذَتْ، بأمل بحلول أوقات أفضل وصلاة من أجل العلاوة التي لا تأتي أبداً. السُعاة الجُدُد يصلون إلى الذروة وهناك يُصرَعون بمدافع رشّاشة؛ والقُدامى يحفرون أعمق فأعمق، كما يحفر الجُرذان في الجبن. ولا أحد راضٍ، خاصة العامة. الوصول إلى سان فرانسيسكو يستغرق عشر دقائق برقياً، ولكن قد تستغرق رسالة عاماً لتصل إلى الشخص الموجَّهة إليه - أو قد لا تصله أبداً.

كانت جمعية الشبيبة المسيحية، في سعيها لرفع معنويات الفتية

العاملين في أرجاء أميركا كلها، كانت تعقد لقاءات في منتصف النهار ألا أرغب في إرسال بضعة سُعاة أنيقين للاستماع إلى وليم كارنيغي أستربلت الابن وهو يُلقي خطاباً مدته خمس دقائق حول الخدمة. والسيد مالوري من عُصبة الرفاه يودُّ أنْ يعرف إنْ كان في مقدوري أنْ أخصص بضع دقائق في وقتٍ ما لأخبره عن السجناء النموذجيين الذين أخليَ سبيلهم بشروط ويسرّهم أنْ يخدموا في عمل، حتى كسُعاة. والسيدة غوغنهوفر من جمعية الإحسان اليهودية سوف تكون ممتنة جداً إذا ساعدتها في صيانة بعض البيوت المتهدِّمة التي تهدَّمت لأنَّ أفراد العائلة إما واهنون، أو مُعاقون أو عاجزون. والسيد هاغرتي من بيت الصبية الفارّين متأكِّد من أنَّ لديه الفتية المناسبين لي، فليتني أمنحهم فرصة؛ وكلهم أُسيئت معاملتهم على أيدي أزواج أمهاتهم أو زوجات آبائهم. ومُحافظ مدينة نيويورك سوف يُسعده أنْ أولي حامل هذه الرسالة انتباهاً خاصاً وهو يضمنه من النواحي كلها - ولكن لم أفهم لماذا بحق الله لم يُعطِ هو نفسه حاملها عملاً. وهناك رجل يميل عبر كتفي يُناولني قطعة من الورق كتب عليها - "أنا أفهم كل شيء لكنني لا أسمع الأصوات". ولوثر وينيفريد واقف إلى جانبي، معطفه الرثّ مُثبَّت بدبابيس. ٢/٧ من لوثر هندي صِرف و ٥/٧ منه أميركي ألماني، كما شرح لي. ومن طرفه الهندي كان كراو، أحد هنود ولاية مونتانا. آخر عمل تولاه كان تركيب ظلات للنوافذ، ولكن ليس في سرواله مؤخرة وهو يخجل من ارتقاء السلَّم أمام سيدة. وقد خرج من المستشفى مؤخراً لذلك لا يزال يشعر ببعض الوَهَن، ولكن ليس واهناً إلى درجة عجزه عن حمل رسالة، كما يعتقد.

ثم هناك أيضاً فرديناند ميش - وكيف أنساه؟ ظل ينتظر في الطابور طوال فترة الصباح ليقول لي كلمة. ولم أُجِبْ أبداً على الرسائل التي أرسلها إليّ. وسألني برقّة، أهذا عدل؟ طبعاً لا. أذكرُ بغموض آخر رسالة بعثَ بها إليّ من مستشفى القطط والكلاب في غراند كونكورس، حيث كان يعمل مُرافقاً. قال إنه ندم لأنه ترك منصبه " لكنّ صرامة والده الشديدة منعته من التجديد أو من استمداد المتعة الخارجية ". وكتبَ يقول " أنا في الخامسة والعشرين الآن، وأعتقد أنه ينبغي ألاّ أنام بعد الآن مع والدي، ما رأيك؟ أعرف أنه يُقال عنكَ أنكَ رجل رائع جداً وأنا الآن مُستقل ذاتياً، لذا آمل... ". إنَّ ماكغفرن، العجوز الموثوق، واقف إلى جوار فرديناند في انتظار أنْ أعطيه الإشارة؛ يريد أنْ يطرد فرديناند - إنه يتذكّره منذ خمس سنوات حين كان فرديناند ينطرح على الرصيف أمام المكتب الرئيسي وهو في كامل ملابسه الرسمية ويمرُّ بنوبة صرَع. كلا، تباً، لا أستطيع أنْ أطرده ! سوف أمنح ابن الحرام المسكين فرصة. ربما أُرسله إلى تشايناتاون حيث الأوضاع هادئة جداً. في تلك الأثناء، وبينما فرديناند يُبدِّل ملابسه ليرتدي الزي الرسمي في الغرفة الخلفية، هناك فتى يتيم يوليني أذناً صاغية، ويريد أنْ " يجعل الشركة ناجحة ". يقول إذا منحته فرصة فسوف يصلي من أجلي في كل يوم أحد حين يذهب إلى الكنيسة، فيما عدا أيام الآحاد التي يتوجب عليه فيها أنْ يُقدِّم تقريره إلى مكتب التسريح المشروط. يبدو أنه لم يرتكب أي خطأ. إنه فقط دفعَ الرجل فوقعَ على رأسه ومات. اللي بعدو: قنصل سابق من جبل طارق. خطه جميل جداً - بل فائق الجمال. أطلبُ منه أنْ يُقابلني في آخر النهار - فيه شيءٌ مُريب. في تلك الأثناء أصابت فرديناند نوبة

صَرَع في غرفة الملابس. حظ من السماء ! لو أنَّ ذلك حدث في النفق، وهو يحمل رقماً على قبعته وما إلى ذلك، لطُردتُ. اللي بعدو : رجل ذو ذراع واحدة ومجنون جنوناً مُطبقاً لأنَّ ماكغفرن يقوده نحو باب الخروج. ويصرخ " اللعنة ! إنني قويّ وسليم الصحة، ألستُ كذلك؟ "، ولكي يبرهن على ذلك يرفع كرسياً عالياً بيده السليمة ويُحطّمه شذراً. وأعود إلى طاولة المكتب فأجدُ برقية في انتظاري هناك. أفتحها. إنها من جورج بلاسيني، ساعٍ سابق رقم ٢٤٥٩ من المكتب الجنوب الغربي. " أنا آسف لأنني مضطر إلى ترك العمل فوراً، لكنَّ العمل لا يتناسب مع طبعي الكسول وأنا عاشق حقيقي للعمل والاقتصاد في الإنفاق لكننا في كثير من المناسبات لم نتمكن من ضبط أو التخفيف من كبريائنا الشخصية " اللعنة !

في البدء كنتُ متحمّساً، على الرغم من المُثبطات والعوائق. كانت لدي أفكار ونفّذتها، سواء أعجبت نائب الرئيس أم لا. كنتُ كل عشرة أيام أو نحوها أمدُّ السجادة وأحاضِر حول امتلاكي " قلباً كبيراً رؤوفاً ". كنتُ مُفلِساً تماماً لكنني كنتُ أستخدم مال الآخرين بكل حرية. فما دمت الرئيس كنتُ موضع ثقة. كنتُ أوزّع النقود يميناً ويساراً؛ أهِبُ ملابسي الخارجية والداخلية، وكتبي، وكل ما هو غير ضروري. ولو كان في سلطتي لوهبتُ الشركة للبلهاء المساكين الذين يُضايقونني. لو طلبَ أحدهم مني دايماً[1] أعطيه نصفَ دولار، وإذا طلبَ دولاراً أعطيه خمسة. لم أكن آبه لمقدار ما أهِب، لأنه كان من الأسهل عليّ أنْ أقترض وأعطي

---

١ - الدايم : قطعة نقد أميركية صغيرة جداً .

بدل أنْ أخذل أولئك المساكين. لم أشهد في حياتي كل ذلك الكم الهائل من البؤس، وآمل ألاّ أشهده من جديد. إنَّ الناس بؤساء في كل مكان - دائماً كانوا كذلك وسيبقون هكذا دائماً. وتحت الفقر المدقع يكمنُ اللهب، عادة يكون واهناً جداً حتى إنه لا يُلاحَظ. لكنه هناك وإذا ما تحلّى المرء بما يكفي من الشجاعة لتأجيجه سوف يُصبح حريقاً هائلاً. كانوا يحثّونني باستمرار على ألاّ أكون شديد التساهُل، مُفرِطاً في عواطفي، وفي إحساني. ويُحذِّرونني : كُنْ صارماً ! قاسياً ! فقلت لنفسي، اللعنة على هذا ! سأكونُ كريماً، مطواعاً، غفوراً، متسامحاً، رقيقاً. في البداية كنتُ أصغي إلى كل رجل حتى النهاية؛ فإذا لم أستطع أنْ أمنحه عملاً أعطيته نقوداً، وإذا لم يكن بحوزتي نقود أعطيه سجائر أو أزوّده بالشجاعة. لكنني كنتُ أعطي ! وكان التأثير مُذهلاً. لا أحد يستطيع أنْ يُقدِّر نتائج العمل الطيب، أو الكلمة الطيبة. كنتُ مغموراً بالامتنان، بالأماني الطيبة، بالدعوات، بهدايا صغيرة رقيقة ومُثيرة للشجن. لو كنتُ أملك سلطةً حقيقية، بدل أنْ أكون الدولاب الخامس في عربة، يعلم الله ماذا كان في وسعي أنْ أنجِز. كان في إمكاني أنْ أستخدم شركة البرق الشيطانية الكونية لشمال أميركا كقاعدة لإعادة الخليقة كلها إلى كنف الله؛ كان في وسعي أنْ أغيِّر شمال أميركا وجنوبها وأجعلهما على قدم المساواة، وأراضي كندا أيضاً. كنتُ أمسك بمفتاح السرّ في يدي : إنه أنْ يكون المرء كريماً، ولطيفاً، وصبوراً. كنتُ أؤدي عمل خمسة رجال. وطوال ثلاث سنوات كنتُ بالكاد أنال قسطاً من النوم. لم أرتد قط قميصاً كاملاً وغالباً ما كنتُ أخجل من الاستعارة من زوجتي، أو من السطو على حصّالة الطفلة، إلى درجة أنني لكي أجمع أجرة السيارة

لنقلي إلى مقر عملي في الصباح كنتُ أسلب بائع الصُحف الضرير في محطة القطار النفقي. كنتُ أدين بالمال لكل مَنْ هبّ ودبّ بحيث لو أنني أعمل طوال عشرين عاماً لما استطعت أن أفي بدَيني. كنتُ آخذُ ممّن يملكون وأعطي إلى المحتاجين، وكان ذلك هو التصرف الصحيح، وسوف أقوم به من جديد لو أني أقف في الموقف نفسه.

بل لقد أنجزتُ معجزة إيقاف حركة الدولاب المجنونة، شيئاً لم يجرؤ أحدٌ على أنْ يأمل حدوثه. وبدل دعم جهودي المبذولة عملوا على تدميري. وطبقاً لمنطق الأرقى والأدنى توقفت حركة الدولاب لأنَّ الأجور كانت عالية أكثر مما ينبغي. لذا خفّضوا الأجور. كان الأمر أشبه بثقب قاع الدلو. وانهار الصرح برمّته، تقوّضَ بين يديّ. ثم، كأنَّ شيئاً لم يحدث أصرّوا على وجوب وصل المآخذ في الحال. ولكي يُخففوا قليلاً من وطأة الضربة صرّحوا بأنَّ في استطاعتي حتى أنْ أزيد من النسبة المئوية لعدد اليهود، ويمكنني أنْ أقبل بين حين وآخر مُعاقاً، إذا كان قادراً على العمل، ويمكنني أنْ أفعل ذلك الشيء وذاك، وكل ما كانوا قد أبلغوني عنه سابقاً كان ضد الدستور. وتولاني حنقٌ شديد حتى إني صرتُ أقبل أي شيء وكل شخص؛ كنت مستعداً لقبول خيول أميركية قزمة وجامحة وغوريلات لو كان في استطاعتي أنْ أشحنها باليسير من الذكاء اللازم لتسليم البرقيات. وقبل ذلك ببضعة أيام لم يكن هناك غير خمسة أماكن شاغرة أو ستة عند وقت الإغلاق. والآن أصبح هناك ثلاثمائة، وأربعمائة، وخمسمائة - كانوا يتسرّبون كالرمال. كان شيئاً رائعاً. كنتُ أجلسُ ودون أن أطرح أي سؤال أقبلهم حشوداً - زنوجاً، يهوداً، مشلولين، مُعاقين، أصحاب سوابق، عاهرات، مهووسين، منحرفين،

حمقى، وأي ابن حرام لعين يستطيع أنْ يقف على ساقين ويحمل برقية بيده. وأصاب الذعر مدراء المكاتب المائة والواحد حتى الموت. ضحكت. ضحكتُ طوال النهار وأنا أتخيَّل الفوضى الرائعة النتنة التي سبَّبتُها. وراحت الشكاوى تنصبّ من كل أرجاء المدينة. وتعطّلت الخدمة، توقّفت، خُنقَتْ. كان في إمكان بغل أنْ يصل إلى هناك أسرع من بعض البلهاء الذين ربطّتهم إلى النير.

أفضل شيء في النهار الجديد كان إدخال سُعاة من الإناث. لقد غيَّرَ الجو العام للمؤسسة كله. وبالنسبة إلى هايمي بوجه خاص كان هبة من عند الله. وقد أدار لوحة مفاتيحه بحيث يتمكن من مراقبتي أثناء تلاعبه بصبية البيانات جيئة وذهاباً. وعلى الرغم من زيادة كمية العمل كان لديه انتصاب دائم. كان يأتي إلى العمل مع ابتسامة ويظل مُبتسماً طوال النهار. كان في النعيم. وفي نهاية النهار تتكون لديّ لائحة من خمسٍ إلى ستٍ يستحقون الاختبار. وفحوى اللعبة أنْ نبقيهنَّ مُعلّقات، أن نعدهنَّ بوظيفة ولكن ليس قبل أنْ نحصل على نياكة مجانية أولاً. وفي المعتاد كان من الضروري نُطعمهنّ لكي نُعيدهنّ إلى المكتب عند الساعة الثامنة ونضاجعهن على الطاولة المكسوة بالزنك في غرفة تغيير الملابس. وإذا كانت لديهن شقة مُريحة، كما يحدث أحياناً، نوصلهم إلى المنزل وينتهي بنا الأمر في السرير. وإذا أحببنَ أنْ يشربن كان هايمي يأخذ زجاجة من المشروب معه. وإذا كنَّ جيدات وبحاجة ماسّة إلى النقود كان هايمي يُخرج لفافة الأوراق المالية ويأخذ منها ورقة بخمسٍ أو ستٍ حسب الحالة. وحين أتذكّر لفافة الأوراق المالية التي يحملها معه يسيل لعابي. ولم أعرف أبداً من أين كان يحصل عليها، لأنه كان الأقلّ أجراً في

المؤسسة . لكنها كانت دائماً معه، ومهما طلبتُ منه يُعطيني. وذات مرة حدث أنْ حصلنا على علاوة فسدَّدتُ لهايمي ديني له حتى آخر بنس - وبلغَ ذهوله حداً جعله يُرافقني لنقضي سهرة في حانة دلمونيكو وأنفقَ فيها ثروة عليّ. وليس هذا فقط، بل في اليوم التالي أصرَّ على أنْ يشتري لي قبعة وقمصاناً وقفازاً. بل أنه ألمحَ إلى أنه ربما يعود إلى المنزل وينيك زوجته، إذا رغب في ذلك، على الرغم من أنه حذَّرني من أنها تواجه مشكلة صغيرة في الوقت الحاضر مع مبيضها.

بالإضافة إلى هايمي وماكغفرن اتّخذت كمساعدين شقراوتين جميلتين غالباً ما كانتا ترافقاننا لتناول طعام العشاء في المساء. وهناك أومارا، وهو صديق قديم لي كان قد عاد للتو من الفيليبين وجعلته كبير مُساعديَّ. وكان هناك أيضاً ستيف روميرو، المصارع المحترف الذي أبقيته إلى جانبي تحسّباً لوقوع مشاكل. وأورورك، تحرّي الشركة، الذي كان يزوّدني بتقريرٍ في آخر النهار حين يبدأ هو عمله. وأخيراً أضفتُ رجلاً آخر إلى المجموعة - كرونسكي، طالب الطب الشاب، الذي كان يهتمُّ بشكلٍ شيطانيّ بالحالات المَرَضيّة التي كان لدينا منها الكثير. كنا طاقماً مرحاً، مُتّحداً في رغبتنا في نيك الشركة بأي ثمن. وبينما نحن ننيك الشركة نكنا كل ما وقعتْ عليه عيوننا وما وضعنا عليه أيدينا، باستثناء أورورك، لأنه كان عليه أنْ يُحافظ على مكانة خاصة، ثم إنه كان يُعاني من مشكلة في البروستات وفقدَ كل اهتمامٍ بممارسة الجنس. لكنَّ أورورك كان أشبه بأمير، وكريماً بصورة تتجاوز الوصف. وكان أورورك غالباً ما يدعونا إلى العشاء مساءً وكنا نلجأ إليه عندما نقع في ورطة.

*

هكذا كان الوضع في صنستِ بليس بعد مرور عامين. كنتُ مُشبّعاً بالإنسانية، وبتجارب متنوّعة. وفي لحظات صحوتي كنت أدوِّن ملاحظات لكي أستفيد منها لاحقاً إذا ما أُتيحَ لي أنْ أسجِّل تجاربي. كنتُ في انتظار فترة للتنفُّس. وذات يوم شاءت المصادفة، تلقّيت تعنيفاً بسبب عمل خليع يدل على الإهمال، أفلتت من نائب الرئيس عبارة علقَتْ في ذهني. فقد قال إنه يودّ أنْ يرى أحداً يكتب بأسلوب هوريشيو ألغر[1] كتاباً عن السُعاة؛ وألمحَ إلى أنَّني ربما أكون الشخص المناسب لتلك المهمّة. وأصابتني سذاجته بالحنق وابتهجتُ في الوقت نفسه لأنني كنتُ في سرّي أشتاقُ إلى أنْ أزيح ذلك الهم عن صدري. فقلتُ لنفسي - يا لكَ من أبله مسكين؛ انتظر حتى أزيح الهم عن صدري... سوف أعطيك كتاباً مكتوباً بأسلوب هوريشيو ألغر... فقط انتظر ! حين غادرتُ مكتبه كان رأسي يُدوِّم. شاهدت جيش الرجال، والنساء والأطفال الذين مرّوا من تحت يديّ، شاهدتهم يبكون، يستجدون، يتوسلون، يُناشدون، يلعنون، يبصقون، ينفثون غضباً ويُهدّدون. شاهدتُ آثار أقدامهم التي خلّفوها على الطرقات، وقطارات الشحن الملقاة على الأرض، والآباء الرثّي الملابس، وصناديق الفحم الخاوية، والبالوعة الطافية، والجدران المتعرّقة والصراصير التي كانت تجري كالمجنونة بين قَطَرات العَرَق الباردة: شاهدتُهم يمشون بخطوة

---

١ - هوريشيو ألغر (١٨٣٢ - ١٨٩٨) : كاتب أميركي لروايات رومانسية تحكي في مُعظمها عن أناسٍ يبدؤون من الصفر، ثم يرتقون إلى أعلى المراتب، وهو ما يختصر الحلم الأميركي. كان يتوجه أساساً إلى الفتية، وكان واسع الانتشار في زمنه، بقدر ما هو منسيَ الآن. - المترجم

عرجاء كأقزامٍ مشوَّهة أو ينطرحون إلى الخلف في نوبات صَرَع، بأفواهٍ ملتوية، واللعاب يتدفق من بين شفاههم، والأعضاء تلتوي؛ شاهدتُ الجدران تنهار والوباء يتدفقُ كسيلٍ مُجنَّح، والرجال في الأعالي مع منطقهم المُصفَّح بالحديد، ينتظرون الانفجار، ينتظرون للمشاكل كلها أنْ تُحلّ على عجل، ينتظرون، وينتظرون، برضا، باعتداد بالنفس، وسيجار كبير بين شفاههم ويضعون أقدامهم على طاولة المكتب، ويقولون إنَّ الأمور خارجة عن السيطرة مؤقتاً. شاهدتُ بطل هوريشيو ألغر، حلم الأميركي المريض، يرتقي أعلى فأعلى، أولاً يكون ساعياً، ثم عاملاً على لوحة المفاتيح، ثم مديراً، ثم رئيسَ قسم، ثم مُشرفاً، ثم نائباً للرئيس، ثم رئيساً، ثم قطباً لاتحاد احتكاري، ثم قطباً في إنتاج البيرة، ثم سيد الأميركيين كلهم، ثم إلهاً في عالم المال، ثم إله الآلهة، ثم طين الطين، ثم العدم في ذروته، ثم صِفراً مع سبعة وتسعين رقماً عشرياً قبله وبعده. قلتُ في نفسي، أيها الخِروات سوف أعطيكم صورة اثني عشر رجلاً صغيراً، أصفاراً بلا كسور عشرية، أصفاراً، أرقاماً، الديدان الاثنتي عشرة التي لا يمكن سحقها وتحفرُ تجويفاً في قاعدة صرحكم العفن. سأعطيكم هوريشيو ألغر كما يبدو بعد يوم القيامة، حين يُزال العفن كله.

جاؤوا إليّ من كل أرجاء الأرض طالبين العون. وفيما عدا البدائيين كانت السلالات كلها مُمثَّلة في الجيش. وفيما عدا الأينوس، والماوري، والبابوان، والفيداس، واللاب، والزولو، والباتاغونيين، والإيغوروت، والهوتنتوت، والتواريغ، فيما عدا التازمانيين المفقودين، ورجال غريمالدي المفقودين، والأطلنطيين المفقودين، كان لديّ ممثلين عن تقريباً

كل الأجناس تحت الشمس. كان لديّ أخّان لا يزالان يعبدان الشمس، ونسطوريّان من العالم الآشوري القديم؛ كان لديّ توأم من المالطيين من مالطا وأحد سلالة المايا من يوكاتان؛ كان لديّ حفنة من إخوتنا السُمر من الفيليبين وبعض الأثيوبيين من الحبشة؛ كان لديّ رجال من بامبا الأرجنتين ورعاة بقر نموذجيين من مونتانا؛ كان لدي يونانيون، وليتيون، وبولنديون، وكرواتيون، وسلوفاك، وروثينيون، وتشيك، وأسبان، وويلزيون، وفنلنديون، وسويديون، وروس، ودانماركيون، ومكسيكيون، وبورتوريكيون، وريكانيون، وكوبيون، وأورغوائيون، وبرازيليون، وأوستراليون، وفُرس، ويابانيون، وصينيون، وجاوائيون، ومصريون، وأفارقة من ساحل الذهب وساحل العاج، وهندوس وأرمن، وأتراك، وعرب، وألمان، وأيرلنديون، وإنكليز، وكنديون - والعديد من الإيطاليين والعديد من اليهود. كان لدي فرنسي واحد فقط أتذكّره واستمرَّ حوالي ثلاث ساعات. كان لديّ بضع من هنود أميركا، غالبيتهم من الشيروكي، ولكن لا تيبيتيين، ولا إسكيمو: رأيتُ أسماءً ما كان يمكن لي أنْ أتخيّلها وأساليب في الكتابة تتراوح ما بين الخط المسماري والكتابة الصينية المُعقّدة والمذهلة الجمال. سمعتُ رجالاً يتوسلون للحصول على عمل وكانوا من علماء المصريات، وعلماء نبات، وأطباء جراحين، وعمال في مناجم الذهب، وبروفسورات في اللغات الشرقية، وموسيقيين، ومهندسين، وأطباء، وعلماء فلك، وعلماء بعلم الإنسان، وكيميائيين، وعلماء في الرياضيات، ومحافظي مُدُن وحُكّام ولايات، وحرّاس سجون، ورُعاة بقر، وتجّار أخشاب، وبحّارة، وقراصنة محار، ومُحملي سفن، وعمّال برشمة، وأطباء أسنان، وجرّاحين، ورسامين،

ونحّاتين، وسمكريين، ومهندسين معماريين، ومُهربي مخدرات، واختصاصيي إجهاض، وتجار بالرقيق الأبيض، وغوّاصين، ومُصلحي مداخن، ومزارعين، وباعة متجولين للملابس الجاهزة، وناصبي أفخاخ، وحرّاس منارات، وقوّادين، وأعضاء في المجلس التشريعي، وأعضاء في مجلس الشيوخ، وكل شيء لعين تحت الشمس، وكلهم في حالة يُرثى لها من الفقر والبطالة، يستجدون العمل، والسجائر، وأجرة الحافلة، ***وفرصة واحدة، أيها المسيح العليّ القدير، امنحني فرصةً أخرى!*** رأيتُ وكان يجب أنْ أعرف رجالاً كانوا قدّيسين، إنْ كان للقديسين وجود في هذا العالم؛ رأيتُ وتكلّمتُ مع علماء، من نهمين للطعام والشراب وغير نهمين؛ أصغيتُ إلى رجال في أحشائهم نارٌ مقدّسة كان في مقدورهم أنْ يقنعوا الله العليّ القدير بأنهم يستحقون الحصول على فرصة أخرى، ولكن ليس نائب رئيس شركة البرق الكونيّة المتعضّية. كنتُ أجلسُ مُثبّتاً إلى كرسيّ وأسافر حول العالم بسرعة الضوء، وتعلّمتُ أنَّ الوضع نفسه في كل مكان - الجوع، الإذلال، الجهل، الرذيلة، الجشع، الابتزاز، الخداع، التعذيب، الاستبداد، بربرية الإنسان نحو أخيه الإنسان : الأغلال، النير، الرسن، اللجام، السوط، المهماز. وكلما كانت منزلة الشخص أرفع ساء الجانب الإنساني فيه. أناسٌ يجوبون شوارع نيويورك وهم يرتدون تلك الملابس اللعينة، المُهينة، المُحتَقَرون، أسفل السافلين، يتنقّلون كطيور الأوك البحرية، كالبطارق، كالجواميس، كعجول البحر المُدرَّبة، كالقردة الصبورة، كالحمير الضخمة، كالغوريلات المسعورة، كالمهووسين الطيّعين يقضمون برفق من الطعم المُدلّى إليهم، كجرذان راقصة، كخنازير غينيا، كالسناجب، كالأرانب، والكثير كثير منهم كانوا مؤهّلين لحكم العالم،

بتـأليف أعظم كـتـاب عـلى الإطلاق. وحين أفـكِّرُ في بعض الفـارسـيين، والهندوس، والعرب الذين عرفتهم، حين أفكّر في الشخصية الراقيـة التي كشـفـوا عنهـا، بكيـاسـتـهم، برقّـتـهم، بذكـائهم، **بقدسيّتهم**، أبصقُ على فـاتحي العـالم من البـيض، على البـريطانيـين المنحطّين، والألمان برؤوسـهم الخنزيرية، والفـرنسـيـين الواثقين من أنفـسـهم حـتى الغـرور. الأرضُ هي وجودٌ واحد حسّاس وعظيم؛ كـوكبٌ مُشَبَّعٌ قلباً وقـالباً بالإنسـان؛ كـوكبٌ حيٌّ يعبّرُ عن نفسه بتردُّدٍ وتلعثُم؛ إنهـا ليـست مـوطن العِرق الأبيض أو العِـرق الأسود أو العِرق الأصـفـر أو العِرق الأزرق الضـائع؛ إنهـا مـوطن الإنسـان، والناس جـمـيـعـاً مـتـسـاوون أمام الله، وسـوف يـحـصلـون على فُرَصهم، إنْ لم يكن الآن فبعد مليون عام. إنَّ إخواننا الفيليبينيين السُمر قـد يزدهرون من جديد ذات يوم، وهنود أمـيـركـا الـشـمـاليـة والجنوبيـة المغـدورين قد يعـودون إلى الحيـاة أيضـاً ليـركبـوا السـهـول، حيث تقـوم الآن المُدن وتقـذفُ بنيـرانـهـا وأوبئـتـهـا. مَنْ له الكلمـة الفصْل؟ إنه الإنـسـان ! الأرضُ له لأنه هو الأرض؛ نارها، مـاؤها، مواؤها، معـادنهـا وخضـرواتهـا، وروحهـا التي هي كونيّـة، خالدة، وهي روح الكـواكب جميـعـاً؛ تتـحـوّل من خـلاله، من خـلال الإشـارات الإنسـانيـة والرمـوز، من خـلال مظـاهر لا مـتناهية. انتظروا، أيها الخراء البرقـيّ الكونيّ المتعضّي، أيهـا الشيـاطين القـابعـون في الأعـالي تنتظرون إصـلاح تمديدات الميـاه، انـتظروا، أيهـا الفـاتحـون البـيض القـذرون، يا مَنْ لطَّخـتُم الأرضَ بحـوافـركم المشـقـوقـة، وأدواتكم، وأسلحتكم، وجراثيمكم المُمْرضة، انتظروا، يا كل مَنْ تجلسون في رفـاهٍ وترفٍ تعـدّون أمـوالكم، لم تحُنْ النهـاية بعـد. سيـقـول آخر رجلٍ كلمَتَه الفصل قبل حلول النهاية. يجب أنْ تُطبَّقَ العدالة حتى آخر جُزيءٍ

حسّاس - ***وسوف تُطبَّق حتماً*** ! لن يفلتَ أحدٌ بأي شيء، مهما كان ضئيلاً، خاصة الخراء الكونيَ المتعضّي لشمال أميركا.

عندما حان موعد نيل إجازتي - ولم أكن قد نلتُ إجازة منذ ثلاث سنوات، لأني كنتُ شديد التوق لأحقّق نجاح الشركة ! - أخذتُ ثلاثة أسابيع بدل أسبوعَين وألّفتُ كتاباً عن الرجال الاثني عشر الصِغار. كنتُ أكتب في اليوم الواحد ودون توقف خمسة آلاف، أو سبعة وأحياناً ثمانية آلاف كلمة. كنتُ أعتقد لكي يكون المرء كاتباً عليه أنْ يكتب على الأقلّ خمسة آلاف كلمة في اليوم. حسبتُ أنَّ عليه أنْ يقولَ كل شيء دفعةً واحدة - في كتابٍ واحد - وبعد ذلك ينهار. لم أكن أعرف أيّ شيءٍ عن الكتابة. كنتُ خائفاً حتى الموت. لكنني صمّمتُ على أنْ أمسح هوريشيو ألغر من الوعي الأميركي الشمالي. أعتقد أنه كان أسوأ كتاب ألّفه إنسان على الإطلاق. كان كتاباً هائل الحجم وزاخراً بالأخطاء من بدايته وحتى نهايته. لكنه كان كتابي الأول، وكنتُ مُتيّماً به. ولو كان معي نقود، بقدر ما كان مع جيد[1]، لنشرته على حسابي. ولو كنتُ أتمتّع بشجاعة ويتمَنْ[2] لحملتُه وانتقلتُ به من بابٍ إلى باب. كل مَنْ عرضتُهُ عليه قال إنه كتابٌ فظيع. وألحّوا عليّ كي أتخلّى عن فكرة الكتابة. وكان عليَّ أنْ أتعلّم، كما فعل بلزاك، إنَّ على المرء أنْ يكتب مجلدات عديدة قبل أنْ يُذيِّل واحداً باسمه. كان عليَّ أنْ أتعلّم، كما حدث بعد ذلك بوقتٍ قصير، إنَّ على المرء أنْ يكتب ويكتب ويكتب، حتى وإنْ كان كُلّ مَنْ على الأرض ينصحونكَ بعكس ذلك، حتى وإنْ لم يؤمن بك أحد.

---

١ - أندريه جيد (١٨٦٩ - ١٩٥١) : كاتب فرنسي شهير. صاحب "مزيفو النقود" و"اليوميات"

٢ - والت ويتمَنْ (١٨١٩ - ١٨٩٢) : شاعر أميركي. ديوانه " أوراق العشب "

لعلَّ المرء يفعل ذلك لأنَّ لا أحد يؤمن به؛ لعلَّ السرّ الحقيقي يكمن في جعل الناس يؤمنون. من الطبيعي أنَّ الكتاب كان غير وافٍ، ومملوءً بالأخطاء، ورديئاً، وفظيعاً، كما قالوا. كنتُ أحاول في البداية ما يمكن لعبقريّ أنْ يباشر به فقط في النهاية. أردتُ أنْ أقول آخر كلمة في البداية. كان ذلك شيئاً سخيفاً ومثيراً للرثاء. وكان الفشلُ ذريعاً، لكنه قوّى عزيمتي وبثَّ الحيوية في دمي. على الأقل تذوّقت طعم الفشل؛ عرفتُ معنى مُباشرة عمل ضخم. واليوم، حين أسترجع الظروفَ التي ألّفتُ في ظلّها ذلك الكتاب؛ حين أتذكّر المادة الأولية الهائلة التي حاولتُ أنْ أصيغَ منها شيئاً، حين أفكّر فيما أملتُ أنْ أحيطَ به، أربتُ على ظهري مُهنّئاً، أعطي نفسي علامة أولى مُضاعفة. إنني فخور لأنني جعلتُ منه فشلاً ذريعاً؛ ولو أنني نجحتُ لأصبحتُ غولاً. أحياناً، حين أتصفّح دفتر ملاحظاتي، حين أستعرضُ فقط أسماء أولئك الذين فكّرتُ في الكتابة عنهم، أُصاب بالدوار. إنَّ كل رجل جاء إليَّ كان يحمل عالمه الخاص؛ ويُفرِغه على طاولة مكتبي؛ ويتوقع مني أنْ أرفعه وأحمله على كاهلي. لم يكن لدي وقت لأصنع عالماً خاصاً بي : كنتُ مضطراً إلى الجلوس بثبات مثل أطلس، وقدماي على ظهر فيل والفيل واقف على ظهر سلحفاة. والسعي إلى معرفة على ماذا كانت السلحفاة واقفة كان جديراً بإصابتي بالجنون.

حينئذٍ لم أكن أفكّر إلا في " الوقائع ". أما الغوص إلى ما تحت الوقائع فذلك تطلّبَ فناناً، والمرء لا يصبح فناناً بين ليلة وضحاها. أولاً يجب أنْ تُسحَق، أنْ تُعدَم وجهات نظرك المتضاربة. يجب أنْ تُمسَح ككائنٍ بشري لكي تولد من جديد كفرد. يجب أنْ تُعالَج وتمتزج مع

معادن أخرى لكي ترتفع انطلاقاً من آخر قاسم مُشتَرَك مع الذات. يجب أنْ تتجاوز الشفقة لكي تشعر من أعماق جذور كيانك. والمرء لا يستطيع أنْ يصنع سماء وأرضاً من " الحقائق ". إذ ليس هناك " حقائق " - هناك فقط ***حقيقة*** أنَّ الإنسان، كل إنسان في كل مكان في العالم، في سبيله إلى أنْ يُرسَم كاهناً. بعض الناس يسلكون الطريق الطويلة وبعضهم يسلكون القصيرة. كل إنسان يشقُ طريقه بطريقته الخاصة ولا أحد يستطيع أنْ يكون ذا عون إلا إذا كان كائناً لطيفاً، كريماً وصبوراً. وبعض الأشياء كانت عصية على فهمي في غمرة حماستي حينئذٍ أصبحت جليّة الآن. أفكِّرُ، مثلاً، في كارناهان، وهو الرجال الاثني عشر الصغار الذين اخترتهم لأكتب عنهم، كان ما يسمّى بالساعي النموذجي. تخرَّجَ من جامعة بارزة، يتمتع بذكاءٍ خارق وكان ذا شخصية يُحتذى بها. يعمل ما بين ثماني عشرة إلى عشرين ساعة في اليوم ويكسب أكثر من أي ساعٍ في الكتيبة. الزبائن الذين يخدمهم يكتبون رسائل عنه، يمدحونه ويرفعونه إلى السماء السابعة؛ عُرِضَتْ عليه مناصب جيدة رفضها لسببٍ أو لآخر. عاش حياةً مُقتصدة، وكان يُرسِل الجزء الأكبر من أجوره إلى زوجته وأولاده الذين يعيشون في مدينةٍ أخرى. كانت لديه رذيلتان - معاقرة الخمر وشهوة النجاح. كان في وسعه أنْ يبقى عاماً كاملاً دون أنْ يشرب، ولكن ما إنْ يتذوّق قطرة واحدة حتى يعود إلى عادته. كان قد حقق مرتين ربحاً كبيراً في وول ستريت ومع ذلك، وقبل أنْ يأتيني طلباً للعمل، لم يستطع أنْ يكون أكثر من قندلفت في كنيسة في بلدة صغيرة. وكان قد طُرِدَ من عمله لأنه استولى على الخمر المقدَّس وأخذ يقرع النواقيس طوال الليل. كان صادقاً، وفياً، رصيناً. وكان لدي ثقة كامنة

فيه وقد ثبُتتْ صِحة تلك الثقة بسجل خدمته الذي كان نقياً. ومع ذلك أطلقَ النار على زوجته وأطفاله بدمٍ بارد ومن ثم أطلقَ النار على نفسه. ولحسن الحظ لم يمُتْ أحدٌ منهم؛ ذهبوا جميعاً إلى المستشفى وشفوا. وبعد أنْ نقلوه إلى السجن، ذهبتُ لزيارة زوجته لتقديم المساعدة لها. فرفضتْ رفضاً باتّاً. قالتْ إنه أخسّ وأقسى ابن حرام سار على قَدَمَين - وأرادتْ أنْ تراه يُشنَق. أخذتُ أناشدها على مدى يومين، لكنها كانت عنيدة. ثم توجهتُ إلى السجن وتحدثتُ معه من خلال الشبك. فوجدتُ أنه قد أصبحَ شخصية معروفة وذات نفوذ، ومُنِحَ امتيازات خاصة. لم يكن مُكتئباً على الإطلاق. على العكس، كان يصبو إلى أنْ يستغلَّ وقته أحسن استغلال في السجن في " الإلمام " بفن البيع. كان ينوي أنْ يصبح أفضل بائع متجول في أميركا بعد إطلاق سراحه. ويمكنني أنْ أقول إنه كان سعيداً. وطلبَ مني ألاّ أقلق بشأنه، فسوف يكون على أحسن ما يُرام. وقال إنَّ الجميع يُعاملونه بشكلٍ رائع وأنَّ ليس لديه ما يشتكي منه. وغادرته وأنا في حالة من الذهول. وتوجهتُ إلى شاطئ قريب وقرَّرتُ أنْ أسبح. كنتُ أرى كلَّ شيءٍ بعينٍ جديدة. حتى كدتُ أنسى أنْ أعود إلى المنزل، وأنا شديد الانغماس في تأملاتي حول ذلك الرجل. مَنْ كان يستطيع أنْ يقول إنَّ كل ما حدث له لم يكن للأفضل؟ لعله سيخرج من السجن مُبشّراً كامل الإعداد بدل أنْ يكون بائعاً جوالاً. لا أحد كان يستطيع أنْ يتكهَّن ماذا يمكن أنْ يفعل. وما لأحد أنْ يساعده لأنه كان يصنع قَدَرَه بطريقته الخاصة.

كان هناك رجل آخر، هندوسي اسمه غوبتال. لم يكن فقط نموذجاً لحُسن السلوك - بل كان قديساً. كان مولعاً بالناي الذي كان يعزف

عليه وحيداً في غرفته البائسة الصغيرة. وذات يوم وُجِدَ عارياً، ومذبوحاً من الأذن إلى الأذن، وإلى جانبه على السرير نايه. في الجنازة كانت هناك حفنة من النساء بكينَ عليه بدموعٍ حرَّة، ومن بينهم زوجة البوّاب الذي قتله. كان في إمكاني أنْ أؤلِّفَ كتاباً عن ذلك الشاب الذي كان أرقّ وأقدس إنسان عرفته في حياتي، الذي لم يُهِنْ أحداً ولم يأخذ شيئاً من أحد، لكنه ارتكب الخطأ الفادح بمجيئه إلى أميركا لينشر السلام والحب.

كان هناك ديف أولينسكي، ساعٍ مجتهد، ومخلص آخر، الذي لم يكن يفكّر إلا في العمل. وكانت لديه نقطة ضعف قاتلة واحدة – أنه يُكثر من الكلام. وحين أتاني كان قد جاب لتوّه الكرة الأرضية مراتٍ عدَّة وما لم يفعله ليكسب قوته لا يستحق الذكر. كان يُتقِن حوالي اثنتي عشرة لغة وكان فخوراً بمقدرته اللغوية. كان أحد أولئك الذين يكمن دمارهم في ولعهم بالعمل وحماستهم. لقد أراد أنْ يُقدِّم يد المساعدة لكل شخص، وأنْ يُبيِّن لكل شخص كيف يُحقق النجاح. كان يُريدُ أنْ تُسند إليه أكثر مما تستطيع أنْ تمدَّه به من عمل – لقد كان شرهاً إلى العمل. ربما كان ينبغي عليّ أنْ أحذِّره، حين أرسلته إلى مكتبه الكائن في الجانب الشرقي، من أنَّه سيعمل في منطقة صعبة، لكنه تظاهر بأنه يعلم الكثير وكان شديد الإصرار على العمل في ذلك الموقع (بسبب مقدرته اللغوية) بحيث إنني لزمتُ الصمت. قلتُ في نفسي – سوف تكتشف حقيقة الأمر بنفسك سريعاً. وهذا ما حدث، إذ سرعان ما وقع في المشاكل. فقد دخل عليه ذات يوم فتى يهودي ضخم من الجوار وطلب ورقة فارغة. وكان ديف، الساعي، جالساً خلف الطاولة، ولم تُعجبه الطريقة التي طلبَ بها

الرجل الورقة، وأخبره بأنَّ عليه أنْ يكون أكثر تهذيباً. على هذا نال لكمة على الأذن. وهذا جعله يُطلِق العنان للسانه أكثر، وعلى الأثر تلقّى ضربةً قوية حقاً، وسقطت أسنانه في بلعومه، وكُسِرَتْ عظام فكّه في ثلاثة مواضع. ومع ذلك لم يتعلّم كيف يضبط أعصابه، وبما أنه غبي ذهب إلى مركز الشرطة وسجّلَ شكوى. وبعد ذلك بأسبوع، بينما هو جالس على مقعده يأخذ غفوة، اقتحمَتْ المكان مجموعة من ذوي الرقاب الثخينة وضربوه حتى صار كالعجينة. وقد تلقّى من الضرب المُبرّح ما جعل رأسه أشبه بقرص العجّة. وما زاد الطين بلّه أنهم أفرغوا الخزينة وقلبوها رأساً على عقب. وتوفي ديف وهو في طريقه إلى المستشفى، وقد عثروا على مبلغ خمسمائة دولار مُخبّأ في تجويف الإصبع الكبير من جوربه.... ثم كان هناك كلوسن وزوجته لينا. كانا معاً حين تقدّم طالباً العمل. كانت لينا تحمل طفلاً بين ذراعيها، وكان هو يمسك بطفلَين صغيرين بيديه. وقد أرسلتهم إليّ إحدى وكالات الإغاثة، وعيَّنتُهُ ساعياً ليلياً حتى ينال معاشاً ثابتاً. وبعد بضعة أيام استلمتُ منه رسالة، رسالة مكتوبة بأسلوبٍ معتوه، يطلبُ فيها أنْ أعذره لتغيّبه، لأنه كان عليه أنْ يُقدِّم تقريره لمكتب التعهُّد بعدم الفرار. وتبعَتها رسالة أخرى يقول فيها إنَّ زوجته ترفض أنْ تضاجعه، لأنها لا تريدُ مزيداً من الأطفال، فهل لي أنْ أتفضَّل وأقوم بزيارتهما، وأحاول أنْ أقنعها بمضاجعته؟ وقمتُ بزيارته في بيته، وهو قبو في الحي الإيطالي. بدا كأنه بيت للمجانين. كانت لينا حاملاً من جديد، في شهرها السابع تقريباً، وتكاد تصل إلى حافة الجنون. وكانت تنام على سطح المنزل لأنَّ القبو شديد الحرارة، ولأنها لم تعُد تريد أنْ يلمسها. وعندما قلتُ إنَّ الأمرَ لم يعد يهمّ الآن، نظرت إليّ

وكشَّرَتْ. كان كلوسن قد اشتركَ في الحرب ولعلَّ ما استنشقه من غاز جعله أبله قليلاً. على أي حال، كان الزَبَد يتشكَّلُ على فمه. قال إنه سيضربها إذا لم تتخلَّ عن ذلك السطح. وألمحَ إلى أنها تنام هناك لتُقيم علاقة مع عامل المنجم الذي يسكن العلّية. ومن جديد ابتسمت لينا على هذا الكلام تلك الابتسامة العريضة الجافّة البرمائية. وفَقَدَ كلوسن أعصابه وعالجها برفسةٍ على قفاها، فخرجت غاضبة وأخذت طفليها معها. أمرها أنْ تبقى في الخارج لأنَّ ذلك أفضل لها. ثم فتحَ درجاً وأخرجَ منه مسدساً كبيراً. كان يحتفظ به لوقت الحاجة، كما قال. وعَرَضَ عليَّ بضعة خناجر أيضاً، وشيئاً أشبه بهراوة مكسوِّة بالجلد صَنَعها بنفسه. ثم أخذ يبكي. قال إنَّ زوجته تهزأ به. وقال إنه سئم العمل بسببها لأنها تضاجع كل رجل في المنطقة. والأولاد ليسوا منه، لأنه لم يعُد في استطاعته أنْ يُنجب حتى لو أرادَ ذلك. وفي اليوم التالي، بينما لينا تتسوَّق، صعدَ بالأولاد إلى السطح وهشَّمَ رؤوسهم بالهراوة التي أرانيها. ثم قفزَ عن السطح على رأسه. وحين عادت لينا إلى المنزل وشاهدت ما حدث فَقَدَتْ عقلها، فألبسوها سترة المجانين واستدعوا الإسعاف... وكان هناك أيضاً شولديغ، الجرذ الذي أمضى عشرينَ عاماً في السجن من أجل جريمة لم يرتكبها. ضربوه حتى كاد أنْ يموت قبل أنْ يُدلي باعتراف، ومن ثم كان الحبس الانفرادي، والجوع، والعذاب، والانحراف الجنسي، وإدمان المخدرات. وحين أطلقوا سراحه أخيراً لم يكن كائناً بشرياً. وقد وصفَ لي في إحدى الأمسيات آخر ثلاثين يوماً له في السجن، وألم انتظار الإفراج عنه، ولم أسمع في حياتي مثيلاً له. لم أكن أظن أنَّ كائناً بشرياً يمكنه أنْ ينجو من مثل ذلك الألم المُبرّح. وبعد

إطلاق سراحه صار يتلبّسه الخوف من أنه مدفوعٌ إلى ارتكاب جريمة، لكي يعود إلى السجن. واشتكى من أنه مُلاحَق، مُراقَب، وثمة مَنْ يقتفي أثره باستمرار. قال إنَّ " هم " يغرونه بالقيام بأعمالٍ لا يريد أنْ يقوم بها. والذين يتبعونه " هم " من البوليس السرّي، وقد دُفِعَ به إليهم ليُعيدوه إلى السجن. وأثناء الليل، وهو نائم، يهمسون في أذنه. كان عاجزاً أمامهم، لأنهم يتركونه حتى ينام أولاً. أحياناً يدسّون المُخدِّر تحت وسادته، ومعه مسدس أو سكّين. إنهم يريدونه أنْ يقتل شخصاً بريئاً حتى تكون في أيديهم قضية مضمونة ضده هذه المرة. وازدادت حاله سوءاً على سوء. وذات ليلة، بعد عودته من السير لساعات حاملاً رُزَم البرقيات في حقيبته، اتّجه من فوره إلى أحد رجال الشرطة وطلب منه أنْ يسجنه؛ لقد نسيَ اسمه وعنوانه، حتى المكتب الذي يعمل لأجله. وكان قد فَقَدَ كيانه تماماً. وأخذَ يُردِّد بلا توقف - " أنا بريء... أنا بريء ". ومن جديد أخذوه إلى غرفة التعذيب. وفجأةً قفز وأخذ يصرخ كالمجنون - " سأعترف... سأعترف " - وبذلك بدأ يكرُّ الجرائم واحدة بعد أخرى. استمرَّ هكذا مدة ثلاث ساعات. وفجأة ووسط اعترافه المُعذَّب، قطعَ كلامه، وألقى نظرةً سريعة حوله، كرجلٍ عاد إلى وعيه فجأةً، ومن ثم، وبالسرعة والقوة اللتين لا يمكن إلاّ لمجنون أنْ يستجمعهما، قام بقفزة هائلة عَبَرَ بها الغرفة، وهشَّمَ على إثرها جمجمته على حجر الجدار... إنني أسردُ هذه الحوادث بإيجازٍ وسرعة كما تومض في ذهني، فذاكرتي مملوءة بآلافٍ من مثل هذه التفاصيل، مُرفَقَة بعدد هائل من الوجوه، والقَسَمات، والحكايات، والاعترافات، متضافرة معاً ومتشابكة، كواجهةِ معبدٍ هندوسي تلتفّ بصورةٍ مُذهلة لم تُصنَع من

الحجر بل من تجربة الجسد الإنساني، كصرحٍ خياليّ هائل بُنيَ بتمامه من الواقع، ومع ذلك فهو لا يمثّل الواقع نفسه، بل الوعاء الذي يحتوي لغزَ الكائن البشري فقط. إنَّ عقلي يجولُ حتى يصل إلى المصحّ الذي جلبتُ إليه بدافع الجهل والنيّة الطيبة بعضاً من الرجال الصغار لكي يُعالَجوا. ولا أستطيع أنْ أفكّر في صورةٍ تنبضُ بالحياة تعبِّر عن جو ذلك المكان أفضل من لوحةٍ رسمها هيرونيموس بوش تمثّلُ ساحراً يقفُ وقفةَ طبيب أسنان وهو ينتزع عَصَباً حيّاً، ويُقدَّم كمُحررٍ من الجنون. إنَّ كل الهراء والدجل اللذين أتى بهما أطباؤنا العلميون يُمجّدان في شخص السادي الدمث الذي كان يُدير هذا المصحّ بالتعاون التام مع القانون وبالحصول على تستُّره. كان توأم كاليغاري[1]، عدا أنه كان أقلّ من مُغفَّل: يُتابع بحثه في الجسم الإنساني كما ينهمك السمكري في إصلاح تمديدات المجاري، مُدَّعياً فهم الأنظمة السرّية للغُدد، مدعوماً من قوى ملك من القرون الوسطى، متناسياً الألم الذي سبَّبه، جاهلاً كل شيء باستثناء معرفته الطبيّة. وبالإضافة إلى السموم التي يرمي بها إلى كل جزء من جسم المريض كان يلجأ أحياناً إلى قبضتيه وركبتيه كلما اقتضت الحاجة إلى ذلك. كان كل شيء يُبرِّر لإحداث " تفاعُل ". إذا شعر الضحية بالنعاس يصرخُ في وجهه، يصفعه على وجهه، يقرص ذراعه، يضربه، يرفسه. وإذا كان، على العكس، صاحياً، يستخدم الأساليب نفسها، ولكن بحماسٍ مُضاعَف. أما مشاعر الذي بين يديه فلا اعتبار لها عنده، ومهما حقَّقَ من تفاعُل لم يكن ذلك غير تجلٍ أو مظهر للقوانين المُنظِّمة

١ – كاليغاري : طبيب مجنون يُعالج الأمراض النفسية بأساليب سادية .

لعمل غدد الإفراز الداخلية. كان الهدف من طريقته في العلاج هو جعل الخاضع له يتكيَّف مع المجتمع. ولكن مهما أسرعَ في عمله، وسواء أكان ناجحاً أم لا، فإنَّ المجتمع لا يزال يُنتج لا متكيّفين. بعضهم ليس متكيّفاً بصورة رائعة إلى درجة أنه، ولكي يحصل على تفاعُل مثالي، حين كان يكيل لهم الصفعات القوية على خدودهم، كانوا يردّون على ذلك بلكمةٍ على الذقن أو برفسة على الخصيتين. صحيح أنَّ معظم مَنْ يقع تحت يده هم كما وَصَفَهم - أي مجرمون مبتدئون. كانت القارة برّمتها تنزلق - ولا تزال - وليس فقط الغدد بحاجة إلى ضبط لوظيفتها، بل حامل الخصيتين، والغلاف الواقي، والهيكل العظمي، والمخ، والمُخيخ، والعصعص، والحنجرة، والبنكرياس، والكبد، والمعي العلوي والمعي السفلي، والقلب، والكليتين، والخصيتين، والرحم، وقنوات فالوب، وكل الأجهزة الأخرى اللعينة. البلد كله مَشاع، يغلي بالعنف، يتفجَّر، شيطاني؛ إنه في الجو، في المناخ، في المشهد العام الفائق العَظَمَة، في الغابات المتحجّرة الممتدة أفقياً، في الأنهار الغزيرة التي تشقّ طريقها خلال الأودية الصخرية الضيقة، في المسافات غير العادية، والفيافي القاحلة قحولة عُلويّة، والمحاصيل الغنية الوافرة، والثمار الهائلة الحجم، ومزيج الدماء الدونكيخوتية، وخليط من العبادات، الطوائف، المعتقدات، معارضة القوانين واللغات، وتناقُض الأمزجة، والمبادئ، والحاجات، والمتطلبات. إنَّ القارَّة تعجُّ بالعنف الدفين، بعظام وحوش ما قبل الطوفان وبسلالات إنسانية مفقودة، بألغاز مُغلّفة بالقَدَر. أحياناً يصبح الجو مُكهرباً حتى تُستدعى الروح من جَسَدها وتندفع مجنونة، وكالمطر يأتي كل شيء مِدراراً - أو لا يأتي أبداً. القارة كلها

بركان هائل تختفي فوهته مؤقتاً خلف منظر بانورامي مُتحرِّك يتراوح ما بين الحلم، والخوف، واليأس. والقصة هي نفسها تتكرَّر دائماً من ألاسكا إلى يوكاتان. الطبيعة تسيطر، الطبيعة تربح. في كل مكان يوجد ذلك الحافز الأساسي نفسه إلى القتل، والتخريب، والنهب. ظاهرياً يبدون أناساً رائعين متعافين - صحيحي الأجسام، متفائلين، شجعان. أما داخلهم فمملوء بالدود. تكفي شرارة واحدة وينفجرون.

غالباً ما كان يحدث، كما الأمر في روسيا، أنْ يدخل رجل وفي سيمائه استعداد للمشاجرة. يكون قد استيقظ في الصباح وهو كذلك، وكأنما هبَّتْ عليه رياحُ موسمية. وفي تسعِ حالات من عشرة يكون إنساناً طيباً، من النوع الذي يحبه الجميع. ولكن حين يغضب، لا شيء يمكن أنْ يوقفه. كان أشبه بحصان مُصاب بدوار الخيل، وأفضل ما يمكنك أنْ تفعل لأجله هو أنْ تُطلق عليه النار. هكذا كانت الأمور تجري دائماً مع الأناس المُسالمين. ثم يأتي يوم ويُجَنّون. في أميركا يجَنّون باستمرار. إنَّ ما يحتاجون إليه هو منفذ لطاقتهم، لشبقهم الدموي. أوروبا تنزف بانتظام بالحرب. وأميركا مُسالمة وتأكل لحم البشر. من الخارج تبدو كقرص العسل الجميل، وذكور النحل جميعاً يزحف بعضهم فوق بعض في سُعارٍ من العمل، ومن الداخل هي مسلخ، كل رجل يقتلُ جاره ويمتص نقي عِظامه. على السطح تبدو كعالمٍ ذكَريّ شجاع؛ والواقع هو أنها ماخور تديره النساء، وأبناؤها يعملون قوّادين، والأجانب الملاعين يبيعون أجسادهم. ولا أحد يعلم ماذا يعني أنْ يجلس ويكون راضياً. فهذا لا يحدث إلاّ في الأفلام السينمائية حيث كل شيء زائف حتى نار جهنم. إنَّ القارة كلها تغطُّ في نومٍ عميق وأثناء هذا النوم تجري أحداثُ كابوسٍ مُريع.

لا أحد يمكن أنْ يكونَ قد نام بعمقٍ وسط معمعة ذلك الكابوس أكثر مني. عندما نشبَتْ الحرب لم تُثِر في أذني أكثر من دمدمةٍ واهنة. وكنتُ مثل أبناء وطني مُسالماً أشتهي لحم البشر. والملايين الذين قُتلوا في المجزرة رحلوا على متن غيمة، كما قُضيَ على شعب الأزتك والأنكا والهنود الحمر والجواميس. كان الناس يدّعون التأثُّر العظيم لكنهم ليسوا كذلك؛ كانوا ببساطة يتقلّبون أثناء نومهم بحركات متشنّجة. لا أحد يفقد شهيته، لا أحد ينهض ليقرع جرس الحريق. واليوم الذي أدركتُ فيه للمرة الأولى أنَّ هناك حرباً تدور رحاها كان قد مضى ستة أشهر أو نحوها على إعلان وقف إطلاق النار. حدثَ ذلك وأنا على متن حافلة في الشارع الرابع عشر على خط كروستاون. فقد تصادفَ أنَّ أحد أبطالنا، وكان شاباً صغيراً من تكساس، يضعُ على صدره صفاً من الميداليات، شاهدَ ضابطاً ماراً على الرصيف، فأثارَ غضبه مرأى الضابط، حتى إنه نهضَ عن كرسيه، وبدأ يصبُّ لعناته الصارخة على الحكومة، والجيش، والمدنيين، والمسافرين في السيارة، وعلى كل إنسان وكل شيء. وقال إنه إذا نشبتْ حربٌ أخرى فلن يتمكّنوا من جرّه إليها ولو استخدموا عشرينَ بغلاً. قال إنه يودّ أنه يرى كل ابن عاهرة يُقتَل قبل أنْ يلتحق من جديد بها؛ وقال إنه لا يأبه بالميداليات التي زيَّنوه بها، ولكي يُبرهن على ما قال انتزعها ورمى بها من النافذة. قال إنه إذا ما حدث واجتمع ثانية بضابطٍ في خندقٍ واحد فسوف يُطلقُ عليه الرصاص في ظهره ككلبٍ قذر، وهذا يشمل الجنرال برشنغ أو أي جنرال آخر. وقال أشياءَ كثيرة أخرى، مع بعض الكلمات اللعينة المُنمَقة التي التقطها من هناك. ولم يحاول أحد أنْ يُناقضه. وبعد أنْ مات علِمتُ للمرة الأولى أنه كانت

هناك حقاً حرب دائرة وأنَّ الرجل الذي كنتُ أصغي إليه كان مشتركاً فيها وأنه على الرغم من شجاعته فإنَّ الحربَ حوَّلتْه إلى جبان وأنه إذا قتل أكثر مما فعل فإنه سيفعل ذلك وهو في كامل وعيه، وبدمٍ بارد، ولن يجرؤ أحدٌ على إرساله إلى الكرسي الكهربائي قام بواجبه نحو إخوانه من البشر، لأنه بذلك يُنكِر غرائزه المقدَّسة الخاصة وهكذا كان كل شيء عادلاً وخيِّراً، لأنَّ جريمة واحدة تُلغي الجرائم الأخرى باسم الله، والوطن، والإنسانية، وليحلّ السلام عليكم جميعاً. والمرة الثانية التي وعيت فيها حقيقة الحرب كانت حين هرب غريسوولد في أحد الأيام، وهو رقيب سابق كان يعمل ساعياً ليلياً عندنا، هربَ وحطَّمَ غرفة مكتب في إحدى محطات سكك الحديد إلى قِطع صغيرة. وأرسلوه إليّ لكي أطرده، ولكنَّ قلبي لم يُطاوعني على فعل ذلك. كان قد قام بعملية تحطيم رائعة الجمال حتى وددتُ لو أعانقه وأضمّه إلى صدري بقوة. توسّلتُ إلى الله كي يصعد إلى الطابق الخامس والعشرين، أو إلى أي مكان توجد فيه مكاتب للرئيس ولنائب الرئيس، وينسف المجموعة كلها. ولكن باسم الانضباط، وللمحافظة على المهزلة القائمة، كان ينبغي أنْ يقوم بشيء لأعاقبه أو أنال العقاب على ذلك، وهكذا لما لم يكن لديَّ حلٌ آخر أبعدته عن مركز المفوَّضية وأعدته إلى مركز المعاشات. وفهمَ الأمر فهماً خاطئاً تماماً، ويبدو أنه لم يفهم موقفي، أي ما إذا كنتُ معه أم ضدّه، فبعث لي برسالة فورية يقول فيها إنه سيقوم بزيارتي خلال يوم أو يومين، وإنه من الأفضل لي أنْ آخذ حَذَري لأنه سيسلخ جلدي. وقال إنه سيأتيني بعد انتهاء ساعات الدوام الرسمي، وإنني إنْ كنتُ خائفاً فمن الأفضل لي أنْ أُحضِر عدد من القبضايات لحمايتي. كنتُ أعرفُ أنه

يعني كل كلمة قالها، وشعرتُ بخوف شديد حقاً بعد أنْ نحّيتُ الرسالة جانباً. ومع ذلك، انتظرته وحدي شاعراً بأني سأكون أكثر جبناً إذا طلبتُ حماية. كانت تجربة غريبة من نوعها. وقد عَرِفَ منذ أنْ وقعَ بصره عليّ أنه إنْ كنت ابن حرام، وكاذباً، ومنافقاً عفناً، كما أطلقَ عليَّ في رسالته، فهذا فقط لأنه مثلي، ولم يكن هذا الوضع أفضل. ولابد أنه أدركَ على الفور أننا كنا معاً في قارب واحد وأنَّ الماء يتسرَّب إلى ذلك القارب اللعين مُهدِّداً بالخطر. لاحظتُ شيئاً من هذا القبيل يحدثُ داخله وهو يتقدَّم مني، ولا يزال يبدو عليه الغضب، ولا يزال فمه يُزبِد، أما من الداخل فكل شيء منتهٍ؛ كل شيء ناعم وحريريّ. أما أنا فقد تلاشى خوفي لحظةَ وقعَ بصري عليه وهو يدخل. ومجرَّد مثولي أمامه هادئٌ ووحيد، وأنا أقلّ قوة، وأقلّ قدرة على الدفاع عن نفسي، جعلني أهيمن عليه. مع أني لم أقصد أنْ أهيمن عليه. لكنَّ الوضع اتّخذ ذلك المنحى وأنا استفدتُ منه، طبعاً. وحالما جلس صار رقيقاً سهل القياد. على أي حال لم يكن رجلاً؛ كان مجرد طفل. ولابد أنَّه يوجد الملايين مثله، أطفال كبار مُزوَّدون بمدافع رشّاشة ويمكنهم أنْ يُبيدوا أفواجاً كاملةً من الجنود دون أنْ يرفَّ لهم جفن، ولكن حين يكونون في الخنادق دون سلاح، ودون عدو واضح مرئي يصبحون عاجزين كالنمل. إنَّ كل شيء يدور حول مسألة الطعام؛ الطعام وأجرة المنزل - وهما سبب القتال كله - ولكن لم يكن هناك من سبيل، لا سبيل واضح، مرئي، للقتال من أجله. وكأنكَ تشاهد جيشاً جرّاراً ومُدجّجاً بالأسلحة، قادراً على دحر كل ما يقع تحت نظره، ومع ذلك يأمر بالتراجع في كل يوم، التراجع والتراجع والتراجع لأنه العمل التصرف الاستراتيجي الصحيح، على الرغم من أنَّ ذلك

يعني خسارة الأرض، والمدافع، والذخيرة، والطعام، والنوم، والشجاعة، وأخيراً خسارة الحياة نفسها. وحيثما وُجدَ الناس يتصارعون من أجل الطعام وأجرة البيت وُجدَ هذا التراجع المطّرد، في الضباب، في الليل، لسببٍ واحد ووحيد هو أَنه التصرُّف الاستراتيجي الصحيح. وكان ذلك ينهشُ قلبه. إنَّ القتال بحد ذاته سهل، أما القتال من أجل الطعام وأجرة البيت فهو كمقاتلة جيشٍ من الأشباح. وكل ما في وسعك أنْ تفعله هو أنْ تتراجع، وبينما أنتَ تتراجع تراقبُ إخوانكَ يموتون قهراً، واحداً إثر آخر بصمت، بغموض، في الضباب، في الظلام، وتعجز عن فعل أي شيء. لقد كان مضطرباً اضطراباً لعيناً وغاية في الارتباك، مشوَّشاً ومُحبَطاً مع يأسٍ لا متناهٍ، حتى إنه وضعَ رأسه بين ذراعيه وبكي على طاولتي. وبينما هو يجهشُ بالبكاء هكذا إذ بالهاتف يرنّ فجأةً والمخابرة من مكتب نائب الرئيس - ونائب الرئيس لا يتحدث بنفسه، بل دائماً ***موظف من مكتبه*** ! - وهم يريدون أنْ أطردَ ذلك الرجل المدعو غريسوولد على الفور وأقول حاضر سيدي ! وأضع سمّاعة الهاتف. ولا أصرِّح بأي شيء لغريسوولد عن الأمر، بل أصحبه إلى بيته وأتناول معه ومع زوجته وأولاده وجبة العشاء. وبعد أنْ أغادره أقول لنفسي إذا كان يجب أنْ أطرد هذا الشاب فإنَّ هناك مَنْ سيدفع ثمن ذلك، ولكن على أي حال أريد أنْ أعرف من أين يصدر الأمر ولماذا. وفي الصباح أتوجه وأنا ما أنا عليه من غضب وهياج إلى مكتب الرئيس وأطلب مقابلة نائب الرئيس نفسه، لكي أسأله هل أنتَ الذي أصدرَ الأمر ***ولماذا*** ؟ وقبل أنْ تُتاح له فرصة الإنكار، أو شرح سبب تصرّفه، أشنُّ عليه حرباً عشوائية صغيرة هكذا بلا مقدّمات، ومن حيث لا يستطيع مني فكاكاً - وإذا لم يعجبكَ

هذا، يا سيد تويلْديليغر، يمكنكَ أنْ تحتفظ بالعمل، بعملي وعمله وتحشرهما في طيزك - أقول هذا وأنصرف. أعودُ إلى المسلخ وأتابعُ عملي كالمعتاد. وطبعاً أتوقَّع أنْ أطرَد من عملي قبل انصرام النهار. ولكن لا يحدث شيء من هذا. بل على العكس، أتلقّى وأنا مذهول مكالمة هاتفية من المدير العام طالباً مني أنْ أتحلّى بالصبر، أنْ أهدأ قليلاً، نعم، أنْ أهدأ فقط. لا تتسرَّع، سننظر في الأمر، الخ. وأعتقدُ أنهم لا يزالون ينظرون في الأمر، لأنَّ غريسوولد تابع عمله كالمعتاد - بل إنهم رقّوه إلى مرتبة كاتب، وهذا عمل قذر أيضاً، لأنَّ راتبه ككاتب أقلّ من راتب ساع، لكنه يُنقذ كبرياءه ويتطلّب أكثر بقليل من نشاطه أيضاً، بلا أدنى شك. ولكن هذا ما يحدث لشخص لا يكون بطلاً إلا في نومه. وما لم يكن الكابوس قوياً بما يكفي لإيقاظك فإنكَ ستستمر في التراجُع، فإما أنْ تنتهي على مقعد أو تنتهي نائبَ رئيس. كله سواء، لخبطة دموية لعينة، مهزلة، إخفاقٌ تام من البداية وحتى النهاية. أعرف هذا لأنني خضتُ فيه، لأنني استيقظت. وحين أفقتُ تركت العمل؛ خرجتُ من الباب نفسه الذي دخلتُ منه، ودون أنْ أقول بعد إذنكَ، سيدي!

إنَّ الأمور تحدث بشكلٍ فوريّ، ولكن أولاً هناك عملية طويلة يجب أنْ تتم. إنَّ ما تحصل عليه عندما يحدث أمر هو الانفجار، وقبل ذلك بلحظة تحدث الشرارة. ولكن كل شيء يحدث وفقاً للقانون - وبموافقة وتعاون كاملين من الكون كله. وقبل أنْ أتمكن من النهوض لأقوم بالتفجير يجب تحضير القنبلة بشكلٍ فعّال، وشحنها كما ينبغي. وبعد وضعَ الأمور في حالة تأهّب لأولاد الحرام هناك في الأعلى، كان يجب إنزالي عن حصاني المرتفع، ورفسي ككرة، كان يجب أنْ أداس، وأسحَق،

وأُذلّ، وأقيَّد، وأُصفَد، أنْ أُجعَل رخواً كقنديل البحر. طوال حياتي لم أحتج أبداً إلى أصدقاء، ولكن في تلك الفترة بالذات بدوا وكأنهم ينبتون من حولي كالفطر. لم أحصل على لحظة أمتلكها وحدي. فإذا ذهبت إلى المنزل ليلاً، آملاً في نيل قسطٍ من الراحة، أجدُ أحدهم في انتظاري. وأحياناً تكون هناك مجموعة كاملة منهم ولا يبدو أنَّ هناك فرقاً سواء أحضرت أم لم أحضر. وكل مجموعة من الأصدقاء أتعرَّف عليها كانت تكره المجموعة الأخرى. ستانلي، مثلاً، كان يكره المجموعة كلها. ألريك أيضاً كان يزدري الآخرين. كان قد عاد لتوّه من أوروبا بعد غياب عدّة سنوات، ولم نكن قد تقابلنا منذ عهد الطفولة. وذات يوم، وبالمصادفة البحتة، تلاقينا في الشارع. ذلك اليوم كان يوماً هاماً بالنسبة إليّ، لأنه فتحَ أمامي عالماً جديداً؛ عالماً طالما حلمتُ به دون أملٍ في أنْ أشهد تحقُّقه. وأذكر بحيوية أننا كنا نقف عند منعطف الشارعَين السادس والتاسع والأربعين قُرابة الفجر. أتذكّره لأنه بدا أمراً متنافراً تماماً أنْ أصغي إلى رجلٍ يتحدث عن جبل إتنا وجبل فيزوف وكابري وبومبي ومراكش وباريس عند منعطف الشارعين السادس والتاسع والأربعين، في مانهاتن. أذكرُ كيف تلفَّتَ حوله وهو يتكلّم، كما لو أنه لا يدرك تماماً ماذا يبغي، ولكن ينتابه شعور غامض بأنه ارتكبَ خطأً شنيعاً بعودته. بدت عيناه كأنهما تقولان طوال الوقت : ليس لهذا أي معنى، أي معنى مهما كان. لكنه لم يتفوه بأي كلمة، بل أخذ يُردِّد ويُكرر " أنا واثق من أنها ستعجبك ! إنها المكان الملائم لك ! ". وحين غادرني كنتُ في حالة من الذهول. ولم ألتقِ به من جديد سريعاً؛ أردتُ أنْ أسمع ما قال من جديد، بتفصيلٍ دقيق. لم أقرأ أبداً عن أوروبا ما يُضاهي هذا الوصف

المتوهِّج الذي نطق به صديقي. وما زاد الأمر إعجازاً أننا نشأنا في بيئة واحدة. وقد نجحَ هو لأنَّ لديه أصدقاء أثرياء، ولأنه كان يعرف كيف يوفّر نقوده. لم أتعرَّف دهري على شخص واحد ثري وكثير السفر، ممَّن يودعون المال في البنك. كل أصدقائي كانوا مثلي، يعيشون كَفاف يومهم، ولا يفكّرون لحظة واحدة في المستقبل. نعم، أومارا كان يسافر قليلاً؛ جابَ العالم كله تقريباً، ولكن كمتشرِّد وسِكّير، أو أثناء التحاقه في الجيش، وهذا أسوأ من وضعه وهو متشرِّد. كان صديقي ألريك أول شخص قابلته وأقول عنه بحقّ إنه سافر. وكان يعرف كيف يتحدَّث عن تجاربه.

نتيجة تلك المقابلة التي تمّت مُصادفةً في الشارع بتنا نتقابل بعد ذلك باستمرار، وعلى امتداد أشهرٍ عدّة. كان يتّصل بي بعد العشاء ونتمشّى في الحديقة العامة المجاورة. وكم كنتُ ظمآن ! وكل تفصيل دقيق عن العالم الآخر فتنني. وحتى الآن، بعد مرور سنين وسنين. حتى الآن، وأنا أعرفُ باريس وكأنني أقرأها في كتاب، لا تزال الصورة التي رسمها لي لباريس تمثُلُ أمام عينيّ؛ لا تزال مُفعمة بالحياة، لا تزال حقيقية. أحياناً بعد هطول المطر، وبينما أنا أعبر المدينة بالسيارة، أرى بلمحات سريعة جداً تلك الباريس التي وصفها، مجرَّد نُتفٍ لحظيّة، ربما وأنا أمرُّ بالتويلري، أو لمحة من مونمارتر، أو من كنيسة القلب الأقدس، خلال شارع لافيت، عند آخر دفقٍورديّ للفجر. مجرَّد ***صبي من بروكلن*** ! كان ذلك تعبيراً يستخدمه عادةً حين يشعر بالخجل من عجزه عن التعبير عن نفسه بشكلٍ وافٍ. وأنا أيضاً كنتُ مجرَّد صبي من بروكلن، أي أحد آخر الرجال وأقلّهم شأناً. ولكن بينما أنا في تجوالي أحتكُّ بالمناكب مع العالم، نادراً ما يحدث أنْ أقابل مَنْ يستطيع أنْ يُجاري وصفه الجميل

والأمين لِما يشعر. وتلك الأمسيات التي أمضيتُها في حديقة بروسبكت مع صديقي ألريك هي المسؤولة، أكثر من أي شيء آخر، عن وجودي هنا اليوم. إنَّ مُعظم الأماكن التي وصفها لي لم أشاهدها بعد؛ وربما لن أشاهد بعضها أبداً. لكنها تحيا داخلي، دافئة وحيوية، تماماً كما ابتدعها خلال جولاتنا في أرجاء الحديقة العامة.

ذلك الحديث عن العالم الآخر كان يتضافر مع كامل إنجاز ونسيج أعمال لورنس. وغالباً، بعد أنْ كانت الحديقة العامة تفرغ من مرتاديها بوقتٍ طويل، نبقى جالسَين على أحد المقاعد نناقش طبيعة أفكار لورنس. وحين أستعيد ذكرى تلك النقاشات الآن أدركُ كم كنتُ مُشوَّشَ الذهن، كم كان جهلي بحقيقة معنى كلمات لورنس مُثيراً للرثاء. ولو أني فهمتُها حقاً لما اتَّخذَتْ حياتي المنحى الذي اتّخذته. إنَّ مُعظمنا يعيشُ الردح الأكبر من حياته مغموراً . وطبعاً في حالتي أستطيع أنْ أقول إنني لم أظهر على السطح إلاّ بعد أنْ غادرتُ أميركا. لعلَّ لا دخلَ لأميركا في الأمر، ولكن تبقى حقيقة أنَّني لم أفتح عينيّ واسعاً وبشكلٍ كامل ولم أرَ بوضوح إلى أنْ وصلتُ باريس. ولعل سبب ذلك يعود إلى أنني تبرَّأتُ من أميركا، تبرَّأتُ من ماضيّ.

تعوَّدَ صديقي كرونسكي أنْ يسخر من " فورات نشاطي ". كانت تلك طريقة خبيثة منه ليُذكِّرني، وأنا في فورة من المرح، بأنَّه في الغد سيجدني مُبتئساً. وكان على حق. لم يكن لديّ غير فترات من السعادة والشقاء؛ فترات طويلة من الكآبة والحزن تتبعها تفجّرات مُبهرجة من المرح، من الإلهام الشبيه بالغشية. لم أكن أبداً في حالة توازن. يبدو غريباً قولي هذا، لكنني أبداً لم أكن نفسي. كنتُ إما مجهولَ الهوية أو

شخصاً اسمه هنري ميللر وصل إلى الذروة. في المزاج الأول، مثلاً، أستطيع أن أسرد كتاباً كاملاً على مسمع هايمي أثناء ركوبنا الحافلة. هايمي، الذي لم يشك لحظة واحدة في أني مدير استخدام ناجح. أكادُ أرى عينيه الآن حين نظر إليّ ذات ليلة حين كنتُ في إحدى حالات "فورة النشاط". كنا قد ارتقينا متن الحافلة فوق جسر بروكلن في طريقنا إلى شقة تقع في غرينبوينت حيث كانت تنتظرنا عاهرتان لاستقبالنا. وبدأ هايمي يحدثني بأسلوبه المعتاد عن بويضات زوجته. أولاً لم يكن يعلم بالضبط معنى كلمة بويضات فقمت بشرحها له بأسلوبٍ فجّ وبسيط. ووسط شرحي بدا لي فجأةً أنَّ عدم معرفته معنى كلمة بويضات شيء مأساوي بعمق ومُثير للسخرية، حتى إني ثملت وكأني صببتُ ربع غالون من الويسكي في جوفي. ومن فكرة البويضات المريضة بزغَ بومضة بسرعة البرق شيءٌ أشبه بنبات استوائي مُكوَّن من مجموعة من النثريات الشديدة التبايُنْ استكان وسطها بكل اطمئنان كلٌ من دانتي وشكسبير. وفي اللحظة ذاتها تذكَّرت فجأةً كامل سلسلة أفكاري الخاصة التي انبثقتْ بدءاً من منتصف جسر بروكلن وقاطعَتْها فجأةً كلمة "بويضات". وأدركتُ أنَّ كل ما قاله هايمي إلى أنْ ذُكِرَتْ كلمة " بويضات "، تسرَّبَ مني كالرمل. وما بدأته، وسط جسر بروكلن، هو ما كنتُ قد بدأته مراراً وتكراراً في الماضي، عادةً حين أتمشّى حتى دكان والدي، وهو أداء يتكرَّر يوماً بعد يوم كما لو أني في حالة نشوة. وباختصار، ما كنتُ قد بدأته هو كتاب عن الساعات، عن الضجر والرتابة في حياتي وسط نشاط ضارٍ. كانت قد مرّت سنوات عديدة لم أفكِّر خلالها في ذلك الكتاب الذي تعوَّدتُ أنْ أكتبه في كل يوم أثناء قطع المسافة بين شارع ديلانسي

وحتى مري هيل. ولكن عبور الجسر بينما الشمس تغرب، وناطحات السحاب تلمع كجُثثٍ مُتفسفرة، وتنهضُ ذكرى الماضي... ذكرى قطع الجسر جيئة وذهاباً، التوجه إلى مركز عمل مُساوٍ للموت، والعودة إلى المنزل الذي كان معرضاً للجثث، أستظهرُ فاوست وأطلُّ على المقبرة، وأبصق نحو المقبرة من القطار المرفوع، الحارس نفسه يقفُ على المنصّة في صباح كل يوم، وشخص أبله، والبلهاء الآخرون يقرؤون صُحُفهم، ناطحات سحاب جديدة تنهض، قبور نحفرها ونموت فيها، القوارب تمرُّ من تحتي، خط فول ريفر، خط ألباني داي، لماذا أنا ذاهب إلى مقرّ العمل، ماذا سأفعل هذه الليلة، العاهرة الدافئة إلى جواري وهل أستطيع أنْ أدخل براجم أصابعي داخل عورتها، اهرُبْ وكُنْ راعي بقر، جرِّب في ألاسكا، مناجم الذهب، اهربْ وانعطفْ، لا تُمتْ الآن، انتظر حتى يوم آخر، ضربة حظ، نهر، انْهِ الأمر، أسفل، أسفل، نازع السدادات، رأس وكتفان في الطين، ساقان حُرّتان، السمكة ستأتي وتعضّ، غداً حياةٌ جديدة، أين، في أي مكان، لماذا أبدأ من جديد، الوضع نفسه في كل مكان، الموت، الموت هو الحل، ولكن لا تُمتْ الآن، انتظر حتى يوم آخر، ضربة حظ، وجه آخر، صديق جديد، ملايين الفُرَص، أنتَ ما تزال غضاً جداً، أنتَ كآبة، أنت لا تموت الآن، انتظر حتى يوم آخر، ضربة حظ، اللعنة على أي حال، وما إلى ذلك عبر الجسر باتجاه السقيفة الزجاجية، الجميع مُلتصقون معاً، ديدان، نمل، يزحفون خارجين من شجرة ميتة وأفكارها تزحف بالطريقة نفسها... ربما، بما أني أقعُ عالياً بين شاطئين، مُعلّقاً فوق حركة المرور، فوق الحياة والموت، على كلا الجانبين قبور، قبور تتوهّج بنور شمس تحتضر، النهر يتدفق بلا هُدى، يتدفق كالزمن نفسه،

ربما في كل مرة أمرُّ عالياً، كان هناك شيء يشدّني، يحثّني على أخذه، على الإعلان عن نفسي؛ على أي حال في كل مرة أمرُّ من فوق أكون وحدي حقاً، وكلما حدث ذلك يبدأ الكتاب بكتابة نفسه، يصرخ الأشياء التي لم أتفوَّه بها أبداً، الأفكار التي لم أبُحْ بها أبداً، الأحاديث التي أبداً لم أشارك فيها، الآمال، والأحلام، والضلالات التي لم أعترف بها. إذا كانت هذه حينئذٍ الذات الحقيقية فقد كانت رائعة، وزيادةً على ذلك بدا أنها لن تتغيَّر أبداً بل دائماً تبدأ من آخر نقطة توقُّف لتستمر على المسار نفسه، مسار طرقتُهُ حين كنتُ طفلاً ومشيتُ في الشارع للمرة الأولى وحدي فوجدتُ وسط الثلج الممزوج بالطين في المجرور قطاً ميتاً ومتجمّداً، كانت المرة الأولى التي أرى فيها الموت وأفهمه. ومنذ تلك اللحظة عرفت معنى أنْ أكون معزولاً : كل مادة، كل شيء حيّ وكل شيء ميت يعيش وجوده المستقل. أفكاري أيضاً عاشت وجودها المستقلّ. وفجأةً، نظرتُ إلى هايمي وفكّرتُ في تلك الكلمة الغريبة " بويضات "، التي أضحتْ الآن أشد غرابة من أي كلمة في المفردات كلها، هذا الشعور بالعزلة الباردة اجتاحني بينما هايمي جالس إلى جواري أشبه بضفدع، وهو ضفدع دون أدنى شك ولا شيء آخر. كنتُ أقفزُ من الجسر إلى قلب النزّ البدائي، الساقان واضحتان وتنتظران العضّ؛ مثل ذلك الشيطان الذي غاص من السموات، نافذاً إلى مركز الأرض، باندفاعٍ مباشر ودكَّ حتى وصل إلى مركز الأرض، إلى أعمق نقطة في الجحيم، وأشدها حرارة، وكثافة، وحلكة. كنتُ أسيرُ خلال صحراء موجاف والرجل الذي إلى جواري ينتظر هبوط الليل لكي ينقضَّ عليّ ويذبحني. كنتُ أسير من جديد في أرض الأحلام وهناك رجل يسير

فوقي على حبلٍ مشدود وفوقه رجلٌ جالس في طائرة يتهجّى أحرفاً مرسومة بالدخان على صفحة السماء. المرأة المُشتبكة بذراعي حُبلى وفي غضون ست سنوات أو سبع من الآن سوف يتمكن الشيء الذي تحمله داخلها من قراءة الأحرف المرسومة على صفحة السماء وسوف يعلم هو أو هي أنَّ ما رسمها هو دخان سيجارة ولاحقاً سوف يُدخِّن سيجارة، ربما علبة في اليوم الواحد. في الرحم تشكّلَتْ الأظافر على كل إصبع يد، وإصبع قدَم كبير؛ يمكنكَ أنْ تتوقف حيث أنت، على طرف إصبع القدم الكبير، أصغر ظِفر إصبع قدم يمكن تخيُّله ويمكنكَ أنْ تكسر رأسك بسببه، وأنتَ تحاول أنْ تفهم. على أحد طَرَفيّ دفتر السجلات دُوِّنَتْ أسماء الكتب التي ألّفها الإنسان، وتحتوي خليطاً مشوّشاً من الحكمة والهراء، من الحقيقة والزيف، بحيث لو أنَّ المرء يعيش حتى يبلغ عمر ميتوشالح لما استطاع أنْ يفكك ذلك الخليط المُشوَّش؛ وعلى الجانب المقابل من الدفتر أسماء أشياء مثل أظافر أصابع الأقدام، وشعر، وأسنان، ودم، ***وبويضات***، إذا شئت، عددها لا يُحصى وكلها كُتبَتْ بنوعٍ مُختلف من الحبر، بخط كتابة مُختلف، غير مفهوم، لا يُفكُّ طلسَمَه. عينا الضفدع مُصوّبتان إليّ كزرّيّ ياقة مغروزين في شحمٍ بارد؛ كانا مغروزين في العَرَق البارد للنزّ البدائي. كل زر ياقة كان بويضة جاءت غير ملتصقة، رسماً أُخِذَ من القاموس دون عونٍ من الدرس المُجدّ؛ كل بويضة على شكل زر باهتة في الشحم الأصفر البارد لمقلة العين تنتج برودةً تحت أرضية، حلبة تزلج في الجحيم حيث يقفُ الناس مقلوبين رأساً على عقب على الثلج، والسيقان سائبة وتنتظر قضمة. هنا سار دانتي وحيداً، مُثقلاً برؤاه، وتحرَّكَ بالتدريج خلال عدد لا متناهٍ من الدوائر

باتجاه كبد السماء لكي يُتوَّج على رأس أعماله. هنا سقط شكسبير ذو الجبين الأملس في حلم يقظة من الحنق لا قرار له لكي يظهر على هيئة طبعةِ أعمالهِ بالقطع الربعي الأنيق وتلميحات. صقيعُ أبيض مزرقّ من اللا فهم جرفته عواصف هوجاء من الضحك. ومن مركز عين الضفدع انبثقت برامق[1] بيضاء نظيفة من الصفاء الصِرف لا تُزوَّد بحواشٍ ولا تُصنَّف، ولا تُرقَّم أو تُعرَّف، بل تدور عمياء داخل تغيُّرٍ متنوِّع الألوان. كان هايمي الضفدع رأس بطاطا بيضاويّ نبت في الممر العالي بين شاطئين: بالنسبة إليه ناطحات السحاب بُنيَتْ، والبرّية أُزيلَتْ، والهنود ذُبحوا، والجواميس أبيدت؛ بالنسبة إليه المدينتان التوأم اتَّصلتا بجسر بروكلن، والقيسونات[2] أُغرِقَتْ، والكابلات عُلِّقَتْ من برجٍ إلى برج؛ بالنسبة إليه جلسَ الناس مقلوبين رأساً على عقب في السماء يكتبون كلمات من نارٍ ودخان؛ بالنسبة إليه اختُرِعَ المُخدِّر وكُلاّب الجرّاحين متطوِّر ومدفع بيغ برثا الذي في إمكانه أنْ يُدمِّر كل ما يقع ضمن مجال النظر؛ بالنسبة إليه الجزيئ كُسِرَ واتّضحَ أنَّ الذرّة خالية من المادة؛ بالنسبة إليه تُمسَح النجوم كل يوم بتلسكوبات وهناك عوالِم ستولَد تجلَّت في عملية الحمل؛ بالنسبة إليه استُخِفَّ عوائق الزمن والفراغ وأضحت الحركة كلها، سواء أتمثّلتْ في طيران الطيور أم في ثورة الكواكب، بسّطها الكهنة الكبار في الكون المُتحرِّر بشكلٍ لا يُدحض ولا يشوبه الشك. ثم، في وسط الجسر، وسط السير، دائماً وسط شيءٍ ما، سواء أكان كتاباً، أم حديثاً، أم مُضاجعة، كنتُ أحمله داخلي من

---

١ – برامق : هي أشعة دولاب الدراجة الهوائية الممتدة من مركزه إلى الإطار .

٢ – القيسون : حُجرة صامدة للماء تُستخدَم في البناء تحت الماء .

جديد بحيث إني لم أفعل أبداً ما أردتُ أنْ أقوم به ومن عدم تنفيذي لِما أردتُ أنْ أفعله نبتَ داخلي هذا الخلق الذي لم يكن إلاّ نبات هاجسيّ، أشبه بنبات مرجانيّ، كان يُصادرُ كل شيء، بما في ذلك الحياة ذاتها، إلى أنْ أضحتْ الحياة ذاتها ذلك الشيء المُنكَر ولكنه دائماً يؤكّد على وجوده، يصنع الحياة ويقتلُ الحياة في وقتٍ واحد. أكاد أراه مُستمراً حتى ما بعد الموت، كشعرٍ ينبتُ على جثة، ويقول الناس "موت" لكنَّ الشعرَ لا يفتأ يشهد على وجود حياة، وأخيراً لا موت بل هذه الحياة من الشعر وقُلامات الأظافر. الجسد اندثر، والروح انطفأتْ، ولكن في الموت يبقى هناك شيء حي، يُصادر الفراغ، يخلق الزمن، يُحدِث حركة لا نهائية. هذا الليل وُجِدَ بفعل الحب، أو الحزن، أو الولادة بقدم مشوَّهة؛ السبب لا شيء، الحَدَث كل شيء. ***في البدء كانت الكلمة***... مهما كان معناها، الكلمة، مرضاً أم خلقاً، فلا تزال فعّالة وحيّة؛ وسوف تبقى كذلك وتستمر في بزّ الفراغ والزمن، وتعيش أكثر من الملائكة، وتخلع الله عن عرشه، وتحلُّ زمام الكون. إنَّ أي كلمة تحتوي الكلمات كلها - بالنسبة إلى مَنْ انفصلَ عبر الحب أو الحزن أو كائناً ما كان السبب. وفي كل كلمة يجري التيار عائداً إلى البداية التي ضاعت ولن يُعثَر عليها أبداً بما أنه ليست هناك بداية ولا نهاية بل فقط ذلك الشيء الذي يُعبِّرُ عن نفسه في البداية والنهاية. وهكذا، على متن الحافلة المبيضيّة كان هناك ذلك الرجل والضفدع الرحّالة المؤلّف من مادة متماثلة، لا أفضل ولا أسوأ من دانتي لكنه يختلف اختلافاً تاماً عنه، واحدٌ لا يعرف بالضبط معنى أي شيء، والآخر يعرف بدقة مفرطة معنى كل شيء، وهكذا تاه كلاهما وتشوَّشا خلال بدايات ونهايات، وأخيراً استقرّا في جاوا أو شارع الهند،

في غرينبوينت، وهناك عادا إلى تيار الحياة، كما يُقال، على يد دميتين محشوتين بنشارة خشب مزودتين بمبيضات من تشكيلة بطنيات الأقدام[1] الشهيرة.

إنَّ ما يُدهشني الآن باعتباره البرهان الأروع على توائمي، أو عدم توائمي، مع العصر هو أنَّ لا شيء مما يكتبه الناس أو يتحدثون عنه كان يُثير لديَّ أي اهتمام. وحدها المادة مسّتني، ***الشيء*** المُنفصل المتوحد، التافه. لعلَّ ما عثرتُ عليه في المجرور هو جزء من الجسد الإنساني أو دَرَج سُلَّم في دار لعروض المسرح الهزلي؛ لعله مِدخنة أو زِر. وكائناً ما كان فقد مكَّنني من الانفتاح، من الاستسلام، من وضع توقيعي. لم أستطع أنْ أضع توقيعي على الحياة من حولي، على الناس الذين شكّلوا العالم الذي عرفته. كنتُ بعيداً عن عالمهم كبُعد أحد آكلي لحم البشر عن حدود المجتمع المتمدِّن. كنتُ مملوءاً بحبٍ مُنحرف للشيء- في- ذاته ليس بمادة مُلحَقَة فلسفية، بل بجوعٍ عنيف، عنيف حتى اليأس، وكأنما في ***الشيء*** التافه، المنبوذ، الذي أهمله الجميع كان يكمن سرّ انبعاثي.

أثناء عيشي في عالمٍ يحتوي على الكثير من الجديد بقيتُ على اتّصال مع القديم. كان في كل مادة ذرّة دقيقة جذبت انتباهي بصورة خاصة. كنتُ أتمتَّع بعينٍ مجهريّة ترى كل ما هو مُلطَّخ، كل ذرّة من القبح التي شكَّلتْ بالنسبة إليّ الجمال الفريد للمادة. ومهما كان ما عزل المادة، أو جعلها غير مفيدة، أو خارج العصر، قرَّبها من قلبي وجذبني إليه. فإنْ كان هذا شيئاً مُنحرفاً فهو أيضاً صحّي، بالنظر إلى أنّه لم يُقدَّر لي أنْ

---

١ – بطنيات الأقدام : من رتبة الرخويات التي تضم الحلازين

أنتمي إلى هذا العالم الذي كان ينبع من حولي. وسرعان ما سأصبحُ أنا أيضاً مثل تلك المواد التي بجّلتُها، شيئاً منفصلاً، عضواً غير نافع في المجتمع. لقد كنتُ دون أدنى شك خارج العصر، هذا مؤكّد. ومع ذلك كنتُ قادراً على أنْ أسلّي، أوجّه، أغذّي. ولكنّني لم أُقبَلْ، بطريقة. وحين أشاء، حين يتوفّر لديَّ الحافز، كان في استطاعتي أنْ أنتقي أيَّ رجل، من أي طبقة من طبقات المجتمع، وأجعله يُصغي إليّ. كان في استطاعتي أنْ أسحره، لو شئت، ولكن، وكالساحر، أو العرّاف، فقط إذا كنتُ في المزاج الملائم. في أعماقي كنتُ أشعر بالريبة الكامنة في الآخرين، بالقلق، بالعداء الذي لا براء منه، لأنه غريزيّ. كان يجب أنْ أعملَ مُهرّجاً؛ كان ذلك سيمدّني بأوسع مجال للتعبير. لكنني استخففتُ بالمهنة. ولو أنني أصبحتُ مُهرّجاً، أو حتى ممثل هزلي يسلي الجمهور، لأصبحت مشهوراً. كان الناس سيحبّذون ذلك لأنهم بالضبط لن يفهموا؛ لكنهم كانوا سيفهمون أنه ليس من المفترض أنْ أُفهَم. كان ذلك سيكون مصدر راحة لي، على أقلّ تقدير.

لطالما أذهلني مدى السهولة التي يتكدَّر بها الناس من مجرَّد الإصغاء إلى حديثي. لعلَّ حديثي كان مطنباً، على الرغم من أنَّ هذا كان غالباً يحدث عندما ألزم الصمت التام. وتشكُّل عبارة، واختيار صيغة صِفة غير موفّقة، والسهولة التي كانت تأتي بها الكلمات إلى شفتيّ، وتلميحات إلى مواضيع مُحرَّمة - كل شيء تآمر لإبرازي كخارج عن القانون، كعدوّ للمجتمع. ومهما بدأت الأمور بداية حسنة فإنهم عاجلاً أو آجلاً كانوا يكشفون أمري. وإذا كنتُ، مثلاً، محتشماً ومتواضعاً، فأنا مفرط الحِشمة والتواضُع. وإذا كنتُ مرحاً وعفوياً، وجريئاً ومتهوّراً،

فأنا أغالي في ممارسة الحرية وفي المرح. لم أكن أستطيع أنْ أتوصَّل au point (إلى توافق) مع الشخص الذي يُصادف أنني أتحدّث إليه. ولو لم تكن مسألة حياة أو موت - كان كل شيء بالنسبة إليّ حينئذٍ يتعلّق بالحياة وبالموت - لو أنها كانت مجرد مسألة قضاء أمسية ممتعة في منزل أحد المعارف، لكان الأمر سيّان لديّ. كانت هناك اهتزازات تنبعثُ من جسمي، عالية ومنخفضة، غيَّرتْ الجو العام بصورة مزعجة. لعلهم طوال فترة السهرة كانوا يتسلّون بقصصي، ولعلي ربطتهم برابط مُشترك، كما كان يحدثُ غالباً، وبدا كل شيء يسير سيراً حَسَناً. ولكن يشاء القَدَر أنْ يحدث أمر قبل بلوغ الأمسية نهايتها، وتنطلقُ بعض الاهتزازات تجعل الثريا ترن أو تُذكِّر أحد المخلوقات الحسّاسة بوعاء التبوُّل الموجود تحت السرير. حتى بينما عاصفة الضحك لا تزال تخفت يبدأ الشعور بالحقد بالظهور. ويقولون " نأمل في أنْ نراك في وقتٍ آخر"، لكنَّ اليدَ الرخوة، الرطبة الممدودة تُكذِّب الكلمات.

Persona non grata! (شخص غير مرغوب فيه!) يا إلهي، كم تبدو هذه الجملة جليّة الآن ! لا سبيل للاختيار والانتقاء : عليَّ أنْ أقبل ما يُعرَض عليّ وأنْ أتعلَّم أنْ أحبّه. كانَ عليّ أنْ أتعلَّم أنْ أعيشَ مع الحثالة، وأنْ أسبح كجرذ المجرور أو أغرق. فإذا اخترتَ أنْ تنضمَّ إلى القطيع تصبح منيعاً. ولكي تُقبَلْ وتُقدَّر حقَّ قدرك عليك أنْ تُلغي نفسك، تجعل نفسك غير مُميّز عن القطيع. ويمكنكَ أنْ تحلم، إذا كنتَ تحلم في الوقت نفسه. ولكنْ إذا حلُمتَ بشيءٍ مُختلف فأنتَ لستَ في أميركا، لستَ من أميركيّي أميركا، بل من هوتنتوت أفريقيا، أو الكالمُكْ، أو من قرود التشيمبانزي. وحالما تحصل على فكرة " مختلفة "

لا تعود أميركياً. وحالما تصبح مُختلفاً تجد نفسك في ألاسكا أو في جزيرة إيستر أو في أيسلندا.

هل أقول هذا بحقد، بحَسَد، بخبث؟ ربما. وربما ندمتُ لعدم قدرتي على أنْ أصبح أميركياً. *ربما*. وبما أني في ذروة حماستي، وهي أيضاً صفة *أميركية*، أوشكُ أنْ ألدَ صرحاً ضخماً، ناطحات سحاب سوف تدوم دون أدنى شك زمناً أطول بعد زوال باقي ناطحات السحاب، لكنها ستزول هي أيضاً بزوال ذاك الذي أنتجها. إنَّ كل ما هو أميركي سيزول ذات يوم، زوالاً أتمّ من كل ما هو إغريقي، أو روماني، أو مصري. هذه *إحدى* الأفكار التي دفعتني إلى خارج سيل الدماء الدافئ، المريح، حيث كنا، وجميعنا من الجواميس، نرعى في سلام. فكرة سبَّبت لي حزناً، ذلك أنَّ عدم الانتماء إلى شيءٍ باقٍ هو آخر الأحزان. لكنني لستُ جاموساً وليست لدي رغبة في أنْ أكونَ واحداً. إنني حتى لستُ جاموساً *روحياً*. لقد تسللتُ لأنضمّ إلى تيار وعي قديم، إلى سلالة سابقة للجواميس، سلالة ستبقى بعد زوال الجاموس.

إنَّ كل الأشياء، كل الأشياء الحيّة وغير الحيّة *مختلفة*، مُتّسمة بسمات لا تُمحى. إنَّ ما أنا عليه لا يُمحى، لأنه مُختلف. هذه ناطحة سَحاب، كما قلت، لكنها مُختلفة عن ناطحة السحاب المعتادة a l'americaine (على الطريقة الأميركية). ناطحة السحاب هذه غير مُزوَّدة بمصاعد، ولا وجود لنوافذ في الطابق الـ ٣٧ لكي تقفز منها. وإذا سئمتَ الارتقاء فأنتَ غير محظوظ. إذ ليس هناك دليل للممرات في البهو الرئيسي. فإذا كنتَ تفتش عن أحدهم فسوف يتوجب عليك أن تفتش عليه بنفسك. وإذا أردتَ أنْ تشرب شيئاً فسوف تضطر إلى الخروج والحصول على المشروب؛

ليس هناك نوافير تقذف الصودا في ذلك البناء، ولا محلات لبيع السيجار، ولا حجيرات هواتف. كل ناطحات السحاب الأخرى تحتوي على ما تريد ! أما هذه فلا تحتوي إلا على ما أريده ***أنا***، ما أحبه ***أنا***. وفي مكان ما من ناطحة السحاب هذه تحقق فاليسكا وجودها، وسوف نصل إليها حينَ يُحثني العزم. وحتى ذلك الوقت هي على ما يُرام، أعني فاليسكا، بما أننا نعلم أنها على عمق ستة أقدام ولعلَّ الديدان نهشتها الآن. وحين كانت تحتفظ بلحمها نُهِشَتْ أيضاً من ديدانٍ بشرية لا تكنُّ أيَّ احترامٍ لأي شيء يتسم بلمسة اختلاف، بعَبَقٍ مختلف.

المُحزِن في أمر فاليسكا أنه كان يجري في عروقها دم زنجي. وقد سبَّبَ ذلك الحزن لكل مَنْ حولها. كانت تجعلك تعي ذلك شئتَ ذلك أم أبيته. الدم الزنجي، كما قلت، وحقيقة أنَّ أمها كانت عاهرة. الأم كانت بيضاء طبعاً. لا أحد كان يعلم مَنْ هو الأب، ولا حتى فاليسكا نفسها.

سار كل شيء على أحسن ما يرام إلى أنْ تصادفَ ذات يوم أنَّ كان يهوديٌ فضوليٌ حقير يعمل في مكتب نائب الرئيس يتجسَّس عليها. وأصابه الرعب، كما أخبرني سراً، لفكرة أنني استخدمتُ شخصاً ملوَّناً كسكرتير لي. تكلَّمَ كما لو أنها يمكن أنْ تُعدي السُعاة. وفي اليوم التالي عنّفوني، تماماً كما لو أنني ارتكبتُ فعل تدنيس. وطبعاً تظاهرتُ بأني لم ألاحظ أي شيءٍ غير عادي فيها، باستثناء كونها تتمتَّع بذكاء وقّاد ومقدرة فائقة. وأخيراً جاء الرئيس نفسه. جرى استجوابٌ قصير بينه وبين فاليسكا عرضَ عليها خلاله بكثير من الدبلوماسية أنْ يمنحها موقعاً أفضل في هافانا. لم يأتِ على أي ذكر للدم المختلَط. فقط على أنَّ خدماتها كانت متميِّزة وأنهم يرغبون في

ترقيتها - بإرسالها إلى هافانا. عادت فاليسكا إلى غرفة المكتب وهي شديدة الغضب. وحين كانت تغضب تصبح رائعة. قالتْ إنها لن تتزحزح من مكانها. كان ستيف روميرو وهايمي حاضرَين حينئذٍ وخرجنا جميعاً لنتناول طعام العشاء. وفي سياق الأمسية كنا متوترين قليلاً. كان لسان فاليسكا لا يكف عن الثرثرة. وفي طريق عودتنا إلى المنزل أخبرتني بأنها ستثيرُ شجاراً؛ أرادتْ أنْ تعرف إنْ كان ذلك سيؤثِّر سلباً على عملي. فقلتُ لها بهدوء إنها إذا طُردَتْ فسأستقيل أنا أيضاً. تظاهرت في أول الأمر بأنها لا تصدِّق ما أقول. فقلتُ إني جادّ، وإنني لا آبه لما حدث. بدت مُغالية في تأثّرها؛ فأمسك بكلتا يديّ وحملتهما برقة شديدة، والدموع تتدحرج على وجنتيها.

تلك كانت بداية الأشياء. أعتقد أنني في اليوم التالي مباشرةً أرسلتُ إليها رسالة صغيرة أقول فيها إنني مجنونٌ بها. قرأتْ الرسالة وهي جالسة قبالتي وبعد أنْ انتهت نظرتْ في عينيّ مباشرةً وقالتْ إنها لا تصدق ذلك. لكننا ذهبنا مرةً أخرى لتناول طعام العشاء في مساء ذلك اليوم وشربنا كثيراً ورقصنا وبينما كنا نرقص ضغطتْ نفسها عليّ بفسق. ويشاء الحظ أنْ تكون زوجتي في ذلك الوقت تستعد لإجراء عملية إجهاض أخرى. كنتُ أخبر فاليسكا عن الأمر ونحن نرقص. وفي الطريق إلى المنزل قالتْ لي فجأةً - " لِمَ لا تدعني أقرضُكَ مائة دولار؟. وفي الليلة التالية دعوتها لتناول العشاء في منزلي لكي أدعها تسلِّم المائة دولار لزوجتي. وذُهلتُ للانسجام الشديد الذي نشأ بينهما. وقبل أنْ تنتهي السهرة كنا قد اتّفقنا على أنْ تأتي فاليسكا في يوم إجراء عملية الإجهاض لتعتني بالطفلة. وحل اليوم المنشود ومنحتُ فاليسكا

يوم أجازة. وبعد أنْ غادَرَتْ بساعة قرَّرتُ فجأةً أنْ آخذ أنا أيضاً إجازة في ذلك النهار. وانطلقتُ إلى مسرح المنوعات في الشارع الرابع عشر. وعلى مقربة من دار المسرح غيَّرتُ رأيي فجأةً. فقد خطر لي أنه إذا ما حصل أي شيء - إذا توفيت زوجتي - فسأشعر بالذنب لأنني في تلك الأثناء كنتُ أقضي وقتاً ممتعاً في مشاهدة مسرح المنوعات. فتمشّيتُ قليلاً في الملاهي البنسيّة[1]، ومن ثم توجهتُ إلى المنزل.

غريبٌ كيف تحدث الأمور. فبينما كنتُ أحاول تسلية الطفلة تذكَّرتُ فجأةً خدعة عَرَضها جدّي عليّ حين كنتُ طفلاً. تأخذ أحجار الدومينو وتصنع منها بارجة حربية عالية؛ ثم وبرفقٍ شديد تسحب مِفرش الطاولة الذي تقف البارجة عليه إلى أنْ تصل إلى حافة الطاولة وفجأةً تشدّه بحركة سريعة وخفيفة فتسقط على الأرض. جربناها مراراً وتكراراً، نحن الثلاثة، إلى أنْ نال النعاس من الطفلة فانتقلَتْ بخطى متقلقلة إلى الغرفة المجاورة واستغرقت في النوم. كانت أحجار الدومينو مُلقاة في كل مكان على الأرض والمفرش أيضاً كان على الأرض. وفجأةً اتّكأت فاليسكا على الطاولة، وزَلَقَتْ لسانها إلى حنجرتي، وأصبحت يدي بين منفرج ساقيها. مددتُها على الطاولة فلفَّتْ ساقيها حولي. شعرتُ بإحدى أحجار الدومينو تحت قدمي - وكانت جزءاً من البارجة التي دمّرناها مرات عديدة. وتخيَّلتُ جدّي جالساً على المقعد، وتذكَّرتُ كيف حذَّرَ أمي ذات يوم من أنني صغير جداً ولا ينبغي أنْ أفرِط في القراءة، والنظرة المتأملة المُطِلّة من عينيه وهو يضغط المكواة الحارة على الدرزة الرطبة في

١ - الملهى البنسي : مركز للهو كل أداة من أدوات التسلية فيه يمكن استعمالها لقاء بنس واحد .

المعطف؛ تذكّرتُ الهجوم على سان خوان هيل الذي شنّه رف رايدرز، وصورة تيدي يسير على رأس متطوّعيه في الكتاب الكبير الذي تعوَّدتُ أنْ أقرأه بجوار طاولة العمل؛ وتذكَّرتُ البارجة مين التي طافت فوق سريري في الغرفة الصغيرة ذات النافذة المزودة بقضبان حديدية، وفي الأميرال ديوي وفي شلي وسمبسن؛ تذكَّرتُ الرحلة إلى حوض البحرية التي لم أقُمْ بها لأننا ونحن في الطريق تذكَّر والدي فجأةً أنَّ علينا أنْ نعرِّج على الطبيب بعد ظهر ذلك اليوم وبعد أنْ غادرتُ عيادة الطبيب لم أعُد أملك لوزتين ولا أي إيمان بالكائنات البشرية... وما كدنا ننتهي حتى رنَّ جرس الباب وإذا بها زوجتي عادت إلى المنزل من المسلخ. كنتُ لا أزال أزرِّر فتحة بنطلوني وأنا أعبر الصالون لأفتح البوابة. كانت شاحبة اللون، وبدت كأنها لن تتمكَّن أبداً من إجراء عملية أخرى. أودعناها السرير ومن ثم جمعنا أحجار الدومينو وأعدنا المفرش إلى الطاولة. وكنتُ قبل بضعة أيام في المقهى الصغير المقابل للمنزل، وبينما أنا متوجه إلى المرحاض تصادفَ أنْ مررت باثنين من الأصحاب يلعبان الدومينو. واضطررتُ إلى التوقف برهة والتقطتُ إحدى أحجار الدومينو. أعاد ملمسها إلى ذهني فوراً ذِكرى البوارج الحربية، والقعقعة التي تُصدِرها حين تسقط على الأرض. ومع تلاشي ذِكرى البوارج تلاشت لوزتاي الضائعتان وإيماني بالكائنات البشرية. بحيث إنني في كل مرة أعبر جسر لندن وأطلُّ منه إلى حوض القوى البحرية أشعر كأنَّ أحشائي تسقط. كنتُ أشعر، وأنا في الأعالي، مُعلّقاً بين شاطئين، كأنني مُعلّق فوق هوّة بلا قرار؛ فوق في الأعالي بدا كل ما حدث لي غير حقيقي، بل أسوأ من ذلك - بدا ***غير ضروري***. وبدل أنْ يصِلني الجسر بالحياة،

بالبشر، بنشاط البشر، بدا أنه يفصم تلك الصلات كلها. لا يهم إنْ مشيتُ نحو هذا الشاطئ أو ذاك : كلا الطريقين يقود إلى الجحيم. ونجحتُ بطريقةٍ ما في قطع صلتي بالعالم الذي تصنعه الأيدي البشرية والأدمغة البشرية. لعلَّ جدّي كان على صواب، لعلَّ الكتب التي قرأتها قد أفسدتني وأنا لا أزال برعماً. لكنَّ زمناً طويلاً جداً مرَّ منذ أنْ استولت الكتب على اهتمامي. لقد توقفتُ عن القراءة فعلياً قبل وقت طويل. لكنَّ أثرها لا يزال موجوداً. الآن أصبح الناس هم الكتب بالنسبة إليّ. أقرأهم من الغلاف إلى الغلاف ثم أضعهم جانباً؛ ألتهمهم، واحداً إثر آخر. وكلما قرأتُ أكثر، ازداد نهمي. لا حدود لذلك. قد لا تكون هناك نهاية، ولم تكن هناك من قبل، إلى أنْ بدأ جسرٌ داخلي بالتشكُّل ضمّني من جديد إلى تيار الحياة الذي كنتُ قد فُصمتُ عنه وأنا طفل.

لديّ إحساس رهيب بالعزلة. يُخيِّمُ عليّ منذ سنوات. فإذا صدَّقتُ النجوم فيجب أنْ أصدِّق أنَّني كنت خاضعاً تماماً لهيمنة كوكب زُحل. إنَّ كل ما حدث لي حدث متأخراً جداً بحيث لم تعُد له أي أهمية بالنسبة إليّ. وهذا ينطبق حتى على مولدي. فقد اختيرَ لي أنْ أكون مسيحياً وولدتُ متأخراً نصف ساعة. ولطالما بدا لي أنه قُدِّرَ لي أنْ أكون أحد المميَّزين بفضل مولدهم في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون أول[1] (ديسمبر). الأدميرال ديوي وُلِدَ في ذلك اليوم وكذلك الأمر مع يسوع المسيح... ربما كريشنامورتي أيضاً، حسب معلوماتي. على أي حال، قُدِّرَ لي أنْ أكون من هذا النوع. ولكن نظراً لحقيقة أنَّ أمي كانت تملك

---

١ - أي يوم مولد السيد المسيح عليه السلام .

رحماً قابضاً، وأنها أبقتني في قبضتها كما يفعل الإخطبوط. خرجتُ تحت وضعٍ آخر للأجرام السماوية - ببنية رديئة، إنْ صحَّ التعبير. يقولون - أعني، المُنجّمون - إنَّ ظروفي سوف تتحسَّن باطراد مع مرور الوقت؛ في الواقع، من المفترَض أنْ يكون المستقبل مزدهراً. ولكن ماذا يهمني من المستقبل؟ كان من الأفضل لو أنَّ أمي رقصَتْ على الدَرَج في صباح يوم الخامس والعشرين من شهر كانون أول وكسرت عنقها : كان ذلك سيمنحني بداية مُنصفة ! لذلك، حين أحاول أن أفكِّر في موقع الكسر أعمل باستمرار على رأبه أكثر فأكثر، إلى أنْ لا تبقَى هناك طريقة أخرى لتفسيره إلا بإرجاعه إلى ساعة المولد المتأخرة. حتى أمي، بلسانها اللاذع، بدا أنها فهمت ذلك جزئياً. " دائماً تتبع في الخلف، كذيل البقرة" - هكذا صوَّرتني. لكنَّ هل الذنب ذنبي أنها حبستني داخلها إلى أنْ مرَّت ساعة كاملة؟ لقد أعدَّني القَدَر لكي أكون ذا مواصفات معيَّنة؛ كانت النجوم في حالة اقتران صحيح وكنتُ أنا على تواؤم مع النجوم وأقاوم لأخرج. ولكن لم يكن لدي خيار مع الأم التي كانت ستلدني. لعلي كنتُ محظوظاً لأنني لم أولَدْ أبلهاً، إذا أخذنا في الاعتبار كل الظروف المرافقة. ولكن هناك شيء واحد يبدو جلياً - وهو أحد آثار اليوم الخامس والعشرين - وهو أنني وُلدتُ مع عقدة الصَلْبْ. أي، وعلى وجه الدقة، وُلدتُ متعصّباً. **متعصِّب** ! أتذكَّر هذه الكلمة وهي تُرمى في وجهي بدءاً بأيام طفولتي المُبكِّرة فصاعداً. من والديَّ خاصة. مَنْ هو المتعصِّب؟ إنه الذي يؤمن بحماس ويعمل بيأس على ما يؤمن به. ولطالما كان هناك ما أؤمن به وتورطتُ في المشاكل. وكلما ازداد الضرب على يديّ قويَ إيماني. ***لقد آمنت*** - أما باقي العالم فلم يفعل ! ولو أنَّ المسألة

كانت فقط مسألة تحمُّل الضرب لاستطاع المرء أنْ يواصل لإيمانه حتى النهاية؛ لكنَّ أسلوب العالم أشدُ مكراً من ذلك. وبدل أنْ تُعاقَب تُنسَف، تُفرَّغ، تُسحَب الأرض من تحت قدميك. إنني حتى لا أفكر في الخيانة. الخيانة مفهومة ويمكن مكافحتها. كلا، إنه شيء أسوأ، شيء *أدنى* من الخيانة. إنها السلبيّة التي تجعلكَ تتجاوز نفسك. إنكَ على الدوام تُنفِق طاقتكَ في عملية تحقيق توازن نفسك. أنتَ مُصاب بما يشبه الدوار الروحي، فتترنَّح على شفير الهاوية، ويقفُ شعرك، ولا تصدِّق أنَّ تحت قدميك هوة لا قرار لها. إنه يحدث بسبب الإفراط في الحماس، والرغبة المشبوبة في معانقة الناس، في أنْ تكشف لهم عن حبك. وكلما مددتَ يدك نحو العالم تراجع العالم أكثر. لا أحد يريدُ حباً حقيقياً، أو كراهية حقيقية. لا أحد يريدك أنْ تمدّ يدك إلى أحشائه المقدّسة - ذلك أمرٌ لا يفعله إلا الكهنة في ساعة تقديم الأضحية. وبينما لا تزالُ حياً، بينما الدم لا يزال دافئاً، عليك أنْ تتظاهر بأنه لا وجود لشيءٍ اسمه الدم أو لأشياء مثل الهيكل العظمي تحت غطاء اللحم. ***ابتعد عن العشب*** ! هذا هو الشعار الذي يعيش الناس به.

إذا استمررت في عملية تحقيق التوازن تلك عند شفير الهوة السحيقة فترةً كافية فسوف تصبح متكيّفاً جداً جداً : ومهما كانت الجهة التي تُدفَع نحوها فإنكَ دائماً تُصحّح مسارك. وبما أنكَ في حالة حَسَنة باستمرار فإنكَ تصبح بالتدريج مرِحاً بصورة عنيفة، بل يمكن القول مرَحاً غير طبيعي. وهناك في العالم اليوم شعبان فقط يفهمان معنى تلك الحالة - اليهود والصينيون. فإذا تصادفَ أنكَ لم تكن من أيٍ منهما تجد نفسكَ في ورطة غريبة. إنكَ تضحك دائماً في اللحظة غير المناسبة؛

وسوف يعتبرونكَ فظاً وقاسي القلب في حين أنكَ في الحقيقة فقط صلب ومتين. ولكن إذا ضحكتَ حين يضحك الآخرون وبكيتَ عندما يبكون فاستعدْ لكي تموت كما يموتون وتعيش كما يعيشون. وهذا يعني أنْ تكون على حق وأنْ تعاني أسوأ نتائج موقفك في وقتٍ واحد. يعني أنْ تكون ميتاً وأنتَ حيّ وأنْ تكون حيّاً في حين أنكَ ميّت. في مثل تلك الصحبة يتلبَّسُ العالم دائماً هيئة اعتيادية، حتى في أشد الظروف شذوذاً. لاشيء هو على صواب أو على خطأ بل تفكيرنا يجعله كذلك. إنكَ لم تعُد تؤمن بالواقع بل بالتفكير. وعندما تُدفَع بعيداً عن الطريق المسدودة تذهبُ أفكارُك معك ولا تعود تفيدك في شيء.

بصورةٍ ما، بصورةٍ عميقة، أعني، لم يُدفَع المسيح بعيداً عن الطريق المسدودة. في اللحظة التي كان يمشي بخُطى متقلقلة ويترنَّح وكأنما بحركة ارتدادية، هذا التيار المعاكس السلبي تراكمَ وأخَّر موته. بدا أنَّ كامل دافع الإنسانية السلبي قد التفَّ على هيئة كتلة هائلة خاملة لكي يُحقق الاكتمال الإنساني، المُصوَّر، الواحد والمفرد. كان هناك انبعاث لا تفسير له إلا إذا قبلنا حقيقة أنَّ البشر كانوا دائماً راغبين ومُستعدين لنكران قَدَرهم. إنَّ الأرض تواصلُ دورانها، والنجوم أيضاً، أما البشر: الكمّ الهائل منهم الذين يكوِّنون العالم، فحبيسو صورة الواحد والأوحد.

إذا لم يُصلَبْ المرء، كما حصل للمسيح، إذا نجح في البقاء حياً، في الاستمرار في الحياة متجاوزاً الإحساس باليأس والعُقم، حينئذٍ يحدث أمرٌ غريب آخر. وكأنَّ المرء قد مات فعلاً وقام من جديد حقاً؛ يعيش المرء حياةً فوق عادية، كما يفعل الصينيون. بمعنى، أنه يصبح مرحاً بصورة خارقة، وصحيحاً بصورة خارقة، ولا مبالياً بصورة خارقة. حين يزول

الإحساس المأساوي يستمر المرء في العيش كزهرة، كصخرة، كشجرة، متَّحداً مع الطبيعة وضد الطبيعة في وقتٍ واحد. فإذا توفي أفضل أصدقائك لا تزعج نفسك حتى بالذهاب إلى الجنازة؛ وإذا ما دهست حافلة رجلاً أمام عينيك تواصل طريقك وكأنَّ شيئاً لم يحدث؛ وإذا اندلعت حربٌ تترك أصدقاءك يذهبون إلى الجبهة أما أنتَ فلا تُبدي أي اهتمام بالمجزرة. الخ الخ. وتصبح الحياة مشهداً للفُرجة، وإذا تصادفَ أنْ كنتَ فناناً، تقوم بتسجيل العرض العابر. وتُنسَف الوحشة، لأنَّ القيَمْ كلها، بما فيها قيَمك الخاصة، قد دُمِّرَتْ. ويزدهر التعاطف وحده، لكنه ليس تعاطفاً إنسانياً، تعاطفاً محدوداً - إنه شيء شنيع وشرير. وتصبح لا مبالياً إلى درجة أنكَ تستطيع أنْ تضحي بنفسك من أجل أي إنسان أو أي شيء. وفي الوقت نفسه يتطوَّر اهتمامك، فضولك، بسرعة مُشينة. هذه الأداة مشكوك فيها، بما أنها قادرة على تثبيتك بزرِّ ياقة تماماً كما تثبّتك إلى قضية. ليس هناك فرق أساسي، أبدي بين الأشياء: كل شيء يشكِّل دفقاً، كل شيء قابل للزوال. إنَّ سطح كيانك يتقوَّض على الدوام؛ لكنك من الداخل تصبح صلباً كحجر الألماس. ولعلّ هذا اللب المغناطيسي الصلب داخلك هو الذي يجذبُ الآخرين إليك شاؤوا أم أبوا. وهناك شيء واحد مؤكَّد، وهو أنكَ حين تموت ثم تُبعَث فإنكَ تنتمي إلى الأرض وكل ما تتألَّف منه الأرض هو لك إلى الأبد. تصبح جزءاً من الطبيعة بشكلٍ شاذ، كياناً بلا ظِلّ؛ ولا تموت بعد ذلك بل فقط تتلاشى كالظواهر المنتشرة حولك.

لا شيء مما أدونه الآن كنتُ أعرفه وقتَ كنتُ أمرُّ بالتحوُّل العظيم. كل ما تحمّلتُهُ كان من قبيل الاستعداد للحظة التي أخرجُ فيها من

المكتب، معتمراً قبعتي ذات أمسية، ومن ما كان حتى تلك اللحظة حياتي الخاصة، وأفتش عن المرأة التي ستحرّرني من الموت الحيّ. على ضوء هذا أتذكّرُ الآن تسكّعي الحزين في أرجاء شوارع نيويورك، في الليالي البيضاء حين كنتُ أمشي أثناء نومي وأشاهد المدينة التي وُلدتُ فيها كما يشاهد المرء الأشياء في السراب. وغالباً ما كنتُ أرافقُ أورورك، تحرّي الشركة، في تجوالي في الشوارع الصامتة. غالباً ما كانت الثلوج تغطي الأرض والهواء شديد البرودة. وأوروك يتكلّم بدون انقطاع عن السرقات، عن جرائم القتل، عن الحب، عن الطبيعة الإنسانية، عن العصر الذهبي. وكانت لديه عادةٌ أثناء اندماجه في الموضوع، هي أنْ يتوقف فجأةً في وسط الشارع ويزرع قَدَمه الثقيلة بين قدَميّ بحيث لا أتمكن من التحرُّك. ومن ثم، يقبضُ عليّ من ياقة معطفي، ويُقرِّب وجهه من وجهي ويتكلّم داخل عينيّ، وكل كلمة تحفرُ كأنها مثقاب. أكاد أرى نحن الاثنين واقفين في وسط الشارع عند الساعة الرابعة صباحاً، والرياح تعوي، والثلوج تهطلُ بقوة، وأورورك غائب الوعي عن كل شيء ما عدا القصة التي يزيحها عن صدره. ودائماً أثناء كلامه أتذكّر أنني كنتُ أستوعبُ بطرف عيني المنطقة المجاورة لنا، ولا أعي ما كان يقوله بل وقفتنا نحن الاثنين في نيوركفيل أو في شارع ألن أو شارع برودواي. وطالما بدت لي جنونية قليلاً الجدّيةُ التي كان يسرد بها قصصه التافهة عن جرائم القتل ونحنُ وسط أضخم كتلة مُشوشة من الهندسة المعمارية ابتكرها الإنسان. وبينما هو يتكلّم عن بصمات الأصابع قد أكون أنا أستوعب بالنظر دعامة إفريز أو طنف على بناء صغير من القرميد الأحمر يقع إلى الخلف مباشرةً من قبعته السوداء؛

وقد أفكِّر في اليوم الذي وَضَعَ فيه ذلك الطنف، وفي الرجل الذي يمكن أنْ يكون قد صمَّمه ولماذا جعله شديد القبح، وشديد الشبه بكل طنف آخر عفن وقذر مررنا به من الحي الشرقي وحتى هارلم وما بعد هارلم، إذا ما أردنا أنْ نتقدم أكثر، وما بعد نيويورك، وما بعد نهر المسيسبي، وما بعد الغراند كانيون، وما بعد صحراء موجاف، وفي كل مكان من أميركا توجد فيه أبنية من أجل سُكنى الرجل والمرأة. لقد بدا لي من الجنون المُطبِق أنَّ كل يوم من أيام حياتي اضطررتُ فيه إلى الجلوس والإصغاء إلى حكايات أناسٍ آخرين، إلى مآسٍ تافهة عن الفقر والبؤس، والحب والموت، والشوق وخيبة الأمل. ولو أتاني في كل يوم، كما كان يحدث، على الأقلّ خمسون رجلاً، وكل واحد يصبّ حكاية ألمه، ومع كل واحد يجب أنْ ألزم الصمت و " أتلقَّى "، فكان من الطبيعي تماماً أنني عند نقطة ما من الجلسة أُغمِض عينيّ، أنْ أُقسّي قلبي. كانت تكفيني أصغر لقمة ممكنة؛ كان في استطاعتي أنْ أبقى أمضغها وأهضمها على مدى أيام وأسابيع. ومع ذلك كنتُ مُضطراً إلى الجلوس هناك وأتركه يُغرقني، وإلى الخروج من جديد في الليل وأتلقّى المزيد، وأنْ أنام وأنا أُصغي، وأحلم وأنا أصغي. كانوا يتدفّقون عليّ من كل أنحاء العالم، من كل طبقات المجتمع، يتكلمون ألف لغة مُختلفة، يعبدون آلهة مختلفة، يرضخون لقوانين وعادات مختلفة. حكاية أفقرهم تملأ مجلّداً ضخماً، ولكن لو أنَّ حكاية كُتِبَتْ مُطوَّلاً يمكن ضغطها لتصبح بحجم الوصايا العشر، ويمكن تسجيلها على خلفية طابع بريد، كصلاة الرب. وفي كل يوم كنتُ أتمدَّد حتى يبدو أنَّ جلدي يُغطي العالم بأسره؛ وحين أصبح وحدي، حين لا أضطر إلى الإصغاء، أنكمشُ حتى حجم رأس

الدبوس. وكانت أعظم بهجة، على نُدرتها، أنْ أجوب الشوارع وحيداً... أنْ أجوب الشوارع ليلاً حين لا أحد خارج منزله وأتفكّر في الصمت المحيط بي. الملايين متمددون على ظهورهم، موتى بالنسبة إلى العالم، أفواههم مفتوحة واسعاً ولا يخرج منها إلا الشخير. وأسير وسط أشد ما ابتدع الإنسان من فن معماري جنوناً، مُتسائلاً لماذا أفعل هذا ولأي هدف، إذا كان كل يوم سيتدفّق من تلك الزرائب البائسة أو القصور الفارهة جيشٌ من الرجال يتوقون إلى الإفضاء بحكاية بؤسهم. وخلال عامٍ من الزمن، إذا حسبتها بتواضع، تلقيتُ خمسة وعشرين ألف حكاية؛ وفي غضون عامين خمسين ألفاً؛ وفي أربعة أعوام ستصبح مائة ألف؛ وبعد عشرة أعوام سأصاب بجنون تام. وكنت حينئذٍ أعرف عدداً من الناس يكفون لشغل مدينة كاملة. كم ستكون مدينة رائعة، إذا ما كان في الإمكان جمعهم معاً! تُرى هل سيرغبون بوجود ناطحات سحاب؟ هل سيرغبون بوجود متاحف؟ هل سيريدون مكتبات؟ هل هم أيضاً سيبنون مجاري وجسوراً وشاحنات ومصانع؟ هل سيصنعون نفس نوعية الطُّنُف المتشابهة من القصدير، واحداً يشبه الآخر، فالآخر، ad infinitum (إلى ما لا نهاية)، من حديقة باتري إلى الغولدن باي؟ أشك في ذلك. وحدها لسعة الجوع يمكنها أنْ تُحركهم. إنَّ البطن الخاوية، النظرة الضارية في العين، الخوف، الخوف من الأسوأ، هو الذي يحثّهم. واحداً إثر آخر، كلهم متشابهون، كلهم يهرعون نحو اليأس، يبنون أعلى ناطحات السحاب، وينسجون أشد الأقمشة الخشنة بشاعة، ويصنعون أجود أنواع الفولاذ، وأرقّ أنواع المخرّمات، وأرهف الأدوات الزجاجية، يحثّهم في ذلك المهمازُ وسوطُ الجوع. أسير مع أورورك لا أسمع إلاّ كلمات سرقة،

الإحراق العمد، الاغتصاب، قتل، كأنني أصغي إلى لحن أساسي صغير لسيمفونية عظيمة. وكما يستطيع المرء أنْ يُصفِّر لحناً غنائياً لباخ ويُفكّر في امرأةٍ يريدُ أنْ يُضاجعها، كذلك، عندما أصغي إلى أورورك، أفكِّرُ في اللحظة التي سيكفُّ فيها عن الكلام ويقول " ماذا تودُّ أنْ تأكل؟ ".

ووسط أشنع جرائم القتل كان في استطاعتي أنْ أفكِّر في قطعة طريّة من لحم خاصرة الخنزير سنأكلها لاحقاً في مكانٍ يقع بعد مسافة قصيرة على الطريق وأتساءل أيضاً عن نوعِ الخضروات التي سيقدّمونها ويتلاءم معها، وما إذا كنتُ سأطلب بعد ذلك فطيرة، أو بودنغ القستر. الأمر نفسه يحدث حين كنتُ أضاجع زوجتي بين حينٍ وآخر؛ فبينما هي تئن وتهذر قد أتساءل إنْ كانت قد أفرغَتْ الثفل في وعاء القهوة، لأنه كانت لديها عادة سيئة هي جعلُ الأشياء تنزلق- الأشياء ***الهامة***، أعني. والقهوة الطازجة كانت شيئاً هاماً - ولحم البقر مع البيض الطازج. إذا حبلت مرة أخرى سيكون ذلك أمراً سيئاً، وخطيراً بصورة ما، ولكن الأهمّ من ذلك شرب القهوة الطازجة في الصباح ورائحة لحم البقر مع البيض.

كان يمكنني أنْ أتحمَّل أسى القلب وعمليات الإجهاض وقصص الحب المُخفقة، ولكن كان يجب أنْ أملأ بطني لكي أستطيع أنْ أستمرّ، وأردتُ شيئاً مُغذياً، فاتحاً للشهية. شعرتُ بالضبط كما يمكن ليسوع المسيح أنْ يكون قد شعر لو أنه أُنزِلَ عن الصليب ولم يُسمَح له بالموت بالجسد. أنا متأكِّد من أنَّ صدمة الصَلْبْ كانت ستكون شديدة إلى درجة أنْ يُعاني من فقدان كامل للذاكرة فيما يخصّ الإنسانية. أنا واثق من أنه بعد أنْ تلتئم جراحه ما كان ليأبه للمحن الإنسانية بل كان سينقضّ بأعظم استمتاع على كأس طازج من القهوة وشريحة من الخبز المُحمَّص، على فرض أنَّ في استطاعته الحصول عليهما.

إنَّ كل مَنْ يموت من شدّة البؤس، متأثِّراً بحبٍ أعظم مما ينبغي، وهو أمرٌ فظيع قبل كل شيء، يولدُ من جديد لا لكي يعود يعرف الحب ولا الكره، بل لكي يستمتع. ولأنَّ هذا الاستمتاع بالعيش لم يُكتسَب بشكلٍ طبيعي هو سُمّ يعمل في نهاية المطاف على إفساد العالم برُمّته. وكل ما يُخلَق بأبعادٍ تتجاوزُ الحدود الاعتيادية للمعاناة الإنسانية، يعمل عمل الحركة المرتدّة التي تجلب الدمار. وكانت شوارع نيويورك في الليل تعكس الصَلْبْ وموت المسيح. وحين يسقط الثلج على الأرض ويُخيِّمُ الصمت الأقصى تصدر عن مباني مدينة نيويورك الشنيعة موسيقى تتسم بيأسٍ كئيب وإفلاس تجعل القشعريرة تسري في الجسد. لم يُبنَ حجرٌ فوق حجر بحب أو توقير؛ ولا مُدَّ شارعٌ من أجل الرقص أو الفرح. لقد أضيف شيءٌ إلى آخر بفوضى مجنونة من أجل ملء البطن، والشوارع تفوح برائحة البطون الخاوية والبطون المملوءة ونصف المملوءة. الشوارع تفوح برائحة جوعٍ لا صِلة له بالحب؛ تفوح برائحة بطن لا تشبع وبإبداعات البطن الخاوية التي هي عدمٌ وخواء.

في هذا العَدَم والخواء، في بياض الصِفر هذا، تعلَّمتُ أنْ أستمتع بشطيرة، أو بزرّ ياقة. كان في استطاعتي أنْ أدرسَ طنفاً أو إفريزاً بفضولٍ أقصى أثناء تظاهري بالإصغاء إلى حكاية عن الأسى الإنساني. أستطيع أنْ أتذكَّر التواريخ المدوَنة على مبانٍ معينة وأسماء المهندسين الذين صمّموها. أستطيع أنْ أتذكَّر درجة الحرارة وسرعة الرياح، وأنا واقف عند منعطف طريق؛ والحكاية التي رافقتها ورحلت معها. أستطيع أنْ أتذكَّر أنني حتى في ذلك الوقت كنتُ أتذكَّر شيئاً آخر، وأستطيع أنْ أخبركَ بما كنتُ أتذكَّره حينئذٍ، ولكن ما الفائدة؟ في داخلي رجل مات

ولم يبقَ منه غـيـر ذكـرياته؛ وكـان هناك رجل آخـر حيّ، وذلك الرجل يُفتَرَض أنه أنا، نفسي، لكنه حيّ فقط كما الشجرة حيّة، أو الصخرة، أو حيوان الحقول. وكما أنَّ المدينة نفسها قد أضحت قبراً هائل الحجم يُكافحُ الناس فيه ليكسبوا موتاً لائقاً كذلك كانت حياتي تشبه قبراً كنتُ أبنيه من موتي. كنتُ أتجوَّلُ في أرجاء غابة من حجر مركزها العَماء؛ أحياناً في المركز تماماً، في قلب العـمـاء، كنتُ أرقص أو أشرب حتى أصبح مُثيراً للسخرية، أو أمارس الجنس، أو أصادقُ أحدهم، أو أُخطط لحياةٍ جديدة، لكنَّ كل ذلك كان عماءً، كله حجر، وكله بلا فائدة ويُشوِّش الذهن. إلى أنْ كان وقتٌ قابلتُ فيه قوة عاتية كافية للإطاحة بي خارج غابة الحجر تلك بحيث لم تعد هناك حياة ممكنة بالنسبة إليّ ولا في الإمكان أنْ أكتب صفحة واحدة لها معنى. ربما عندما يقرأ المرء هذا، يبقى لديه انطباع العماء لكنَّ هذا كُتِبَ من مركزٍ حيّ وما هو عمائي هو فقط سطحي، أو مُزَقٌ تماسيّة، إنْ صحَّ التعبير، لعالم لم يعُد يُثير اهتمامي. وقبل بضعة أشهر فقط كنتُ واقفاً في شوارع نيويورك أتلفَّتُ حولي كما كنتُ قد فعلتُ قبل ذلك بسنين؛ ومن جديد وجدتني أدرس الهندسة المعمارية، أدرسُ التفاصيل الدقيقة التي لا تستطيع إلا العين المُضطربة أنْ تستوعبها. ولكن هذه المرة كان الأمر أشبه بالهبوط من كوكب المريخ. وتساءلتُ، أي سلالة من البشر هذه. ماذا تعني؟ ولم تكن هناك ذكرى عن وجود معاناة أو عن الحياة التي لُفِظَتْ في المجرور، تذكرتُ فقط أنني كنتُ أنظر إلى عالمٍ غريب ومُبهم، عالم شديد النأي عني إلى درجة أنه انتابني إحساسٌ بانتمائي إلى كوكبٍ آخر. من أعلى مبنى إمباير ستيت نظرتُ إلى أسفل ذات ليلة إلى المدينة التي عرفتها

من أسفل : كانوا هناك، في المنظور الصحيح، النمل البشري الذي زحفتُ معه، القمل البشري الذي كافحتُ معه. كانوا يتحركون إلى الأمام بخُطى حلزون، كل واحد منهم حتماً يُحققُ مصيره المُصغَّر. وفي غمرة يأسهم العقيم شيَّدوا هذا الصرح العملاق الذي يُمثّل كبرياءهم ومفخرتهم. ومن أعلى سقف في هذا الصرح العملاق دلّوا سلسلة من الأقفاص فيها طيور كناري تطلقُ تغريدها التافه. في ذروة طموحهم كانت هناك تلك المخلوقات الثلاث الصغيرة التي تغرِّد احتفاءً بالحياة العزيزة. قلتُ في نفسي، ربما بعد مائة عام سوف يضعون البشر في الأقفاص، البشر المرحين، المخبولين، يغردون من أجل عالم قادم. لعلهم سوف يستولدون سلالة من المغرّدين سيغردون بينما الآخرون يعملون. لعلَّ كل قفص سيضم شاعراً أو موسيقياً لكي تسير الحياة في الأسفل دون أنْ يُعيقها عائق، واحد يحملُ حجراً وآخر يحملُ غابة، كعماء صارّ متموِّج من العدم والخواء. ولعلّهم في غضون ألف عام من الآن سيصبحون كلهم مخبولين، عمالاً وشعراء على قدم المُساواة، وسيعود كل شيء ليغدو أطلالاً كما حدث ذلك مراراً وتكراراً. وبعد ألف عامٍ أخرى، أو خمسة آلاف عام، أو عشرة آلاف، قد يفتحُ صبي صغير، يقفُ بالضبط حيث أقفُ الآن لأستشرف المشهد، كتاباً مكتوباً بلغةٍ لم يسمع بها أحد ويتحدث عن الحياة الحاضرة الآن، حياة لم يختبرها الرجل الذي ألّفَ الكتاب، حياة ذات شكل وإيقاع مُستنتجتين، وبداية ونهاية، وبعد أنْ يُغلق الولد الكتاب سوف يقول لنفسه كم كان الأميركيون عظماء، وما أروع الحياة التي عاشوها ذات يوم على هذه القارة التي يُقيمُ عليها هو الآن. لا سلالة قادمة، فيما عدا ربما سلالة من الشعراء العميان، ستتمكّن من تخيُّل العماء المُضطرب الذي كُتِبَ على أساسه هذا التاريخ المستقبلي.

عماء! عماءٌ صارخ! لا داعي لاختيار يومٍ معيَّن. أي يوم من أيام حياتي - هناك - يصلح. كل يوم من أيام حياتي، حياتي المُصغَّرة، المُنمنمة، كان تأملاً في العماء الخارجي. دعني أعود بذاكرتي... في الساعة السابعة والنصف انطلقَ جرس ساعة المنبّه. لم أقفز من السرير. بقيتُ مستلقياً في مكاني حتى الساعة الثامنة والنصف، مُحاولاً أنْ أكسب قسطاً قليلاً زائداً من النوم. نوم - كيف كان يمكنني أنْ أنام؟ في خلفية دماغي كانت ترتسم صورة المكتب الذي تقرَّر أنْ أعمل فيه. أكاد أرى هايمي قادماً في تمام الساعة الثامنة، ولوحة المفاتيح تطن مُسبقاً بطلبات العون، والاستمارات تتراكم وتعلو فوق مطلع الدرج الخشبي، وأشمّ رائحة الكافور القوية منبعثة من غرفة الملابس. لماذا أنهض وأكرِّر أغنية الأمس ورقصته؟ فما أنْ أعيِّنهم حتى يتركون العمل. أعمل حتى الإرهاق التام وليس لديّ قميص واحد نظيف أرتديه. في أيام الاثنين أحصل على مُخصصي من زوجتي - نقود أجرة المواصلات وثمن الغداء. ولطالما كنتُ مديناً لها وهي كانت مدينة للبقّال، واللحام، وصاحب المنزل، الخ. لم أكنْ أزعج نفسي بحلاقة ذقني - لم يكن لديّ ما يكفي من الوقت. ارتديتُ القميص الممزَّق، وازدرتُ طعامِ الإفطار، واقترضتُ نكلة أجرة القطار النفقي. إذا كانت في مزاجٍ عكرٍ سوف أنتزع النقود بالخداع من بائع الصحف في محطة القطار النفقي. وصلتُ إلى المكتب مقطوع الأنفاس، ومتأخراً ساعة وفي انتظاري مجموعة من المكالمات الهاتفية قبل حتى أنْ أتكلّم مع أي طالب للعمل. وبينما كنتُ أقوم بإحدى الاتصالات الهاتفية تكون هناك ثلاث مكالمات في انتظار الردّ عليها. أجيب على هاتفين في وقتٍ واحد. لوحة المفاتيح تطن. هايمي

يبري أقلامه الرصاص بين فترات الإجابة على المكالمات. ماكغفرن الحاجب واقف عند مرفقي لكي يُمرر لي نصيحة حول أحد طالبي العمل، لعله مُخادع يحاولُ أنْ يتسلل من جديد تحت اسمٍ زائف. وخلفي البطاقات ودفاتر السجلات تضمُ أسماء كل طالب عمل مرَّ من خلال الآلة. الأسماء ذات السمعة السيئة تُعلَّم بالحبر الأحمر؛ بعضهم مُضاف إلى أسمائهم ستة ألقاب. في حين تعجّ الغرفة كأنها خلية نحل، وتفوح برائحة الأقدام القذرة، المتعرّقة، والبذلات الرسمية القديمة، والكافور، وسائل ليزول المُطهِّر، والأنفاس الكريهة. نصفهم يجب رفضهم - ليس لأننا لسنا بحاجة إليهم، بل لأنه حتى في ظل أسوأ الظروف لن يصلحوا. الرجل الماثل أمام طاولة مكتبي، الواقف عند الحاجز ذو اليدين المشلولتين والعينين الغائمتين، هو محافظ مدينة نيويورك الأسبق. إنه في السبعين الآن وسوف يُسعده أنْ يتولّى أي عمل. وهو يحمل رسائل توصية مدهشة، لكننا لا نستطيع أنْ نقبل مَنْ تعدَّى سن الخامسة والأربعين. الرقم خمسة وأربعون هو آخر الخط في مدينة نيويورك. يرنّ الهاتف ويتناهى صوت السكرتيرة الناعم من جمعية الشبيبة المسيحية. هل لي أنْ أقبل استثناءً فتى ولجَ إلى مكتبه - فتى كان نزيل الإصلاحية لمدة عام أو نحوه. ***ماذا فعل***؟ حاول أنْ يغتصب أخته. هو إيطاليّ، طبعاً. وأومارا، مساعدي، يضع أحد طالبي العمل في المرتبة الثالثة . إنه يشكُ في أنه مُصاب بالصَرَع. وأخيراً ينجح ويُصاب الفتى بنوبة في وسط المكتب. وتُصاب إحدى النسوة بالإغماء. شابة جميلة تُحيط جيدها بفروٍ أنيق تحاول أنْ تُقنعني بتعيينها. إنها عاهرة بكل وضوح وأعلمُ أنني إذا عيَّنتها سيكون الجحيم من نصيبي. إنها تريد أنْ

تعمل في مبنى معيَّن في المدينة - لأنه قريب من منزلها، كما تقول. وقت تناول الغداء يقترب ويبدأ عدد من الأصدقاء بالتوافد. يجلسون في أرجاء المكان يراقبونني وأنا أعمل، وكأنهم يُشاهدون عرضاً هزلياً. يصلُ كرونسكي، طالب الطب؛ يقول إنَّ أحد الفتية الذين عيَّنتهم تواً مُصاب بمرض باركنسن. لقد كنتُ من شدة الانشغال بحيث لم تُتح لي فرصة لأزور المرحاض. كل عمال البرق، وكل المدراء، يُعانون من البواسير، هكذا يُخبرني أورورك. خلال السنتين الماضيتين كان يتلقى جلسات تدليك بالكهرباء، ولكن لم تنجح أي طريقة. حان وقت وجبة الغداء ونحن ستة أشخاص على طاولة المائدة. على أحدهم أنْ يدفع نيابة عني، كالمعتاد. ازدردنا الطعام وأسرعنا بالعودة. المزيد من المكالمات تنتظر الردَّ عليها، المزيد من طالبي العمل يجب مقابلتهم. نائب الرئيس يُثيرُ جحيماً لأننا لا نستطيع أنْ نرفع عدد العاملين إلى المستوى العادي. كل صحيفة في نيويورك وعلى مدى عشرين ميلاً خارج نيويورك تحملُ إعلانات مطولة طلباً للعون. وتمَّ تفحُّص المدارس كلها بحثاً عمَّن يعمل ساعياً بدوام جزئي، ونوشدت كل المؤسسات الخيرية وجمعيات الإعانة. كانوا يسقطون كالذباب. بعضهم لم يكونوا يستمرون أكثر من ساعة واحدة. إنها طاحونة طحين بشري. وأشدّ ما يُحزِن في هذا أنه لا ضرورة له على الإطلاق. لكنَّ هذا ليس من شأني. شأني هو إما أنْ أعمل أو أموت، كما يقول كيبلنغ. باشرت العمل، من ضحية إلى أخرى، الهاتف يرنّ كالمجنون، المكان يفوحُ أكثر فأكثر برائحة الرذيلة، والثقوب تتسع أكثر فأكثر. كل واحد كائن بشري يطلب كسرة خبز؛ أحصل على طوله، ووزنه، ولونه، ودينه، وثقافته، وتجربته، الخ.

والبيانات كلها سوف تدخل إلى السجلات لكي تُصنَّف أبجدياً ومن ثم زمنياً. الأسماء والتواريخ. وبصمات الأصابع أيضاً، إذا ما توفَّر لدينا الوقت لذلك. ولماذا هذا؟ لكي يستمتع الأميركيون بأسرع شكل من أشكال التواصل المعروفة للإنسان، ولكي يُتاح لهم أنْ يبيعوا سلعهم بسرعة أكبر، وبحيث إذا سقطتَ ميتاً في الشارع يُعرَف أقرب أقرباؤك في الحال، أي في غضون ساعة من الزمن، إلا إذا قرَّرَ الساعي الذي استودِعَ البرقية أنْ يتخلّى عن العمل ويرمي بحزمة البرقيات كلها إلى حاوية القمامة. عشرون مليون بطاقة عيد ميلاد، كلها تتمنى لك عيد ميلاد مجيد وعاماً جديداً سعيداً، تأتي من مدراء ورئيس ونائب رئيس شركة البرق الشيطانية الكونية، وقد يردُ في البطاقة " أمي تموت، تعال فوراً "، لكنَّ الموظف يكون من فرط الانهماك في الشغل بحيث لا يُلاحظ وجود الرسالة وإذا قاضيتهم للتعويض عن الأضرار، الأضرار الروحية، هناك قسم قضائي مُدرَّب خصّيصاً لاستقبال مثل تلك الحالات الطارئة وهكذا يمكنكَ أنْ تتأكَّد من أنَّ أمك ستموت وأنتَ ستُمضي عيد ميلاد مجيد وعاماً جديداً سعيداً على الرغم من ذلك. وطبعاً سيُطرَدْ الموظف وبعد مُضيّ شهر أو نحوه سوف يعود طالباً عمل ساعي وسوف يُقبَلْ ويُعيَّن في النوبة الليلية بالقرب من أحواض السفن حيث لا أحد سيتعرَّف عليه، وسوف تأتي زوجته مع أطفالها لكي تشكر المدير العام، أو ربما نائب الرئيس نفسه، لما أبدى من كرم ومُراعاة. ثم يأتي يوم يُدهَش فيه الجميع بشدّة لأنَّ الساعي المذكور سرق الخزنة وسوف يُطلَب من أورورك أنْ يستقل قطار الليل المتوجه إلى كليفلاند أو ديترويت ويقتفي آثاره حتى وإنْ تكلّفَ ذلك عشرة آلاف دولار. ومن ثم سوف

يُصدِر نائب الرئيس أمراً بمنع تشغيل اليهود منعاً باتاً، ولكن بعد مرور ثلاثة أيام أو أربعة سوف يلينُ قليلاً لأنه لا يوجد غير اليهود يطلبون عملاً. ولأنَّ الوضع يزداد سوءاً والإمداد يصبح شحيحاً باطراد أوشكُ أنْ أعيِّن قزماً من السيرك وكان يمكن أنْ أعيِّنه ربما لولا أنه انهارَ واعترفَ بأنه في الواقع أنثى. وما زاد الطين بلّه أنَّ فاليسكا تأخذ " الشيء " تحت جناحها، تأخذ "ه" إلى المنزل في تلك الليلة وتحت مظهر التعاطف تُجري عليه فحصاً شاملاً، ويتضمَّن استكشاف المهبل بسبّابة اليد اليمنى. ويُصبح القزم مُتيّماً وأخيراً يُصبح غيوراً جداً. إنه يوم التجربة وفي الطريق إلى المنزل أقابلُ مُصادفةً أخت أحد أصدقائي وتُصرّ على اصطحابي لتناول طعام العشاء. وبعد العشاء نذهب لنشاهد فيلماً سينمائياً وفي الظلام يبدأ كلٌ منا بالعبث مع الآخر وأخيراً نصل إلى النقطة التي نغادر فيها دار السينما لنعود إلى المكتب حيث أُمدّدها على الطاولة ذات سطح الزنك الموجودة في غرفة تغيير الملابس. وحين أعود إلى المنزل، بُعيد منتصف الليل بقليل، أتلقّى مكالمة هاتفية من فاليسكا إنها تريد مني أنْ أقفز على الفور على متن القطار النفقي وأوافيها في منزلها، فالأمر عاجل جداً. المسافة تستغرق ساعة من الركوب وأنا شديد الإرهاق، لكنها قالت إنَّ الأمر مُلِحّ وهكذا أنطلق. حين أصل إلى هناك أقابل قريبتها، وهي صبيّة جذّابة جداً، كانت كما قالت هي نفسها، ضاجعت لتوها رجلاً غريباً لأنها ضاقت ذرعاً بعذريتها. وما الداعي لكل تلك الجَلَبة؟ الداعي هو أنها في غمرة المعمعة نسيتْ أنْ تتخذ الاحتياطات المعتادة، ولعلها الآن حُبلى فما العمل عندئذٍ؟ أرادتا أنْ تعرفا رأيي فيما ينبغي عمله فقلت: "**لا شيء**". ثم تنحَّتْ بي

فاليسكا جانباً وسألتني إنْ لم أكنْ تواقاً إلى مضاجعة قريبتها، لكي أفتحها، إنْ صحّ التعبير، بحيث لا يتكرَّر مثل هذا الأمر.

أصبح الأمر كله مُشوّهاً وأخذنا جميعاً نضحك بهستريا ومن ثم بدأنا نشرب - الشيء الوحيد الموجود الذي كان موجوداً في المنزل هو الكومل ولم يستغرق منه الكثير من الوقت لكي يُسكِرنا. ثم أزداد الوضع انحرافاً لأنَّ الاثنتين بدأتا تعبثان بي ولم تسمح أي منهما للأخرى بفعل أي شيء. وكانت النتيجة أنني جرّدتهما من ملابسهما وأودعتهما السرير فاستغرقتا في النوم وهما متعانقتان. وحين خرجت، عند نحو الساعة الخامسة صباحاً، اكتشفتُ أنني لا أحتكم على سنتٍ واحد في جيبي فحاولتُ أنْ أستجدي نكلة من سائق التاكسي لكنَّ مسعاي لم ينجح في النهاية وأخيراً نزعتُ الفرو الذي يُبطِّن معطفي وأعطيته له - مقابل نكلة. وحين وصلت إلى المنزل كانت زوجتي يقظة وحانقة كالجحيم لأنني غبتُ عن المنزل أطول مما ينبغي. ونشب بيننا نقاشٌ حادّ وأخيراً فقدتُ أعصابي وضربتها بقوة فوقعت على الأرض وبدأت تبكي وتجهش ومن ثم أفاقت الطفلة وسمعت الزوجة وهي تزعق فأُصيبت بالرعب وبدأت تصرخ بأعلى صوتها. وهبطت الفتاة في الطابق العلوي راكضة لترى ماذا يجري. كانت ترتدي الكيمونو وكان شعرها يتدلّى على ظهرها. ووسط الإثارة اقتربَتْ مني وحدثتْ الأمور بدون أي نيّة من أيٍ منا أنْ يحدث أي شيء. أودعنا الزوجة السرير مع منديلٍ رطب يُحيطُ بجبينها وبينما فتاة الطابق العلوي تميل فوقها وقفتُ خلفها ورفعت رداء الكيمونو. أدخلتُه فيها وبقيت هي في مكانها فترة طويلة وهي تُثرثر بكلام تافه أحمق ومُهدِّئ. وأخيراً انضممتُ إلى زوجتي في السرير وكم

ذُهلتُ حين بدأتْ بالالتصاق بي ودون أنْ نتبادل أي كلمة تشابكنا وبقينا كذلك حتى الفجر. وكان ينبغي أن أشعر بالإرهاق الشديد ولكن بدل ذلك كنتُ يقظاً تماماً، واستلقيتُ هناك إلى جوارها أخطِّطُ لأخذ يوم إجازة وأقوم بزيارة العاهرة ذات الفرو الجميل التي تحدَّثتُ معها في وقتٍ سابق من النهار. وبعد ذلك بدأتُ أفكِّر في واحدٍ بعد آخر - في كل الذين رفضتهم لسببٍ من الأسباب - إلى أنْ سقطتُ في نهاية المطاف لأنامَ نوماً عميقاً وحلمتُ حلماً رطباً. في الساعة السابعة والنصف انطلقَ جرس ساعة المنبّه كالمعتاد وكالمعتاد نظرتُ إلى قميصي الممزَّق المعلَّق على الكرسي وقلتُ لنفسي ما الفائدة وتقلّبت في الفراش. في الساعة الثامنة رنَّ جرس الهاتف وكان المتحدث هايمي. قال، يُستحسن أنْ تأتي على عجل لأنَّ ثمة إضراباً يجري. هكذا كان الحال، يوماً بعد يوم، ودون أي سبب، ما عدا أنَّ البلد بأسره تعيثُ فيه الفوضى وما أحكيه كان يجري في كل مكان، إما بمعدل أصغر أو أضخم من ذلك، لكنّه الأمر نفسه في كل مكان، لأنَّ العماء كان سائداً وكل شيء بلا معنى.

بقيت على ذلك الحال، يوماً بعد يوم وعلى مدى خمسة أعوام كاملة. القارّة نفسها كانت تتقوض باستمرار تحت ضربات الزوابع، والأعاصير، وأمواج المدّ، والفيضانات، وفترات القحط، والعواصف الثلجية العنيفة، وموجات الحر، والأوبئة، والإضرابات، والتعطّل القسري، والاغتيالات، وحوادث الانتحار... حمّى مستمرّة وعذاب، وانفجار، ودوّامة. كنتُ أشبه برجلٍ جالسٍ في المنارة: تحتي الأمواج العاتية، والصخور، والحيد البحري، وبقايا حطام سُفُن. كان في وسعي أنْ أطلق إشارة الخطر لكنني كنتُ عاجزاً عن تفادي الكارثة. كنتُ

أتنفّس الخطر والكارثة. أحياناً يكون إحساسي به من القوة بحيث إنه يخرج ناراً من منخريّ. لقد تقتُ إلى التحرُّر من ذلك كله لكنني كنتُ مُنجذباً إليه بشكلٍ لا أقوى على مقاومته. كنتُ عنيفاً ولا مبالياً في وقتٍ واحد. كنتُ أشبه بالمنارة نفسها - آمناً وسط أشد البحار اصطخاباً. تحتي صخور صلبة، رفُ الصخور نفسه الذي بُنيَتْ عليه ناطحات السحاب الشاهقة. أساساتي كانت تضرب عميقاً في الأرض ودرع جسدي مصنوعاً من فولاذٍ مُبرشمٍ بمسامير مُلولبة حارّة. وقبل أي شيء كنتُ عيناً، ضوءاً كاشفاً ضخماً يفتّش في طول البلاد وعرضها، يدور بلا توقف، ولا شفقة. ويبدو أنَّ تلك العين المفتوحة واسعاً غطّت على قُدُراتي الأخرى؛ كانت طاقاتي كلها قد استُنفذت في محاولة رؤية دراما العالم، واستيعابها.

إذا كنتُ قد تقتُ إلى الدمار فذلك يعني فقط إلى أنْ تنطفئ هذه العين. لقد تقتُ إلى حدوث هزّة أرضية، إلى ما يشبه التغيُّر العنيف في الطبيعة يَخفسُ بالمنارة إلى أعماق البحر. أردتُ أنْ أمسخ، أنْ أتحوّل إلى سمكة، إلى لوياثان، إلى مُدمِّر. أردتُ أنْ تفغر الأرض فاها، وتبتلع كل شيء دفعةً واحدة. أردتُ أنْ أجلس في كهفٍ وأقرأ على ضوء شمعة. (أردتُ إطفاء تلك العين لكي يطرأ عليّ تغيير بحيث أعرف جسدي، ورغباتي. أردتُ أنْ أنفرد بنفسي مدة ألف عام لكي أتأمّل فيما رأيتُ وسمعت - ***ولكي أنسى***. أردتُ شيئاً من الأرض ليس من صُنع الإنسان، شيئاً مُنفصلاً كلياً عن الإنسانيّ الذي أتخمتُ منه. أردتُ شيئاً أرضياً صِرفاً ومُجرَّداً تماماً من أي فكرة. أردتُ أنْ أشعر بالدم يجري عائداً إلى شراييني، حتى وإنْ كان الموت هو الثمن. أردتُ أنْ أتجرَّد من الحجر

والضـوء. أردتُ أنْ أكون ذلك الليل الذي تُضيئه العين القاسية، ليلاً مُزيَّن بنجوم وبنيازك تجر وراءها أذيالاً؛ أنْ أكون جزءاً من ليل، صامتاً صمتاً مُخيفاً، مُبهماً وفصيحاً بشكلٍ تام في وقتٍ واحد؛ ألاّ أتكلَّم أو أصغي أو أفكِّر بعد الآن؛ أنْ أُغلَّف وأُطوَّق وأنْ أغلِّف وأُطوِّق في وقتٍ واحد. كفاني شفقة، كفاني رقّة. وأردتُ أنْ أكون إنساناً فقط أرضياً، كنبات أو دودة أو جدول؛ أنْ أتحلَّل، أتجرَّد من الضوء والحجر، أنْ أكون متقلّباً كالجزيء، متيناً كالذرة، قاسياً كالأرض نفسها.

*

قبل أنْ تنتحر فاليسكا بأسبوع قابلت مُصادفةً مارا. وقبل ذلك بأسبوع أو اثنين حدث كابوس حقيقي؛ وقعت سلسلة من الميتات المفاجئة واللقاءات الغريبة مع نساء. أولاً كانت هناك بولين جانوفسكي، يهودية صغيرة في السادسة عشرة أو السابعة عشرة بلا مأوى أو أصدقاء أو أقرباء. جاءت إلى المكتب بحثاً عن عمل. كنا نوشك أنْ نغلق المكتب ولم يُطاوعني قلبي على أن أُخيِّب أملها. ولسببٍ ما قرَّرتُ أنْ أصحبها إلى المنزل لتناول طعام العشاء وإذا أمكن أحاولُ أنْ أقنع الزوجة بإيوائها لبعض الوقت. وما جذبني إليها كان وَلَعها ببلزاك. وطوال الطريق حتى المنزل كانت تحدّثني عن روايته " أوهام ضائعة ". كانت السيارة مكتظّة وكنا محشورين بشدة معاً بحيث لم يكن يهمّ عمَّا نتحدث لأنَّ كلانا كان يفكِّر في شيء واحد. وطبعاً ذُهلَتْ زوجتي حين رأتني واقفاً عند الباب مع صبيّة جميلة. وتصرَّفت بأدب وبكياسة بطريقتها الباردة ولكنني فهمتُ على الفور أنه لا فائدة من الطلب منها أنْ تأوي الفتاة. كل ما كان في وسعها أنْ تفعل هو أنْ تجلس معنا على مائدة العشاء. وحالما

انتهينا من تناول الطعام استأذنت وذهبت لتشاهد السينما. بدأتْ الفتاة تبكي. كنا ما نزال جالسين على طاولة المائدة، والأطباق مُكوَّمة أمامنا. اقتربتُ منها وأحطتُها بذراعيَّ. شعرت بشفقة حقيقية عليها واحترتُ لا أدري ماذا أفعل لأجلها. وفجأةً أحاطت عنقي بذراعيها وأخذت تُقبّلني بشغف. بقينا واقفين هناك فترةً طويلة متعانقين ثم قلتُ لنفسي كلا، هذه جريمة، ثم لعلَّ الزوجة لم تذهب إلى السينما أصلاً، وقد تعود في أي لحظة. طلبتُ من الفتاة أنْ تتحكَّم في نفسها، وقلت أنني سأصطحبها في نزهة إلى مكانٍ ما بالحافلة. ورأيتُ حصّالة الطفلة موضوعة على رف المدفأة فحملتها إلى المرحاض وأفرغتُها بصمت. لم تكن تحتوي إلا على حوالي خمسة وسبعين سنتاً. استقلينا الحافلة وذهبنا إلى شاطئ البحر. وأخيراً عثرنا على بقعة معزولة واستلقينا تحت أشعة الشمس. كانت مشبوبة العاطفة حتى الهستريا ولم يبقَ أمامنا إلا أنْ نفعلها. حسبتُ أنها ستؤنبني لاحقاً، لكنها لم تفعل. بقيَتْ مستلقية بعض الوقت ومن ثم عادت تتكلَّم عن بلزاك. ويبدو إنها كانت تضمرُ طموحات لتصبح هي نفسها كاتبة. سألتها ماذا تنوي أنْ تفعل. فقالتْ إنه ليست لديها أدنى فكرة. حين نهضنا لنعود طلبتْ مني أنْ أوصلها إلى الطريق العام. قالت إنها تعتقد أنها ستتوجّه إلى كليفلاند أو إلى مكان ما. كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل حين تركتها واقفة أمام محطة وقود. كان في محفظتها حوالي خمسة وثلاثين سنتاً. وحين انطلقت إلى المنزل رحتُ ألعنُ زوجتي بنت الحرام. وتمنّيتُ لو أنها كانت هي التي تركتُها واقفة في محطة الوقود دون أنْ تدري إلى أين تذهب. وكنتُ أعلم أنني حين أصل لن تأتي على ذِكر الفتاة بأي كلمة.

عدتُ وكانت في انتظاري. حسبتُ أنها سوف تُثير شجاراً من جديد. ولكن لا، لقد انتظرتني لأنَّ هناك رسالة هامة وصلتني من أورورك. وكان عليّ أنْ أتصل به هاتفياً حالما أعود إلى المنزل. لكنني قرَّرتُ ألاّ أتصل به هاتفياً؛ قرَّرت أنْ أخلع ملابسي وآوي إلى السرير. وما إنْ استقررت بارتياح حتى رنَّ جرس الهاتف. كان أورورك. هناك برقية في انتظاري في المكتب - أراد أنْ يعرف إنْ كان عليه أنْ يفتحها ويقرأها على مسمعي. قلتُ طبعاً. البرقية بإمضاء مونيكا، من بوفالو. تقول فيها إنها سوف تصِل إلى غراند سنترال في الصباح مع جثمان والدتها. شكرته وعدتُ إلى سريري. لا أسئلة من الزوجة. استلقيتُ هناك وأنا أتساءل ماذا سأفعل. إذا رضخت لطلبها فذلك سيعني أنْ تعود الأمور إلى سابق عهدها. لقد شكرتُ طالعي لأنني تخلّصتُ من مونيكا. وها هي الآن عائدة مع جثة أمها. ودموع ومُصالحة. كلا، لا يعجبني الآتي على الإطلاق. ماذا لو أني لا أذهب؟ ماذا سيحدث عندئذٍ؟ خاصة إذا كانت المبتلية حسناء جميلة وشقراء وذات عينين زرقاوَين متلألئتين. وتساءلتُ إنْ كانت ستعود إلى عملها في المطعم. ولولا معرفتها باليونانية واللاتينية لما خالطتها. لكنَّ فضولي تغلَّبَ عليّ. ثم إنها فقيرة مُعدَمة، وهذا أيضاً أثّر فيّ. وربما ما كان ليكون الأمر سيئاً إلى تلك الدرجة لو لم تفُح من يديها رائحة الشحم. تلك كانت الذبابة في الزيت - يداها المشحمتان. وأذكُر الليلة الأولى التي قابلتها فيها وتمشّينا في الحديقة العامة. كانت فتنة للنظر، وكانت يقظة وذكية. في تلك الفترة كانت النساء يرتدين التنورة القصيرة ويرتدينها ليظهرنَ بها. وكنت أتردَّد على المطعم في كل ليلة لمجرَّد أنْ أراقبها تتنقَّل بها، وتميل

لتقدِّم الطلبات أو تنحني لتلتقط شوكة. ومع الساقين الجميلتين والعينين الفاتنتين بيت رائع من شعر هومر، ومع لحم الخنزير والسوكروت بيت شعر لسابو، وتصريف الأفعال اللاتينية، وقصائد بندار الغنائية، ومع الفاكهة ربما ***الرباعيات***[1] أو ***السينارا*** Cynara. أما اليدان المشحمتان والسرير الأشعث في النُزُل الكائن قبالة السوق العامة - يا لطيف ! لم أهضمها. وكلما تفاديتها تشبَّثت بي أكثر. رسائل من عشر صفحات عن الحب وحواشي عن ***هكذا تكلّم زرادشت***. ثم فجأةً ساد الصمت وهنّأتُ نفسي بحرارة. كلا، لم أستطع أنْ أدفع نفسي إلى التوجه إلى محطة غراند سنترال في الصباح. تقلَّبتُ قليلاً ثم استغرقتُ في النوم. وفي الصباح سوف أدفع زوجتي إلى الاتّصال بالمكتب لتقول إنني مريض. لم أكن قد مرضتُ منذ أكثر من أسبوع - وها هو آتٍ إليّ.

عند الظهيرة أجد كرونسكي خارج المكتب. يريدني أنْ أتناول طعام الغداء معه... هناك فتاة مصرية يريدني أنْ أقابلها. اتّضحَ أنَّ الفتاة يهودية، لكنها قدِمت من مصر وتبدو مصرية الملامح. كانت من النوع الحار وقد عملنا عليها نحن الاثنان في وقت واحد. ولما كان من المفترض أنني مريض قرّرتُ ألاّ أعود إلى المكتب بل أنْ أتمشّى في أرجاء الحي الشرقي. وكان كرونسكي سيُغطي على غيابي. تصافحنا مع الفتاة ثم ذهب كلٌ في طريقه. توجهتُ أنا نحو النهر حيث الجو بارداً منعشاً، ونسيتُ أمر الفتاة على الفور. جلستُ على حافة رصيف الميناء ودلّيتُ ساقيَّ فوق الرافدة الطولانية. ومرَّ صندل مُحمَّل بحجارة القرميد الأحمر.

---

١ - المقصود هنا " رباعيات الخيّام " الشاعر الفارسي .

وفجأةً خطرت مونيكا على بالي. مونيكا ستصل إلى محطة غراند سنترال مع الجثة. جثة تُسلَّم على ظهر السفينة في نيويورك ! بدا الأمر متنافراً جداً ومُثيراً للسخرية حتى إني انفجرتُ بالضحك. تُرى ماذا فعلت بها ؟ هل تحقَّقت منها أم تركتها على خطٍ جانبي؟ لا شك في أنها كانت تكيل عليّ اللعنات. وتساءلتُ ماذا ستقول إذا استطاعت أنْ تتخيّلني جالساً هناك على الرصيف وساقاي مُتدليتان من فوق العارضة. كان الجو دافئاً وشديد الرطوبة على الرغم من النسمات التي تهبّ من النهر. بدأتُ أغفو. وأثناء غفوتي خطرت بولين على بالي. تخيّلتها ماشية على طول الشارع العام وهي ترفع يدها. كانت طفلة شجاعة، لا شك في ذلك. الغريب أنها لم تبدو قلقة لأنها حبلت. ربما كانت من شدَّة اليأس بحيث لم تأبه. وبلزاك ! هذا أيضاً كان شيئاً متنافراً إلى أقصى حد. ولماذا بلزاك؟ حسن، تلك كانت قضيتها. على أي حال لديها ما يكفي لتقتات به، إلى أنْ تقابل رجلاً آخر. ولكن مستحيل أنْ تفكرّ فتاة مثلها في أنْ تصبح كاتبة !حسن، ولِمَ لا ؟ كل إنسان لديه أوهام من نوعٍ ما. مونيكا أيضاً أرادت أنْ تكتب. كل شخص يُصبح كاتباً. كاتب! يا إلهي، كم يبدو ذلك عقيماً !

وأغفو... حين أستيقظ يكون لدي انتصاب. يبدو أنَّ الشمس تحترق داخل فتحة بنطالي. نهضتُ وغسلتُ وجهي عند نافورة الشرب. كنتُ لا أزال أشعر بالحر وبالرطوبة الشديدة. كان الإسفلت رخواً كالعصيدة، والذباب يقرص، والقمامة تتعفَّن في المجرور. تمشّيتُ في المكان بين عربات الجرّ وتفرّجتُ على الأشياء بعين فارغة. وطوال الوقت كان لديَّ ما يشبه الانتصاب المتلكّئ، ولكن لا شيء مُحدَّد في

ذهني. ولكن حين عدتُ إلى الجادة الثانية تذكَّرتُ فجأةً المصرية اليهودية في وقت الغداء. تذكّرتها تقول إنها تُقيمُ فوق المطعم الروسي بالقرب من الشارع الثاني عشر: ومع ذلك لم تكن في رأسي أي فكرة حول ما أنوي أنْ أفعل. كنتُ فقط أستعرض ما حولي، أقتلُ الوقت. لكنَّ قدميَّ كانتا تجرّاني شمالاً، نحو الشارع الرابع عشر. وعندما أصبحت جنباً إلى جنب مع المطعم الروسي توقفتُ برهة ومن ثم هرعتُ أرتقي الدَرَج ثلاثاً. كان باب الصالة مفتوحاً. ارتقيتُ مطلعَيّ درج مُستعرضاً الأسماء على الأبواب. كانت تُقيم في الطابق الأعلى وكان هناك اسم رجل تحت اسمها. قرعتُ برقّة. لا جواب. وأعدتُ القرع، أقوى قليلاً. هذه المرة سمعتُ أحدهم يتنقَّل. ثم اقترب صوت من الباب يسأل مَنْ الطارق وفي الوقت نفسه دارت أكرة الباب. دفعتُ الباب ودخلتُ بخطى متعثّرة ووجدت نفسي بين ذراعيها وشعرت بأنها عارية من تحت رداء الكيمونو شبه المفتوح. لابد أنها استيقظت لتوّها من نومٍ عميق ولم تتعرَّف إلا جزئياً على مَنْ كان يضمها بين ذراعيه. وحين أدركتْ أنه أنا حاولتْ أنْ تتملص لكنني كنتُ أمسك بها بحزم وبدأتُ أقبّلها بشغف وفي الوقت نفسه أعودُ بها إلى الخلف نحو الأريكة بالقرب من النافذة. غمغمت بشيءٍ عن أنَّ البابَ مفتوح لكنني لم أكن لأوفّر لها أي فرصة لتتخلَّص من ذراعيّ. لذا قمت بحركة دورانية وشيئاً فشيئاً جررتُها ناحية الباب وجعلتها تصفقه بطيزها. ثم أوصدته بيدي الحرّة وانتقلتُ بها إلى منتصف الغرفة وبيدي الحرّة فككتُ فتحة بنطلوني وأخرجتُ أيري وأقحمته في موضعه. وكانت من شدّة التخدُّر من أثر النوم حتى إنَّ الأمر كان أشبه بالعمل على آلة. وقد فهمتُ أيضاً أنَّها تستمتع بفكرة كونها

تُنكح وهي شبه نائمة. المشكلة الوحيدة هي أنني كلما طعنته ازدادت يقظتها. وبينما هي تزداد وعياً كانت تزدادُ خوفاً. كان صعباً معرفة كيف يمكن إعادتها إلى النوم من جديد دون خسارة نكاح جيد. ونجحتُ في إسقاطها على الأريكة دون أنْ أخسر شيئاً وكانت حينئذٍ قد أضحت حارة كالجحيم، تتلوّى وتتمعّج كحنكليز. ومنذ أنْ بدأتُ أدقّها لا أعتقد أنها فتحت عينيها مرة. ورحتُ أردِّد - " نكاحٌ مصريّ... نكاحٌ مصري" - ولكي لا أقذف فوراً عمدتُ إلى التفكير في الجثة التي جرّتها مونيكا معها إلى محطة غراند سنترال وفي السنتات الخمسة والثلاثين التي تركتها مع بولين على الطريق العامة. ثم بووم ! سمعنا طرقاً عنيفاً على الباب وهنا فتحت عينيها ونظرت إليّ في رعبٍ كبير. وبدأتُ أتراجع بسرعة ولكن دُهشتُ حين أمسكت بي بحزم، وهمست في أذني " لا تتحرّك، انتظر ! ". وكان هنا قرعٌ عنيفٌ آخر ومن ثم سمعنا صوت كرونسكي يقول " إنه أنا، ثلما... إنه أنا إيزي ". هنا كدتُ أنفجر بالضحك. وسقطنا من جديد إلى وضعٍ طبيعي وبينما هي تغمض عينيها بهدوء أخذتُ أديره فيها، برقّة لكي لا أوقظها من جديد. كان واحداً من أروع النكاحات التي مارستها في حياتي. حسبتُ أنه سيدوم إلى الأبد. فكلما شعرتُ بخطر القذف أتوقّفُ عن الحركة وأفكّر - أفكّر مثلاً في المكان الذي أودُّ أنْ أقضي فيه إجازتي، إذا ما حصلتُ على واحدة، أو في القميص المُلقى في درج الخزانة، أو في البقعة الموجودة على سجادة غرفة النوم عند آخر السرير. كان كرونسكي لا يزال واقفاً عند الباب - سمعته يُبدِّل موقعه من مكانٍ إلى آخر. وكلما أصبحت واعياً لوقوفه هناك أحرفها قليلاً وكانت تُجيب على ذلك بطريقتها نصف النائمة،

بفكاهة، وكأنها فـهـمتْ مـا عنيتُ بلغـة خُذْ-وهاتْ تلك. لم أجـرؤ على التـفكير فـيمـا يمكن أنْ تفكِّر فـيه وإلا لقذفتُ فـوراً. أحيـاناً كنتُ أقتـرب بصورة خطِرة من ذلك، لكنَّ الخدعة المُنقذة كانت دائماً مونيكا والجثة في محطة غـرانـد سنتـرال. كان التـفـكيـر في ذلك، أعني الجانب الفكِه منه، يعمل عمل الدُش البارد.

حين انتـهى الأمر فـتـحت عينيـها واسعـاً وحدَّقت إليّ، وكأنها تراني للمـرة الأولى. لم يكن لدي أي كلمـة أقـولها لـهـا؛ الفكـرة الوحيـدة التي سكنت رأسي كـانت أنْ أخـرج من هناك بأسـرع مـا يمكنني. وعندمـا كنا نغـتـسل لاحظتُ وجـود رسـالـة على الأرض بالقـرب من الباب. كـانت من كرونسكي. لقد نُقِلَتْ زوجته إلى المستشفى. شعرتُ بارتياح ! ذلك يعني أنني أستطيع أنْ أفرّ دون أنْ أهدر أي كلمة.

في اليـوم التـالي أتتني مكالمة هاتفـيـة من كرونـسكي. لقد توفـيت زوجتـه على طاولـة العـمليـات. وفي مسـاء ذلك اليـوم ذهبتُ إلى المنزل لتـناول طعـام العـشـاء؛ وأثنـاء تنـاول الطعـام رنَّ جـرس البـاب، وإذا بكرونسكي واقـفاً بالباب ويبدو فـي أسـوأ حـال. لطالما كـان صعـباً عليّ أقدِّم كلمات عزاء؛ ومعه كان الأمر مستحيلاً تماماً. أصغيتُ إلى زوجتي وهي تدلي بكلماتها المتعاطفة والمبتذلة فشعرت بالاشمئزاز منها أكثر من أي وقت آخر. قلت " هيا نخرجُ من هنا "

مـشـينا بعض الوقت يلفّنا صمتٌ تام. وفي الحديقـة العـامـة انعطفنا وتوجهنا إلى المروج. كـان هناك ضباب كـثـيف جعل مـن المسـتـحـيـل علينا أنْ نرى لأبعـد من ياردة أمـامنا. وفجأةً، بينمـا كنا نسـبح مـتـقدمين، بدأ يجـهـش بالبكاء. توقـفتُ والتـفتُّ. ثم حسـبتُ أنه انـتـهى وتلفّتُ حـولي

فوجدته يُحدِّقُ إليّ ويرسم ابتسامة غريبة. قال " غريب، كم يبدو قبول الموت صعباً ". أنا أيضاً ابتسمت الآن ووضعتُ يدي على كتفه. قلت "هيا، بُحْ بما يجول في ذهنك. أزِحه عن صدرك " وانطلقنا نسير من جديد، صعوداً وهبوطاً على المروج، وكأننا نسير تحت الماء. كان الضباب قد أضحى من شدّة الكثافة بحيث لم أعد أستطيع أنْ أميِّز قَسَمات وجهه. كان يتكلَّم بهدوء وبجنون. قال " كنتُ أعلم أنَّ ذلك سيحدث. كان الوضع أروع بكثير من أنْ يدوم ". في الليلة السابقة لإصابتها بالمرض كان قد رأى حلماً. حلمَ بأنه قد فَقَدَ هويته. " كنتُ أمشي مُتعثِّراً وسط الظلام أهتفُ باسمي. وأذكرُ أني وصلتُ إلى جسر، وحين نظرتُ في المياه شاهدتُ نفسي أغرق. فقفزتُ من الجسر مباشرةً وحين ظهرتُ من جديد رأيتُ يتّا طافية تحت الجسر. كانت ميتة " وفجأةً أضاف : "كنتَ هناك بالأمس حين قرعتُ الباب، ألم تكن؟ كنتُ أعلم أنكَ موجود هناك ولم أستطع أنْ أرحل. كنتُ أعلمُ جيداً أنَّ يتّا تحتضر وأردتُ أنْ أكون معها، لكنني خفتُ أنْ أذهب وحدي ". لم أقُلْ شيئاً وتابع ثرثرته "أول فتاة أحببتها في حياتي ماتت بالطريقة نفسها. كنتُ مجرد طفل ولم أتمكن من تجاوز المحنة. وفي كل ليلة كنتُ أخرجُ إلى المقبرة وأجلس بجوار قبرها. وأعتقد الناس أنني فقدتُ عقلي. أعتقد أنني كنتُ فاقداً لعقلي. بالأمس، حين كنتُ واقفاً بالباب، عادت الذكرى كلها إليّ. وقد عدتُ إلى ترينتن، عند القبر، ووجدتُ أخت الفتاة التي كنتُ أحبها جالسة بجواري. قالت إنَّ الوضعَ لا يمكن أنْ يستمر هكذا طويلاً، وإنني سأُجَنّ. قلتُ في نفسي إنني حقاً مجنون ولكي أُثبتَ ذلك لنفسي قرّرتُ أنْ أفعل شيئاً جنونياً فقلتُ لها إنني لا أحبها ***هي***، أنا أحبكِ ***أنتِ***،

وشددتُها إليّ واستلقينا ونحن نتبادل القُبل وأخيراً خرقتُها، هناك بجوار القبر. وأعتقد أنَّ ذلك شفاني لأنني لم أعُدْ إلى هناك أبداً ولم أعُد أفكِّر فيها - إلى أنْ كان الأمس حين وقفتُ بالباب. ولو أني أمسكتُ بك بالأمس لخنقتكَ. لا أدري لماذا شعرتُ هكذا ولكن بدا لي أنكَ فتحتَ قبراً؛ أنكَ تنتهك الجسد الميت للفتاة التي أحببتها. شيء جنوني أليس كذلك؟ ولماذا أتيتُ لأراك هذه الليلة؟ ربما لأنكَ غير مُبالٍ على الإطلاق بي... لأنكَ لستَ يهودياً وأستطيع أنْ أتحدَّث إليك... لأنك لا تأبه بأي شيء، وأنت على حق... هل قرأتَ ***ثورة الملائكة***؟ "

كنا قد وصلنا إلى درب الدراجات الهوائية الذي يكتنفُ أرض الحديقة. كانت أضواء الجادة تسبحُ في الضباب. نظرتُ إليه مليّاً فرأيتُ أنه مجنون. تساءلتُ إنْ كان في استطاعتي أنْ أدفعه إلى الضحك. وكنتُ أخشى أيضاً من أنه إذا باشر الضحك لا يتوقف أبداً. فبدأتُ أتكلَّم بشكل عشوائي، عن أناطول فرانس في أول الأمر، ومن ثم عن كُتّابٍ آخرين، وأخيراً، عندما شعرت أنني أفقده، انتقلتُ فجأةً إلى الجنرال إيفولجين، وهنا بدأ يضحك، ولم يكن حتى ضحكاً، بل قوقأة، قوقأة شنيعة، مثل ديك وُضِعَ رأسه على الوَضَم. واستولى عليه بشكلٍ سيئ إلى درجة أنه اضطرَّ إلى الكف وإمساك أحشائه؛ وكانت الدموع تنهمر من عينيه وبين نوبات القوقأة كان يُطلق نشيجاً رهيباً، يفطر القلوب. ثم انفجر قائلاً، بعد أنْ خمدَتْ نوبته الأخيرة " كنت أعلمُ أنكَ ستكون ذا نفعٍ لي. لطالما قلتُ إنك ابن شرموطة مجنون... أنتَ نفسك ابن حرام يهودي، لكنكَ لا تعلمُ ذلك... والآن قُلْ لي، يا ابن الحرام، كيف كان الأمر بالأمس؟ هل أدخلتَ طَرَفَكَ فيها؟ ألمْ أقُلْ لكَ إنها

ناكحة جيدة؟ وهل تعلم مع مَنْ تعيش، يا إلهي، أنتَ محظوظ لأنه لم يُقبَض عليك. إنها تعيش مع شاعر روسي - أنتَ تعرفه، أيضاً. لقد قدَّمته إليك ذات مرة في كافيه رويال. الأفضل ألا تجعله يسمع بالأمر. سوف ينسف دماغك... وسوف يكتب قصيدة جميلة عن الأمر ويرسلها إليها مع ضمّة من الورود. طبعاً أنا عرفته من ستلتن، في مُستعمرة الفوضويين. كان والده عَدَميّاً. العائلة كلها مجنونة. وبالمناسبة، يُستحسن أنْ تهتم بنفسك. لقد قصدتُ أنْ أقول لك هذا في ذلك اليوم، لكنني لم أعتقد أنكَ ستتصرَّف بهذه السرعة. قد تكون مُصابة بالسفلس كما تعلم. أنا لا أحاول أنْ أُخيفك. إنني فقط أقول لك هذا لمصلحتك..."

هذا الانفجار بدا بحق أنه يُهدِّئه. كان يحاول أنْ يُخبرني بطريقته اليهودية المنحرفة أنه يحبني. ولكي يفعل ذلك كان عليه أولاً أنْ يُدمِّر كل ما يُحيط بي - الزوجة، والعمل، وأصدقائي، و " عاهرتي الزنجية "، كما سمّى فاليسكا، وما إلى ذلك. قال " أعتقد أنكَ ذات يوم سوف تصبح كاتباً كبيراً "، ثم أردفَ " ***ولكن***، عليكَ أولاً أنْ تعاني قليلاً. أعني مُعاناة ***حقيقية***، لأنكَ لا تعرف بعد معنى الكلمة. أنتَ فقط ***تعتقد*** أنكَ تعاني. يجب أنْ تقع في الحب. والآن تلك العاهرة الزنجية... لا أظنكَ تعتقد حقاً أنكَ تحبها؟ هل حدث وأنْ نظرتَ ملياً إلى طيزها... كيف تمتد، أعني؟ في غضون خمس سنوات سوف تُشبه العمّة جيميما. سوف تُشكّلان زوجاً رائعاً وأنتما تتمشيان في الجادة مع سلسلة من الأطفال الزنوج يتبعونكما. يا إلهي، أفضِّل أنْ أراك متزوجاً من يهودية. طبعاً أنتَ لن تعرف قَدرها، لكنها ستكون صالحة لك. أنت بحاجة إلى شيء يجعلك تستقرّ. إنك تُبدِّد طاقاتك. اسمع، لِمَ لا تتجول مع أولاد

الحرام أولئك الذين تنتقيهم؟ يبدو أنكَ تتمتع بعبقرية انتقاء الأشخاص الخطأ. لِمَ لا تنخرط في عملٍ مفيد؟ هذا العمل ليس من مقامك - يمكنكَ أَنْ تصبح شخصاً عظيماً في مكان ما. ربما زعيماً عمالياً... لا أدري ماذا بالضبط. ولكن أولاً يجب أنْ تتخلّص من زوجتك ذات الوجه النحيل تلك. تفووه! حين أنظر إليها أستطيع أنْ أبصق في وجهها. لا أفهم كيف استطاع شخص مثلك أنْ يتزوج من عاهرة مثلها. ما السبب - فقط مبيضاها الملتهبان؟ اسمع، هذه هي مشكلتك - إنكَ لا تفكر إلا في الجنس... كلا، ليس هذا ما أعني أيضاً. أنت ذكي وصاحب شغف وحماسة... ولكن يبدو أنك لا تأبه أبداً بما تفعله أو بما يحدث لكَ. لو لم تكن ابن حرام رومانسياً لأقسمتُ على أنكَ يهودي. الأمر مختلف بالنسبة إليّ - لم يكن لدي أبداً ما أصبو إليه. أما أنتَ ففي داخلك شيء - لكنك شديد الكسل بحيث تُخرجه. اسمع، حين أسمعكَ تتكلم أحياناً أقول في نفسي - ليت هذا الشاب يُدوِّن ذلك على الورق! إنَّ في استطاعتكَ أنْ تكتب كتاباً يجعل رجلاً مثل درايزر يشنق نفسه. أنت مختلف عن الأمريكيين الذين أعرفهم؛ بصورةٍ ما أنت لا تنتمي إليهم، وأمرٌ جيد جداً ألاّ تكون كذلك. وأنت مجنون قليلاً، أيضاً - أعتقد أنكَ تعلم هذا. ولكن بطريقة جيدة. اسمع، قبل زمنٍ غير بعيد، لو أنَّ أي شخص آخر تكلّم معي بهذا الأسلوب لقتلته. أعتقد أنك أفضل لأنكَ لم تحاول أنْ تمنحني أي تعاطُف. أنا أذكى من أنْ أتوقّعه منك. ولو أنكَ قلتَ كلمة واحدة زائفة هذه الليلة لجُنَّ جنوني. أعلم. كدتُ أفعل ذلك. حين باشرتَ الكلام عن الجنرال إيفولجين خلتُ للوهلة الأولى أنَّ أمري قد انتهى. وهذا ما دفعني إلى الاعتقاد بأنَّ في داخلك شيء... ينطوي

على براعة فائقة ! والآن دعني أنا أقول لكَ شيئاً... إذا لم تُلملم شتات نفسك سريعاً فسوف يُقضى عليك. إنَّ في داخلك شيء يتآكلك. لا أعلم ما هو، لكنك لا تستطيع أنْ تُفضي به إليّ. إنني أعرفك قلباً وقالباً. أعرف أنَّ هناك ما يستحوذ عليك - وهو ليس فقط زوجتك، وعملك، ولا حتى تلك العاهرة الزنجية التي تظن أنكَ تحبها. أحياناً أعتقد أنكَ وُلدتَ في الوقت غير المناسب. اسمع، لا أريد منك أنْ تعتقد أنني أجعل منكَ صَنَماً ولكن فيما أقول شيء من الحقيقة... ليت لديك المزيد من الثقة بالنفس لأصبحتَ أعظم رجل في العالم اليوم. ولن تكون بحاجة إلى أنْ تُصبح كاتباً. قد تصبح يسوع مسيح آخر. لا تضحك - أنا جادّ. ليس لديك أدنى فكرة عن إمكانياتك... أنت أعمى تماماً أمام كل شيء ما عدا شهواتك. ولا تعرف ماذا تريد. لا تعرف لأنكَ لا تكفّ عن التفكير. وتدع الناس يستغلونك. أنت أحمق، أبله. لو أنَّ لديّ عُشر ما لديك لاستطعت أنْ أقلب العالم رأساً على عقب. تظن أنَّ هذا جنون، هه؟ حسن، أصغي إليّ... إنني لم أكنْ مرةً أشد عقلانية مما أنا الآن. حين أتيت لزيارتك هذه الليلة حسبتُ أنني شبه مستعدّ للانتحار. لا يهمني إنْ انتحرت أم لا. ولكن على أي حال، لا أرى كبير أهمية لفعل هذا الآن. ذلك لن يُعيدها. لقد وُلدتُ تعيساً. يبدو أنني أينما توجّهت أسبِّب كارثة. لكنني لا أريد أنْ أتشاءم الآن... أريد أنْ أقوم أولاً بعمل صالح في العالم. قد يبدو لك هذا كلاماً سخيفاً، لكنه صحيح. أودّ أنْ أفعل شيئاً للآخرين... "

توقف فجأةً ونظر إليّ من جديد ورسم تلك الابتسامة الغريبة. كانت نظرة يهودي يائس غريزة الحياة فيه، كما في سلالته كلها، من القوة

بحيث، على الرغم من انعدام أي فُسحة للأمل، كان عاجزاً عن قتل نفسه. ذلك اليأس كان شيئاً غريباً تماماً عليّ. قلتُ في نفسي - ليتنا فقط نستطيع أنْ نغير جلودنا ! بل كان في استطاعتي أنْ أقتل نفسي مقابل شيء تافه ! وما أثَّر فيَّ أكثر من أي شيء فكرة أنه حتى لن يستمتع بالجنازة - جنازة زوجته ! ويعلمُ الله أنَّ الجنازات التي أقمناها كانت مناسبات مُحزنة، ولكن كان يتوفر دائماً شيء من الطعام والشراب بعد ذلك، وبعض النكات البذيئة الجيدة وبعض الضحك النابع من أعماق البطن. لعلي كنت أصغر سناً من أنْ أقدِّر النواحي المُحزنة، على الرغم من أني رأيتُ بوضوح كيف ولولوا وبكوا. ولكنَّ ذلك لم يعنِ الكثير لي، لأنه أثناء جلوسي بعد انتهاء الجنازة في حديقة البيرة المجاورة للمقبرة، كان دائماً يسود جوٌ من المرح الممتع على الرغم من الأزياء السوداء والأشرطة السوداء وأكاليل الزهور. وبدا لي، كطفل عندئذٍ، أنهم بحق يحاولون أنْ يقيموا ما يشبه التواصل بالمشاعر مع الموتى. حين أستعيد الموقف أرى فيه سمة مصرية. وذات يوم حسبتُ أنهم مجرّد ثلّة من المنافقين. لكنهم لم يكونوا كذلك. كانوا فقط ألمان أصحّاء، حمقى، ينطوون على شبق للحياة. والغريب هو أنَّ الموت كان شيئاً يقعُ خارج إدراكهم، لأنكَ إذا أخذتَ فقط بما يقولون فسوف تتخيَّل أنه يشغلُ حيزاً كبيراً من تفكيرهم. لكنهم في الواقع لم يفهموه على الإطلاق - ليس على طريقة اليهود، مثلاً. كانوا يتحدثون عن الحياة الآخرة لكنهم أبداً لم يؤمنوا بها. فإذا ما ذوت صحة شخص مُبتلٍ بموت قريب له نظروا إليه بريبة، كما ينظر المرء إلى رجل مجنون. كانت هناك حدود للحزن كما هناك حدود للفرح، هذا هو الانطباع الذي تركوه لديّ. وعند الحدود

القصوى هناك دائماً البطن التي يجب ملؤها - بشطائر الجبن والبيرة والكومل وقوائم الدجاج الرومي إذا توفّرت. كانوا يبكون فوق كأس البيرة، كالأطفال. وفي الدقيقة التالية يضحكون، يضحكون على التواءٍ غريب في شخصية الميت. حتى الطريقة التي استخدموا بها صيغة الماضي كان لها تأثير غريب. وبعد مرور ساعة من دفن الميت يقولون عنه - " لطالما كان طلق المُحيّا " - وكأنَّ الشخص الذي في أذهانهم قد مات قبل ألف عام، أصبح شخصية من التاريخ، أو شخصية في أسطورة النيبلونغ. الفرق هو أنه كان ميتاً، ميتاً بدون أدنى شك وإلى الأبد، وهم، الأحياء، كانوا منفصمين عنه من الآن وإلى الأبد، واليوم كما الغد يجب أنْ يُعاش كله، ويجب غسل الملابس، وإعداد الطعام، وحين يسقط التالي يجب انتقاء تابوت والتشاجر حول الوصية، ولكنَّ ذلك يحدث ضمن الروتين اليومي وأخذُ إجازة للتألُّم والحزن كان إثماً لأنَّ الله، إنْ كان موجوداً، قضى بذلك بهذه الطريقة ونحن الذين على الأرض لا يحقُّ لنا أنْ نقول أي شيء حول الأمر. وتجاوز حدود الفرح والحزن المُحدَّدة عمل شرير. والتهديد بالجنون هو الإثم الأكبر. كانت لديهم غريزة حيوانية رهيبة للتوافق، رائعٌ أنْ ترى إنْ كانت حقاً حيوانية، ورهيبٌ أنْ تشهد حين تدرك أنه ليس أكثر من سُباتٍ ألمانيّ مملّ، وانعدام حس. ومع ذلك، بصورة ما، فضَّلتُ تلك البطون الحيّة على حزن اليهود برؤوسه المتعددة. في أعماقي لم أستطع أنْ أشعر بالرثاء على كرونسكي - كنتُ أشعر بالرثاء على عشيرته كلها. لقد كان موت زوجته مجرد بند واحد، تافه، في سياق تاريخ نوائبه. وكما قال هو نفسه، لقد وُلِدَ عاثر الحظ. لقد وُلِدَ لكي يرى الأمور تجري بشكلٍ خاطئ - لأنَّ الأمور على مدى خمسة

آلاف عام كانت تجري بصورة خاطئة في دماء السلالة. لقد جاؤوا إلى العالم مع تلك النظرة الشزراء اليائسة، المُحبطة، المرتسمة على وجوههم وسوف يغادرون العالم بالمظهر نفسه. لقد خلّفوا رائحة كريهة خلفهم- سُمّ، قيء الحزن. والنتن الذي كانوا يُحاولون أنْ ينزعوه من العالم كان النتن الذي جلبوه هم أنفسهم إلى العالم. تفكّرتُ في ذلك كله وأنا أصغي إليه. شعرتُ بتحسُّنٍ كبير وبأني نظيف من الداخل بحيث أننا حيث افترقنا، بعد أنْ انحدرتُ إلى شارعٍ جانبي، بدأتُ أُصفِّر وأهمهم. ثم شعرتُ بعطشٍ شديد فقلتُ لنفسي بأفضل لهجة أيرلندية - حتماً يجب أنْ تشرب كأساً صغيراً الآن، يا ولدي - قلتُ هذا وولجتُ متعثراً فجوةً في الجدار وطلبتُ إبريقاً من البيرة الكثيفة الرغوة وشطيرة كبيرة من الجبن مع الكثير من البصل. وطلبتُ إبريقاً آخر من البيرة ومن ثم قليلاً من البراندي وقلتُ في نفسي بطريقتي القاسية - إذا كان ابن الحرام المسكين ليس لديه ما يكفي من الذكاء ما يجعله يستمتع بجنازة زوجته فسوف أستمتع بها نيابة عنه. وكلما أمعنتُ في التفكير في الأمر، ازدادت سعادتي، وإذا كان هناك أي أثر بسيط من الحزن أو الحَسَد في نفسي فقط لأنني لم أستطع أنْ أتبادل الأماكن معها، تلك اليهودية المسكينة، لأنَّ الموت كان شيئاً يقع بشكلٍ كامل خارج فهم متسكّع مثلي ومن المؤسف تبديده على أمثالهم الذين يعرفون كل شيء عنه ولا يحتاجونه بأي حال. وقد ثملتُ بفكرة الاحتضار إلى درجة أنني في غمرة ثمالتي رحتُ أبتهل لله في الأعالي كي يقتلني هذه الليلة، اقتلني، يا الله، ودعني أعرف فحواه. لقد بذلت أقصى جهدي لأتصوّره، أي الموت، ولكن بلا فائدة. أفضل ما استطعتُ أنْ أفعله هو أنْ أقلّد

قعقعة الموت، لكنني كدتُ أختنق، ثم تولاني رعب فظيع حتى كدتُ أخري في سروالي. لم يكن ذلك موتاً على أي حال. كان اختناقاً. الموت كان أقرب شبهاً بما نمرُّ به في الحديقة العامة : اثنان يمشيان جنباً إلى جنب وسط الضباب، يحتكّان بالأشجار والأكمات، ولا يتبادلان كلمة واحدة. كان شيئاً أشد خواءً من الاسم نفسه لكنه حق وسلام، مُبجَّل، إذا شئت. لم يكن استمراراً للحياة، بل قفزة في الظلام من دون إمكانية بالعودة، ولا حتى كذرَّة تراب. إنَّ ذلك حق وجميل، قلتُ لنفسي، إذاً لماذا يرغب المرء في العودة. إنَّ تذوّقه مرة يعني تذوُّقه إلى الأبد - حياة أو موت. إنَّ كلا وجهي قطعة النقد حق، ما دمت لا تتكئ على عكازين. لاشك في أنَّ من الصعب أنْ تختنق بلعابك - كريه أكثر من أي شيء آخر. ثم إنَّ المرء ليس دائماً يموت مختنقاً. أحياناً يموت أثناء النوم، بسلام وهدوء كحَمَل. يأتي الرب ويحملك في صُرّة، كما يقولون. على أي حال، تكفّ عن التنفُّس. ولماذا يرغب المرء في الاستمرار في التنفُّس إلى الأبد؟ إنَّ كل شيء يجب أداؤه دون انقطاع هو عذاب مُقيم. إننا نحن معشر أولاد الحرام البشر المساكين علينا أنْ نكون سعداء لأنَّ أحدهم أوجد لنا مخرجاً. إننا لا نعترض على النوم. ونقضي ثلث حياتنا نغطُّ في النوم كجرذان سكارى. وماذا عن هذا؟ أهو مأساوي؟ حسن إذن، فلنقُل إنه ثلاثة أثلاث من نوم الجرذان. يا إلهي، لو أنَّ لدينا أقلّ قدر من الحسّ لرقصنا ابتهاجاً لمجرَّد التفكير في هذا! يمكننا جميعاً أنْ نموت غداً في أسرّتنا، بلا ألم، بلا معاناة - لو كان لدينا من الحس ما يكفي للاستفادة من علاجاتنا. نحن لا نريد أنْ نموت، وهذه هي مشكلتنا. ولهذا نرى الله وفريق إطلاق النار كله في الأعالي في

صناديق قمامتنا المجنونة. الجنرال إيفولجين ! هذا ما انتزع الضحك منه... وبعض النشيج الجاف. ويمكنني أيضاً أنْ أقول شطيرة جبن. لكنَّ الجنرال إيفولجين يعني له شيئاً هاماً... شيئاً جنونياً. شطيرة الجبن ستكون شيئاً عاقلاً أكثر مما ينبغي، شديد الابتذال. ولكن كل شيء شطيرة جبن، حتى الجنرال إيفولجين، الأبله السكير المسكين. لقد نشأ الجنرال إيفولجين من شطيرة جبن دوستويفسكي، من فريقه الخاص. وهذا يعني نكهة خاصة، علامة مميِّزة. والناس يميّزونها من رائحتها، من مذاقها. ولكن مما تتكوَّن شطيرة جبن الجنرال إيفولجين؟ مهما كان ما تتألّف منه شطيرة جبن، فهي مادة مجهولة. وعليه؟ لا شيء... لا شيء على الإطلاق. نقطة على السطر - أو قفزة في الظلام ولا عودة.

بينما كنتُ أخلع بنطلوني تذكَّرتُ فجأةً ما أخبرني به ابن الحرام. نظرتُ إلى أيري فبدا بريئاً كعهده دائماً. قلت، وأنا أمسك به بيدي وأعصره قليلاً وكأنني أتوقع أنْ أرى الصديد ينبجس قليلاً، " لا تقُلْ لي إنكَ مُصاب بالسفلس ". كلا، لا أعتقد أنَّ هناك فرصة للإصابة بالسفلس. لم أولَدْ لكي أُصاب به. السيلان، نعم، ممكن. الجميع يُصابون بالسيلان في وقتٍ من الأوقات. ولكن ليس السفلس ! كنتُ أعلم أنه يتمناه لي إذا كان ذلك ممكناً، فقط لكي يجعلني أدرك معنى المعاناة. لكنني لم أزعج نفسي بالتفضُّل عليه. لقد وُلِدتُ أبله ومحظوظاً. تثاءبتُ. قلتُ في نفسي، إنَّ الأمر كله يتعلّق بالجبن اللعين بسفلس أو بلا سفلس، فإذا كانت مؤهلة له سأقتطع قطعة أخرى وأسمّيها يوماً. ولكن من الواضح أنها لم تكن أهلاً له. لقد فضّلتْ أنْ تُدير طيزها لي. لذا بقيتُ مستلقياً هناك مع أير منتصب مغروز في طيزها وقد أعطيتها إياه

بتخاطُر ذهني. وبحق المسيح، وصلتها الرسالة مع أنها كانت مُستغرقة في النوم، لأنَّه لم يكن صعباً أبداً الولوج من باب الإسطبل، ثم إنَّني لم أكنْ مُضطراً إلى أنْ أنظر إلى وجهها وهذا أراحني كثيراً. قلتُ في نفسي، وأنا أطعنها للمرة الأخيرة وأصفِّر - " يا ولدي إنه جبن والآن استدر وغُطّ... "

بدا أنَّها ستستمر إلى الأبد، أنشودة الجنس والموت. بعد ظهر اليوم التالي وفي المكتب استلمتُ مكالمة هاتفية من زوجتي تقول إنْ صديقتها آرلين قد نُقلَتْ لتوّها إلى مستشفى المجانين. كانتا صديقتين من أيام مدرسة الدير في كندا حيث كانتا تدرسان الموسيقى وفن الاستمناء. وكنتُ قد قابلت السرب كله شيئاً فشيئاً، بمَنْ فيهن الأخت أنطولينا التي كانت ترتدي حزاماً للفتق والتي يبدو أنها كانت الكاهنة الكبرى لعبادة الـ Fonanism. كنَّ جميعاً متيّمات بحب الأخت أنطولينا في وقتٍ من الأوقات. ولم تكن آرلين بفمها الشبيه بحلوى الإصبعية بالشوكولاة أول مَنْ تذهب إلى مستشفى المجانين بين مجموعتها الصغيرة. أنا لا أقول إنَّ الاستمناء هو الذي أودى بهنَّ إلى هناك ولكن لابد أنَّ لجو الدير صلة بذلك. لقد كنَّ جميعاً فاسدات من البيضة.

قبل انقضاء فترة بعد الظهر دخلَ عليّ صديقي القديم ماكغريغور. كان بادي الكآبة كالمعتاد، يشتكي من أنه أصبحَ عجوزاً، مع أنه لم يتجاوز الثلاثين. وحين أخبرته عن أمر آرلين بدا أنه قد انتعشَ قليلاً. قال إنه لطالما شعر بأنَّ ثمة شيء غير طبيعي فيها. لماذا؟ لأنه حين حاول مرةً أنْ يغتصبها أخذت تبكي بهستريا. ولم يكن بكاؤها مُتناسباً مع ما قالت. فقد قالت إنها ارتكبت إثماً في حق الروح القُدس لذا بات عليها

أنْ تعيش حياة زهد. وأخذ يضحك بطريقته الخالية من المرح لأنه تذكَّرَ هذه الحادثة. قلت لها - لستِ مُجبرةً على فعل هذا إذا كنت لا تريدين... فقط امسكيه بيدك. ويا يسوع، حين قلتُ هذا حسبتُ أنهَا ستفقد عقلها قالت إنني أحاولُ أنْ ألوِّث براءتها- هذا ما قالته. وفي الوقت نفسه أمسكت به بيدها وعصرته بقوة حتى كادَ يُغمى عليَّ. وكانت طوال الوقت تبكي أيضاً، وهي تضرب على وتر الروح القُدس و"براءتها ". وتذكَّرتُ ما قالته لي ذات مرة فصفعتُها صفعة قوية على فكّها. وعملَتْ عملها كالسحر. وبعد قليل هدأتْ، بحيث تسنّى لي إعادته إلى مكانه، وهنا بدأ المرح الحقيقي. اسمع، هل سبقَ لكَ أنْ نكحتَ امرأة مجنونة؟ إنها تجربة تستحق العناء. فما أنْ وضعته فيها حتى بدأتْ تتكلَّم كالقذيفة. لا أستطيع أنْ أصفه لك بالضبط. لكنها بدت كأنها لم تكن تعلم أنني أنكحها. اسمع، لا أعلم إنْ كنتَ ضاجعتَ امرأةً تأكل تفاحةً وأنتَ تعملُ فيها... حسن، يمكنك أنْ تتصور تأثيره عليك. هذه المرة كانت أسوأ بكثير. لقد أثَّرت على أعصابي حتى بدأتُ أظن أني أنا أيضاً غريب الأطوار قليلاً... والآن إليك شيئاً سيصعب عليك تصديقه، لكني أقول الحقيقة. أتعلمْ ماذا فَعَلَتْ بعد أنْ انتهينا؟ لقد طوَّقتني بذراعيها وراحت تشكرني... انتظر، ليس هذا كل شيء. ثم نزلت عن السرير وركعت على الأرض وقَدَّمَتْ صلاةً لروحي. يا يسوع، أذكُر ذلك جيداً. ثم قالت " يا رب ! اجعلْ ماك مسيحياً صالحاً ! "، وكنتُ مُستلقياً هناك مع إيري الضخم أصغي إليها. لم أكنْ أعلم إنْ كنتُ أحلم أم ماذا. " أرجوك يا رب ! اجعل ماك مسيحياً صالحاً ! " أتتصوَّر هذا؟

وأضاف بمرح " ماذا أنتَ فاعل هذا المساء؟ "

قلت " لا شيء معيّناً "

" إذن تعالَ معي. لديّ فتاة أريدك أنْ تتعرَّف عليها... اسمها بولا. التقطتها من روزلند قبل بضع ليالٍ. ليست مجنونة - إنها فقط شبِقة. أودّ أنْ أراك تراقصها. ستكون متعة كبيرة... مجرّد أنْ أراقبها. اسمع، إذا لم تقذف في سروالك وهي تتلوّى فأنا ابن عاهرة. هيا، أغلق المكتب. ما فائدة الضراط في هذا المكان؟ "

كان أمامنا الكثير من الوقت لنقتله قبل الذهاب إلى روزلند، لذا توجهنا إلى بؤرة صغيرة في الجدار بالقرب من الجادّة السابعة، وكانت قبل الحرب حانة فرنسية : " والآن أصبحت مربعاً مشبوهاً تُديره عاهرتان. وكان هناك بار صغير بالقرب من الباب، وإلى الخلف غرفة صغيرة ذات أرضيّة مفروشة بالنشارة وتحتوي آلة للموسيقى. وكانت الفكرة أنْ نشرب كأسين ثم نتناول الطعام. هكذا كانت الفكرة. وبما أني أعرفُ أساليبه، كما قلت، لم أكن متأكّداً من أننا سنصل إلى روزلند معاً. فإذا أتته امرأة من النوع الذي يوافق هواه - وليس عليها في هذه الحال أنْ تكون جميلة أو بصحة ممتازة - فاعلم أنه سيتركني في موقفٍ حرجٍ ويهرع خارجاً. الشيء الوحيد الذي كان يهمّني، وأنا معه، هو أنْ أتأكّد مُسبقاً من حيازته ما يكفي من النقود ليدفع ثمن المشروب الذي طلبناه. وطبعاً، ألاّ أدعه يغيب عن ناظري حتى يُسدِّد ثمنه.

كانت الكأس الأولى أو الثانية دائماً تغرقه في الذكريات. ذكريات عن عاهرة طبعاً. وكانت ذكرياته تدور حول حكاية قصّها عليَّ ذات مرة وتركت لديّ أثراً لا يُمحى، ويحكي عن اسكتلندي يُنازع على فراش

الموت. وبينما هو كذلك تلاحظ زوجته أنه يُكافح ليقول شيئاً فتنحني عليه برفق وتقول - " ماذا تريد يا جوك، ماذا تحاول أنْ تقول؟ "، فيرفع جوك نفسه بجهد أخيراً بضجر ويقول : "فقط عاهرة... عاهرة... عاهرة"

كان ذلك هو دائماً الموضوع الافتتاحي، والختامي، مع ماكغريغور. كانت طريقته في قول - **عقم**. والكلمة التي هيمنت على تفكيره هي مرض، لأنه بين المضاجعات، إنْ صحَّ التعبير، كان يقلق حتى يكاد يُجنّ، أو بالأحرى كان يقلق حتى يكاد رأس أيره يُجنّ. كان شيئاً طبيعياً إلى أقصى حد أنْ يقول، في ختام أمسية - " تعال إلى فوق دقيقة، أريد أنْ أُريك أيري ". ومن كثرة ما يُخرِج أيره وينظر إليه ويغسله ويفركه مرات عديدة في كل يوم من الطبيعي أنْ يبدو دائماً متورّماً ومُلتهباً. وكان بين الحين والآخر يذهب إلى الطبيب ليُجري له فحصاً، فيعطيه الطبيب، على سبيل طمأنته فقط، علبة صغيرة من المرهم وينصحه بعدم الإكثار من الشرب. ولا يضع هذا حداً للمناقشة، ويقول لي " إنْ كان للمرهم أي نفع فلماذا أنقطع عن الشرب؟ " أو " إذا توقفت عن الشرب نهائياً أتظن أني سأحتاج إلى استعمال المرهم؟ ". وطبعاً مهما كانت نصيحتي فإنها تدخل من أذُن لتخرج من الأخرى. كان عليه أنْ يقلق حول شيءٍ ما والأير طبعاً مادة دسمة للقلق. أحياناً كان يقلق على جلدة رأسه، فقد كان مُصاباً بالقشرة، مثل مُعظمنا، وحين يكون أيره في حالة جيدة ينساه ويقلق على جلدة رأسه، أو على صدره. وحالما يُفكّر في صدره يبدأ بالسعال. وأي سعال ! كأنه في آخر مراحل داء السل. وعندما يُلاحق امرأة يكون عصبياً ونَزِقاً كقطة. فهو لا يستطيع أنْ ينالها بالسرعة الكافية. وبعد أنْ ينالها يقلق على كيفية التخلُّص منها. ففيهنَّ عادةً خطبٌ ما، أشياء صغيرة تافهة، وهي جديرة بالقضاء على شهيته.

كان يتدرَّب على ذلك كله ونحن جالسان في ظُلمة الغرفة الخلفية. وبعد أنْ شرب كأسين نهضَ كعادته ليذهب إلى المرحاض، وفي الطريق يُسقطَ قطعة نقد في آلة الموسيقى ويبدأ الراقصون بالرقص، وهنا يدبُّ فيه النشاط ويُشيرُ إلى الزجاجات، ويقول " اطلبْ جولة أخرى "، ويعود من المرحاض بادي الرضا بصورة غير عادية، ولا أعلم إنْ كان بسبب إفراغه مثانته أم لأنه خرقَ فتاةً في الصالة. على أي حال، وبينما هو جالس، يبدأ مساراً جديداً - وقد أصبحَ الآن هادئاً جداً، يكاد يكون فيلسوفاً " أتعلمْ يا هنري، إنَّ السنين تتقدَّم بنا. وعلينا أنتَ وأنا ألاّ نبدِّد وقتنا هكذا. فإذا كنا ننوي أنْ نبلغ أي هدف فقد حان الوقت لنبدأ... ". كنت أصغي إليه هكذا من سنين خلت وأعلم ماذا ستكون النتيجة. وكانت تلك مجرَّد جملة صغيرة معترضة قالها وهو يُلقي نظرةً هادئة حول الغرفة ليُقرِّر أي العاهرات هي الأقلّ سُكراً. وبينما هو يتحدث عن فشل حياتنا البائسة كانت عيناه ترقصان وتزدادان ومضاً باطراد. وكما يحدث عادةً، إذا به يقول - " والآن خذ مثلاً وودْرَف؛ إنه لن يُحرز أي تقدُّم لأنه ابن حرام حقير بالفطرة... " في مثل تلك اللحظة بالذات، وكما توقّعت يتصادف أنْ تمرّ إحدى البقرات السكارى بالطاولة فيقع بصره عليها ودون لحظة توقّف يقطع حديثه ليقول " مرحبا يا صغيرتي، لماذا لا تجلسين لتشاركينا الشراب؟ " وبما أنَّ عاهرة كتلك لا تتمشّى وحدها أبداً، بل مع إحداهن، فلماذا لا تجيبه قائلة " طبعاً، هل أستطيع أنْ أُحضر صديقتي؟ "، فيجيب ماكغريغور، وكأنه أشد الشبّان شهامة في العالَم " ولمَ لا؟ ما اسمها؟ ". ثم يشدّني من كُمّي، ويميل عليّ ليهمس " إياك أنْ تفرّ وتتركني، أتسمع؟ سنمنحهما كأساً من المشروب ومن ثم نتخلّص منهما، أتفهم؟ "

وكما يحدث دائماً، الكأس تقود إلى الأخرى والفاتورة تتراكم باستمرار ولا يفهم لماذا عليه أنْ يُضيِّع نقوده على سِكّيرتين، لذا اذهبْ أنتَ أولاً يا هنري، وتظاهرْ بأنك ذاهب لتشتري دواءً ما واتبعكَ بعد لحظات... لكنْ انتظرني، يا ابن الحرام، لا تتركني للهزيمة المُنكَرة كما فعلتَ في المرّة السابقة. وكما أفعلُ دائماً، بعد أنْ أخرج أبتعد بأسرع ما تقوى عليه قَدَماي، وأضحكُ شاكراً طالعي الحَسَن لأنني أهربُ منه بالسهولة نفسها التي تُتاح لي في كل مرة. وبوجود كل ذلك الشراب تحت حزامي لم يعد يهمُّ أين تجرّني قَدَماي. برودواي مُضاء بنفس الجنون المعتاد والحشد كثيف كالدبس. فقط ارتمي فيه كنملة ودعه يدفعكَ معه. الكلُّ يفعلُ ذلك، البعض لأسبابٍ وجيهة والبعض الآخر بلا أي سبب على الإطلاق. كل هذا التدافُع والتزاحُم يمثّلُ فعلاً، تقدُّماً، نجاحاً. قفْ وانظر إلى الأحذية أو القمصان الرائعة، والمعاطف الخريفية الجديدة، وخواتم زفاف الواحد بـ ٩٨ سنتاً. وبعد كل حانة هناك محل للأطعمة.

في كل مرة أطرقُ هذه الطريق قرابة وقت العشاء، تتملّكني حُمّى التوقُّع. إنها المسافة بين ساحة تايمز والجادّة الخامسة، وهي مجرَّد امتداد لبضع مبانٍ. وحين نقول برودواي فهذا كل ما نعني، وهو لا شيء؛ مجرَّد درب دجاج وطريق قذرة، ولكن في الساعة السابعة مساءً حين يهرع الجميع لاحتلال إحدى الموائد يشيعُ في الجو نوعٌ من الطقطقة الكهربائية ويقفُ شعر رأسك حتى آخره كالهوائي وإذا كنتَ مُتفتّحاً فأنتَ لا تتلقّى فقط كل ضربة قوية وبصيص بل وتنتابك الحكّة الإحصائية، quid pro quo (بدل)، كميّة أجسام الجِبلّة الخارجية، المتغلغلة في النسيج الحيّ، المتفاعلة، تتصادم في الفضاء كالنجوم التي تكوِّنْ درب التبّانة، غير أنَّ هذا هو

الدرب الأبيض المرِح، قمة العالم بلا سقف وبلا حتى شرخ واحد أو ثقب تحت قدميك لتنفذ منهن وتقول إنَّ هذه كذبة. وتقودك صبغته المُجرّدة بصورة مُطلَقَة إلى حافة هذيان إنساني حارّ وتحثّك إلى الاندفاع والركض كحصانٍ أعمى وهزّ أذنيك المهتاجتين. إنَّ كل شخص ليس نفسه بشكلٍ مُطلَق لعين، حتى إنكَ تغدو آلياً تجسيداً للجنس البشري برُمّته، تُصافحُ ألفَ يد بشرية، تُقوّق بألف لغة إنسانية مختلفة، وتلعن، وتستحسن، تُصفِّر، تُدندن، تناجي نفسك، تُخاطب، تومئ، تتبوَّل، تخصِّب، تتملّق، تُداهن، تنشج، تُقايض، تعمل قوّاداً، وتموء، وهكذا دواليك. أنت جميع الناس الذين عاشوا وحتى موسى، وأكثر من ذلك أنتَ امرأةً تشتري قبعة، أو قفص للعصافير، أو مجرَّد فخ للفئران. يمكنك أنْ تستلقي مُنتظراً في واجهة عرض، كخاتم ذهبي عيار أربع وعشرين قيراطاً، أو في وسعك أنْ تتسلّق جدار بناية كذبابة إنسانية، ولكن لا شيء يمكنه أن يوقف الركب، ولا حتى مظلاّت تطير بسرعة البرق، ولا حيوانات الفظ بطابقَين تمشي بهدوء إلى بنوك المحار. إنَّ برودواى، كما أراه الآن ورأيته لخمسةٍ وعشرين عاماً خلى، هو مُنحدر فَهِمَه القديس توما الأكويني حين كان لا يزال في الرحم. هو موجود لتسكنه الأفاعي والسحالي، والضفادع ذات القرون ومالك الحزين الأحمر، ولكن حين غرقت الأرمادا الأسبانية العظيمة تملّصتْ البشرية من السفينة وتخطَّتْ الحدّ، مُشكِّلةً، بنوعٍ من التلوّي والاهتزاز الأبله الشائن، شقّاً يشبه الفَرج يمتد من الباتري جنوباً إلى ملاعب الغولف شمالاً عبوراً بالمركز الميّت الذي يعجُّ بالديدان لجزيرة مانهاتن. من ساحة التايمز إلى الجادّة الخامسة يوجد كل ما نسيَ القديس توما الإكويني أنْ يضمّه في تحفته الرائعة، ومن بينها،

شطائر السجق، وأزرار الياقة، وكلاب البودل، وآلات موسيقية، وقبعات مستديرة رمادية، وأشرطة آلات كاتبة، وعيدان العناية بالأظافر، ومراحيض مجّانية، وفوط نظيفة، وحلوى ذات نكهة النعناع، وكرات البلياردو، وبصل مفروم، ومناديل مائدة مُجعّدة، وفتحات للدخول، وعلكة، وكوكتيلات الكحول والفاكهة مع كرات حامضة، أوراق السيلوفان، وإطارات قيطانية، وأجهزة مغنيط[1]، ومراهم للجياد، وشراب السعال، وأقراص مُسهّلة، وذلك الغباء الماكر لخصيّ ممنوح بهياج يمشي إلى نافورة الصودا ببندقية رمي منشورة بين ساقيه. والجو السابق للعشاء، ومزيج عطر الباتشولي، والبتشبلند الحار، والكهرباء المُثلّجة، والحلوى المُسكّرة، والبول المتحوّل إلى مسحوق يجرف المرء إلى حمّى التوقّع المسعور. لن يهبط المسيح أبداً إلى الأرض ولن يكون هناك من مُشرِّع، ولن تتوقف الجرائم ولا السرقات، ولا الاغتصاب، ومع ذلك... مع ذلك يتوقّع المرء شيئاً، شيئاً رائعاً وتافهاً بشكلٍ رهيب، ربما كان سرطان بحر بارد مع المايونيز المجاني، ربما كان اختراعاً كالنور الكهربائي، كالتلفزيون، أكثر تدميراً، أكثر تمزيقاً للروح، اختراعاً لا يمكن التفكير فيه سيجلب السكون المُطبق والخواء، ليس سكون وخواء الموت بل الحياة كالتي يحلمُ بها الرهبان، ولا يزالون يحلمون بها في جبال الهيمالايا، والتبت، ولاهور، وجزر الأليوتية، وبولينزيا، والجزر الشرقية، حُلم أناس ما قبل الطوفان، قبل أنء تُكتَبْ الكلمة، حلم رجال الكهوف وآكلي النباتات، والمزدوجي الجنس وذوي الذيول القصيرة، حلم الذين

[1] – المغنيط : جهاز كهربائي من أجل إحداث الشرر في محرّك داخلي الاحتراق .

يُقال عنهم مجانين وليس لهم أسلوب في الدفاع عن أنفسهم لأنَّ الذين ليسوا مجانين فاقوهم عدداً. طاقة باردة قيّدها المتوحشون الدُهاة ثم أطبقوها على شكل قذائف صاروخيّة، ودواليب، ودواليب معقَّدة التركيب، للإيهام بالقوة والسرعة بعضها للضوء، وبعضها للطاقة، وبعضها للحركة، كلمات أبرقها مهووسون تُركَّب كالأسنان الاصطناعية، تامّة وكريهة كالمجذومين، مُداهنة، ناعمة، زلقة، حركة حمقاء لولبية، شَفَقيّة، دائرية، بين الجدران وخلالها، للمتعة، للمقايضة، للجريمة، للجنس، مُجلّلة بالنور، حركة، قوة مفهومة بتجرُّد، مولّدة، وموزَّعة على جميع أنحاء شقٍ مُختنق يشبه الفرج وُجِدَ ليُبهِر ويُرعِب البربري، والفلاح، والغريب، ولكن لا أحد يُذهَلْ أو يرتعب، هذا جائع، وذاك فاسِق، كلّهم واحد وسواء ولا فرقَ بين البربري، والفلاّح، والغريب، إلاّ في بعض الجزئيات، البقايا، رغوة الفِكر، نشارة العقل. وفي الشق الفرجيّ نفسه، المُقيَّد الذي لا يُذهل، مشى الملايين من أمامي، بينهم واحد، بليز سندرار، طار بعد ذلك إلى القمر، ثم عاد إلى الأرض ومنها انتقل إلى نهر أورينوكو يتجسّد رجلاً متوحشاً لكنه في الواقع يبدو كالزرّ، ولم يعُد سريع التأثُّر بالنقد، ولم يعُد بشرياً، بل هيكل مُتهالك رائع لقصيدةٍ مُهداة لأرخبيل الأرق. ومن بين أولئك المحمومين لا يبرز إلاّ قلّة، بينهم أنا لم أبرز بعد، لكنني نفيذ[1] ومُبقَّع، أعرفُ بضراوة هادئة سأمَ الحركة والدفق الساكنَين. قبل العشاء يرشحُ شقُ السماء وضلعها بهدوء، عبر القبة الرمادية المُضلّعة، وتمتلئ العوالم الزائغة بالنوى المدوَّرة

١ – نفيذ : أي يسمح بالنفوذ من خلاله .

الزرقاء، تتخثَّر، تتفرَّغ، في إحدى السِلال جراد البحر، وفي الأخرى نشوء عالم شخصي ومُطلَق بشكلٍ مُطهَّر. ومن فتحات الخروج يطلُّ رجالُ العالم المُقبل مُسربلين بالبراز، كئيبين بتأثير الحياة السرّية، تعضّهم صعقات الكهرباء الباردة كما الجرذان، النهار انصرَمَ والظلامُ قادم ظلال المجاري المُنعشة. وكالأير الناعم المُتسلل من كسٍ فائق الحرارة أقومُ أنا، ولم أخرج إلى الوجود بعد، ببعض الالتواءات المُخفقة، ولكن إما أني لستُ ميتاً وناعماً بما يكفي أو حرٌ كالسائل المنوي وأتزلج ad astra (نحو النجوم)، فموعد العشاء لم يحُن بعد والهياج التمعّجي يستحوذ على الكولون العلوي، ومنطقة أسفل البطن، والفَلَقَة السرّية الواقعة بعد الغدّة الصنوبرية. جراد البحر يسبح في الثلج وهو يُسلَقُ حيّاً، لا يُعطي ربع دولار ولا يطلبُ ربعاً، بل يقبعُ ببساطة بلا حِراك ولا دافع في ماءِ سأمِ الموت المُثلّج، الحياة تتدفق بالقرب من واجهة العرض المُخمَد بالخراب، وإنسانٌ حقير حزين تآكلَ بفعلِ سُم التومين، وزجاج النافذة المتجمّد يقطعُ كحدّ السكين، نظيفٌ وليس عليه بقايا.

الحياة تتدفَّق قرب واجهة العرض... أنا أيضاً أشكّلُ جزءاً من الحياة كجراد البحر، وخاتم الأربعة والعشرين قيراطاً، ومرهم الجياد، يصعُبُ عليّ أنْ أوطّد الحقيقة، الحقيقة القائلة إنَّ الحياة هي تجارة مُرفقٌ بها بوليصة شحن، وما أودُّ أنْ أأكله أهمّ مني أنا آكله، وكل واحد يأكلُ الآخر وبلا انقطاع، وصيغة الفعل هو حاكم المجموعة. في عملية الأكل يُعتَدَى على الضيف وتُهزَم العدالة إلى حين. والطبق وما عليه يأمرُ بالانتباه، بتأثير القوة النهّابة للأمعاء، ويوحّد الروح، أولاً يُخمدها، ثم يبتلعها ببطء، ثم يعجنها، ثم يمتصّها. ويمرّ الجزء الروحيّ للوجود مُسرعاً

كما الزَبَد، دون أنْ يُخلّف وراءه أي دليل أو أثر لمروره مهما كان، إنه يختفي، يختفي بكمالٍ أكبر من اختفاء نقطة في الفراغ بعد محاضرةٍ رياضيّة. والحمّى لن تجعل الحياة حارّة، وهذا ما كان يجب البرهنة عليه ولهذا تُقدِّس كُرات اللحم والسباغيتّي. والمضغ مع آلاف الماضغين، وكل مَضغة هي جريمة قتل، يوحي بضرورة معرفة الفئة الاجتماعية التي تطلّ منها لترى أنه حتى البشر يمكن أنْ يُذبحوا بعدالة، أنْ يُشوَّهوا، أو يُجوَّعوا، أو يُعذَّبوا، لأنَّ مجرَّد الاستمتاع بالجلوس على كرسي بكامل ملابسك، أثناء المضغ، وتمسح فمك بفوطة، يجعلك قادراً على فهم ما لا يمكن لأحكم الناس أنْ يفهموه، تعذُّر وجود أي أسلوب آخر ممكن للحياة، وهؤلاء الحكماء غالباً ما يترفّعون عن استعمال كرسي وملابس وفوطة. وأناسٌ كهؤلاء يعدون في شارعٍ على شكل شق فرجي اسمه برودواي كل يوم في ساعة معيَّنة، بحثاً عن هذا أو ذاك، يعملون على توطيد هذا الشيء أو ذاك، وهذا بالضبط هو أسلوب علماء الرياضيات، والمنطق، والفيزياء، والفلك ومَنْ شابههم. البرهان هو الحقيقة وليس للحقيقة من المعنى سوى ما يُضيفه عليها الذين وطَّدوها.

التهمتُ كرات اللحم، ورميتُ الفوطة الورقية على الأرض بحذر، وأتجشّأ قليلاً ودون أنْ أعرف لماذا أو إلى أين، أخرج إلى الشرارة عيار ٢٤ قيراط ومع عِدَّة المسرح. هذه المرة أتجوَّل في الشوارع الفرعية أتبعُ رجلاً أعمى يحمل أكورديون. وبين آنٍ وآخر أجلسُ على أحد المداخل أصغي إلى لحن آريا في دار الأوبرا لا تترك الموسيقى أثراً. أما هنا في الشارع ففيها لمسة الخَبَل الصحيحة التي تمنحها الحدَّة. وتحمل المرأة التي ترافق الرجل الأعمى كأساً معدنية بين يديها، وهو أيضاً جزء من حياة

أشبه بكأس المعدن بالضبط، كموسيقى فيردي، كدار الميتروبوليتان بالنسبة إلى الأوبرا. إنَّ كل شخص وكل شيء يشكّل جزءاً من حياة، ولكن حين يُضافون جميعاً إلى بعض، فالنتيجة بشكلٍ ما لا تشكّلُ حياة. وأتساءل، ***متى تصبح حياة، لِمَ لا تكون الآن***؟ الأعمى يُتابع تجواله وأبقى أنا جالساً عند المدخل. كانت كُرات اللحم عفنة، والقهوة قذرة والزبد فاسد؟ كل ما أنظرُ إليه عفِنٌ وقذر وفاسد. الشارع ينضح برائحةٍ كرائحة الفم الكريهة، والشارع التالي أيضاً، والذي يليه والذي يليه. ويعود الأعمى للوقوف عند الزاوية ويعزف مقطوعة " جبالنا هي بيتنا ". أجدُ في جيبي قطعة علكة - أمضغها، أمضغُ لمجرَّد المضغ. ليس هناك شيء أفضل أقوم به إلا إذا كان اتّخاذ قرار، وهو أمر مستحيل. مدخل البناء مُريح ولا أحد يزعجني. أنا من العالم، من الحياة، كما يقولون، أنتمي ولا أنتمي.

أجلس على المدخل مدة ساعة أو نحوها، حالماً مُتكاسلاً. أصلُ إلى نفس النتائج التي أصلها دائماً حين تُتاح لي لحظة أفكّر فيها لنفسي. فإما أنْ أذهب إلى المنزل على الفور وأبدأ الكتابة، أو أنْ أهرب وأبدأ حياة جديدة تماماً. إنَّ التفكير في البدء بكتاب يُرعبني : فلديّ الكثير جداً لأقوله، حتى إني لا أعرف أين أو كيف أبدأ. والتفكير في الهرب والبدء بكل شيء من جديد يُرعبني بالمقدار نفسه : فهذا يعني الكدّ كالعبد لإبقاء الجسم والروح معاً. وبالنسبة إلى رجل له مزاجي، والعالم على ما هو عليه، لا يوجد أي أمل على الإطلاق، لا حلّ. حتى إنْ استطعتُ أنْ أكتب الكتاب الذي أريد فلن يشتريه أحد - أنا أعرفُ أبناء جِلدتي حقّ المعرفة. وإنْ استطعتُ أنْ أبدأ من جديد فلن يكون لهذا

فائدة، لأنه ليست لدي رغبة أساسية في العمل، أو رغبة في أنْ أصبح عضواً نافعاً للمجتمع. أجلسُ هناك أحدِّقُ إلى المنزل الكائن على الطرف المقابل من الشارع. إنه لا يبدو فقط قبيحاً وبلا معنى، كجميع المنازل الموجودة في الشارع، ولكنْ من طول ما حدَّقتُ إليه بإصرار أصبحَ فجأةً عَبَثاً. إنَّ فكرة إنشاء مكان للمأوى بهذه الطريقة المعيَّنة تصدمني بكونها جنوناً محضاً. المدينة نفسها ترعبني بكونها قطعةً تمثِّلُ أعلى مراحل الجنون، وكل شيء حولها، المجاري، المصاعد، آلات الموسيقى، الصُحف، الهواتف، الشرطة، أُكَر الأبواب، الفنادق الرخيصة، الستائر، أوراق المراحيض، كل شيء. كان يمكن لأي شيء ألاّ يوجد أبداً وليس فقط لن يضيع أي شيء بل وستربح كوناً كاملاً. أنظرُ إلى الحشود التي تحفُّ بي علّني أرى مُصادفةً واحداً منهم يوافق معي. لنفرض أني استوقفتُ أحدهم وسألته سؤالاً بسيطاً. لنفرض أني قلتُ له فجأةً : ***"لماذا تستمر في العيش على هذا المنوال؟"*** ، لا شك في أنه سيستدعي شرطياً. وأتساءلُ - هل يتساءل أحدٌ كما أفعلُ أنا؟ أتساءلُ إنْ لم يكن بي بعض الخَبَل. والنتيجة الوحيدة التي أتوصل إليها هي أني مختلف. وهذه مسألة خطيرة جداً، كيفما نظرت إليها. وأقول لنفسي، وأنا أنهضُ عن مجلسي ببطء، أتمطّى، أنفضُ بنطالي وأبصقُ العلكة، أقول، يا هنري، أنتَ ما تزالُ شاباً، ما تزال دجاجة نشطة، وإذا تركتهم يقبضون عليك من خصيتيك فأنتَ أبله، لأنكَ أفضل من أي منهم وكل ما في الأمر أنكَ بحاجة إلى التخلُّص من خواطرك الزائفة عن الإنسانية. ينبغي أنْ تعرف يا هنري يا صغيري أنكَ تتعامل مع سفاحين، مع آكلي بشر، كل ما يفعلونه هو أنهم يُحسنون اللباس، ويحلقون ذقونهم، ويتعطّرون، لكنهم

ليسوا غير - سفاحين وآكلي لحوم بشر، وأفضل ما يمكنك القيام به الآن، يا هنري، هو أنْ تذهب وتبتاع لنفسك شوكولاة مُثلّجة. وحين تجلس عند نافورة الصودا أغمضْ عينيك وانسَ كل شيءٍ حول قَدَر الإنسان، وقد تحظى بمضاجعة جميلة والمضاجعة الجيدة والنظيفة سوف تنظّف خصيتيك وتترك مذاقاً لذيذاً في فمك، بينما هذا لا يجلب إلاّ سوء الهضم، وقشرة الرأس، والبَخر، والتهاب الدماغ. وبينما أنا أهدِّئ نفسي هكذا اقتربَ مني شخص يستجدي دايماً فأعطيه ربع دولار لله، وأنا أقول لنفسي إنه لو كان لديَّ من الحسّ أكثر لابتعتُ به قطعة لحم خنزير لذيذة بدل كُرات اللحم القذرة تلك، ولكن لم يعُدْ يهمّ الآن؛ كلّه أكل والأكل يوفِّر الطاقة والطاقة هي التي تُسيِّر العالم. وبدل أنْ أتناول الشوكولاة المثلّجة أتابعُ المسير وسرعان ما أصلُ إلى حيث كنتُ أبغي طوال الوقت : أمام شباك تذاكر الروزلند. وأقول لنفسي، والآن يا هنري، إنْ كنتَ محظوظاً فسيصلُ صديقك الوفيّ ماكغريغور إلى هنا وأول ما سيفعله سيسلخ جلدك لأنكَ هربتَ ومن ثم سيُقرِضكَ خمس قطع نقدية، وإذا حبستَ أنفاسك وأنت ترتقي الدرَج فقد ترى المهووسة وتحصل على نكاحٍ جافّ. ادخلْ بهدوء تام يا هنري، ودَعْ عينيك مُغمَضتين ! وأدخلُ على أطراف أصابع مخمليّة وكأني أنفِّذُ تعليمات معيَّنة، مُتلمِّساً قبّعتي وأتبوّلُ قليلاً كنتيجةٍ حتميّة، ثم أعود لأهبط الدرَج وأتفحَّص سائقات سيارات الأجرة اللواتي يرتدين جميعاً أثواباً شفّافة، ويضعنَ المساحيق، ويتضمّخن بالعطور، يبدين نضرات ويقظات ولكن ربما ضجرات حتى الموت ومُتعبات؟ وبينما أحوم حولهنّ، أضاجعُ كلٍ منهنّ مضاجعة وهمية. المكان يوحي بالكسّ وبالنكاح لذبك أنا متأكّد تماماً من أني سأجدُ

صديقي العزيز ماكغريغور هنا. والطريقة التي أتوقف بها عن التفكير في حال العالم رائعة. أذكُرُ هذا لأنني وللحظة، وبينما أتفحَّص مؤخّرة لذيذة، وقعت في انتكاس. ودخلتُ فيما يُشبه انتشاء آخر. قلتُ في نفسي، فليساعدني المسيح، ربما توجَّبَ عليَّ أنْ أنصرف مسرعاً إلى المنزل وأبدأ في تأليف الكتاب. أي فكرةٍ مُرعبة ! وذات مرة أمضيتُ أمسية بأكملها وأنا جالس على كرسي لا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً. ولابد أني قد كتبتُ كتاباً بحجمٍ محترم قبل أن أستيقظ. ويُستحسن ألاّ أجلس؛ يُستحسن أنْ أبقى مُتنقّلاً. يا هنري، إنَّ ما عليك أنْ تفعله هو أنْ تأتي إلى هنا أحياناً مع الكثير من النقود وسوف ترى إلى أي مدى ستصل. أعني مائة واثنتين من الدولارات، وانفقها كالماء وقُلْ نعم لأي شيء. تلك الفتاة المتعجرفة ذات القوام المثالي، أعتقد أنها ستتلوى كالحنكليز إذا ما رطَّبتَ يدها كما ينبغي. لنفرضها قالت - عشرين دولاراً ! وتستطيع أنْ تقول موافق ! لتفرض أنكَ قلتَ - اسمعي، معي سيارة أسفل الدَرَج... هيا نذهب إلى أتلانتك سيتي لبضعة أيام. يا هنري، ليس لديك أي سيارة ولا عشرون دولاراً. ***كفاكَ جلوساً... وتحرّك.***

وقفتُ عند السور الذي يُسيِّج الطابق الأرضي أراقبهنّ وهنّ يتجولنَ في المكان. هذا استجمام لا يضرّ... هذا عملٌ جادّ. في كل زاوية من البناء الأرضي هناك يافطة كُتبَ عليها " يُمنَع الرقص غير اللائق ". عظيم وجيد. لا ضرر في وضع يافطة عند كل زاوية من البناء. في مدينة بومبى ربما كانوا يُعلّقون أيراً. هذه هي الطريقة الأميركية. والمعنى واحد. يجب ألاّ أفكّر في بومبى وإلا جلستُ وكتبتُ كتاباً من جديد. ***تابع حركتكَ يا هنري. ركّز انتباهك على الموسيقى.*** وأتابع جهادي لأتصوَّر

مـدى روعـة الوقت الذي كـان مـن الممكـن أنْ أقـضـيـه لو أنَّ مـعي ثـمن مجموعة من البطاقات، ولكن كلما جاهدتُ تراجعتُ أكثر. وأخيراً غصتُ حتى رُكبتيّ في الحِمم البركانية والغاز يخنقني. ليست هي التي قتلت أهالي بومبى، بل الغـاز السـامّ الذي عـجَّلَ بوقـوع الانفـجـار. هذا هو السـبب الذي جـعلَ الحِمم البـركـانيـة تنال منهم وهم على تلك الأوضـاع الشاذة، بلا سراويل، كما وجدوهم. لو أنَّ نيـويورك تغوص بهذا الشكل - فأي متـحف سيتشكّل عندئذٍ ! صديقي ماكغريغور يقفُ عند المغسلة ينظّف أيره... واختصاصيو الإجهاض في الحي الشرقي وقد قبض عليهم مُتلبَسين بالجريمة... والراهبات مُسـتلقيـات على الأسرّة وكل واحدة تسـتمني للأخرى... مـدير المزاد العلني والجرس في يده... عـامـلات الهاتف أمام لوحة المفاتيح... جـ. ب موغانانا جالس على المرحاض يمسح طيزه بعناية... رجال البوليس بخراطيم مطاطية يقومون بالتعذيب... ومحترفات التعرّي يقمن بآخر تعرٍّ وعذاب...

أقفُ وأنا أغوص حتى رُكبتيّ في الحمم البركانية وعيناي محشوّتان بالسـائل المنوي، و جـ. ب مـوغـانانا يمسح طيـزه بعناية بينمـا عـامـلات الهـاتف يُبدّلن المفاتيح، ورجال الشرطة بالخراطيم المطاطية يتمرّنون على انتزاع المعلومات بالتعذيب، وصديقي الوفي مـاكغريغور يُزيل الجراثيم عن أيره ويُجمّله ويتفحّصه تحت المجهر. الكلّ يُفاجأ بلا سروال، بما فـيهم المتعـريات المحتـرفات اللواتي لا يرتدين سراويل داخليـة، وبلا لحي، ولا شـوارب، بل هناك مـجـرد خـرقـة صـغـيـرة تغطي أكـسـاسـهنّ الصـغـيـرة المتلألئة. الأخت أنطولينا مُستلقية في سرير الرهبنة، أحشاؤها مربوطة، وذراعاها على خاصرتيها، بلا إثم، بلا شر، وفي تلك الأثناء تقضم برفق

بعض الجوز الحيواني، والفلفل الحلو، وبعض الزيتون الممتاز، ورأساً صغيراً من الجبن. الصبية اليهود في الحي الشرقي، في هارلم، وبرونكس، وكارناسي، وبرونفيل، يفتحون ويغلقون الكوى، يسحبون منها أذرعاً وسيقاناً، يُديرون آلة صنع السجق، يسدّون مصارف المياه، يعملون بضراوة للحصول على أجرة فورية وإذا صدرت عنك إشارة احتجاج تُطرَد. مع ألف ومائة بطاقة في جيبي وسيارة رولز رويس تنتظرني أسفل الدرَج يمكنني أنْ أقضي أكثر الأوقات تعذيباً بروعتها، أوزّع نكاحاً على كل شخص دون أي اعتبار للسن، أو الجنس، أو العرق، أو الدين، أو الجنسية، أو المولد أو المنشأ. لا حلَّ مع إنسانٍ مثلي، أنا ما أنا عليه والعالم هو ما هو عليه. العالم مُقسَّم إلى ثلاثة أقسام: اثنان منها هما كُرات اللحم والسباغيتي والقسم الأخير هو قرحة سفلسيّة عظيمة. قد يكون النكاح مع المتعجرفة ذات القوام المثالي مجرد نكاح بارد مُخفَّف، وكأنه مجهول con anonyme مُغطّى بوريقات الذهب والتنك. خلف اليأس والاندحار يكمن دائماً غياب أسوأ الأشياء وتعويضات الضجر. لا شيء أشد قذارة وخواء من بهجة مُشرقة تتطفَّل عليها العين الآلية لعصر آلي، وحياة مُنضَجَة داخل صندوق أسود، صورة سلبية تُدغدَغ بالحمض عاكسة صورة لحظيّة زائفة للعدم. ويصل صديقي ماكغريغور وأنا عند أقصى حدود هذا العدم اللحظي ويقف إلى جانبي ومعه تلك التي كان يتحدَّث عنها، المهووسة التي اسمها بولا. ذات التمايُلْ الخليع المتهتّك وطريقة الجلوس التي يتميَّز بها أصحاب الجنس الثنائي، وكل حركاتها تنبع من ملتقى فخذيها، هي دائماً في حالة توازن، دائماً على استعداد لتطير، لتلفّ وتدور، وتتشبَّث، عيناها ترفّان

باستمرار، وأصابع قدميها ترتعش وتتحرَّك برشاقة، واللحم يتموَّج كبُحيرة تغضَّنت مع هبوب النسيم. هذا هو تجسُّد هلوسة الجنس، حورية البحر تتلوَّى بين ذراعَيّ مهووس. وأراقبهما وهما يدوران بحركة تشنّجية بوصة بعد أخرى حول الغرفة، يتنقّلان كإخطبوط يمارس نزوه. وبين المِجسَّين المتدليين ترتعش الموسيقى وتبرق، ثم تتدفَّق على شكل شلال من المَني وماء الورد، لتتشكَّل من جديد داخل ميزاب مُزيَّتْ، وعمود قائم بلا أقدام، ينهار ثانية كأنه من الطباشير، تاركاً الجزء الأعلى من الساق مُفسفراً، وحمار وحش واقف في بحيرة من العشب الخطمي الذهبي، إحدى ساقيه مُخططة، والأخرى ذائبة. إخطبوط الخطمي الذهبي له مفاصل مطاطية وحوافر ذائبة، جنسه محلول وملويّ على شكل عقدة. في قاع البحر تؤدي المحارات رقصة القديس فيتوس، بعضها مُصاب بالكزاز، وبعضها بركَبٍ مزدوجة المِفصل. الموسيقى مُندّاة بسُمّ الجرذان، وسُمّ أفعى ذات الأجراس، وأنفاس الغاردينيا الكريهة، ولعاب ثور الياك البُصاقيّ، وعَرَق خصيتيّ فأر المسك، وحنين المجزوم المُغطّى بالسُكَّر. الموسيقى هي إسهال، بحيرة من الغازولين، راكدة بالصراصير وبول الجياد البائت. والأنغام السائلة هي الزَبَد ورذاذ العصابي، والعرق الليلي للزنجي الزاني الذي نكحه اليهودي أميركا كلها موجودة في المادة الدبقة على آلة النفخ trombone، هي ذلك الخوار المُعتلّ المُنهك لأبقار البحر المُصابة بالغنغرينا، المصفوفة على طرف بوينت لوما، وبوتكيت، ورأس هاتراس، ولابرادور، وكارناسي والنقاط المتوسطة. الإخطبوط يرقص كأنه من المطاط - رقصة رومبا السبوتين دوفيل غير المنشورة. لورا الشبِقة ترقص الرومبا، جنسها مُقشّر وملويّ كذيل بقرة. في بطن آلة الترومبون تقبع

الروح الأميركية وتضرط بكل قوتها. لاشيء يذهب هباءً - ولا حتى أقلّ ضرطة. في حلم السعادة المستنقعي الذهبي، في رقصة البول والغازولين المُشبّعين بالماء، تقفز روح القارّة الأميركية كإخطبوط، وكل الأشرعة منشورة، والفتحات مُغلقة، والمُحرّك يهدر كالمولّد. الروح الآلية الفعّالة العظمى التُقطَتْ في تكّة عين آلة التصوير، في حرارة الدورة النزويّة، بلا دماء كالسمك، زلِقة كالمخاط، روح الناس تتزاوج في قاع البحر، جاحظة العينين اشتياقاً، تتعذّب شبقاً. رقصة مساء السبت، رقصة شمّام يتعفّن في صفيحة القمامة، وخرطوم أخضر يانع ومراهم غَرَويّة للأجزاء الرقيقة. رقصة آلة الموسيقى والوحوش التي اخترعوها. رقصة المسدس والحلزون الذي يؤديها. رقصة بلاكجاك والأيور التي تسحق الدماغ حتى يصير عجينة مُخاطيّة. رقصة العالم الممغنط، والشرارة التي لا تضيء، الخرير الخافت ذو الآليّة الكاملة، سباق السرعة على القرص الدوّار، الدولار متعادل والغابات ميتة ومشوّهة. مساء السبت لرقصة الروح الخاوية، كل راقص هزّاز هو وِحدة وظيفية في رقصة القديس فيتوس لحلم الدودة الحَلَقيّة. لورا المهووسة تلوّح بكسّها مُهدّدة، شفتاها تويجتا وردة حلوة لهما أسنان بقوابض حاملات الكريات، مؤخرتها مُكوّرة ومُجوّفة. يتقاذفون الجثّة المضاجعة فيما بينهم بوصة بعد أخرى ومليمتراً بعد آخر. ومن ثم كراش ! كما تدير المفتاح فتتوقف الموسيقى فجأةً ويتباعد الراقصون، أذرعهم وسيقانهم سليمة، كأوراق الشاي المترسّبة في أسفل الكأس. والآن صار الهواء أزرقَ بالكلمات، وثمة أزيز بطيء كسمكة تُقلى، تبن الروح الخاوية يتطاير كثرثرة قرد جالس على أعلى فروع الأشجار. الهواء المُزرقّ بالكلمات الخارج من خلال فتحات التهوية،

العائد أثناء النوم من الأكواع المموَّجة والمداخن، مُجنّحاً كالظبي، مُخططاً كحمار الوحش، تارةً يستلقي هادئاً كحيوان رَخَويّ، وطوراً ينفثُ لظى. لورا المهووسة باردة كتمثال، أجزاؤها متآكلة، شعرها يطفر فرحاً كالموسيقى. تقفُ لورا على شفا النوم بشفتين صامتتين، كلماتها تنهمر كغبار الطلع في الضباب. لورا بترارك جالسة في سيارة أجرة، كل كلمة ترنّ في عدّاد النقود، ثم تُعقَّم، وتُكوى، لورا العظاءة مؤلّفة كلها من الحرير الصخري، تتقدَّم من وتد النار بفم مملوءة بالعلكة. وكلمة رائع على شفتيها. هما شفتا صَدَفة البحر المُخرَّزة بعمق. شفتا لورا، شفتا حب بوليّ ضائع. كلها تتهادى صوب الظل خلال الضباب المائل، تنزلق آخر الثفل المُهمهم من شفتين كشفاه أصداف شاطئ لابرادور، تنزّ صوب الشرق مع حركة مدّ الطين، ترتخي نحو النجوم في سيل اليود. لورا الضائعة، آخر البتراركية، تذوي ببطء نحو شفا النوم. العالم ليس كئيباً، بل يفتقد اللهفة، النوم الخيزراني الخفيف للبراءة بظهرها الشبيه بالملعقة.

وهذا يتركُ في العدم الأسود المسعور لفراغ الغياب شعوراً مُقبِضاً من القنوط المُشبع، لا يتخلف عن أعلى مراحل اليأس، الذي ما هو إلا اليرقة المرحة اليافعة لتمزِّق الموت الحادّ عن الحياة. من مخروط نشوة الحياة المقلوب هذا ستعود الحياة للبزوغ على علاء ناطحة سحاب مُبتذلة، تجرّني من شَعري وأسناني، مفعمة بقذارة مرح فارغ ساخر، والجنين المفعم بالحيوية ليرقة الموت الذي لم يولَد بعد يستلقي منتظراً العفَن والفساد.

في صباح يوم الأحد يوقظني الهاتف. إنه صديقي ماكسي شناديغ يُعلنُ موت صديقنا لوقا رالستن. وقد اتّخذ ماكسي نبرة حزن حقيقية لصوته مما أغضبني. يقول إنَّ لوقا كان شاباً مغروراً. وهذا أيضاً يبدو لي

خاطئاً لأنه في حين كان لوقا شاباً حسناً، كان هو بين-بين، وليس من النوع الذي كان يمكن أنْ تُطلق عليه لقب الشاب الحَسَن. كان لوقا رقيقاً بطبعه ولكن، حين توثّقت معرفتي به، اتّضحَ أنه مصدر إزعاجٍ كبير. قلتُ هذا لماكسي عبر الهاتف : فهمتُ من أسلوب إجابته أنه لا يحبّ ذلك كثيراً. قال إنّ لوقا كان لي دائماً صديقاً، وهذا صحيح تماماً، لكنه لا يكفي. والحق أقول إنني سعدتُ برحيل لوقا في اللحظة الملائمة : كان هذا يعني أني أستطيع أنْ أنسى أمر المائة والخمسين دولاراً التي أدينُ بها له. والحقيقة هي أني شعرتُ بالابتهاج التامّ حالما علّقت سماعة الهاتف. كان من دواعي ارتياحي الهائل ألاّ أضطر إلى تسديد ذلك الدَين. أما بالنسبة إلى موت لوقا، فلم يزعجني على الإطلاق. على العكس، كان حافزاً لي للقيام بزيارة أخته، لوتي، التي طالما رغبتُ في مضاجعتها ولم أستطع أنْ أفعل لسبب أو لآخر. والآن أرى نفسي متوجهاً إلى دارها في هاجرة النهار لأقدّم لها التعازي. سيكون زوجها في المكتب ولن يتدخّل أحد بيننا. وجدتُ نفسي أطوّقها بذراعيّ وأواسيها، إذ لا شيء يُضاهي مُسايرة امرأة حزينة. رأيتها تفتح عينيها الواسعتين - وعيناها جميلتان كبيرتان ورماديتان - وأنا أتوجّه بها إلى المقعد. كانت امرأة من النوع الذي يمنحك مضاجعة وهي وتدّعي التحدث عن الموسيقى أو شيء من هذا القبيل. لم تكن تحب الحقيقة السافرة، الحقائق المجرّدة، إنْ صحّ التعبير. وفي الوقت نفسه كان لديها من حضور الذهن ما يجعلها تضع تحتها منشفة كي لا تلوِّث المقعد. لقد فهمتها قلباً وقالباً. عرفتُ أنَّ أفضل وقت للحصول عليها هو الآن، الآن وهي تُصعِّد قليلاً من حُمّى العواطف على عزيزها المرحوم لوقا - الذي،

بالمناسبة، لم تكن تفكّر فيه كثيراً. ولسوء الحظ أنّ اليوم كان يوم أحد وسيعود الزوج إلى المنزل حتماً. عدتُ إلى السرير وتمدّدتُ مُفكّراً أولاً في لوقا وبكل ما فعله لأجلي ثم فيها، لوتي. كان اسمها لوتي سَمَرز - بدا لي دائماً اسماً جميلاً، وهو يُلائمها كثيراً. كان لوقا عنيداً كقضيب النار، له وجه هو كتلة من جمجمة وعظام، لا شائبة فيه وعصيّ على الوصف. وكانت هي على النقيض - ناعمة، ممتلئة، تتكلّم بتشدُّق، تداعب كلماتها، تتحرك بتكاسُل، تستخدم عينيها بطريقة تترك تأثيراً. ولا يكاد المرء يُصدِّق أنهما أخٌ وأخت. وانشغلتُ تماماً في التفكير فيها حتى إني حاولتُ الاستعاضة عنها بالزوجة. لكنَّ بنت الحرام تلك، المسكينة، بعُقدتها التطهّرية تظاهرت بالرعب. كانت تحب لوقا. ولم تكن لتقول عنه إنه متعجرف، لأنَّ ذلك ليس من شيمها، لكنها أصرَّتْ على أنه عبقري، مخلص، وصديق وفيّ، الخ. كان لديّ العديد من الأصدقاء الأوفياء، العباقرة، والحقيقيين إلى درجة أنَّ الأمرَ لم يعنِ أي شيئاً. وأخيراً خضنا في نقاشٍ حامٍ عن لوقا إلى أنْ انتابتها نوبة عصبيّة وراحت تبكي وتنشج - حدث ذلك في السرير، بالمناسبة. وسبَّبَ ذلك لي الإحساس بالجوع. وبدت فكرة البكاء قبل تناول الإفطار هائلة. هبطتُ إلى الطابق السفلي وأعددتُ لنفسي إفطاراً بديعاً، وبعد أنْ نحّيته جانباً أخذتُ أضحك من نفسي، من لوقا، من المائة والخمسين دولاراً التي امحت بموته المفاجئ، ومن لوتي والطريقة التي ستنظر بها إليّ عندما سيحين الوقت... وأخيراً، وهو الأكثر عَبَثاً، فكّرتُ في ماكسي، ماكسي شناديغ، صديق لوقا المُخلص، الواقف عند القبر حاملاً إكليلاً كبيراً وربما ينثر قبضةً من التراب على الكَفَن وهم يوارونه. بدا منظره نوعاً ما أشد

بلاهة من أنْ تُعبّر عنه الكلمات. لا أعلم لماذا كان ينبغي أنْ يبدو على هذا القدر من السخف، ولكن هذا ما حصل. كان ماكسي ساذجاً. وقد احتملته فقط لأنه كان مصدراً جيداً للحصول على المال بين الفينة والأخرى، وبسبب أخته ريتا أيضاً. وكنتُ أدفعه إلى دعوتي إلى بيته في بعض المناسبات، مُدّعياً استمتاعي بصُحبة أخيه المخبول. والنتيجة هي دائماً وجبة جيدة ويكون أخوه نصف المجنون مسلّياً حقاً، يبدو كالشمبانزي ويتكلّم مثله أيضاً. كان ماكسي أكثر سذاجة من أنْ ينتابه الشك في أنني إنما أُمتّع نفسي فقط، لقد ظنَّ أنَّ لديّ اهتماماً جدّياً بأخيه.

كان يوم أحد جميل وكالمعتاد كان في جيبي ربع دولار. مشيتُ بلا هوادة مُتسائلاً إلى أين أذهب لأحصل على نقود. وهذا لا يعني أنه كان من الصعب عليّ أنْ أحصل على بعض النقود، كلا، لكنَّ المهمّ هو أنْ أحصل على النقود وأُسرِع هارباً دون أنْ أموت من الملل. كان في إمكاني أنْ أفكّر بعدد من الناس في الجوار، أناس يدفعون دون أنْ تصدر عنهم همهمة، ولكن هذا يعني أنَّ بعد ذلك سيدور حديث طويل - عن الفن، والدين، والسياسة. وثمة شيء آخر أمكنني عمله، وقد قمتُ به من قبل مرات عديدة عند الحاجة، وهو أنْ أزور مكاتب الهاتف، متظاهراً بالقيام بزيارةٍ ودّية للتفتيش ثم، وفي اللحظة الأخيرة، أقترحُ عليهم أنْ يسلبوا من درج النقود دولاراً أو اثنين كقرضٍ حتى الغد. وهذا قد يتطلّب وقتاً وحواراً أسوأ. وحين أعيد التفكير في الأمر بهدوءٍ ورويّة، أُقرِّرُ أنَّ أفضلهم هو صديقي كرلي القاطن في هارلم. وإذا لم يكن بحوزة كرلي نقود فسيختلسها من كيس نقود أمه. كنتُ أعلم أنَّ في استطاعتي الاعتماد عليه. وطبعاً سيودُّ أنْ يُرافقني، لكني استطعتُ

دائماً أنْ أجد سبيلاً للتخلُّص منه قبل انصرام الأمسية. لم يكن غير صبي ولم أضطر إلى أنْ أكون كيِساً معه.

وما كان يعجبني في كرلي هو، على الرغم من كونه مجرَّد صبي في السابعة عشرة، أنه لم يكن لديه أي حسّ أخلاقي على الإطلاق، ولا وساوس، ولا إحساس بالخجل. أتى إليّ وهو ولد في الخامسة عشرة باحثاً عن عمل كساع. أرسله والداه، وكانا حينئذٍ في أميركا الجنوبية، إلى نيويورك تحت وصاية عمّه أغوته على الفور تقريباً. لم يكن قد التحق بالمدرسة في حياته لأنَّ أبويه كانا دائماً في سَفَر. فقد كانا راقصَين يعملان " بكدّ وجهد "، كما قال. الوالد دخل السجن مرات عدّة. لم يكن أباه الحقيقي، بالمناسبة. وقد جاء كرلي إليّ كمجرَّد صبي بحاجة إلى معونة، وإلى صديق أولاً وقبل كل شيء. في أول الأمر حسبت أنَّ في استطاعتي أنْ أفعل شيئاً لأجله. وأحبَّه الجميع على الفور، خاصة النساء. وأصبح مُدلَّل المكتب. وقبل مرور وقت طويل عرفت أنه لا يمكن إصلاحه، وأنه في أفضل حالاته قام بعدة جرائم حاذقة. ومع ذلك أحببته، وثابرتُ على مساعدته، لكنني لم أكنْ أثقُ فيه حين يغيب عن ناظري. أعتقد أني أحببته بشكلٍ خاص لأنه كان يفتقد حس الشرف افتقاداً تاماً. كان مستعداً للقيام بأي شيء في العالم لأجلي وفي الوقت نفسه يخدعني. ولم أكن لأؤنبه على ذلك... فقد كان تصرّفه يسلبني. وأكثر ما أعجبني فيه صراحته. لم يستطع إلا أنْ يكون هكذا. عمّته صوفي، مثلاً. قال إنها أغوته. وهذا صحيح، لكنَّ الغريب أنه تركها تغويه وهما يقرآن في الكتاب المقدس، وعلى الرغم من صُغر سنّه عَلِمَ أنَّ عمّته صوفي كانت بحاجة إليه على هذا الأساس. وكما قال، ترك نفسه يُغوى،

وبعد ذلك، بعد أنْ عرفتُه بفترةٍ وجيزة عَرَضَ أنْ يضعني في مرتبةٍ تلي مرتبة عمّته صوفي. بل لقد تمادى فابتزّها. وحين كان يفتقر إلى النقود كان يذهب إلى العمّة ويأخذها منها بالتملُّق - ويستخدم تهديدات قذرة بإثارة فضيحة. وكل هذا يقوم به، بحق، وهو يحملُ وجهاً بريئاً. كان يبدو وبصورة مذهلة كالملاك، بعينين كبيرتين رفرافتين تبدوان في منتهى الصدق والإخلاص. وهو على استعداد للقيام بأي شيء لأجلك - تماماً ككلبٍ وفيّ. ومن ثم وبمكر كلف، ما إنْ يربح ثقتك، حتى يجعلك تساير نزوته. وكل هذا بذكاء فائق. بذكاء الثعلب القذر - وبوحشية ابن آوى.

لم يكن، بالتالي، مدهشاً بالنسبة إليّ أنْ أعلم بعد ظهر ذلك اليوم أنه كان يعبث بلا جدوى مع فالسكا. وبعد فالسكا داعب ابنة العم التي كانت قد تفتّحت وصارت بحاجة إلى ذكَر يمكنها الاعتماد عليه. وأخيراً انتقلَ منها إلى القزمة التي اتّخذت لنفسها عند فالسكا عشاً صغيراً جميلاً. أثارت القزمة اهتمامه لأنه كان لها كس عادي جداً. ولم يكن ينوي أنْ يفعل أي شيء معها لأنها، كما قال، كانت سحاقية كريهة وحقيرة، ولكن تصادف أنْ دخلَ عليها ذات يوم وهي تستحم، وهنا بدأتْ الأمور كلها. واعترفَ بأنَّ وطأة الأمور كانت تزداد ضغطاً عليه، لأنَّ ثلاثتهنّ كنَّ يلهثنَ خلفه. وقد أحبَّ ابنة العم أكثر لأنَّ بحوزتها بعض النقود ولم تكن تكره أنْ تقاسمه إياها. وكانت فالسكا شديدة الحذَر، ثم إنَّ رائحتها الكريهة كانت شنيعة. والحقيقة هي أنه بدأ يملّ النساء، وقال إنها غلطة عمّته صوفي، لأنها بدأتْ معه بداية سيئة. وبينما هو يحكي هذا كان يشغل نفسه بالتفتيش في أدراج المكتب. الأب هو ابن عاهرة حقير يجب شنقه، كما يقول، لأنه لا يجد ما يريد

على الفور. أراني مسدساً له مِقبض لؤلؤي... ما فائدته؟ إنه جيد جداً لاستعماله مع العجوز... إنه يودّ نسفه. وحاولت اكتشاف سبب كرهه للعجوز إلى حدّ جعله ملتصقاً بأمّه. إذ لم يكن يحتمل لتفكير في أنَّ العجوز يُشاركها السرير. وأسأله، لا أظنكَ تغار من العجوز. نعم، إنه يغار. إذا أردتُ أنْ أعرف الحقيقة فلأعلم أنه لا مانع في النوم مع أمه. ولِمَ لا؟ هذا هو السبب الذي جعله يسمح لعمّته بإغوائه... لقد كان يفكِّر في أمه طوال الوقت. ولكن ألا تشعر شعوراً سيئاً وأنتَ تمدّ يدك إلى محفظتها، سألته. ضحك. قال إنها ليست نقودها؛ إنها نقوده. وماذا فعلوا لأجلي؟ لقد كانوا يشغّلونني حتى الإنهاك. وأول ما تعلّمته كان أنْ أخدع الناس. هذه هي الطريقة الجهنميّة لتربية طفل...

ليس في المنزل سنت أحمر واحد. وفكرة كرلي للخروج من هذا المأزق هي أنْ يذهب معي إلى المكتب حيث يعمل وأشغل أنا المدير بالحديث ويذهب هو إلى الدَرَج ليُفرِغ منه " الفراطة " كلها. أو، إنْ لم يكن خائفاً من انتهاز الفرصة، يستولي على الأوراق المالية. ويقول إنهم لن يشتبهوا بنا. وأسأله، هل فعل هذا من قبل. طبعاً... عدد من المرات، وتحت أنف المدير مباشرة. ألا يُثار هرج حول الأمر؟ الواقع... أنّهم طردوا بضعة موظفين. وأقترحُ، لماذا لا تقترض شيئاً من عمّتك صوفي. هذا سهلٌ جداً، والأمر لا يتطلّب أكثر من خدعة صغيرة وهو لا يريد أنْ يخدع عمّته بعد الآن. وتفوح منها رائحة كريهة. ماذا تقصد ***برائحة كريهة***؟ أقصد ما أقول فقط... إنها لا تغتسل دائماً. لماذا، ما علّتها؟ لا شيء، إنها متديّنة. وتزداد سمنة وشحماً في آن. لكنّها تحب أنْ تُغَشّ في كل الأحوال؟ صحيح؟ إنها أكثر جنوناً في هذا من أي وقتٍ مضى. شيء

مُقزّز، أشبه بالنوم مع خنزيرة. ما رأي أمك فيها؟ ***فيها***؟ إنها حانقة كجهنَّم. تظن أنَّ صوفي تحاول إغواء العجوز. الواقع، ربما كانت تفعل! كلا، فلدى العجوز شيء آخر. لقد ضَبَطته مُتلبّساً في إحدى الأمسيات، في دار للسينما، يُطارح فتاة صغيرة الغرام. كانت مُدرِّمة أظافر تعمل في فندق أستور. ربما كان يحاول أنْ يبتزّ منها بعض المال. وهو لا يتقرَّب من امرأة إلا لهذا السبب. قذر، ابن حرام وأودّ أنْ أراه على الكرسي الكهربائي يوماً! أنتَ نفسك ستجلس على الكرسي الكهربائي إذا لم تأخذ حَذَرك. ***مَنْ، أنا؟ مستحيل***! أنا فائق الدهاء. وأنتَ داهية أيضاً، لكنَّك ثرثار. ولو كنتُ مكانك لأغلقتُ فمي. ثم أضفتُ، أتعلَمْ، مُحاولاً أنْ أُسدِّد له ضربة أخرى، إنَّ أورورك حكيم وينفعك، وإذا ما تشاجرت مرة معه فقد انتهى أمرك... حسن، لماذا لا يقول شيئاً إنْ كان حكيماً إلى هذه الدرجة؟ لا أصدّقك.

وأشرحُ له ببعض الإسهاب إنَّ أورورك هو أحد أولئك الذين لا يوجد منهم سوى القليل النادر، الذين يفضّلون ألاّ يزعجوا أحداً ما دام ذلك في إمكانهم. وأقول، إنَّ أورورك يمتلك غريزة التحري فقط من ناحية أنه **يحب** أنْ يعرف ما يجري من حوله: شخصيات الناس مرسومة بدقة في رأسه، ومُصنّفة هناك دائماً، ومُثبَّتة كمنطقة العدو في أذهان قادة الجيش. يظن الناس أنَّ أورورك يتجوَّل في المنطقة يشمّ ويتجسّس، وأنه يستمدّ متعة خاصة من إنجاز عمله القذر للجماعة. ليس صحيحاً. أورورك طالبٌ بفطرته اختصاصه الطبيعة البشرية. يلتقط الأشياء بلا جهد، وهذا، أؤكد لك، يعود إلى نظرته الفريدة إلى العالم. والآن، بالنسبة إليك... لا شك في أنه يعلم كل شيء عنك. أنا لم أسأله أبداً،

أعترفُ لك، ولكن هذا تصوُّري من خلال الأسئلة التي يطرحها بين الحين والآخر. ربما بهذا يعمل على رمي المزيد من الشباك حولك. وفي إحدى الأمسيات يُقابلك مُصادفةً، وقد يطلبْ منكَ أنْ تتوقف معه في مكانٍ ما ويُصرّ على أنْ تشاركه الطعام. وإذا به يسألكَ دون أي توطئة - أتذكُر، يا كرلي، حين كنتَ تعمل في مكتب SA، حين طُردَ ذلك اليهودي الحقير لأنه استولى على درج النقود؟ أعتقد أنكَ كنتَ تعمل في الفترة الإضافية تلك الليلة، أليس كذلك؟ كانت قضيّة مُسلّية. أتعلَمْ، لم يكتشفوا إنْ كان الموظف هو الذي سرق النقود أم لا. واضطروا إلى طرده طبعاً، لإهماله. لكننا لا نستطيع أنْ نتكهّن تماماً إنْ كان هو حقاً الذي سرق النقود. إنني أفكّر بتلك القضية منذ وقتٍ بعيد. ولديَّ حسٌ حَدَسيّ حول سارق تلك النقود، لكنني لستُ متأكداً تماماً... ومن ثم قد ينظُر إليك نظرة خبيثة ويُغيِّر الحديث فجأةً إلى شيء آخر. وقد يحكي لك حكاية صغيرة عن مُحتال يعرفه يظن نفسه ذكياً ولا يشك في ذلك. ويظل يسرد لك تلك الحكاية حتى تشعر كأنكَ تجلس على فحمٍ مشتعل. في تلك الأثناء تكون قد قرّرتَ أنْ تفلت بجلدك، ولكن في اللحظة التي تستعد فيها للرحيل يتذكَّر قضية صغيرة ممتعة أخرى وسيطلب منكَ أنْ تنتظر قليلاً ريثما يطلب شيئاً من الفاكهة. وسيستمر على هذا الحال ثلاث ساعات أو أربع دون توقّف، دون أنْ يقوم بأي تلميح صريح، بل يكتفي بدراستك عن قُرب طوال الوقت وأخيراً، ما إنْ تعتقد أنكَ قد تحرَّرتَ منه، وتمدّ يدك لتصافحه مودِّعاً وتتنفَّس بارتياح، حتى يتقدَّم منك، وبعد أنْ يزرع قدمه بثبات بين ساقيك، يقبض عليك من طيّة ياقة معطفك، وينظر إليك نظرة مباشرة، ويقول بصوت ناعم فاتن - **والآن**

انظر إليّ، يا ولدي، ألا تعتقد أنه كان من الأفضل لكَ أنْ تأتي بهدوء !
وإذا ظننتَ أنه فقط يحاولُ أنْ يُرهِبك وأنَّ في إمكانك أنْ تتظاهر بالبراءة وتبتعد، فأنتَ مُخطئ. وحين يطلب منكَ أنْ تقترب بهدوء، فهو جادّ فيما يقول ولا شيء على الأرض يمكن أنْ يوقفه. وحين يصل الأمر إلى هذا الحدّ أنصحُكَ أنْ تعطيه كل شيء، وحتى آخر بنس. لن يطلب مني أنْ أطردك ولن يُهددكَ بإيداعك السجن - بل سيقترح عليك أنْ تقتطع مبلغاً كل أسبوع وتحوّله إليه. ولن يُعاملك أحد غيره بشكلٍ أكثر حكمة. وقد لا يُخبرني. كلا، إنه دقيق جداً في تلك المواضيع، في الحقيقة ".

وفجأةً يقول كرلي " لنفرِض أني قلتُ له إني سرقتُ النقود لكي أتسترَّ عليك؟ فماذا عندئذٍ؟ " ويبدأ بالضحك الانفعالي.

فأقول بهدوء " لا أظن أنَّ أورورك سيصدقك، يمكنكَ أنْ تحاول، طبعاً، إنْ كنتَ تظن أنه يُساعدك على الإفلات. لكنني أميل إلى الظن بأنه سيكون لهذا أثره السيئ. فأورورك يعرفني... إنه يعرف أني لن أدعكَ تفعل شيئاً كهذا "

" لكنكَ فعلت ! "

" أنا لم أقُلْ لك أنْ تفعل؛ أنتَ قمتَ به دون علمي. والأمران مختلفان. ثم، هل تستطيع أنْ تُثبت أني قبلت نقوداً منك؟ ألن يبدو من السخف أنْ تتهمني، أنا صديقك، وعيَّنتكَ في عملٍ كهذا ؟ مَنْ سيُصدّقكَ؟ ليس أورورك. ثم إنه لم يقبض عليك بعد. فلماذا تقلق مُسبقاً؟ ربما أمكنكَ أنْ تبدأ بإعادة النقود تدريجياً قبل أنْ يُلاحقك. قُمْ بهذا دون أنْ تعلن عن نفسك "

وعند هذا الحدّ يكون كرلي قد أُنهِكَ. وكان في الدولاب بعض

شراب الشنابس احتفظ بع العجوز واقترحت تناول بعضه لإنعاشنا. وبينما نحن نشرب تذكّرت فجأةً أنَّ ماكسي كان قد قال إنه سيذهبُ إلى منزل لوقا ليقدِّم تعازيه. تلك هي اللحظة المناسبة لمقابلة ماكسي. سيكون ممتلئاً بالعواطف المتهافتة ويمكنني أنْ ألفِّق عليه أي حكاية. يمكنني أنْ أقول إنَّ السبب الذي جعلني أتّخذ تلك النبرة القاسية هو شعوري بالضيق، ولأنني لم أعلم إلى أين أذهب لأقترض العشرة دولارات التي أحتاجها حاجة ماسّة. وقد أتمكّن في الوقت نفسه من ضرب موعد مع لوتي. ورحتُ أبتسم وأنا أفكِّر في هذا. ليتَ لوقا يرى أي صديق كنتُ له! أصعب شيء كان أنْ أقترب من التابوت وأُلقي نظرةً حزينة على لوقا، ***دون أنْ أضحك!***

شرحتُ الفكرة لكرلي، فضحكَ من قلبه حتى سالت دموعه على وجهه. مما أقنعني، بالمناسبة، بأنه أكثر أماناً ترك كرلي في الطابق السفلي بينما أقوم باتّصالي. وهكذا، بُتَّ الأمر.

حين دخلتُ كانوا قد جلسوا لتوّهم على مائدة العشاء، حاولتُ جاهداً أنْ أبدو في أكثر مظاهري حُزناً. كان ماكسي هناك وقد صُعِقَ لظهوري المفاجئ، أما لوتي فكانت قد غادرتْ للتوّ، مما ساعدني على إبقاء مظهر الحُزن. طلبتُ أنْ أنفرد بلوقا بضع دقائق، لكنَّ ماكسي أصرَّ على مُرافقتي. وسُرَّ الآخرون، كما أتصوَّر. بما أنهم كانوا طوال فترة بعد الظهر يوصلون المُعزّين إلى التابوت. ولما كانوا من الألمان الأصليين لم يُعجبهم أنْ يُقَاطَع عشاؤهم. وبينما كنتُ أنظر إلى لوقا، ولا يزال ذلك التعبير الحزين الذي حشدته على وجهي، انتبهتُ إلى أنَّ عينيّ ماكسي مُثبّتة عليّ بفضول. رفعتُ بصري وابتسمتُ له بطريقتي المعتادة. وبدا عليه

الارتبـاك التـام. قلت " اسـمع، مـاكـسي، أواثق أنت من أنهم لـن يسمعوننا؟ "، وأصبح أشد حيرة وحزناً، لكنّه أومأ مؤكداً ذلك. " حدث الأمر كالتالي، يا ماكسي... لقد أتيتُ إلى هنا قصداً لأراك... لأقترض بضعة دولارات. أعرفُ أنَّ تصرّفي قذر ولكن يمكنك أنْ تتصوَّر مدى يأسي حتى أفعل هذا ". كان يهزّ رأسه بوقار وأنا أقول هذا، وعلى فمه تعبير كبير لـ " أوه " كأنه يُخيف الأرواح ليبعدها عنه. وتابعتُ بسرعة مُحاولاً إبقاء صوتي ذليلاً وحزيناً ومنخفض النبرة. " اسمع يا ماكسي، ليس هذا وقت إلقاء المواعظ. إذا أردتَ أنْ تعطيني شيئاً فأقرضني عشرة دولارات الآن، وعلى الفور... ضعها لي هنا بينما أنا أنظر إلى لوقا. أتعلم، لقد أحببتُ لوقا حقاً، ولم أقصد كل ما بدر مني على الهاتف. لقد كلمتني في وقت سيئ، وكانت زوجتي تنتف شعرها. كنا في أعظم اضطراب يا ماكسي، وأنا معتمد عليك لتفعل شيئاً. تعال معي أنْ استطعت وسأخبرك بالمزيد عن الأمر... " ولم يتمكن ماكسي، كما توقّعت، من الخروج معي. فهو لن يفكِّر في تركهم في لحظة كهذه... فقلت، بلهجة شبه فظّة " إذن أعطني إياها الآن، وسأخبرك بكل شيء غداً. سنتناول الغداء معاً في قلب البلدة "

ويقول ماكسي، وهو يتحسَّس داخل جيبه، وقد أربكته فكرة أنْ يُلقي القبض عليه وفي يده لُفافة من الأوراق المالية في تلك اللحظة. "اسمع، لا يهمني إعطاؤك نقوداً، ولكنْ أما كان في وسعك أنْ تجد طريقة أخرى للوصول إليّ؟ الأمر لا يتعلّق بلوقا... إنه... " وبدأ يتنحنح ويتلعثم، دون أنْ يدري حقاً ما يودّ أنْ يقوله. وتمتمتُ منحنياً فوق لوقا أكثر حتى إذا دخل أحدهم علينا لا يكتشف ما أتيتُ

بصدده... " إكراماً للمسيح، دعنا لا نتناقش حول هذا الآن... هاتها ودعنا ننتهي... إنني يائس، أتسمعني؟ ". كان ماكسي مضطرباً جداً ومهتاجاً حتى إنه لم يتمكَّن من إخراج ورقة مالية دون أنْ يخرج الحزمة من جيبه. ومن مكاني حيث أميل على التابوت اختطفتُ الورقة العليا من الحزمة الناتئة من جيبه. لم أعرف إنْ كانت من فئة الدولار أو العشرة دولارات. ولم أتوقف لفحصها بل أخفيتها بأسرع ما أمكنني ثم وقفتُ بانتصاب. بعد ذلك أمسكت ماكسي من ذراعه وعدتُ إلى المطبخ حيث كانت العائلة تتناول طعامها بوقار ولكن بنهَمْ. أرادوا أنْ أمكث لأتذوَّق، وكان من الشناعة أنْ أرفض، لكنني رفضتُ بأفضل طريقة ممكنة وأسرعتُ خارجاً، وقد صار الآن وجهي ينتفض من الضحك المنفعل.

كان كرلي واقفاً عند الزاوية، قرب عمود الكهرباء، ينتظرني. وعند هذا الحد لم أتمكَّن من التحكُّم في نفسي. قبضتُ على كرلي من ذراعه واندفعت به في الشارع وأخذتُ أضحك، أضحك وكأنني لم أضحك إلاّ نادراً في حياتي. وظننتُ أنه يتوقف. فكلما فتحتُ فمي لأبدأ بشرح الحادثة تنتابني نوبة. وأخيراً تملَّكني الرعب، وفكَّرت أنني ربما سأظل أضحك حتى الموت. وبعد أنْ نجحت بالسكوت قليلاً، ووسط صمت طويل، إذا بكرلي يقول فجأة : " هل حصلتَ عليها ؟ " حتى إنني أُصِبتُ بنوبة جديدة، أكثر من الأولى عنفاً. وكان عليّ أنْ أميل على الدرابزين وأمسك أحشائي. فقد شعرتُ بألمٍ مُمضّ فيها لكنه ألم ممتع.

أشد ما أسعدني كان مرأى الورقة المالية التي اختلستُها من حزمة ماكسي المالية. كانت ورقة بقيمة عشرين دولاراً ! مشهدها أنزل عليَّ السكينة على الفور. وفي الوقت نفسه أغضبني قليلاً. أغضبني أنْ

أعرف أنه لا يزال يوجد في جيب الأبله ماكسي المزيد من الأوراق الماليّة، ربما المزيد من فئات العشرين دولاراً، والعشرة، والخمسة. لو أنه خرج معي، كما اقترحت، ولو أني ألقيت نظرة مُتفحّصة على تلك الحزمة لما شعرتُ بالندم لضربه بهراوة. لا أعلم لماذا كانت ستجعلني أشعر هكذا، لكني غضبت. وأول ما جال في خاطري هو أنْ أتخلّص من كرلي بأسرع وقت ممكن - وسوف تكفيه خمسة دولارات - ومن ثم أذهب لأمرح قليلاً. أردتُ بشكلٍ خاص أنْ أقابل عاهرة مُنحطّة قذرة ليس لديها أي قدر من اللياقة. فأين أقابل واحدة كهذه... ***هكذا ببساطة***؟ حسن، تخلّص من كرلي أولاً. وطبعاً تألّم كرلي. لقد توقّع أنْ يُلازمني، وتظاهر بأنه لا يرغب في الدولارات الخمسة، ولكن ما إنْ رأى أني لا أمانع في استعادتها، حتى اختطفها مُسرعاً.

الليل من جديد، ليل نيويورك العقيم، البارد، الآلي المتقلّب الذي لا سكينة فيه، ولا ملاذ، ولا مودّة. العزلة الكثيفة المتجمّدة للغوغاء ذوي المليون قدم، ونار الإعلان الكهربائي الباردة المُبدَّدة، والعَبَث الطاغي لكمال الأنثى التي اخترقت بكمالها تخوم الجنس وانتقلت إلى إشارة ناقص، وأضحتْ حمراء، كالكهرباء، كطاقة الذكور المُحايدة، ككواكب بلا أوجه، كبرامج السلام، كالحب الصادر من الراديو. أنْ يكون في جيبك نقود وسط طاقة بيضاء حياديّة، أنْ تتمشّى بلا معنى وبلا خصب خلال التلألؤ البرّاق للشوارع المطليّة، أنْ تفكّر بصوت عالٍ وأنت في عزلة تامة على شفا الجنون، أنْ تكون من سكّان مدينة، مدينة عُظمى، أنْ تكون في آخر لحظة من لحظات أعظم مدينة في العالم ولا تشعر بأنكَ جزء منها، يعني أنْ تصبح أنتَ نفسك مدينة، عالماً من الحجر الميّت، من

الضوء المسفوح، من الحركة غير المفهومة، من الأشياء التي لا توزن ولا تُحصى، من الكمال السرّي لكل ما هو تحت الصفر. أنْ تمشي حاملاً النقود مُخترقاً الحشد المسائي، مُحتمياً بها، تُهدهدكَ، تُعطّلك، الحشد نفسه نقود، نقود، وسواء أكان معك نقود أم لم يكن فالنقود هي الأساس والنقود تصنع النقود، ***ولكن ما الذي يجعل النقود تصنع نقوداً؟***

وإلى صالة الرقص من جديد، وإيقاع النقود، والحب المنبعث من المذياع، ولمسة الحشد المجرَّدة غير المُجنّحة. يأس يتسرَّب حتى أخمص قدميك، ضجر، يأس. إنكَ وسط أعلى مراحل الكمال الآلي لترقص بلا فرح، لتكون وحيداً حتى آخر اليأس، لتكون لا إنسانياً تقريباً لأنكَ إنسان. لو أنَّ هناك حياة على سطح القمر فأي برهانٍ عليها أكثر اقتراباً من الكمال والكآبة من هذا. إذا كان الانطلاق بعيداً عن الشمس يوصل إلى بلاهة القمر القارصة، إذن فقد بلغنا هدفنا والحياة ما هي إلاّ التوهُّج الحراري القمري البارد للشمس. هذه هي رقصة الحياة الباردة كالثلج داخل تجويف ذرَّة، وكلما رقصنا زادت برودتها.

وها نحن نرقص، على إيقاع مسعور بارد كالثلج، على الأمواج القصيرة والأمواج الطويلة، رقصة على السطح الداخلي لكأس العدم، وكل سنتيمتر من اللهفة يتحوَّل بسرعة إلى دولارات وسنتات. وننتقل من أنثى كاملة إلى أخرى باحثين عن النقص السريع العَطَب، لكنّهنَّ كاملات صامدات في التماسُك القَمَري المعصوم. وهذه هي عذراء منطق الحب البيضاء كالثلج، شَرَك المدّ المُنحسر، طرفُ الفراغ المُطلَق. وعلى طرف المنطق الفَرجيّ للكمال هذا أرقصُ رقصة اليأس الأبيض للروح، الرجل الأبيض الأخير يسحبُ زَنَد البندقية على آخر انفعال، وغوريلا

اليأس تضربُ صدرها بمخالب نظيفة مُلبَّسة. أنا الغوريلا الذي يشعر بنموّ جناحيه، غوريلا مُصاب بدوارٍ في مركزِ خواءٍ كالساتان، والليل أيضاً ينمو كنبتةٍ كهربائية، يشطأ براعم حارّة حتى البياض إلى الفضاء الأسود المخملي. أنا فضاء الليل الأسود تتكسَّر فيه البراعم بألم، سمكة نجميّة تسبح في ندى القمر المتجمِّد. أنا جرثومةُ جنونٍ جديد، فلتةٌ مكسوَّة بلغةٍ واضحة، تنهيدة مدفونة كشظيّة في صميم الروح. أرقصُ في فراغ كأس العدم. إننا من جلِدة واحدة، لكننا منفصلون كالنجوم.

في هذه اللحظة كل شيء واضح بالنسبة إليّ، واضحُ إلى حد أنه لا خلاصَ في هذا المنطق، والمدينة نفسها هي أرفعُ شكلٍ للجنون وكل جزء مهما صغُر منها، عضوي أو لا عضويّ، هو تعبيرٌ عن هذا الجنون نفسه. أشعر أني عظيم بعَبَثٍ وضِعة، ليس كمُصابٍ بجنون العَظَمَة، بل كبوغةٍ إنسانيّة، كإسفنجة الحياة الميتة، منتفخة من الإشباع. لم أعُدْ أنظر في عينيّ المرأة التي أضمّها بين ذراعي بل أسبحُ فيهما، رأساً وذراعَين وساقَين، وأرى أنَّ خلف محجريّ العينين ثمة منطقة لم تُكتَشَف بعد، عالمَ المستقبل، وهنا لا منطق على الإطلاق بل مجرَّد النمو الراكد للأحداث التي لا يُقاطعها ليلٌ ولا نهار، أمسٌ ولا غدٌ. والعين، المتعوِّدة على التركيز على نقاطٍ في الفراغ، أمستْ الآن تركِّز على نقاطٍ في الزمان، العين ترى أماماً وخلفاً كما ترغب. العين التي كانت الأنا من الذات لم يعُد لها وجود، هذه العين المجرَّدة من الذات لا هي تكشف ولا تُضيء. إنها تسافر على طول خط الأفق رحلة متواصلة، مُطّردة. أحاول الاحتفاظ بالجسد الضائع الذي نمّيته منطقياً كالمدينة، صفراً صحيحاً في علم تشريح الكمال. نموتُ متجاوزاً موتي، لامعاً وقاسياً في الروح. كنتُ

مُقسّماً إلى أمُوس (جمع أمس) لا حصرَ لها، وغدوات (جمع غد) لا عدَّ لها، أقفُ فقط على طرف الحَدَث، جداراً بِعدَّة نوافذ، لكنَّ البيت اندثر. يجب أنْ أحطِّم الجدران والنوافذ، آخر قوقعة للجسد الضائع، إذا كنتُ أنوي أنْ أنضمَّ إلى الحاضر. لهذا لم أعُد أنظر ***داخل*** العينين أو ***خلال*** العينين، بل أسبحُ فيهما مُستخدماً خِفّة يد الإرادة، رأساً وذراعين وساقين لأكتشف انعطافة الرؤيا. أرى ما حولي كما رأتْ الأم التي حملتني ذات مرة كل زوايا الزمان. حطّمتُ الجدار الذي نهضَ مع الولادة وخط الرحلة دائري وغير منكسر، أملس كالسرَّة. لا شكل، لا صورة، لا هندسة، فقط تهويمات متراكزة من الجنون المُطبِق. أنا سهمُ جوهر الحلم. أنا أختلفُ عن الطيران. أنا أنعدم حين أهبط إلى الأرض.

هكذا تمرّ اللحظات، لحظات حقيقية لزمنٍ بلا حدود حين أعرفُ كلَّ شيء، وحين أعرف كل شيء أنهارُ تحت قُبّة الحلم المجرَّد من الذات.

بين تلك اللحظات، في شقوق الحلم، تحاولُ حياةٌ ما بالنشوء، لكنَّ سقالات منطق المدينة المجنون لا تفيد كدعامات. باعتباري فرد، باعتباري من دمٍ ولحم، أُسطِّح كلَّ يومٍ من مجموع المنطق كلّه والموت كلّه بالنسبة إلى الحلم. أصارعُ موتاً كالمحيط لا يُشكّلُ موتي فيه أكثر من نقطة ماء تتبخَّر. ولكي أرفع حياتي الفردية الخاصة بمقدار جزء صغير من البوصة فوق بحر الموت السحيق هذا يجب أنْ يكون لديّ من الإيمان ما يفوق إيمان المسيح، وحِكمة أعمق من حِكمة أعظم الأنبياء. يجب أنْ تكون لديّ القدرة والصبر لكي أصيغَ ما لا تحتويه لغة عصرنا، إذ ما هو مفهوم الآن لا معنى له. عيناي لا فائدة لهما، لأنهما لا تعكسان إلا صورة ما هو معروف. يجب أنْ يُصبح جسمي شعاعاً دائماً من النور،

يتحرك بسرعة تتزايد باستمرار، لا يُمسَك أبداً، لا ينظر خلفه أبداً، ولا يتضاءل أبداً. تنمو المدينة كالسرطان، وأنا يجب أنْ أنمو كالشمس. المدينة تنهشُ أعمق فأعمق حتى الاحمرار؛ إنها قملة بيضاء نهمة يجب أنْ تموت في نهاية المطاف من شدة الجوع. سوف أُجوِّع القملة البيضاء التي تنهشني. سوف أموت كمدينة كي أعود رجلاً، لذا أُغلقُ أذنيّ، وعينيّ، وفمي.

وقبل أنْ أعود رجلاً تاماً فقد أوجَد كحديقة عامة، كنوعٍ من الحدائق الطبيعية يأتي إليها الناس ليرتاحوا، ليقتلوا الوقت. ولن يهمّ كثيراً ما يقولون وما يفعلون، لأنهم لن يجلبوا معهم إلا تعبهم، ضجرهم، يأسهم. سأكون حائلاً بين القملة البيضاء والكريّة الحمراء. سأكون مروحة تهوية لإزالة السموم المتكدّسة نتيجة الاجتهاد لإكمال ما ليس كاملاً. سأكون قانوناً ونظاماً كما يوجدان في الطبيعة، كما هو مُخطَّط في الحلم. سأكونُ الحديقة البرّية وسط كابوس الكمال، الحلم الراكد، الراسخ، وسط النشاط المسعور، الطلقة العشواء على طاولة بلياردو المنطق البيضاء. لن أعرف كيف أبكي ولا كيف أشتكي؛ بل سأكون موجوداً دائماً في صمتٍ مُطبق لأتقبّل وأُخزِّن. لن أقول شيئاً حتى يحين الوقت لأعود رجلاً. لن أبذل أي مجهود لأصون، أو لأدمِّر. لن ألقي أي أحكام، ولا انتقادات. سيأتي إليّ كلُ مَنْ لديه فائض للتفكير والتأمُّل، والذين ليس لديهم ما يكفيهم سيموتون كما عاشوا، في فوضى، في يأس، في جهلٍ بحقيقة الخلاص. إذا قال لي أحدهم يجب أنْ تكون مُتديناً، فلن أدلي بجواب. وإذا قال أحدهم، ليس لدي وقت الآن، هناك عاهرة تنتظرني، فلن أدلي بجواب. حتى لو كان هناك ثورة تتخمَّر فلن أعطي جواباً.

سيكون هناك دائماً عاهرة أو ثورة عند إحدى المنعطفات، لكنَّ الأم التي حملتني انعطفتْ عند الكثير من الزوايا ولم تُدلِ بجواب، وأخيراً قَلَبَتْ داخلها إلى الخارج ***وكنتُ النتيجة***.

من الطبيعي ألاّ يتوقع أحد أن تنتج ثورة أو حديقة بريّة من هَوَس بربي بالكمال كهذا، ولا حتى أنا، ولكن من الأفضل تماماً، أثناء مُلازمة الموت، أنْ تعيش حالة حيرة مباركة وطبيعية. من الأفضل بشكلٍ مُطلَق، أثناء تقدُّم الحياة نحو كمال الفناء، أنْ تكون مجرَّد نُتفة من فضاءٍ يتنفّس، امتداداً أخضر، قليلاً من الهواء المنعِش، بحيرة صغيرة من الماء. ومن الأفضل أيضاً أنْ تستقبل الناس بصمت وتطويهم، فلا يسعك أنْ تنفخهم بجواب بينما هم يندفعون بهوس للانعطاف عند الزاوية.

أفكِّر الآن في قتال الصخور بعد ظهر أحد أيام الصيف منذ زمن بعيد بعيد حين كنتُ أقطن عند عمتي كارولاين قرب هيل غيت. كانت مجموعة من الصبية قد حاصرتنا أنا وابن عمي جين ونحن نلعب في الحديقة العامة. لم نكن نعرف مع أي جانب نقاتل لكنّنا قاتلنا بجدّية تامة وسط كومة من الصخور قرب ضفة النهر. وكان علينا أنْ نُبدي من الشجاعة ربما أكثر من باقي الصبية لأنهم كانوا يشكّون في أننا مُخنثون. وإليك كيف قَتَلنا أحد صبية الطرف الآخر. فبينما هم ينهالون علينا صوَّبَ ابن عمي جين ضربته إلى زعيمهم وأصابه في بطنه بحجر له حجم مُعتبر. وفي الوقت نفسه سدَّدتُ ضربتي أيضاً فأصابتْ صدغه وحين سقطَ ظلَّ راقداً في مكانه ولم يصدر عنه نَفَس جاءتْ الشرطة وإذا بالصبي ميّت. كان له من العمر ثماني أو تسع سنوات، في مثل أعمارنا. ولا أدري ماذا كان سيحدث لو أنهم قبضوا علينا. مهما يكن،

لكي لا نُثير الشُبُهات أسرعنا إلى المنزل : وفي الطريق نظّفنا نفسينا قليلاً ومشّطنا شعرنا، ثم دخلنا وقد بدَتْ علينا تقريباً نفس النظافة التي خرجنا عليها من المنزل. أعطتنا عمّتي كارولاين شريحتينا المعتادتين من الجودار الحامض والزبد والقليل من السُكَّر فوقه وجلسنا هناك على طاولة المطبخ ننصت إليها وعلى وجهينا ابتسامة ملائكية. كان يوماً حاراً جداً واقترحت أنه من الأفضل لنا أنْ نبقى في المنزل، في الغرفة الأمامية الكبيرة حيث الستائر مُسدلة، لنلعب الكِلّة مع صديقنا جوي كيسلبوم. وكان جوي يتخلّف عنا قليلاً، وطبعاً كنا نهزمه، ولكن بعد ظهر ذلك اليوم، وفي نوعٍ من التفاهم غير المُعلَنْ، سمحنا له، جين وأنا، أنْ يربح كل ما كان معنا. وفرِحَ جوي كثيراً حتى إنه أخذنا بعد ذلك إلى قبوه وجعل أخته ترفع ثوبها وتُرينا ما تحته. كانوا يُسمّونها ويزي، وأذكرُ أنها التصقت بي على الفور. كنتُ من منطقةٍ أخرى في المدينةَ بدتْ بالنسبة إليهم بعيدة جداً، وكأني قادم من بلدٍ آخر. بل كانوا يظنون أني أتكلّم بطريقة مختلفة عن طريقتهم. وفي حين كان باقي الأولاد يدفعون نقوداً ليجعلوا ويزي ترفع ثوبها، إلا أنها معنا كانت تفعلُ ذلك حباً وكرامة. وبعد فترة وجيزة أقنعناها بألا تفعل ذلك بعد الآن مع باقي الصبية - كنا نحبها وأردناها أنْ تصبح مستقيمة.

حين غادرتُ ابن عمي في نهاية الصيف لم أره ثانية إلا بعد عشرين عاماً أو أكثر. وحين تقابلنا أشدّ ما أثّر بي كان مظهره البريء - كان يحمل التعبير نفسه الذي حمله يوم قتال الصخور. ولما حدّثته عن القتال ذُهلتُ أكثر لاكتشافي أنه نسيَ أننا نحن اللذان قتلنا الصبي : تذكّرَ موت الصبي لكنّه تحدَّثَ عنه وكأنما لا هو ولا أنا لنا دخل فيه.

وحينَ ذكرتُ اسمَ ويزي وجدَ صعوبةً في التعرُّف عليها. ألا تذكُر القبو المجاور لبيتنا... وجوي كيسلبوم؟ وهنا امتدَّتْ ابتسامة ضعيفة على صفحة وجهه. ووجدَ أنه من غير العادي أنْ أتذكَّر أشياء كتلك. كان قد تزوَّجَ لتوّه، وأضحى أباً، ويعملُ في مصنعٍ لصُنع الغليون الممتاز. واعتبرَ أنَّ من غير المعقول أنْ يتذكَّر أحداثاً جرَتْ في زمنٍ سحيقٍ في القِدَم.

بعد أنْ غادرته في تلك الليلة شعرتُ بقنوطٍ رهيب. كأنه حاولَ أنْ يستأصِل جزءاً نفيساً من حياتي، ويحتفظ به. بدا أشدّ التصاقاً بسمكةٍ استوائيّةٍ، من تلك التي كان يجمعها، منه بالماضي الرائع. أما أنا فأتذكَّر كل شيء، كل ما حدث في صيف ذلك العام، وخاصة يوم قتال الصخور. والحقيقة، أنَّ ثمة أوقاتاً يكون فيها مذاق تلك الشريحة الكبيرة من خبز الجودار الحامض التي أعطتني أمه إياها بعد ظهر ذلك اليوم أقوى في فمي من الطعام الذي أتناوله عادةً. ومرأى برعم ويزي الصغير يكاد يكون أقوى من شعوري بما أمسكه بيدي. والطريقة التي تمدَّدَ بها الصبي هناك، بعد أنْ أسقطناه، أقوى تأثيراً بمراحل من تاريخ الحرب العالمية الأولى. في الواقع، إنَّ فصل الصيف برمّته يبدو أشبه بأنشودةٍ رعويّة من الأساطير الآرثريّة. وغالباً ما أتساءل ماذا كان في ذلك الصيف الخاص يجعله على ذلك القدر من الحيوية في ذاكرتي. يكفي أنْ أُغمِض عينيّ لحظة لأعيش من جديد كل يوم منه. لاشك في أنَّ موت الصبي لَم يُسبِّب لي أيّ أسى - فقد نسيتُ أمره قبل انصرام أسبوع عليه. ومرأى ويزي واقفة في القبو رافعةً ثوبها، هذا أيضاً نسيته بسهولة. أما أغرب شيء فهو أنَّ شريحة خبز الجودار السميكة التي كانت أمه تعطيني إياها كل يوم، تبدو مُحتفظةً بنفوذٍ أكبر من أي صورة

أخرى من تلك الفترة. وأتعجَّب بشأنها... أتعجَّب بعمق. ربما لأنها حين كانت تناولني شريحة الخبز تفعل ذلك برقّة وعطفٍ لم أعرفهما قبل ذلك. كانت عمتي كارولاين امرأة بسيطة. على وجهها ندوب الجدري، لكنه كان وجهاً لطيفاً ساحراً لا يمكن لأي تشويه أنْ يُفسده. كانت ضخمة جداً وتتميَّز بصوتٍ ناعم جداً، ومُلاطِف جداً. حين تُخاطبني توليني انتباهاً أكثر، اهتماماً أكثر مما تولي ابنها. تمنّيت لو بقيت معها دائماً، ووددتُ لو اخترتها أماً لو سُمِحَ لي. أتذكَّر بوضوح كيف كانت أمي تبدو بَرِمةً حين تأتي لزيارتنا حتى إني فرحتُ بحياتي الجديدة. بل وألمَحَتْ إلى أني جاحد، وهي ملاحظة لم أنسَها أبداً، لأنني أدركتُ للمرة الأولى أنه ربما كان من الضروري والجيّد في آن أنْ يكون المرء جاحداً. ولو أغمض عينيّ الآن وأفكّرُ فيها، في شريحة الخبز، لتذكَّرتُ على الفور أنه في ذلك المنزل لم أعرف دهري معنى التأنيب. أعتقدُ أني لو أخبرتُ عمتي كارولاين أني قتلت صبيّاً في الأرض المجاورة، وكيف حدثَ هذا ببساطة، لأحاطتني بذراعيها وغفرتْ لي - بلا تردُّد. ربما كان هذا هو السبب الذي جعل ذلك الصيف نفيساً إلى هذا الحدّ. لقد كان صيفَ غفرانٍ ضمنيّ وتام. لذا تراني لا أستطيع نسيان ويزي أيضاً. كانت مملوءة بالطيبة الفطرية؛ طفلة تهيم بي ولا تلقي أي تأنيب. كانت أول شخص من الجنس الآخر تُعجَب بي ***لأنني مختلف***. وبعد ويزي انعكسَ الأمر تماماً. كنتُ محبوباً، ومكروهاً أيضاً بسبب ما كنتُ عليه. ويزي قامت بجهدٍ لفهمي. كفاها أنْ تعرف أني أتيتُ من بلدٍ غريب، وأتكلَّم لغة أخرى، حتى تقترب مني أكثر. لن أنسى أبداً الطريقة التي لمعتْ بها عيناها حين قدَّمتني إلى صديقتها الصغيرة. بدتْ عيناها تتفجّران بالحب

والإعجاب. كنا نمشي ثلاثتنا أحياناً إلى طرف النهر في المساء ونجلس على الضفة لنتحدث كما يتحدَّث الأطفال حين يكونون بعيدين عن عيون الكبار. تحدَّثنا عندئذٍ، وأذكُرُ هذا تماماً، بعقلانيّة وعمق أكثر من آبائنا. كان على الآباء لكي يعطوننا تلك الشريحة السميكة من الخبز كل يوم أنْ يدفعوا غرامة باهظة. وأسوأ غرامة كانت أنهم يتغرّبون عنا. إذ، مع كل شريحة أطعمونا إياها كنا نغدو ليس فقط لا مبالين بهم، بل ومترفّعين أكثر فأكثر عنهم. في جحودنا كان مكمن قوتنا وجمالنا. وبما أننا لسنا مُكرَّسين فقد كنا براء من كل جريمة. إنَّ مقتل ذلك الصبي الذي رأيته يسقط ميتاً، وارتمى في مكانه لا حراك به، دون أنْ يصدر عنه أوهى صوت أو همس، يكاد يبدو إنجازاً نظيفاً وصحّياً. إنَّ الكفاح من أجل لقمة العيش، من جهة أخرى، يبدو عملاً غبياً ومُهيناً، وحين كنا نقفُ في حضرة آبائنا نشعر أنهم أتوا إلينا قذرين ولذلك لا يمكن أنْ نسامحهم. إنَّ شريحة خبز سميكة في أوقات بعد الظهر، ولأنها بالتحديد ليست مُكتسبة بالجهد، كانت تبدو لنا لذيذة. لن يوجد مثيل لمذاق ذاك الخبز بعد الآن. لم يُمنَح بهذه الطريقة ثانية. وكان يوم الجريمة أقوى مذاقاً حتى من كل شيء. فيه شيء من الرعب ظلَّ مفقوداً منذ ذلك الحين. وقد تقبَّله غفران العمة كارولاين الضمنيّ والتام.

هناك في خبز الجودار شيء أحاول سبر غوره - شيء لذيذ بغموض، مرعب ومُحرِّر، شيء مقرون بالاكتشافات الأولى. أفكِّر في شريحة أخرى من الجودار الحامض ارتبطت بفترةٍ أبكر، حين كنتُ وصديقي الصغير كرلي نغيرُ على الثلاجة، كان ذاك خبزاً مسروقاً وبالتالي ربما أكثر روعة في الفم من الخبز الذي مُنِحَ بحب. ولكنْ ظهرَ في عملية أكل خبز

الجـودار، والتـجـوُّل به والتـحـدُّث في وقتٍ واحـد، شيءٌ هو في طبـيـعـة الوحي. كـانت حـالةً شبيـهـةً بالنعـمـة الإلهـيـة، حـالة من الجـهـل التـام، من نكران الذات. في تلك اللحظات كنتُ أحتـفظُ بكل مـا يُمنَح لي سليـمـاً تاماً دون خوف من أنْ أفقد المعرفة التي اكتـسبـتُـها. والحقيـقة هي أنها ربما لم تكن مُغـرِقـة في الدّقـة لمعنى كـهـذا. المهمّ في مناقـشـات الجـودار الحامض أنها عُقِدتْ دائماً بعـيداً عن المنزل، بعـيداً عن عـيون الآباء الذين كنا نخافهم ولكن أبداً لم نحترمـهم. وحين نُترَك وحدنا لا تبقى حدود لما يمكن أنْ نتخيَّل. لم يكن للحقائق إلا القليل من الأهمية بالنسبة إلينا : وما كنا نطلبه من أي شيء هو أنْ يمنحنا فـرصـة للتبسُّط. ومـا يُذهلني، حين أعود بذاكرتي إلى هذا، مقدار تفهّمنا أحدنا للآخر، وكم كنا نتعمَّق في سبر جوهر شخصية كل واحد، أصغيراً كان أم كبيراً. في سن السابعة كنا نعـرف بثـقـة عـمـيـاء، مـثـلاً، أنَّ هذا الشـخص سينتـهي به الأمـر إلى السجن، وأنَّ آخر سيكون كادحاً، وآخر لا ينفعُ في شيء، وهكذا. وكنا على حق تماماً في افـتراضـاتنا، بل وعلى حق أكثر، مثلاً، من آبائنا أو أساتذتنا، أكثر دقّة، وبحقّ، فمن يُسمّون بعلماء النفس. لقد أصبح ألغي بيتشا سكّيراً مُنحطّاً : وذهبَ جوني غـرهارت إلى الإصـلاحـيـة : وأصبح بـوب كـونسـت حـصـان ركـوب. تنبّـؤات لا تُخطئ. إنَّ التـعليم الذي تلقّـيناه لم يكن إلا ليُغبش رؤانا. ومنذ أول يوم ذهبنا فيه إلى المدرسة لم نتعلَّم أي شيء : على العكس، جعلونا بليدين، أحاطونا بغمامة من الكلمات والمُجرّدات.

مع خبـز الجـودار الحامض يغـدو العـالم كـمـا هو أصـلاً، عـالماً بدائيـاً يحكمه السحر، عـالماً يلعب الخوفُ فيه الدور الأهمّ. الصبي الذي استطاع أنْ يُلهِم بأعظم خـوف كـان القـائد ويبـقى مُـحـترمـاً مـا دام قـادراً على

الاحتفاظ بسلطته. كان هناك صبيةٌ آخرون متمرّدون، أثاروا الإعجاب، لكنّهم لم يصلوا أبداً إلى منصب القائد. كانت الغالبية طيناً هشّاً في أيدي الشجعان منهم : لم يكن في الإمكان الاعتماد إلاّ على الأقلّية، أما الغالبية فلا. كان الجو مُفعماً بالتوتُّر - ولا وجود لِما يمكن التنبّؤ به للغد. وقد خَلَقَتْ نواة المجتمع البدائية الطليقة هذه شهوات حادّة، انفعالات حادّة، فضولاً حادّاً. لم يكن هناك ما يؤخذ تسليماً : كل يوم يتطلَّبُ اختباراً جديداً للطاقة، حسّاً جديداً بالقوة أو بالفشل. وهكذا، حتى سن التاسعة أو العاشرة، كان لدينا إحساسٌ حقيقيّ بالحياة - كنا مُستقلّين. وأقصد بكلامي الذين حالفهم الحظ منا ولم يُفسدهم آباؤهم، الأحرار في التجوُّل في الشوارع ليلاً ليكتشفوا الأشياء بأم أعينهم.

إنَّ ما أفكِّر فيه، مع قدرٍ معيَّن من الأسف والاشتياق، هو أنَّ تلك الحياة المحدودة جداً من الطفولة المُبكِّرة تبدو ككونٍ غير محدود وأنَّ الحياة التي جرتْ عليه، حياة اليافعين، هي عالم لا يني يختفي. ومنذ أنْ يودَع المرء المدرسة يضيع : يشعر بأنَّ رَسَناً يُطوِّقُ عنقه. ويخرج المذاق الخاص من الخبز كما يخرج من الحياة، ويغدو أمر الحصول على الخبز أهمّ من أكله. كل شيء محسوب وكل شيء عليه سِعره.

ابن عمي جين أصبحَ نكِرة صِرفاً؛ وستانلي أصبح فاشلاً من الدرجة الأولى. إلى جانب هذين الصبيّين، اللذين كنتُ أكنُّ لهما أبلغ الحب. وكان هناك جوي الذي أضحى ساعي بريد منذ زمن ,أكاد أبكي كلما فكَّرتُ في ما جَعَلَتْ الحياة منهم. في صِغَرِهم كانوا أبطالاً؛ كان ستانلي أقلّهم عَظَمة لأنه أكثرهم مزاجيّة. وبين الحين والآخر كان ستانلي ينخرط في نوبات غضب عنيفة ولم يكن في إمكانك أنْ تعرف كيف ستكون

علاقتك معه من يومٍ إلى آخر. ولكن جين وستانلي كانا جوهر الطيبة: كانا صديقين بالمعنى القديم للكلمة. وغالباً ما أفكّر في جوي حين أخرج إلى الريف لأنه كان يُسمّى بالريفي. وكان هذا يعني، وهو معنى واحد، أنه أكثر ولاءً، وأكثر إصلاحاً، أكثر رقّة من الصبية الذين عرفناهم. أكاد أرى جوي الآن قادماً لملاقاتي: دائماً يركض وهو مفتوح الذراعين حتى آخرهما ومستعد لمعانقتي، ودائماً لاهثاً يحملُ معه المغامرات التي يُخططها لأشاركه فيها، دائماً مُحمّلاً بالهدايا التي يوفّرها لمجيئي. ويستقبلني جوي كما كان الملوك القُدامى يستقبلون ضيوفهم. وكل ما يقعُ عليه نظري هو لي. كان لدى كلٍ منا أشياء لا حصرَ لها ليُحكيها للآخر ولم يكن هناك ما يُضجِر أو يُملُّ منه. وكان البعد بين عوالمنا الشخصية هائلاً. فعلى الرغم من كوني من المدينة أيضاً إلاّ أني حين كنتُ أزورُ ابن عمّي أعي وجود مدينة أكبر، مدينة نيويورك الحقيقية التي لم يكن لثقافتي المتكلّفة فيها أي اعتبار. لم يقُمْ ستانلي بأي نزهة بعيداً عن منطقته، لكنه جاء من أرضٍ غريبة عبر البحار، من بولندا، وكان يُميِّز بيننا دائماً السَّفَر عبر البحار. وقد زادت معرفته للغةٍ أخرى من إعجابنا به. لقد كان كلٌ منا مُحاطاً بهالةٍ مميَّزة، بهويّة مُحدَّدةٍ بدقّة لا تُنتَهك أبداً. ومع دخولنا معركة الحياة ذابت تلك الفروق المُميّزة وأصبحنا جميعاً متشابهين بشكلٍ آو بآخر، وطبعاً، أبعد ما نكون شَبَهاً بأنفسنا. وهذا الخسران للذات الخاصة بالضبط، للفردية غير الهامة ربما، هو الذي يُحزنني ويجعل خبز الجودار يبرزُ متوهجاً. لقد دخل الجودار الحامض الرائع في تكوين ذواتنا الفردية: كان كرغيفِ العشاء الربّاني، وبلا بَركة. نأكل لنملأ بطوننا وقلوبنا باردة خاوية. إننا منفصلون ولكن لسنا متفرّدين.

هناك شيء آخر حول الجودار الحامض هو أننا غالباً ما كنا نأكل معه البصل النيئ. أذكُرُ كيف كنتُ أقفُ مع ستانلي في وقتٍ متأخِّر من بعد ظهر أحد الأيام، وشطيرة في يدي، أمام عيادة طبيب بيطري تقع قبالة منزلنا. ويبدو أنَّ الدكتور ماكيني كان دائماً يختار الوقت المتأخِّر بعد الظهر ليُخصي أحد الفحول، وهي عملية تجري أمام الناس وتجلب حشداً صغيراً من المشاهدين. أذكر رائحة الغازات الحامية وارتجاف قوائم الحصان، ولحية الدكتور ماكيني المُدبّبة، ومذاق البصل النيئ ورائحة الغازات المُصرَّفة خلفنا تماماً حيث تُجمَّع في مصرف غازي جديد. كانت عملية شمّية من أولها إلى آخرها، وكما أحسَنَ أبيلار وصْفَها، غير مؤلمة عملياً. ولما لم نكن نعرف سبب هذه العملية كنا نخوض أثرها في مناقشات تنتهي عادة بشجار. ولم يكن أحد يحب الدكتور ماكيني : فقد كانت تفوح منه رائحة اليود وبول الأحصنة البائت. أحياناً كان المجرور أمام مكتبة يمتلئ بالدم وفي الشتاء يتجمَّد حتى يُمسي ثلجاً ويُضفي منظراً غريباً على رصيفه. وبين الحين والحين تأتي عربة بدولابَين، عربة مكشوفة رائحتها كالشيطان، يسحبون إليها حصاناً ميتاً، أو بالأحرى كانت الجثة ترفع إليها بسلسلة، مما يُحدِث صفيراً عالياً مُزعجاً كسقوط مرساة. إنَّ رائحة حصان ميت مُنتفخ هي رائحة كريهة، وكان شارعنا مملوءاً بالروائح الكريهة. فعند الزاوية يقوم محل بول سوير حيث تُعلَّق الجلود المدبوغة وغير المدبوغة في الشارع. وتفوح عَفَناً أيضاً. ثم هناك العبق اللاذع الآتي من مصنع القصدير الكائن خلف المنزل - الذي يُشبه رائحة التقدُّم العصري. وتبقى رائحة حصانٍ ميّت، التي تكاد لا تُحتَمَل، أفضل من مرأى مجموعة من الرجال بالمآزر الزرقاء خارجين من الباب المقوَّس لمصنع

القصدير يجرّون عربات نقل يدوية مملوءة برُزَمٍ من مصنوعات القصدير الحديثة. ولحُسن حظنا كان أمام مصنع القصدير خبّاز ومن الباب الخلفي للمخبز، والذي لم يكن إلا غرفة الشِواء، كنا نستطيع أنْ نراقب الخبازين أثناء قيامهم ونحصل على الحلوى، وتنبعث رائحة الخبز والكعك التي لا تُقاوَم. وكما قلت، إذا كانت مصارف الغاز مُخمَدَة فثمة مزيج غريب آخر من الروائح - رائحة التراب المحفور لتوّه، وأنابيب الحديد العفِنْ، وغاز المجرور، وشطائر البصل التي كان يأكلها العمال الإيطاليون أثناء اتّكائهم على كومة من التراب المحفور. وكانت تنبعثُ روائح أخرى أيضاً، طبعاً، لكنّها أقلّ تأثير : كرائحة، مثلاً، دكان الخيّاط سيلفرستاين حيث تجري الكثير من الأعمال طوال الوقت. وكانت هذه الرائحة حارّة ونتنة، يمكن التعرُّف عليها بشكلٍ أفضل عند تصوُّر أنَّ سيلفرستاين، اليهوديّ الهزيل والنتن، يُزيل البراز الذي يُخلّفه الزبائن في سراويلهم. وكان الدكان المجاور للمنزل مكتبة ومحلاً لبيع الحلوى تملكه عجوزان معتوهتان ومتديّنتان : هنا كانت تُباع الحلوى الأكثر إثارة للقرف برائحتها، من الجوز الإسباني، والعلكة المُنكّهة والسن-سن وسجائر كابورال المُحلاّة. كان مخزن القرطاسية مثل كهفٍ جميل، دائماً بارد، ودائماً مملوء بالأشياء الآسرة : ومكان نافورة الصودا، ولها بدورها عَبَقها المميَّز، توجد شريحة سميكة رخاميّة تغدو حامضة في أوقات الصيف ومع ذلك تمتزج بمذاقٍ لذيذ، أعني الحموضة، الحادّة قليلاً، والرائحة الجافّة للماء المُشبع بالكربونات حين يئزّ في كأسٍ من البوظة.

ومع التصرّفات المهذَّبة التي ترافق فترة النضج تختفي الروائح، لتُبدَّل برائحة واحدة أخرى، تبقى في الذاكرة بوضوح، ممتعة بنقاء - إنها

رائحة الكس. وبخصوصية أكثر إمتاعاً، ربما لأنها تحمل معها دائماً عطر صيغة الماضي، من عبق الكس نفسه. ولكن هذا العبق، المنتمي إلى فترة النضج، ما هو إلا عبق ضعيف عند مقارنته بالروائح المرافقة لمرحلة الطفولة. إنه عبق يتبخَّر في الواقع بسرعة توازي سرعة تبخُّره في الخيال. يمكن للمرء أنْ يتذكَّر أشياء عديدة تتعلَّق بالمرأة التي أحبّها ولكن من الصعب أنْ يتذكَّر رائحة كسّها - مع أي قدرٍ من اليقين. إنَّ رائعة الشعر المُبلَّل، من ناحية أخرى، شعر مُبلَّل لامرأة، هي أكثر نفاذاً ودواماً - لماذا، لا أعرف. أذكرُ حتى الآن، وبعد مضيّ أربعين عاماً، رائحة شعر عمتي تيلي بعد غسله بالشامبو. هذا الغسل بالشامبو كان يحصل في المطبخ ذي الحرارة العالية دائماً. وفي وقت متأخر من بعد ظهر يوم سبت، عند الاستعداد لحفلة كانت تعني لي شيئاً آخر خاصاً - يظهر رقيب الخيّالة ببذلة ذات خطوط جميلة، رقيب أنيق بشكلٍ رائع كان يبدو لي فائق الكياسة، والرجولة، والذكاء أمام بلهاء أمثال عمتي تيلي. ولكن مهما يكن، كانت تجلس هناك على مقعد صغير قرب طاولة المطبخ تجفف شعرها بمنشفة، إلى جانبها مصباح صغير له مدخنة وبجانب المصباح حديدتان لتجعيد الشعر كان مجرَّد مرآهما يملأني بقرف لا يُفسَّر. كانت لديها مرآة صغيرة موضوعة على الطاولة : وما أزال أتخيّلها الآن تلوي تقاطيع وجهها وهي تعصر النتوءات السوداء عن أنفها، ولها سنّان ضخمان ناتئان يجعلانها تبدو كالحصان كلما افترَّتْ شفتاها عن ابتسامة. تفوح منها أيضاً رائحة العرق حتى بعد الاستحمام. ولكن تبقى رائحة شعرها - تلك الرائحة لا أستطيع نسيانها، لأنها مقرونة بشكلٍ ما بحقدي عليها واحتقاري لها. تلك الرائحة، وبعد أنْ يجف

الشعر، كانت تشبه الرائحة المنبعثة من قعر المستنقع. كانت هناك رائحتان - واحدة تنبعث من الشعر المُبلّل والأخرى من الشعر نفسه حين ترميه في المدفأة وينتفض باللهب. ويتخلّف في المشط عقدتان مُجعدتان من الشعر، وتكونان ممتزجتان بالقشور وبعَرَق جِلدة رأسها المزيّتة والقذرة. وأقفُ إلى جانبها أراقبها، أتساءل كيف ستكون الحفلة وكيف ستتصرَّف هي في الحفلة. بعد أنْ تتم زينتها تسألني إذا كانت جميلة وإذا كنتُ أحبها. وطبعاً سأقول نعم. ولكن بعد ذلك في المرحاض الذي كان في القاعة المجاورة للمطبخ، أجلسُ على وميض نور الشمعة المحترقة الموضوعة على طرف النافذة، وأقول لنفسي إنها تبدو مجنونة. بعد ذهابها التقط حديدتيّ التجعيد ولأشمّهما وأعصرهما. كانتا مُقززتين وفاتنتين - كالعناكب. كل شيء حول هذا المطبخ كان يُبهرني. ولما كنت متعوداً عليه لم أتمكّن من قهره أبداً. كان في وقتٍ واحد مألوفاً وحميماً. هنا كنتُ أحمَّم، في حوض القصدير الكبير، أيام السبت. هنا كانت الأخوات الثلاث يستحممن ويتزيَّنَ. هنا وقفتُ عند المغسلة واغتسلت حتى الرسغ ثم ناولنني الحذاء لكي أُلّمعه. هنا وقفتُ عند النافذة في الشتاء وراقبتُ سقوط الثلج، راقبته بكسل، بعبث، وكأنني كنتُ في الرحم أُصغي إلى جريان الماء بينما أمي جالسة على المرحاض. وفي المطبخ كانت الأحاديث السرّية تدور، وهي جلسات مخيفة بغيضة يخرجون منها بوجوهٍ طويلة ومكتئبة أو عيون حمراء من فرط البكاء أما لماذا كانوا يهرعون إلى المطبخ فلا أعرف. ولكن غالباً بينما هم واقفون هكذا في اجتماع سري يُماحكون بشأنْ وصية أو يُقررون كيف سيحرمون أحد الأقارب المساكين، يُفتَحُ الباب فجأةً ويدخل أحد الضيوف، وعلى

الأثر يتغيَّر الجو فوراً. أعني، يتغيَّر بعنفٍ وكأنهم ارتاحوا لتدخُّل قوة خارجية لتوفِّر عليهم رعب عقد جلسة سرية مطوّلة. أذكر الآن كيف كان قلبي يقفز فَرَحاً عند رؤيتي للباب ينفتح ويبرز منه وجه ضيفٍ غير متوقَّع. وسرعان ما أُعطى إبريق زجاجي كبير ويُطلَبُ مني أنْ أهرع إلى الحانة التي عند الزاوية حيث أضع الإبريق داخل النافذة عند حانة مدخل العائلة، وانتظر حتى يُعاد إليّ مُترعاً بالرغوة المُزبدة. هذه المسافة القصيرة من الركض إلى الزاوية لجلب إبريق من البيرة كان بمثابة حملة ذات أبعاد لا يمكن حصرها. فأولاً كان هناك دكان الحلاق تحتنا مباشرةً، حيث يمارس والد ستانلي مهنته. ومرة بعد أخرى، وبينما أنا مُندفع لجلب شيء، أرى الوالد يضرب ستانلي بمشحذ الموس، فأشعر بدمي يغلي في عروقي. وكان ستانلي أفضل أصدقائي ووالده لم يكن سوى سكّير. في إحدى الأمسيات وبينما أنا مندفع إلى الخارج مع الإبريق، تملّكني سرور غامر لمرأى بولندي آخر يُهاجم والد ستانلي العجوز بموس. رأيتُ العجوز خارجاً من الباب متقهقراً، الدم يجري على رقبته، ووجهه أبيض كالملاءة. ثم سقط على الرصيف أمام الدكان، ينتفض ويئنّ، وأذكر كيف نظرت إليه دقيقة أو دقيقتين ثم مشيت وأنا أشعر بسرور ما بعده سرور. وأثناء الشجار تسلّلَ ستانلي خارجاً والتحقَ بي أمام باب الحانة. هو أيضاً كان مسروراً، رغم بعض الخوف. حين عدنا كانت سيارة الإسعاف واقفة أمام الباب وهم يُمدّدونه على نقّالة، ووجهه ورقبته مغطيان بملاءة. يحدث أحياناً أنْ يمرّ أحد صبية الكورس المُدلّلين للأب كارول قرب المنزل وأكون مُسرعاً أمخرُ الهواء. وهذه الحادثة كانت ذات أهمية بالغة. كان الصبي أكبر من أي منا ومُخنّثاً، من النوع الناعم في تكوينه. كانت مشيته

فقط كفيلة بإغضابنا. وحالما علِمَ بملاحقتنا له راح يتنقَّل في كل اتّجاه وقبل أنْ يصل إلى الزاوية كان قد حوصِر بعصابةٍ من الصبية كلهم أصغر منه سناً بكثير وأخذوا يسخرون منه ويحاكون حركاته حتى انفجرَ باكياً. ثم هجمنا عليه ومزّقنا ملابسه من ظهره. كان عملاً غير لائق لكنّه منحنا السرور. لم يكن أحد يعلم معنى صبي ناعم، ومع ذلك كنا ضد هذا النوع، وكنا ضد الصيني بالطريقة نفسها. فقد كان هناك صيني من المصبغة المُطلّة على الشارع، يمرّ بنا دائماً، وكمُخنّث كنيسة الأب كارول، كان عليه أنْ يقبل تحدّينا. كان يبدو تماماً كصورة الحمّال التي يراها المرء في الكتب المدرسية. وكان يرتدي نوعاً من المعاطف المصنوعة من صوف الألباكا الأسود ذي الأزرار المزركشة، وينتعل خفّاً بلا كعب، وله ذَنَب خنزير. ويمشي عادة وقد وضع يديه في كُمّيه. ومشيته بالذات هي التي أذكُرها أكثر من أي شيء، هي نوع من الخطوة النسائية القذرة المتكلّفة في رقّته ونعومته وكان غريباً عنا تماماً ويُشكِّل تهديداً لنا. كنا نخافه حتى الموت وقد كرهناه لأنه لم يُبالِ على الإطلاق باستهزاءاتنا. حسبنا أنه أجهل بكثير من أنْ يُلاحظ إهاناتنا. وذات يوم حين دخلنا المصبغة نالنا منه مفاجأة صغيرة؛ أولاً سلّمنا صرّة الملابس المُنظّفة : ثم انخفَضَ قليلاً أسفل المنضدة وأخذ قبضة من جوز شجر ليتنشي من الكيس الكبير. كان يبتسم وهو يخرج من خلف المنضدة ليفتح لنا الباب. كان عندما أمسك بألفي بيتشا وشدَّه من أذنيه؛ وأمسك كلاً منا وشدَّنا من آذاننا، وهو لا يزال يبتسم. ثم كشَّرَ بغضب، وبسرعة القط، ركضَ خلف المنضدة والتقطَ سكيناً طويلاً بشعاً ولوَّحَ به في وجوهنا مُهدِّداً. وسقطنا فوق بعضنا نبغي الفرار. ولما وصلنا إلى المنعطف نظرنا خلفنا فشاهدناه واقفاً عند الباب مُمسِكاً بمكواة في

يده ويبدو في منتهى الهدوء والمُسالمة. بعد تلك الحادثة لم يجرؤ أحدٌ على الذهاب إلى المصبغة : صرنا ندفع للصغير لويس بيروسا نكلة كلّ أسبوع ليُحضر لنا الملابس المُنظَّفة كان والد لويس يملك دكاناً لبيع الفاكهة عند المنعطف، وكان يُعطينا موزة عفنة كعربون لمحبّته. وكان ستانلي بوجهٍ خاصّ مولعاً بالموز العفن، لأنَّ عمته تقليه له. كان الموز المقلي يُعتَبَر تَرَفاً في بيت ستانلي. وذات مرة، في عيد ميلاده، أُقيمتْ حفلة لستانلي ودُعيَ جميع الجيران. ومرَّ كل شيء بشكلٍ جميل إلى أنْ وصل الأمر إلى الموز المقلي. ولسببٍ ما لم يقرَبْ أحدُ الموز، بما أنَّ هذا الطبق لم يكن معروفاً إلا لدى بولنديين مثل والديّ ستانلي. فقد كان أكل الموز المقلي مُقزّزاً. وفي غمرة الارتباك اقترحَ أحد الصغار الأذكياء أنْ يُعطى الموز المقلي للمجنون ويلي مين. وكان ويلي مين أكبر منا جميعاً سناً لكنه لا يستطيع الكلام. ولا يقول إلا ***بجورك ! بجورك !*** يقولها لكل إنسان. وحين قُدِّمَ الموز المقلي إليه قال ***بجورك ! بجورك !*** وانقضَّ عليه بكلتا يديه. لكنَّ أخوه جورج كان موجوداً وشعرَ بالإهانة لأنهم قدّموا الموز العفن لأخيه المجنون. وأثارَ جورج شجاراً، ولما رأى ويلي أخاه يُضرَب هجم بدوره وهو يهتف ***بجورك ! بجورك !*** ولم يكتفِ بضرب الصبية بل والفتيات أيضاً، مما سبَّبَ هَرَجاً جحيمياً. وأخيراً، حين سمع والد ستانلي العجوز الضجيجَ جاء من دكان الحلاقة وهو يحمل مشحذ الأمواس. أمسكَ ويلي مين من مؤخر عنقه وراح يجلده. في تلك الأثناء تسلَّلَ أخوه جورج خارجاً لاستدعاء السيد مين الأب. وصلَ هذا الأخير بأكمامه القصيرة، وكان بدوره سكّيراً، ولما رأى الحلاّق السكّير يضرب ابنه ويلي، أخذ يُكيل له الضربات بقبضتيه الضخمتين بلا رحمة. ووقفَ

ويلي، الذي تحرَّرَ الآن، على يديه وركبتيه يلتهمُ الموز المقلي الساقط على الأرض. كان يبتلعه كالمعزاة، وبالسرعة نفسها التي يعثر بها عليه. ولما رآه العجوز جالساً يمضغُ كالمعزاة ثار غضبه والتقطَ المشحذ واندفعَ نحو زيلي يبغي الانتقام. وأخذ ويلي يعوي - ***بجورك ! بجورك !*** - وانفجر الجميع بالضحك، مما خفَّفَ من غضب السيد مين وهدّأه. وأخيراً جلسَ وأحضرَتْ عمّة ويلي له كأساً من الخمر. وجاء باقي الجيران على صوت القصف ووُزِّعَ المزيد من الخمر ثم البيرة ومن ثم الشنابس وعلى الفور دبَّ السرور في الجميع وراحوا يُغنّون ويصفِّرون وحتى الصبية سكروا ثم سكر ويلي المجنون وخرَّ من جديد على الأرض كالمعزاة وهو يزعق ***بجورك ! بجورك !*** وعضَّ ألفي بيتشا، الذي كان سكران جداً على الرغم من أنَّ عمره لم يتجاوز الثامنة، ويلي مين المجنون من ظهره ثم عضّه ويلي ثم أخذنا جميعاً يعضّ أحدنا الآخر ووقف الآباء جانباً يضحكون ويصرخون مرحاً وكان ذلك شيئاً مُفرحاً جداً جداً وأحضرَ المزيد من الموز المقلي وأكل الجميع منه هذه المرة ثم ألقيَتْ خُطَبٌ وشُربَتْ المزيد من الأنخاب وحاولَ مين المجنون أن يُغني لنا لكنه لم يستطع أنْ يغني أكثر من ***بجورك ! بجورك !*** كانت نجاحاً باهراً، أعني حفلة عيد الميلاد، ولمدة أسبوع أو أكثر لم يتحدَّث أحد إلا عن الحفلة وعن مدى طيبة عائلة ستانلي البولندية. والموز المقلي أيضاً نجح نجاحاً باهراً ومرّ وقت صار من الصعب جداً الحصول على أي موزة عفنة من والد لويس بيروسا العجوز لأنه كان مطلوباً جداً. ثم وقع حادث خيَّمَ بغيومه على المنطقة كلها - وهو اندحار جو غرهارت على يد جوي سيلفرستاين. وكان هذا الأخير هو ابن الخياط : صبي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يميل إلى

الهدوء ويبدو مجتهداً، وكان منبوذاً من بقية الصِبية الكبار لأنه يهودي. وفي يوم بينما كان يسلّم بنطلونين في منطقة فيلمور تحرَّشَ به جو غرهارت الذي كان في نفس عمره ويعتبر نفسه مخلوقاً متفوقاً. حدث تبادُل في الكلام ثم انتزع جو غرهارت الملابس من سيلفرستاين ورماها في المجرور. لم يكن أحد يتصوَّر أنَّ سيلفرستاين الصغير سيردّ على إهانة كهذه باللجوء إلى قبضتيه. وهكذا حين ضرب جو غرهارت وكسرَ فكّه بُهِتَ الجميع، وكان جو غرهارت أكثرهم ذهولاً. دام القتال عشرين دقيقة وفي النهاية انطرح جو غرهارت على الرصيف لا حِراك به. وعلى الأثر جمع الصبي سيلفرستاين الثياب وسار بهدوء وتباهٍ عائداً إلى دكان أبيه. لم يوجّه أحد إليه كلمة واحدة. واعتُبِرت القضية كارثة. فمن سمع أبداً بيهوديّ يضرب غير يهوديّ؟ كان شيئاً غير مفهوم، ومع ذلك حدث، أمام عيون الجميع. وليلة بعد أخرى صرنا نجلس كعادتنا على الحاجز الحجري، نناقشُ الوضع من كل جوانبه، ولكن دون التوصُّل إلى حلٍ حسن... إلى أنْ انشغلَ شقيق جو غرهارت الأصغر انشغالاً تاماً بالأمر وقرَّرَ أنْ يضعَ حدّاً للقضية بنفسه. وكان جوني، على الرغم من أنه أصغر وأضألُ من أخيه، عنيفاً لا يُقهَر كحيوان الكوغر. كان نموذجاً للأيرلندي الفقير الذي تمتلئ به المنطقة المجاورة. كانت فكرته عن تصفية الأمر مع سيلفرستاين الصغير تنتظر التنفيذ في إحدى الأمسيات بينما يكون هذا الأخير خارجاً من المخزن ويضربه. وقبل أن يأتي لكي يضربه في تلك الليلة كان قد تزوَّدَ بحجرَين صغيرين أخفاهما في يديه وحين نزلَ المسكين سيلفرستاين وثبَ عليه ومن ثم سحق صدغيّ سيلفرستاين المسكين بالحجرَين الصغيرين الأنيقين. وكم كانت دهشته عظيمة حين لم يُبدِ

سيلفرستاين أي مقاومة : حتى بعد أنْ نهضَ وأتاحَ له فرصةً لم يتزحزح سيلفرستاين من مكانه. وفزِعَ جوني وفرَّ هارباً. لابد أنه كان من فرط الفزع بحيث لم يعُد أبداً : وآخر ما سُمِعَ عنه أنه قُبِضَ عليه في مكانٍ ما من الويست وأرسلَ إلى الإصلاحية. كانت أمه القذرة، المومس الأيرلندية المرحة، وقد قالتْ إنَّ هذا أفاده تماماً وتمنَّتْ من الله ألاّ تقعَ عيناها عليه ثانية. وبعد أنْ شُفيَ الصبي سيلفرستاين لم يعُد كما كان أبداً : قال الناسُ إنَّ الضربَ أثَّرَ على دماغه، وأنه كان رقيقاً لا يحتمل. من ناحيةٍ أخرى سطعَ نجم جو غرهارت ثانية. ويبدو أنه ذهب لزيارة سيلفرستاين وهو لا يزال طريحَ الفراش وقدَّمَ له اعتذاراً عميقاً. وهذا أيضاً ما لم يكن أحد قد سمعَ بمثله من قبل. كان شيئاً فائق الغرابة، غير عاديّ بالمرّة، حتى إنه صار ينظر لجو غرهارت باعتباره فارساً مُغامِراً. لم يوافق أحد على تصرُّف جوني، ومع ذلك لم يفكِّر أحدٌ بزيارة سيلفرستاين والاعتذار له. كان هذا العمل من الرقّة والشهامة بمكان حتى اعتبر جو غرهارت جنتلماناً حقيقياً - أول وآخر جنتلمن في الحي كله. وكانت كلمة لا تستعمل بيننا من قبل والآن صارت على شفاه الجميع واعتبرَ من قبيل الامتياز أنْ يكون المرء جنتلمن. هذا التحوُّل المفاجئ لجو غرهارت المدحور إلى جنتلمن ترك كما أذكُر انطباعاً عميقاً لدي. بعد ذلك ببضع سنوات، حين انتقلتُ إلى حيّ آخر وقابلتُ كلود دو لورين، وهو فرنسي المولد، كنتُ مُهيّئاً لفهم وقبول " جنتلمن ". كان كلود دو لورين ولداً لم أرَ مثيلاً له قبل ذلك. ولو كنا في الحيّ القديم لاعتُبِرَ مُخنّثاً : فمن ناحية كان حَسَنَ الكلام، حَسَنَ التصرُّف، جمَّ الأدب، ومن ناحيةٍ أخرى كان كثير الحَذَر، شديد اللطف، وفي منتهى الشهامة. وثم، بينما نحن نلعب

معه، إذا به فجأةً يندفعُ متحدثاً بالفرنسية كلما رأى أباه أو أمه، مما سبَّبَ لنا ما يُشبه الصدمة. لقد سمعنا اللغة الألمانية والألمانية هي تجاوز مُباح، ولكن الفرنسية ! أما لماذا التحدُّث بالفرنسية، أو حتى فهمها، فكان شيئاً غريباً تماماً، أرستقراطياً تماماً، عفناً، يدل على الامتياز. ومع ذلك كان كلود واحد منا، جيداً مثلنا في كل شيء، بل وأفضل قليلاً، وهذا ما كنا نعترف به سراً. ولكن هناك لطخة - إنها لغته الفرنسية ! إنها عدوّنا. لم يكن له الحق في العيش في حيّنا، أو في أنْ يحوز على ما حاز من قُدرةٍ ورجولة. وغالباً، حين كانت أمه تناديه للدخول إلى المنزل ونقول له إلى اللقاء، نجتمع مع بعضنا ونناقش خلفيات ومقدمات عائلة لورين. كنا نتساءل مثلاً، ماذا يأكلون؟ فبما أنهم فرنسيون لابد أنَّ لديهم عادات مختلفة عن عاداتنا. لم يسبق لأي منا أنْ وطئ بيت كلود دو لورين - وهذه حقيقة أخرى مُريبة وبغيضة. لماذا؟ ماذا يخفون؟ ومع ذلك حين يمرّون بنا في الشارع كانوا دائماً ودودين، دائماً مُبتسمين، دائماً يتكلمون بالإنكليزية وكانت لغة إنكليزية ممتازة. كانوا يدفعوننا إلى الشعور بالخجل من أنفسنا - كانوا متفوقين، هذا هو المهم. وبقيَ هناك شيء مُحيِّر آخر - فمع الصِبية الآخرين السؤال المباشر يستجلب جواباً مباشراً، ولكن مع كلود دو لورين لم يكن هناك وجود لجواب مباشر. دائماً يبتسم ابتسامة ساحرة قبل الإجابة وكان رائعاً جداً، متماسكاً، يستخدم سخريةً وطريقةً في الاستهزاء لا نقدر عليها. كان شوكة في جنبنا، ذاك الكلود دو لورين، وحين انتقل في آخر الأمر من الحي تنفّسنا جميعنا ارتياحاً. أما أنا فلم أفكِّر في ذلك الفتى وسلوكه الأنيق الغريب إلاّ بعد ذلك بعشرة أو خمسة عشر عاماً. وحينئذٍ شعرت

بأني ارتكبتُ خطأً فاضحاً. فقد تذكّرت فجأةً ذات يوم أنَّ كلود دو لورين قد أتى إليّ في مناسبةٍ معيَّنة يبغي الفوز بصداقتي بلا شك وأني عاملتُه بصلَف. وحين فكَّرتُ في تلك الحادثة خطرَ لي فجأةً أنه لابد أنَّ كلود دو لورين قد رأى فيَّ شيئاً مختلفاً وكان يقصد أنْ يُشرِّفني بمدُّ يدَ الصداقة. ولكن في تلك الأيام كان عندي دستورٌ للشرف، وبحق، هو أنْ أجري مع القطيع. ولو صرتُ صديقاً حميماً لكلود دو لورين لاعتُبرتُ خائناً لباقي الصبية. ومهما كانت الفوائد الناجمة عن صداقة كتلك فلم تكن لتعود إليّ. كنتُ واحداً من المجموعة ومن واجبي البقاء بمنأى عن أمثال كلود. وتذكَّرتُ تلك الحادثة مرةً أخرى، يجب أنْ أعترف، بعد فترة أطول - بعد مرور بضعة أشهر على وجودي في فرنسا وقد بدأت كلمة "عاقل " raisonable تكتسب لديّ أهميةً جديدة تماماً. وفجأةً ذات يوم، وبينما كنتُ أصغي بلا انتباه، فكَّرتُ في اقتراحات كلود دو لورين في الشارع المقابل لبيته. تذكَّرتُ جيداً أنه استخدم كلمة عاقل. ربما كان قد طلبَ مني أنْ أكون عاقلاً. وهي كلمة لم تكن عندئذٍ قد مرّتْ على شفتيّ من قبل بما أنه لم يكن هناك حاجة لها في مفرداتي. كانت كلمة، ككلمة جنتلمن، نادراً ما يُنطَق بها وبكثير من التحفُّظ والاحتراس. كلمة جديرة بإضحاك الآخرين مني. وكان هناك الكثير من الكلمات مثيلاتها - كلمة "***حقاً***"، مثلاً. لم يستخدم أحد ممَّن أعرفهم كلمة " حقاً " - إلى أنْ جاء جاك لوسن. لقد استخدمها لأنَّ أبويه كانا إنكليزيين ورغم أننا ضحكنا منه، إلا أننا سامحناه. كلمة " حقاً " ذكَّرتني على الفور بالصغير كارل راغنر من حيّنا القديم. كان كارل راغنر الابن الوحيد لسياسي يقطن في الشارع الصغير المشهور في منطقة فيلمور. كان

يعيش قرب نهاية الشارع في بيتٍ صغير من القرميد دائم النظافة والجمال. أذكُرُ المنزل لأنني كنتُ أمرُّ به في الطريق إلى المدرسة وأبدي إعجابي بجمال مقابض الباب النحاسية وبطريقة تلميعها. والحقيقة هي أنه لم يكن أحد غيرهم لديه مقابض نحاسية على باب منزله. على أي حال، كان الصغير كارل راغنر أحد أولئك الصبية الذين لم يُسمَح لهم بمصاحبة باقي الأولاد. كان نادراً ما يُرى، بحق. ويوم الأحد هو اليوم الذي كان يقع فيه نظرنا عليه مع والده. ولو لم يكن أبوه شخصاً ذا سلطة في الحي لرُجِمَ كارل بالحجارة حتى الموت. كان لا يُطاق حقاً وهو في ملابس يوم الأحد. لم يكن فقط يرتدي سراويل داخلية طويلة وحذاءً من الجلد اللمّاع، بل ويتباهى بقبعته الدربي المستديرة وعصا الخيزران. في سن السادسة لابد للصبي الذي يسمح لنفسه بارتداء ملابس كتلك أنْ يكون أبله ساذجاً - كان ذلك نوعاً من الرأي الجماعي. بعضهم قال إنه مريض، وكأنه عذرٌ لارتداء مثل ملابسه الغريبة. والغريب هو أنني لم أسمعه يتكلّم مرةً في حياتي. كان كثير الأناقة، عظيم التهذيب، حتى إنه ربما كان يتصور أنه ليس من اللائق التحدُّث أمام الناس. على أي حال، في فترات صباح أيام الآحاد كنتُ أمكثُ في انتظار فقط أن أراه يمرّ مع أبيه العجوز. كنتُ أراقبه بالفضول الشرِه نفسه الذي أراقبُ به رجل المطافئ وهو ينظّف المحرّكات في دار الإطفائية. أحياناً وهو في الطريق إلى بيته كان يحملُ صندوقاً صغيراً من البوظة، أصغر حجم موجود، وبالقدر الذي يكفيه، كمُرطّب بعد الطعام dessert وهذه كلمة أخرى ألفناها بصورةٍ ما واستخدمناها بازدراء عند الإشارة إلى أشباه كارل راغنر الصغير وعائلته. كان في وسعنا قضاء ساعات طوال نتساءل ماذا

يأكل هؤلاء الناس بعد الطعام، كانت متعتنا تتألف بصورةٍ رئيسية من تقاذُف هذه الكلمة المُكتَشَفة حديثاً، والتي ربما هُرِّبَتْ من آل راغنر. ولابد أيضاً أنه في حوالي ذلك الوقت اشتهرَ سانتوس دومون. وقد وجدنا في اسم سانتوس دومون شيئاً خيالياً غريباً. لم نكن نهتم كثيراً بمآثره - فقط بالاسم. كان يبدو لغالبيتنا أنه يُذكِّر بأحد أنواع السُكَّر، أو بالمُزارع الكوبيّة، أو عَلَم كوبا الغريب الشكل الذي له نجمة في زاويته والذي يُبجّله الذين يحتفظون بالبطاقات المصوَّرة التي تُعطى مع سجائر كابورال المُحلاّة وعليها إما صور أعلام مختلف الدول أو صورة ممثلة مسرح مِغناج معروفة أو صور ملاكمين محترفين مشهورين. كان سانتوس دومون، إذن، أجنبياً بشكلٍ مُبهِج، كتمييزٍ مُضادٍ للشخص أو الشيء الأجنبي العادي، مثل المِصبغة الصينية، أو عائلة كلود دو لورين الفرنسية المتعجرفة. كانت كلمة سانتوس دومون كلمة سحرية توحي بشاربٍ غزيرٍ جميل، وقبعة سومبريرو، ومهمازين، بشيءٍ خياليّ غريب، كيِّس، فكاهي، دونكيخوتي. أحياناً تُذكِّرُ بعبق حبوب القهوة، وحصر القش، أو، ربما لأنها شيء غريب تماماً ودونكيخوتي، قد تستلزم استطراداً حول حياة قبائل الهوتنتوت. فقد كان بيننا صِبية كِبار بدؤوا يمارسون القراءة ويُسلوننا خلال ساعة من الزمن بقصصٍ خيالية يلتقطونها من كُتُبٍ مِثل كِتاب عيشة Ayesha أو كتاب أويدا " **تحت علَمين** ". إنَّ النكهة الحقيقية للمعرفة مقرونة في ذهني وبوضوح أكثر بقطعة الأرض المهجورة الكائنة عند المنعطف في الحي الجديد الذي نُقلتُ إليه وأنا في العاشرة من عمري. هنا، حين تحلُّ أيام الخريف ونتحلّقُ حول النار التي نضرمها نشوي طيور السقسق والبطاطا النيئة علباً صغيرة

نحملها معنا، هنا نشأ نموذج جديد من المناقشة يختلفُ عن المناقشات القديمة التي عهدتها في أنَّ مصادرها هي دائماً كُتبيّة. يكون أحدهم قد قرأ لتوّه كتاب مغامرات، أو كتاباً في العلوم، وعلى الفور تنبثقُ الحياة من الشارع كله بدخول ذلك الموضوع المجهول إليه. وقد يحدث أنْ يكتشف أحدهم شيئاً يُدعى التيار الياباني فيحاولُ أنْ يشرح كيف وُجِدَ التيار الياباني وما الهدف منه. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تعلّمنا بها الأشياء - ونحن مُستندون إلى السور - كما كنا نفعل، ونحن نشوي طيور السقسق والبطاطا النيئة. هذه النُتف من المعرفة كانت تغوصُ عميقاً - عميقاً جداً، في الحقيقة، إلى حد أننا حين كنا نواجه نوعاً أدقّ من المعرفة فغالباً ما كان يصعب علينا طرح المعرفة الأقدم عهداً. بتلك الطريقة شرحَ لنا أحد الصِبية الكِبار يوماً أنَّ المصريين قد عرفوا الدورة الدموية، وبدا لنا هذا الأمر طبيعياً جداً إلى درجة أنه باتَ من الصعب علينا لاحقاً أنْ نبتلع قصة اكتشاف الدورة الدموية على يد إنكليزيّ اسمه هارفي. ولم يعد يبدو غريباً الآن أنه في تلك الأيام كانت معظم أحاديثنا تدور حول أماكن نائية، مثل الصين، والبيرو، ومصر، وأفريقيا، وأيسلندا، وغرينلندا. تحدثنا عن الأشباح، عن الله، عن تناسُخ الأرواح، عن الجحيم، عن علم الفلك، عن الطيور والأسماك الغريبة، عن تكوُّن الأحجار الكريمة، عن مزارع المطاط، عن أساليب التعذيب، عن شعوب الأزتك والأنكا، عن حياة البحر، عن البراكين والزلازل، عن طقوس دفن الموتى ومراسم العرس في أجزاء مختلفة من العالم، عن اللغات، عن أصل هنود أميركا، عن الجواميس النافقة، عن الأمراض الغامضة، عن أكل لحم البشر، عن قوة السحر، عن الرحلات إلى القمر وطبيعة المكان

هناك، عن القَتَلَة وقطّاع الطُرُق، عن المعجزات في الكتاب المقدّس، عن صناعة الخزف، عن ألف موضوع وموضوع لم يكن ليُذكَر في البيت أو في المدرسة وكان حيوياً لنا لأننا كنا نتضوَّر جوعاً والعالم مملوء بالعجائب والغرائب ولم نكن نتكلَّم بجدّية ونشعر بحاجة إلى الاتصال إلا حين نقفُ ونحن نرتجف في الأرض الجرداء، وكان هذا في آنٍ واحد ممتعاً ومُرعِباً.

عجائب الحياة وغرائبها - هي التي كانت تخنقنا ونحن نصبحُ أعضاء مسؤولين في المجتمع! حتى الوقت الذي دفع بنا فيه للعمل كان العالم صغيراً جداً وكنا نعيشُ على هامشه، على جبهة المجهول. كان عالماً إغريقياً صغيراً، ومع ذلك، كان من العمق بحيث يزوّدنا بكل أشكال التغيُّر، كل أنماط المغامرة والتأمُّل. ومع ذلك لم يكن صغيراً جداً، بما أنه كان يحتفظ داخله بأكثر الطاقات لا محدودية. لم أربح شيئاً من اتّساع عالمي: على العكس، خسرت. أودُّ أنْ أصبح طفولياً أكثر فأكثر وأنْ أتجاوز الطفولة إلى الاتجاه المعاكس. أودّ أنْ أذهب في الاتجاه المعاكس مباشرة للخط العادي للتطوُّر، أنْ أخطو إلى عالم فوق-طفولي سيكون جنونياً مُطبِقاً وعمائياً، لكنه ليس بنفس جنون وعماء العالم الذي يحوطني. طالما كنتُ بالغاً وأباً وعضواً مسؤولاً في المجتمع. وكسبتُ خبز يومي. وطابقتُ نفسي مع العالم الذي لم يكن مرةً عالمي. أودّ أنْ أنطلق من هذا العالم المتعاظم لأقف ثانية على عتبة عالمٍ مجهول سيرمى هذا العالم الشاحب ذا البُعد الواحد إلى الظل. أودُّ أنْ أتجاوز مسؤولية الأبوَّة إلى لا مسؤولية الإنسان الفوضوي الذي لا يمكن قسره على شيءٍ ولا نيله بالتملُّق ولا بمداهنته ولا برشوته ولا بقدحه. أودُّ أنْ

أتّخذ من أوبيرون[1] Oberon مُرشِداً لي وهو الذي يطوي تحت امتداد جناحيه الأسودَين، جمالَ الماضي ورعبه : أودّ أنْ أفرَّ هارباً صوب فجرٍ دائمٍ بسرعةٍ وقسوةٍ لا يتركان حيّزاً للندامة، للحسرة أو التوبة. أودُّ أنْ أبزَّ الإنسان الخلاّق الذي هو لعنةٌ على الأرض كي أقفَ من جديد على شفير هوّةٍ لا يمكنُ تجاوزها ولن تقوى أقدرُ الأجنحة على نقلي عبرها. حتى لو أضحيتُ حديقةً بريّة طبيعية لا يؤمها غير الحالمين الكسالى، فلن أكفَّ عن الاستراحة هنا في الحماقة المُنظَّمة لحياةٍ راشدةٍ مسؤولة. يجب أنْ أفعلَ هذا كذكرى لحياةِ طفلٍ خُنِقَ وكُبِتَ بإجماعِ الذين استسلموا. أتبرّأ من كل ما ابتكره الآباء والأمهات. أنا عائدٌ إلى عالمٍ أصغر حتى من العالم الهلّيني القديم، عائدٌ إلى عالمٍ أستطيعُ فيه أنْ ألمسَ بذراعَين ممدودتين، عالمٍ مكوَّنٍ مما أعرفُ وأرى وأدركُ من لحظةٍ إلى لحظة. كل عالم آخر لا معنى له بالنسبة إليّ، وغريب وعدائيّ. حين سأتجاوز العالم البرّاق الأول الذي عرفته طفلاً من جديد لا أريدُ أنْ أبقى هناك بل سأشقُّ طريق العودة إلى عالمٍ أشدُّ بريقاً من الذي هربتُ منه. أما ماذا يشبه هذا العالم فلا علمَ لي، ولستُ حتى متأكّداً من أني سأعثر عليه، لكنّه عالمي ولا شيء دونه يأسرني.

جاءني الإلهام الأول، الإدراك الأول، للعالم الجديد البرّاق أثناء تعرُّفي على روي هاملتن. كنت في الحادية والعشرين من عمري، ربما كانت أسوأ سنة في حياتي كلها. كنتُ في حالةٍ من اليأس التام، بحيث قررتُ أنْ أترك البيت ولم أفكّر وأتحدَّث إلا عن كاليفورنيا حيث خطّطتُ للذهاب لأبدأ حياة جديدة. حلمتُ بعنف عظيم بهذه الأرض الجديدة الموعودة حتى إني، بعد عودتي من كاليفورنيا، نادراً ما تذكّرتُ بعد ذلك

---

[1] – هو ملك الجنيات وزوج تيتيانا في مسرحية شكسبير "حلم ليلة الصيف .

الكاليفورنيا التي رأيت. لم أكنْ أفكّر وأتكلّم إلا عن الكاليفورنيا التي عرفتُها في أحلامي. وقابلتُ هاملتن قبيل رحيلي. كان نصف أخٍ مشكوك فيه لصديقي القديم ماكغريغور : كانا قد تعارفا حديثاً حين اجتاح روي، الذي عاش معظم حياته في كاليفورنيا، إحساس غامض مُلِحّ بأنَّ أباه الحقيقي هو السيد هاملتن وليس السيد ماكغريغور. في الحقيقة إنَّ قدومه إلى الشرق كان لكي يحلّ اللغز الذي يسربل أصله. ولم يُقرّبه العيش مع عائلة ماكغريغور من حل اللغز. الواقع أنه بدا أكثر حيرة من ذي قبل بعد تعرّفه بالرجل الذي انتهى إلى أنه والده الشرعي. كان محتاراً، كما اعترف لي بعد ذلك، لأنه لم يعثر على أي رجل يُشاركه في أي شبه. ربما كانت هذه المشكلة المُنهكة بشأن تقرير مَنْ سيتّخذه أباً له، هي التي أثارت التطوُّر في شخصيته. أقول هذا لأني بعد أنْ تعرّفتُ عليه مباشرة، شعرت أني في حضرة مخلوق لم أعرف له مثيلاً من قبل. فقد حضّرتُ نفسي، من خلال وصف ماكغريغور له، لأقابل شخصاً "غريباً" نوعاً ما، وكلمة "غريب" بالنسبة إلى ماكغريغور تعني مجنون قليلاً. لقد كان غريباً حقاً، لكنه عاقل بشكلٍ فذّ حتى إني شعرتُ بالإثارة. كنتُ أتحدَّثُ وللمرة الأولى إلى رجل يتجاوز معاني الكلمات ويتجه مباشرة إلى جوهر الأمور. شعرتُ أني أتحدَّث إلى فيلسوف، ليس فيلسوفاً كالذي قابلته من خلال الكتب، بل رجلاً يفلسف الأمور بلا هوادة – ***ويعيش الفلسفة التي يؤيدها***. بعبارة أخرى، لم تكن لديه أي نظرية أخرى، عدا النفاذ إلى قلب الأشياء، وعلى ضوء كل كشف يعيش حياته إلى أبعد مدى حتى لا يعود يوجد إلا أقلّ قدر من التنافُر بين الحقائق التي تكشّفت له وتمثّلها عملياً. وطبعاً كان

تصرّفه غريباً بالنسبة إلى مَنْ حوله. على أي حال، لم يكن غريباً بالنسبة إلى مَنْ عرفوه على الشاطئ حيث، كما قال، يكون في مُحيطه الملائم. ومن الجليّ أنه كان يعتبر هناك شيئاً متفوقاً ويُصغي إليه باحترامٍ فائق، بل وبروع.

أتيتُ إليه وسط صراع لم أقدّره حق قدرِه إلا بعدها بسنين تلت. في ذلك الوقت لم أكن أرى الأهمية التي كان يوليها للعثور على والده الحقيقي : في الحقيقة، كنتُ أمزح معه حول هذا الموضوع، لأنَّ دور الأب لم يكن يعني لي إلا القليل، أو حتى دور الأم. رأيتُ في روي هاملتن صِراعاً ساخراً لرجلٍ تحرَّرَ لتوه ولا يزال يسعى إلى إقامة صلة حيوية متينة لا حاجة إليه بها على الإطلاق. هذا الصراع من أجل الأبَ الحقيقي جعله، وبتناقضٍ ظاهري، أباً فوق عادي. كان أستاذاً ومِقالاً يُقتدى : ولم يكن عليه غير أنْ يفتح فمه لي لأدرك أني أصغي إلى حِكمة تختلف تماماً عن كل ما كنتُ أربطه حتى ذلك الحين بتلك الكلمة. كان من السهل نبذه باعتباره صوفياً، فقد كان صوفياً حتماً، لكنه الصوفي الأول الذي قابلته ويعرف كيف يحتفظ بقدميه على الأرض. كان صوفياً عرفَ كيف يبتكر أشياء عملية، من بينها مثقاب ذو ضرورة قصوى لصناعة البترول جمع منه ثروة. وبسبب حديثه الميتافيزيقي الغريب، لم يلتفت أحد عندئذٍ لاختراعه العملي جداً. فقد اعتُبِرَ فكرة أخرى من أفكاره المجنونة.

دائماً يتحدث عن نفسه وعلاقته بالعالم من حوله، وهي خاصّية خلَّفَتْ انطباعاً مشؤوماً بأنه ببساطة أنانيّ مُتبجِّح. بل لقد قيل، وكان صحيحاً في نطاق القول، إنه بدا أكثر اهتماماً بحقيقة أبوَّة السيد

ماكغريغور من السيد ماكغريغور الأب. والمعنى المفهوم كان أنه لا يكنّ حباً حقيقياً لأبيه المكتشف حديثاً بل هو ببساطة يستمدّ متعةً من الاكتشاف، وأنه كان يستغلّ هذا الاكتشاف بطريقته المعتادة المُعظِّمة للذات. وطبعاً، كان هذا صحيحاً بعمق أنَّ السيد ماكغريغور الحقيقي كان أقلّ قيمة بما لا يُقاس من السيد ماكغريغور بوصفه رمزاً للأب المفقود. لكنَّ عائلة ماكغريغور لم تكن تعلم شيئاً عن الرموز ولم تكن لتفهم حتى ولو شرح لها الأمر. كانوا يبذلون جهداً متناقضاً ليضمّوا على الفور الابن الضائع منذ زمن بعيد وفي الوقت نفسه يُنزِلونه إلى مستوى مفهوم يستطيعون عنده أنْ يتمكنوا منه ليس كـ " غائب منذ زمن " بل فقط كابن. في حين أنه كان واضحاً لكل ذي قدر ضئيل من الذكاء أنَّ ابنه لم يكن ابناً على الإطلاق بل نوعاً من الأب الروحي، أو أكاد أقول، نوعاً من المسيح يبذل أكبر الجهود بسالة كي يقبل بكل ما كان قد تحرَّر منه لتوّه قبولاً تاماً.

لذا دُهِشتُ وشبعت كبريائي لأنَّ هذا الشخص الغريب الذي نظرت إليه بأحرّ الإعجاب اختارني صديقاً له يؤتَمَنْ. كنتُ بالمقارنة معه دودة كتب، ذكياً، ودنيوياً بطريقةٍ خاطئة. لكنني وبلا تردُّد تقريباً، طرحتُ هذا الجانب من طبيعتي وسمحتُ لنفسي أنْ أنعَمْ بالنور الدافئ الفوري الذي ليس غير حدس طبيعي عميق بالأشياء المُبتَكَرة. منحني الدخول في حضوره شعوراً بأني عارٍ، بل ومسلوخ الجلد، لأنَّ ما كان يطلبه مِمَن يُحدّثه أكثر بكثير من مجرَّد العُري. وحين يتحدَّث معي يُخاطب أناي التي لم أشك في وجودها إلا لماماً، أضرب مَثَلاً، الأنا التي برزت فجأةً حين عَلِمتُ، وأنا أقرأ كتاباً، إني أحلم. قليلة هي الكتب التي كان لها

هذه الميزة في وضعي في حالة نشوة، هذه النشوة ذات النقاء التامّ التي يقومُ فيها المرء، دون أنْ يعي ما يفعل، بإصدار أعمق القرارات. كان حديث روي هاملت يشترك في هذه الخاصّية. لقد جعلني يقظاً أكثر من ذي قبل، يقظاً بشكلٍ خارق، دون أنْ يُقوِّض، في الوقت نفسه، نسيج الحلم. بكلمة أخرى، كان يروق لجرثومة الذات، للوجود الذي يفوق في نموه في نهاية المطاف الشخصية العارية، الشخصية الفردية المصطنعة، ويتركني وحيداً حقاً ومعزولاً لأنجز قَدَري الخاص المُميَّز.

كان حديثنا لغة سرّية ينام الآخرون أثناءه كالأشباح. وبالنسبة لصديقي ماكغريغور كان شيئاً مُحيّراً ومُربكاً : لقد عرفني بألفةٍ أكثر من أيٍ من الأصدقاء الآخرين لكنه لم يجد بي أبداً أي شيء يُماثل الشخصية التي خلعتُها عليه. تحدَّثَ عن روي هاملتن بوصفه ذا تأثير سيئ، وهذا بدوره صحيح بعمق بما أنَّ ذلك اللقاء غير المتوقَّع مع أخيه غير الشقيق كان يعملُ أكثر من أي شيء آخر على تنفيرنا. لقد فتح هاملتن عينيّ ومنحني قيَماً جديدة، وعلى الرغم من أني لاحقاً خسرتُ الرؤيا التي سلّمني، مع ذلك لم أعُد أتمكَّن من رؤية العالم ثانية، أو أصدقائي كما كنت أراهم قبل مجيئه. لقد غيَّرني هاملتن بعمق، كما لا يُغيِّر المرء إلا كتابٌ نادر، شخصية نادرة، تجربة نادرة. فهمتُ للمرة الأولى في حياتي معني ممارسة الصداقة الحيّة دون الشعور بالعبودية أو الالتزام المُرافق للتجربة. لم أشعر أبداً بعد فراقنا بالحاجة لحضوره الفعلي: فقد وَهَبَ نفسه كلها وتملّكْتُهُ دون أنْ يتملّكني. كانت أول تجربة صداقة نظيفة تامة، ولم تكن لتتكرَّر مع أي صديق آخر؟ كان هاملتن هو الصداقة مُجسّدة، فضلاً عن كونه صديقاً. كان الرمز مُجسّداً وبالتالي

مُرضِياً تماماً ولهذا لم يعُد ضرورياً لي. وهو نفسه فهِمَ هذا فهماً تاماً. ربما كانت حقيقة فقدانه للأب هي التي حثّته على المُضيّ صوب اكتشاف الذات، وهي المرحلة الأخيرة من التطابُق مع العالم وبالتالي إدراك عدم جدوى الروابط. ومن المؤكّد أنه بينما كان يقفُ مملوءاً بكامل وعيه لذاته، لم يحتج إلى أي إنسان، وعلى الأخصّ لأبٍ من لحمٍ ودم فتّشَ عنه عَبَثاً في السيد ماكغريغور، ولابد أنَّ مجيئه إلى الشرق وبحثه عن أبيه الحقيقي كان بالنسبة إليه عملاً موجوداً في طبيعة الاختيار الأخير، لأنه حين قال إلى اللقاء، حين تبرّأ من السيد ماكغريغور والسيدة هاملتن أيضاً، كان أشبه برجل تطهّر من كل قذارة. لم أرَ في حياتي رجلاً متفرّداً إلى ذلك الحدّ، ووحيداً وِحدة مُطلَقَة وحيّاً وواثقاً من المستقبل كما بدا روي هاملتن حين قال إلى اللقاء. لم أرَ في حياتي مثيلاً للفوضى وسوء الفهم اللذين خلّفهما لدى عائلة السيد ماكغريغور. وكأنه قد مات وسطهم، وبُعِثَ من جديد، وغادرهم كفردٍ جديد تماماً، ومجهول. أستطيع رؤيتهم الآن واقفين في ممر البناء، أيديهم فارغة بشكلٍ أبله، يائس، يبكون ولا يعرفون لماذا، إلا إذا كان السبب حرمانهم من شيء لم يملكوه أبداً. أحبّ أنْ أفكّر في الأمر على هذا الشكل بالضبط. كانوا مرتبكين محرومين وواعين بغموض، غموض شديد، أنّه قد أُتيحَتْ لهم فرصة عظيمة لم يملكوا القوة أو الخيال لاستغلالها. وهذا بالضبط ما أوحتْ إليّ به الأيدي البلهاء، وتلويحها الأجوف : كانت إيماءة في مشاهدتها من الألم ما يفوق كل تصوّري. منحني الشعور بعدم كفاية العالم الرهيبة حين يوضع وجهاً لوجه مع الحقيقة. منحني الشعور بغباء رباط الدم والحب الذي لم يتشرّب روحياً.

أنظرُ خلفي بسرعة وأرى نفسي في كاليفورنيا ثانية. أنا وحيد وأعمل كالعبد في حقول البرتقال في تشولا فيستا. هل أتقدَّم نحو الاستقلال؟ لا أظن ذلك. أنا إنسان بائس جداً، ومهجور وبائس. يبدو أني فقدتُ كل شيء. والحقيقة هي أني بالكاد أكون إنساناً - أنا أكثر قُرباً إلى الحيوان. أقف طوال النهار أو أمشي خلف الحِمارَين المربوطَين إلى مزلجتي. لا أفكار لديّ، لا أحلام، لا رغبات. إنني في تمام صحتي وخوائي. أنا نكرة. مفعم بالحياة والصحة حتى لأكاد أشبه الفاكهة الذكية الرائحة المُضلَّلة المُدلاّة من أشجار كاليفورنيا. يكفي شعاع آخر من الشمس وأتعفَّن. "Pourri avant d'etre muri !" (أتعفَّن قبل النضج !)

أحقاً هذا أنا الذي يتعفَّن في شمس كاليفورنيا الساطعة؟ ألم يبقَ شيء مني، من كل ما كنت عليه حتى هذه اللحظة؟ دعني أفكِّر قليلاً... كانت هناك أريزونا. أذكُر الآن أنه كان الوقت ليلاً حين وضعتُ أول قَدم على تراب أريزونا. لا يوجد إلاّ ما يكفي من الضوء لأقبض على آخر لمحة من الهضبة المختفية. أمشي في الشارع الرئيسي لمدينة صغيرة مفقودة الاسم. ماذا أفعل في هذا الشارع، في هذه المدينة؟ ولِمَ العَجَب، إنني عاشق لأريزونا، أريزونا العقل التي بحثتُ عنها بعينيّ السليمتين. في القطار كانت لا تزال الأريزونا التي جلبتُها من نيويورك ترافقني - حتى بعد أنْ تخطينا حدود الولاية. ألم يكن هناك جسر فوق وادٍ ضيِّق أذهلني وأبعدني عن أحلام يقظتي؟ جسر لم أرِ له مثيلاً من قبل، جسر طبيعي ابتكره انفجار مفاجئ عنيف قبل آلاف من السنين؟ وفوق هذا الجسر رأيتُ رجلاً يعبر، رجلاً كأنه هندي، يمتطي حصاناً وثمة حقيبة خرِج مُدلاّة من جانب الرِكاب. جسر ألفي طبيعي بدا في الشمس الغاربة

والهـواء النقي جداً كـأنه أصغـر وأحدث جسـر يمكن تـصوّره. فـوق ذلك الجسـر القـويّ جداً، الثـابت جـداً، مـرَّ وليـتـبارك اسم الرب، فـقط رجلٌ وحصان، ولا شيء غيرهما. هذه هي أريزونا، أريزونا ليست من اختلاق الخيـال بل هي الخيال نفسه متجسّداً على صورة حصان وراكب. كان هذا حتى أكثر من الخيـال نفسـه لأنه لا توجد هالة من الغمـوض بل الشيء نفسه الذي كـان حلماً قد عُزِلَ عزلة مُطلَقة وحادّة والحالم نفسـه جالس على صهوة جواد. ولما توقف القطار وضعتُ قَدَمي على الأرض فتركت حفرة عميقة في الحلم. أنا في مدينة أريزونا المسجّلة في القائمة وأريزونا الجغرافيا هي وحدها التي يمكن لأي إنسان أنْ يزودها ما دام يملك نقوداً. أمشي في الشـارع الرئيـسي مع حقـيبـة وأرى شطائر السـجق ومكاتب العقارات. أشعر بأني مخدوع خِداعاً رهيباً وأبكي. الآن حلَّ الظلام وأنا واقف عند نهاية أحد الشوارع، حيث تبدأ الصحراء، أبكي كأبله. عن أي أنا يُعبِّر هذا البكاء؟ إنها تلك الأنا الجديدة الصغيرة التي كانت قد بدأتْ تنمو هناك في بروكلن وهي الآن وسط صحراء شاسعة وحُكِمَ عليها بالفناء. الآن، يا ***روي هاملتن، أنا بحاجة إليك!*** بحاجة إليك للحظة واحدة، لحظة صغيـرة فقط، وأنا أنهارُ وأتفتَّت، بحاجة إليك لأنني لم أكن مستعداً تماماً لأفعل ما فعلت. ألا أذكُرُ حين قلتَ لي إنه لا داعي للقيام بالرحلة، إلا إذا كانت ضرورية؟ لماذا لم تُقنعني بعدم الذهاب؟ آه، لم يكن الإقناع طريقته، ولا طلب النصيحة طريقتي. وهاأنذا، حُطام في الصحراء، والجسر الذي كان حقيقة صار خلفي وما ليس حقيقياً أمامي والمسيح وحده يعلم كم أنا مرتبك ومحتار ولو أني أستطيع الغوص في الأرض والاختفاء لَما تردَّدت.

أنظرُ خلفي بسرعة وأرى رجلاً آخر تُرِكَ ليفنى بهدوء في أحضان عائلته - ***إنه أبي***. وسأفهم بشكلٍ أفضل ما حدث له لو أعود بعيداً جداً، جداً وأفكّر في شوارع مثل موجر، كونسيليا وهمبولت... وخاصة همبولت. كانت تلك الشوارع تابعة لحيّ لم يكن يبعُد كثيراً عن حيّنا لكنه كان مختلفاً، أكثر فتنة، أكثر غموضاً. ذهبت إلى شارع همبولت مرة واحدة في طفولتي ولم أعُدْ أذكُر سبب تلك النزهة إلا إذا كانت لزيارة أحد الأقارب المرضى الذين يزدادون وَهَناً في مستشفى ألماني. لكنَّ الشارع نفسه هو الذي ترك بي أبلغ الأثر وأطوله : لماذا؟ ليست لدي أدنى فكرة ! لقد بقيَ في ذاكرتي كأكثر الشوارع غموضاً وازدهاراً. ربما حين كنا نستعد للذهاب وعدت أمي، كالمعتاد، بشيءٍ رائع كجائزة لمن يُرافقها. كنتُ دائماً أوعَد بأشياء لا تتحقَّق أبداً. حينئذٍ، حين وصلت إلى شارع همبولت ونظرتُ إلى ذلك العالم الجديد تملؤني الدهشة، قد أكون نسيتُ تماماً ما وُعدتُ به وصار الشارع نفسه هو الجائزة. أذكُرُ أنه كان واسعاً جداً وعند مداخل الأبنية على جانبَيّ الشارع أروقة عالية، من النوع الذي لم أكن قد رأيت مثيلاً له من قبل. أذكُرُ أيضاً أنه في محل أحد الخياطين في الطابق الأول من أحد تلك المنازل الغربية وُضِعَ تمثال نصفي في النافذة وقد تدلّى من عنقه مقياس شريطي وأعرفُ أني تأثّرتُ كثيراً بهذا المشهد. والثلج يغطي الأرض لكنَّ الشمس تبقى ساطعة وقوية وأذكُر بوضوح كيف أنه كان يوجد حول براميل الرماد المتجمدة في الثلوج بحيرة صغيرة من الماء خلّفها الثلج الذائب. ويبدو وكأنَّ الشارع كله يذوب في شمس الشتاء المتوهجة. وتستقر على درابزين الأروقة العالية أكوام من الثلج تشكّل وسائد بيضاء جميلة لا تلبث أنْ تنزلق،

تتفكك، تاركة بقعاً داكنة من الحجر البني كان دارجاً جداً في تلك الفترة. واللوحات الزجاجية الصغيرة التي تدل إلى أطباء أسنان وصيادلة، مدسوسة بعيداً في زوايا النوافذ، تومضُ برّاقة في شمس الظهيرة تُشعِرني بأنَّ تلك المكاتب لم تكن غُرَف التعذيب التي ظننتُها. وتخيَّلتُ، بطريقتي الطفولية، أنَّ الناس في ذلك الحي، في ذلك الشارع بالذات، أكثر وداً، وعَظَمَة، وطبعاً أغنى بكثير دون أدنى شك. لابد أني شعرتُ بتفاؤلٍ عظيم على الرغم من صِغر سني، فقد كانت تلك المرة الأولى التي أنقِّلُ فيها نظري في شارعٍ بدا خالياً من الرعب. كان من الشوارع الفسيحة، المُرفّهة، البرّاقة، الذائبة، والذي قرنتُه لاحقاً، حين بدأتُ بقراءة دوستويفسكي، بذوبان ثلوج سان بيترسبورغ. حتى الكنائس هناك كانت ذات نمط خاص في فن العمارة، فيها شيء شبه شرقي، شيء من الرِفعة والدفء معاً، مما أفزعني وأسرني في آن. في ذلك الشارع العريض، الفسيح وجدتُ أنَّ المنازل كانت تبتعد بمسافة لا بأس بها عن الرصيف، تتكئ باسترخاء وجلال، لا يشوّهها إقحام المخازن والمصانع وإسطبلات الطب البيطري. رأيتُ شارعاً لا يتكوَّن إلا من مساكن وامتلأتُ روعةً وإعجاباً. أذكرُ أني رأيتُ ذلك كله وأثَّرَ بي تأثيراً عظيماً، ولا يكفي أي شيء ليمنحني تلك القوة الغريبة والسحر اللذين لا يزال مجرَّد ذِكر شارع همبولت يُثيرهما بي. بعد ذلك ببضع سنوات عدتُ ليلاً لألقي نظرة ثانية على الشارع، وكنتُ أكثر انفعالاً من مشاهدتي له في المرة الأولى. لقد تغيَّرَ طبعاً مظهر الشارع، لكنَّ الوقت كان ليلاً والليل دائماً أقلّ قسوة من النهار. ومن جديد مررتُ بتجربة البهجة الغريبة التي بثَّتها رحابة الرفاهية وقد ذَوَتْ الآن قليلاً لكنَّ

أريجها باقٍ، لا تزال مؤكّدة بشكلٍ مُجزاً كما أكّدت درابزينات الأحجار البنيّة على نفسها ذات مرة من خلال الثلج الذائب. أما أوضح شيء فكان الإحساس شبه الممتع بكوني على شفا اكتشاف ما. من جديد وعَيتُ وبقوة حضور أمي، وأكمام معطفها الفرو الفضفاضة، والسرعة الفظّة التي حثّتني بها في الشارع قبل سنوات والتماسُك العنيد الذي متّعتُ بمعيَّته عيني بكل ما كان جديداً وغريباً. وبمناسبة تلك الزيارة الثانية بدا أني تذكَّرتُ بغموض شخصيةً أخرى من فترة طفولتي. إنها مُدبّرة المنزل العجوز التي كانوا يُطلقون عليها ذلك الاسم الغريب: السيدة كيكينغ. لم أذكُر أنها مرِضَتْ يوماً لكنني تذكَّرتُ أننا كنا نزورها في المستشفى وهي تحتضر وأنَّ تلك المستشفى كانت قريبة من شارع همبولت الذي لم يكن يموت بل يشعّ وسط الثلج الذائب لظهيرة شتائية. فما هو إذن الشيء الذي وَعَدَتني به أمي ولم أعُد أذكره منذ ذلك الحين؟ لعلها وَعَدَتني حين كانت قادرة على أنْ تعِد بأي شيء، في ذلك اليوم، وفي نوبة ذهول، بشيء مُحال تماماً حتى إني بكل ما اتّصفتُ به من سذاجة الطفولة لم أتمكّن من ابتلاعه. ومع ذلك، فلو أنها وَعَدَتني بالقمر، على الرغم من علمي أنه أمر مستحيل، لجاهدتُ لتزيين وعدها بفُتاتٍ من الإيمان. لقد أردتُ وبيأس كل ما وُعِدتُ به، وإذا ما أدركتُ، بعد تأملٍ، أنه شيء مستحيل بدون أدنى شك، لحاولتُ، مع ذلك، بطريقتي الخاصة أنْ أتلمَّس باحثاً عن طريقة لجعل تلك الأحلام ممكنة التحقيق. أنْ يكون في وسع الناس تقديم وعود دون أنْ تكون لديهم أي نية في برّها، ذلك شيءٌ لا يمكنني تصوُّره. حتى حين كنتُ أُخدَع بأشد

الأساليب قسوة بقيتُ مؤمناً؛ لقد وجدتُ أنَّ ثمة شيئاً غير عادي يكمنُ خلف طاقة الشخص الآخر يتدخَّل ليجعل من الوعد عَدَماً وهباءً.

مسألة الإيمان تلك، وذلك الوعد القديم الذي يبرُّ به، جعلني أفكِّر في أبي الذي هُجِرَ وهو في أمسّ الحاجة. وحتى أثناء مَرَضه لم يُبدِ أبي ولا أمي أي ميول دينية. وعلى الرغم من نصحهم الدائم للناس بالذهاب إلى الكنيسة، إلاّ أنهما لم يضعا قَدَماً في كنيسة منذ أنْ تزوجا. كانا ينظران إلى الذين يرتادون الكنيسة بانتظام تامّ على أنهم معتوهين نوعاً ما. والطريقة ذاتها التي يقولان بها " فلان الفلاني متديِّن " - كانت كافية للتعبير عن التأنيب والاحتقار، أو الشفقة، التي يشعران بها نحو أولئك الأفراد. وإذا مات أحد دعا راعي الأبرشية بين الحين والآخر، وبسببنا نحن الأطفال، إلى اجتماع في البيت بشكلٍ غير متوقَّع، يُعامَل وكأنهما مُجبران على تلبية الدعوة من باب الأدب العادي دون أنْ يشتركا معه في أي شيء. ويرتابان فيه قليلاً، باعتباره يمثّلُ نوعاً يقعُ في منتصف الطريق ما بين الأبله والدجَّال. فهم مثلاً يقولون لنا " إنه مُحبَّب " ولكن ما أنْ يأتي أصدقاؤهم الحميمون ويبدأ تطايُر الثرثرة، حتى يسمع المرء نوعاً مختلفاً تماماً من التعليق، مصحوباً بقصفٍ من الضحك الهازئ والسخرية القذرة.

سقطَ أبي مريضاً بمرضٍ عُضال نتيجة إسراعه بالقَسَم على الإقلاع عن شرب الخمر. كان طوال حياته شخصاً مرحاً مبتهجاً صحبته ممتعة. وقد نمّى كرشاً فخماً، ووجنتاه ممتلئتان تماماً وحمراوان كالشوندر، وسلوكه مريح ومتراخٍ، وقد بدا أنه قُدِّرَ له أنْ يعيش حتى سنٍ متأخرة ثرية، وكان متيناً وصحيحاً كجوزة. ولكن تحت هذا المظهر الخارجي الناعم والمرح لم

تكن الأمور حسنة على الإطلاق. كانت أعماله متدهورة، والديون تتراكم، وقد بدأ بعض أصدقائه يتخلّون عنه. وموقف أمي هو الذي أقلقه كثيراً. فقد كانت ترى الأشياء بمنظارٍ مُعتم دون أنْ تزعج نفسها بإخفائها. وبين الفينة والأخرى تنتابها هستيريا وتنهال عليه بعنفٍ وقوة بالسباب بأقذر الألفاظ وتحطّم الأطباق وتهدِّد بالهرب. والنتيجة هي أنه استيقظ في أحد الأيام وقد قرَّر ألاّ يشرب قطرة واحدة من الخمر. لم يُصدّقه أحد : فقد كان في العائلة آخرون أقسموا على الإقلاع وتحولوا إلى عربة الماء، كما كانوا يقولون، لكنهم سرعان ما سقطوا ثانية. لم ينجح أحد من أفراد العائلة، كلهم حاولوا في وقت أو آخر، أنْ يمتنعوا عن شرب الخمر. لكنَّ أبي العجوز كان مختلفاً. أما من أين وكيف كان يحصل على القوة للمحافظة على قراره، فهذا ما لا يعلمه إلاّ الله. إنه يبدو لي أمراً لا يصدّق، لأنني أنا نفسي مكانه لبقيت أشرب حتى الموت. أما العجوز فلا كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يُبرِم فيها قراراً حول أي شيء. وكانت أمي من شدة الذهول، على الرغم من بلاهتها الساحقة، تهزأ به، وترميه بالعبارات الساخرة حول قوة إرادته التي كانت حتى ذلك الحين واهنة بشكلٍ يدعو إلى الشفقة. لقد ظلّ مُلازماً لمدافعه. وتفرَّقَ رِفاق الشراب من حوله بسرعة ملحوظة. باختصار، وجد نفسه منبوذا تماماً تقريباً. ولابد أنَّ هذا قد سدَّدَ إليه طعنة في الصميم، لأنه قبل انصرام عدد كبير من الأسابيع، أُصيبَ بمرضٍ مميت وعقد مؤتمر التشاور. وشفُيَ قليلاً، بما يكفي للخروج من السرير والتجوُّل في المكان، لكنَّ المرض كان لا يزال شديد الوطأة عليه. وأعتقد أنه يُعاني من القرحة المَعديّة، على الرغم من أنَّ أحداً لم يكن متأكداً

تماماً من سبب تألّمه. ومع ذلك، فَهِمَ الجميع أنه أخطأ في الإسراع في القسم على الامتناع عن الشرب. لكنّ الأوان فات للعودة إلى الاعتدال في مُتَع الحياة. لقد كانت معدته ضعيفة جداً ولا تحتمل حتى طبقاً من الحساء. وفي غضون شهرَين من الزمن بات هيكلاً عظمياً تقريباً. عجوزاً. بدا كأليعازر الذي قام من القبر.

ذات يوم تنحَّتْ أمي بي جانباً والدموع في عينيها وتوسلت إليّ كي أذهب لزيارة طبيب العائلة وأستعلمُ عن حقيقة حالة أبي. كان الدكتور روش طبيباً للعائلة منذ سنين عديدة. كان نموذجاً لل " هولندي " من المدرسة القديمة، وقد أمسى الآن ضَجِراً برِماً بعد سنين من المدرسة ومع ذلك لم يتمكن من الانفصال تماماً عن مرضاه. لقد حاول بطريقته النيوتونية البلهاء أنْ يُخيف أقلّ مرضاه خطورةً في مَرَضه، حاولَ أنْ يُناقشهم ليعودوا أصحّاء. حين تدخل مكتبه لا يزعج نفسه حتى بالنظر إليك، بل يُتابع كتابته أو العمل الذي يقوم به وهو يُمطرك بوابلٍ عشوائي من أسئلته بلا حماس وبأسلوبٍ مُهين. كان يتصرَّف بفظاظة، وبكثيرٍ من الريبة، وعلى الرغم من أنَّ ذلك يبدو مُثيراً للسخرية، إلاّ أنه كان يتوقَّع من مرضاه أنْ يجلبوا معهم ليس فقط عللهم، بل والبرهان على صِحّة تلك العلل. كان يجعل المرء يشعر ليس فقط بأنَّ ثمة شيئاً على غير ما يرام جسدياً بل وأنَّ هناك شيئاً خاطئاً في عقولهم. وعبارة "تصوَّر هذا " كانت عبارته الأثيرة يُطلقها باستهزاء قذر وبنظرةٍ شزراء. ولما كنتُ أعرفه حقّ المعرفة، وأمقته من كل قلبي، أتيت إليه وأنا مستعد، أعني، مع التقرير المخبري لغائط أبي. وكان معي تحليل بولَه في جيب معطفي، فيما لو طلب براهين أخرى.

حين كنتُ صبياً صغيراً كان الدكتور روش يُبدي بعض الحب لي. ولكن منذ أنْ ذهبت إليه يوماً مُصاباً بالسيلان فَقَدَ ثقته بي وصار يستقبلني على الدوام بوجهٍ عكرٍ كل ما مددتُ رأسي من بابه. كان شعاره من شابه أباه فما ظلم، لذا لم أكنْ لأُدهَش أبداً لو أنه بدلَ أنْ يزوّدني بالمعلومات التي أريد، بدأ بتوجيه توبيخٍ إليّ ولأبي العجوز أيضاً لطريقتينا في الحياة. قال وعلى وجهه تعبيرٌ ساخر رصين " لا يمكنكَ معاكسة الطبيعة " دون أنْ ينظر إليّ أثناء كلامه وشرَعَ بتدوين بعض الملاحظات التي لا معنى لها في دفتر سجلاته. تقدَّمتُ من مقعده، ووقفتُ بجواره لحظة دون أنْ أُصدِر أي صوت، ومن ثم، حين رفعَ بصره وعلى وجهه التعبير الحزين، المتردِّد المعتاد، قلت - " لم آتِ إلى هنا لأخذ منكَ عِبراً أخلاقية... أريد أنْ أعرف ما هي علّة أبي ". وهنا وثب واقفاً والتفتَ إليّ وعلى وجهه أقسى النظرات وقال، كهندي متوحش، أبله : "لا حظَّ لأبيك في الشفاء، وسوف يموت خلال أقلّ من ستة أشهر"، فقلت " شكراً، هذا كل ما أردتُ معرفته "، وتوجهتُ أبغي باب الخروج. ثم، وكأنه شعر أنه ارتكبَ خطأً فادحاً، تبعني بخُطى واسعة متثاقلة، وبعد أنْ وضعَ يده على كتفي، حاولَ أنْ يُعدِّلَ من إفادته بالهمهمة والحمحمة وبقوله لا أقصد أنْ أقول إنَّ موته مؤكَّد... الخ، لكنني قاطعته بأنْ فتحتُ الباب وأنا أصرخ في وجهه، بأقوى ما تستطيع رئتاي، حتى يسمعني مرضاه في حجرة الانتظار - " أعتقد أنكَ خراء عجوز ملعون وأتمنى لو تموت، عمتَ مساءً ! "

حين وصلتُ إلى المنزل عدَّلتُ من تقرير الطبيب نوعاً ما بقولي إنَّ حالة أبي خطرة وإنه إذا اعتنى بنفسه جيداً فسيُشفى تماماً. وبدا أنَّ

كلامي أبهجَ العجوز أيما بهجة. وبملء إرادته اتَّبَعَ حِمية من الحليب وشرائح الخبز المُحمَّص التي، سواء أكانت أفضل حل أم لا، لم تؤذه. وظلَّ في حالة شبه مرض مدة عام، ومع مرور الوقت أخذ يزدادُ هدوءاً على هدوء من الداخل مع مرور الوقت وبات جليّاً أنه صمَّمَ على أنْ لا يدعَ أي شيء يُعكِّرُ راحة باله، لا شيء حتى وإنْ آلَ كل شيء إلى الجحيم. ومع استرداده قواه بالتدريج أصبح يقوم بزيارة المقبرة يومياً وكانت قريبة. فيجلس هناك على مقعد تحت الشمس يُراقب العجائز من الناس يتجولون حول القبور. ويبدو أنَّ قُربه من القبر بدلَ أنْ يُزيد من مَرَضه صالحه مع فكرة الموت الأبدي، وهي فكرةٌ كان يرفضُ بلا شك مواجهتها مباشرةً حتى ذلك الحين. كان يعود إلى المنزل غالباً مع باقة من الأزهار قَطَفَها من المقبرة، ووجهه يشعّ بفرحٍ رصينٍ هادئ، ويجلسُ على الأريكة ويُعيد سرد الحديث الذي يكون قد تبادله في صبيحة ذلك اليوم مع أحد المرضى الذين يرتادون المقبرة. وقد بات واضحاً بعد فترة من الوقت أنه كان يستمتع حقاً بعزلته، أو بالأحرى ليس فقط يستمتع بها، بل ويستفيد بعمق من التجربة التي كانت أعمق من أنْ تسبُر أمي كنهها. لقد ازدادت كسلاً، هكذا قالتْ. وأحياناً تُعبِّر عن شعورها بتطرُّف أكبر، وتنقر على رأسها بسبابتها وهي تتحدث عنه، ولكن دون أنْ تتكلَّم صراحة بسبب أختي التي لا شك في أنه كان في رأسها عطل صغير.

وذات يوم تعرَّفَ بواسطة أرملة عجوز كانت تأتي لزيارة قبر ابنها كل يوم وكانت، كما تقول أمي، " متديّنة " على قسّ ينتمي إلى إحدى الكنائس المجاورة. كان ذلك حَدَثاً خطيراً في حياة العجوز. وفجأةً

ازدهرت صحته واتّخذت اسفنجة الروح الصغيرة التي كادت تضمرُ من قلّة التغذية أبعاداً مذهلة حتى لم يكد أحد يتعرَّف عليه. والرجل المسؤول عن هذا التبدُّل الفائق للعادة في العجوز كان نفسه رجلاً خارقاً؛ كان قسّاً مستقلاً تابعاً لأبرشيةٍ صغيرة متواضعة تقع قرب حيّنا، فضيلته الوحيدة هي أنه يضعُ الدين في الخلفية. وسرعان ما سقطَ العجوز في نوعٍ من الحب الصبياني، لم يكن يتحدَّث إلاّ عن القس الذي اعتبره صديقه. ولما لم يكن قد نظرَ في الكتاب المقدَّس مرةً في حياته، ولا في أي كتاب آخر في هذا المجال، فقد كان من المذهل، وهذا أقلّ ما يُقال، أنْ نسمعه يتلو صلاة صغيرة قبل الطعام. لقد كان يؤدي هذا الطقس الصغير بطريقة غريبة، تشبه كثيراً تناول دواء مُغذٍ، مثلاً. فإذا نصحني بقراءة فصل معيَّن من الكتاب المقدَّس فهو يُضيف بجدّية كبيرة - " سينفعك ". كان دواءً جديداً اكتشفه، نوعاً من الشفاء بالتدجيل مضموناً لشفاء جميع الأمراض بل ويمكن للمرء أنْ يتناوله حتى لو لم يكن مريضاً، لأنه إنْ لم ينفع فلن يضرّ حتماً. كان يحضر الصلوات كلها، وكل الأعمال التي تؤدّى في الكنيسة، وبين فترات العمل، حين يخرج للتمشية مثلاً، يتوقَّف ليستريح في منزل القس وليتبادل حديثاً قصيراً معه. فإذا قال القس إنَّ الرئيس هو روح طيبة ويجب إعادة انتخابه يُكرر العجوز على مسمع كل إنسان ما قاله القسّ حرفياً ويحثّهم على التصويت لإعادة انتخاب رئيس الجمهورية. مهما يقول القس فهو صحيح وحق ولا يمكن لأي إنسان أنْ يُخالفه، ولا ريب في أنه كان بمثابة ثقافة عامة للعجوز. فإذا ذكر القس الأهرامات في سياق موعظته أسرع العجوز بجمع المعلومات حول الأهرامات. ويتحدث عن الأهرامات وكأنَّ كل شخص

مدين له بالتعرُّف على هذا الموضوع. قال القس إنَّ الأهرامات هي إحدى الأمجاد المتوِّجة للإنسان، لذا فعدم التعرُّف على الأهرامات هو بمثابة جهل مُخزٍ، ونوع من الإثم : لقد كان واعظاً من الطراز الحديث الذي يُسيطر على رعيَّته بإثارة فضولهم بالإضافة إلى مناشدة ضمائرهم. كانت مواعظه أقرب شبهاً بمنهاج مُطوَّل في مدرسة مسائية، لذا فهي بالنسبة إلى رجل كالعجوز مسليّة ومثيرة جداً. وبين الفينة والأخرى كان الذكور من رعايا الكنيسة يُدعون إلى مائدة سخية لكي يظهر أنَّ راعي الأبرشية الطيب رجل عادي مثلهم ويمكنه، عند الضرورة، أنْ يستمتع بوجبة دسمة بل وبكأسٍ من البيرة. زيادة على ذلك لوحِظَ أنه يُحسن الغناء - ليس التراتيل الدينية، بل أغانٍ صغيرة مرحة من النوع الشائع المعروف. عند إضافة اثنين إلى اثنين يأخذ طَرَفاً من مُتع الحياة - ودائماً باعتدال، بلا شك. هذه هي الكلمة التي كانت بمثابة بلسم لروح العجوز الجريحة - " اعتدال " إنها كاكتشاف علاقة جديدة في دائرة الأبراج الفَلَكية. وعلى الرغم من أنه كان لا يزال من شدة المرض بحيث يحاول العودة حتى إلى نمطٍ معتدل من الحياة، إلا أَنَّ ذلك قد أفاد روحه. وهكذا عندما أتى العم ندْ إلى بيتنا في إحدى الأمسيات، وكان باستمرار يقلع عن شرب الخمر وباستمرار يعود إليه، ألقى عليه العجوز مُحاضرة صغيرة عن فضيلة الاعتدال. في تلك الأثناء كان العمّ نِدْ يُعاقر الخمر، وحين توجّه العجوز فجأةً، متأثراً بكلماته نفسها، إلى الخوان لإحضار الإناء صُعِقَ الجميع. لم يجرؤ أحد مرةً على دعوة العم نِدْ إلى الشراب وقد أقسم على الإقلاع عنه، والمغامرة في ذلك الأمر شكَّلَتْ خَرْقاً خطيراً للولاء. لكنَّ العجوز فعلها عن اقتناع تام بحيث لم يتمكن

أحد من إبداء الاستياء، وكانت النتيجة أنَّ العم ندْ شربَ كأساً صغيرة من الخمر وذهب إلى المنزل في تلك الأمسية دون أنْ يتوقف في إحدى الحانات ليُطفئ ظمأه. كانت حادثة غير عادية دار حولها الكثير من اللغط لأيامٍ تلَتْ. وفي الحقيقة بدأتْ تصرّفات العم ندْ تتصف بشيءٍ من غرابة الأطوار يوماً بعد يوم. ويبدو أنه في اليوم التالي قد ذهبَ إلى مخزن الخمور وجلبَ زجاجةً من الشيري أفرغها في إناء الخمر، ووضعَ الإناء في الخوان، كما رأى العجوز يفعل تماماً، وبدلَ أنْ يجرعه دفعةً واحدة، راح يستمتعُ بملء كأسٍ بعد كأس - " ملء كشتبان فقط " كما عبَّرَ عنها. كان تصرّفه مُلفتاً للنظر حتى إنَّ عمّتي، التي لم تتمكّن من تصديق عينيها، أتت يوماً إلى المنزل وأجرت حديثاً مُطوَّلاً مع العجوز. سألته، من بين ما سألت، أنْ يدعو القسّ إلى المنزل في إحدى الأمسيات فلعلَّ وعسى أنْ تُتاح للعم ند فرصةَ الوقوع تحت تأثيره الخيِّر. ونهاية الأمر أنَّ ندْ سرعان ما ضمَّ للجماعة المؤمنة وبدا، كالعجوز، مزدهراً تحت تأثير التجربة. وقد جرَتْ الأمور على أحسن ما يُرام إلى أنْ جاء يوم النزهة. كان ذلك اليوم، لسوء الحظ، يوماً دافئاً بشكلٍ غير عادي. ومع الألعاب، والإثارة، والمرح الصاخب، استفحلَ ظمأ العم ندْ بشكلٍ خارق. لم يُلاحظ أحد الانتظام والتكرار اللذين راح يتردَّد بهما على وعاء البيرة إلا بعد أنْ صار كالخرقة في مهبّ الريح. وكان الأوان قد فات. وحين وصل إلى هذه الحال بات من العسير التعامل معه. حتى القسّ عجز عن عمل أي شيء. وترك ندْ النزهة بهدوء وانخرط في ثورة صغيرة استمرَّتْ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. وكان من الممكن أنْ تدوم أكثر من ذلك لو لم يتورَّط في قتالٍ بالأيدي عند طرف الماء حيث وجده الحارس الليلي

مطروحاً بلا وعي. وأُخِذَ إلى المستشفى مع ارتجاج في المخ لم يُشفَ منه أبداً. بعد رجوعه من الجنازة قال العجوز وهو يُجفِّف عينيه - " لم يعرف نِدْ ماذا يعني الاعتدال. كانت غلطته. على أي حال، لقد ارتاح الآن..."

وكبرهانٍ منه للقس على أنه ليس من معدن العم نِدْ نفسه أصبحَ أكثر مواظبة على أداء واجباته الكنسيّة. وبذا رُقّيَ إلى مرتبة " شيخ " وكان فخوراً جداً بهذا المنصِب، فبفضله سمح له بالمساعدة في جمع التبرعات أثناء قداس أيام الآحاد. حين أفكّر في أبي العجوز وهو يمشي في أحد أجنحة الكنيسة المستقلّة وفي يده صندوق التبرعات، حين أفكِّر فيه واقفاً بوقار أمام المذبح مع صندوق التبرعات بينما القسّ يبارك الحسنات يبدو لي الآن أنه شيء لا يمكن تصديقه حتى لا أكاد أعرف ماذا أقول عنه. أحب أنْ أفكّر، على سبيل النقيض، بما كان عليه وأنا صغير حين أجتمع به في المنزل العائم في ظهيرة يوم سبت. حول مدخل المنزل العائم كانت هناك ثلاث حانات تمتلئ، بسبب ظهيرة يوم السبت، برجال توقفوا لبعض الوقت عند منضدة الغداء المجّاني مع كأس بيرة. يمكنني أنْ أرى العجوز، كما وقفَ وهو في ثلاثينات عمره، روحاً صحيحة، كريمة يمنحُ ابتسامة لكل شخص وسخرية ممتعة لتمضية النهار، أراه بذراعه المرتاحة على البار، وقبعته القشّية مدفوعة إلى مؤخر رأسه، وقد ارتفعت يده اليسرى لإزالة زبد الرغوة. كانت عيني حينئذٍ عند نفس مستوى سلسلته الذهبية الثقيلة الممتدة على عرض الصدارة، أذكُرُ رداء الكاهن المُربَّع الذي كان يلبسه في عزّ الصيف والتمييز الذي يضفيه عليه في البار بين باقي الرجال الذين لم يكونوا محظوظين بحيث يولدون خيّاطين. أذكُرُ الطريقة التي كان يغمسُ بها يده في الوعاء الزجاجي

الكبير الموجود على منضدة العشاء المجاني، ويناولني بعض البسكويت، قائلاً في الوقت نفسه إنَّ عليّ أنْ أذهب لألقي نظرة على لوحة الإصابات المُسجّلة الموجودة في نافذة صحيفة بروكلن تايمز القريبة. وربما، وأنا خارج من الحانة لأرى مَنْ الرابح، تمر مجموعة من راكبي الدراجات قرب حافة الطريق ملتزمين بالشريط الضيِّق من الإسفلت الذي أُردَ خصيصاً من أجلهم. ربما يكون القارب العائم قد دخل لتوّه حوض السفن فأقفُ لحظة لأراقب الرجال بملابسهم الخاصة وهم يبتعدون على الدواليب الخشبية الكبيرة التي رُبِطَتْ بها السلاسل. وبينما البوابات تُفتح والعوارض تُمَدْ تندفع ثُلّة من الغوغاء من السقيفة يبغون الحانات التي تزيّن الزوايا القريبة.في تلك الأيام الخوالي عرِفَ العجوز معنى كلمة " الاعتدال "، لأنه كان يشرب عن ظمأ حقٍ، وكان شرب كأسٍ من البيرة قرب المنزل العائم يُعتبر امتيازاً رجولياً. وكما قال ملفيل بحق : " أطعِمْ الأشياء كلاً بما يُناسبه - أي، إذا كان الطعام سهلَ المنال. وطعام روحك هو النور والمدى، إذن أطعمها بالنور وبالمدى. لكنَّ طعام الجسد هو الشمبانيا والأصداف؛ أطعمه إذن شمبانيا وأصداف، وهكذا سيستحق بعثاً بهيجاً إنْ كان هناك بعث ". أجل، ثم يبدو لي أنَّ روح العجوز لم تكن عندئذٍ قد ذبلتْ بعد، وأنها أمستْ مُسربلة إلى الأبد بالنور وبالمدى وأنَّ جسده، الغافل عن مسألة البعث، كان يتغذّى على كل ما هو ملائم وسهل المنال - وإذا لم يكن بالشمبانيا والأصداف، فعلى الأقلّ ببعض البيرة المُعتّقة الجيدة، وبسكويت البريتزل. إذن فلم يُدَنْ جسده، ولا طريقته في الحياة، ولا غياب إيمانه. لم يكن قد حوصِرَ بعد بالصقور، بل فقط بالرفاق الطيبين، بأناسٍ عاديين مثله لا يشمخون بأبصارهم ولا يخفضونها بل ينظرون أمامهم، العين مُثبّتة دائماً على الأفق وسعيدة بما تراه.

والآن، وكالحطام البالي، جعلَ من نفسه شيخاً للكنيسة وهو يقفُ أمام المذبح، عجوز محني الظهر وهرِم، بينما راعي الأبرشية يمنح بركته لرعيته التافهة التي ستذهب لتشقّ ممشى للعبة البولينغ. ربما كان ضرورياً له أنْ يمرّ بتجربة ميلاد الروح، أنْ يُغذّي ذلك النبات الذي يشبه الإسفنج بالنور والمدى اللذين قدّمتهما له الكنيسة المستقلّة. ولكن ما أبأسه من بديلٍ لإنسانٍ عرفَ مُتع القوت الذي طالما اشتاقَ إليه الجسد وغمَرَ، بدون تأنيب ضمير، حتى روحه الأسفنجية بنور ومدى كانا آثمَين لكنهما مُشرقان ودنيويان، أفكّر ثانية " ببطنه " الصغيرة اللائقة التي تتدلّى عليها سلسلة الذهب السميكة وأفكّرُ في أنه مع موت بطنه الصغيرة لم يتبقَّ إلا إسفنجة الروح، نوع من الملحق لموته الجسدي. أفكّرُ في ما تلى ذلك باعتباره نوعاً من المأساة الإسفنجية، فعلى الرغم من أنه وَعَدَ بالنور والمدى، فما أنْ خرجَ من حياة أبي حتى انهار الصرح الخيالي عن بِكرة أبيه.

حدثَ ذلك كله بطريقة حياتية عادية جداً. ففي أمسية بعد اجتماع الرجال المعتاد، قفل العجوز عائداً إلى المنزل وعلى وجهه ملامح الحزن. لقد أبلغوه في ذلك المساء أنَّ القس سيتركهم، لأنه أُسندَ إليه منصب أكثر ملاءمة في منطقة نيوروشل، وعلى الرغم من كرهه لمغادرة رعيته، قرَّر أنْ يقبل العرض. ولم يقبله طبعاً إلا بعد تفكير طويل - باعتباره واجباً، بكلمة أخرى. وهذا يعني دخلاً أفضل، طبعاً، لكنه لا يُقارَن بالمسؤوليات الخطرة التي سيتولاها. كانوا بحاجة إليه في نيوروشل وقد استجاب هو لنداء ضميره. حكى العجوز هذا كله بالتملُّق نفسه الذي أضفاه القسّ على كلماته. ولكن سرعان ما اتضح أنَّ العجوز قد تأذّى.

لم يفهم لماذا لم تجد نيوروشل قساً آخر. قال إنه ليس من العدل جذب القس بدَخلٍ أكبر. ***إننا في حاجة إليه هنا*** ، قال هذا بكآبة، وبحزن عميق حتى إني شعرت برغبة في البكاء. وأضاف، إنه سيتبادل حديثاً ودّياً مع القس، وإنه إنْ وُجدَ مَنْ يمكنه إقناعه بالبقاء فهذا الشخص هو نفسه. في الأيام التي تلَتْ بذلَ طبعاً أقصى جهده مما أزعجَ القس. وكان من المُحزن رؤية النظرة الفارغة على وجهه عند عودته من تلك الاجتماعات. لقد بدا كرجلٍ يُحاولُ التعلُّق بقشّة تجنّباً للغرق. طبعاً أصرَّ القسّ بعناد، حتى بعد أنْ انفجر العجوز باكياً أمامه لم يتزحزح عن موقفه. وكانت تلك هي نقطة التحوُّل. منذ تلك اللحظة بدا أنَّ العجوز يمرُّ بتغيُّرٍ فوضويّ؛ أصبح حادّ الطِباع، كثير الشكوى. ولم ينسَ فقط تلاوة الصلاة على المائدة بل امتنع عن الذهاب إلى الكنيسة. وعادَ إلى عادته القديمة في التردُّد على المقبرة ليتشمَّس على أحد المقاعد. أصبحَ نكِد المزاج، مكتئباً، وأخيراً نما على وجهه تعبيرٌ حزينٌ دائم، حزنٌ مُغلَّف بخيبة الأمل، باليأس، بالعقم. لم يعُد بعدها أبداً إلى ذِكر اسم الرجل، أو الكنيسة ولا أي من الشيوخ الذين رافقهم مرة. فإذا صادفهم في الشارع يُحيّيهم تحيّة مناسبة للوقت من اليوم دون التوقُّف لمصافحتهم. صار يقرأ الصحف بإمعان، من أولها إلى آخرها، وبلا تعليق، حتى الإعلانات قرأها، كلها، وكأنه يحاولُ سدَّ ثغرةٍ ضخمة تتمثَّل أمام عينية بلا انقطاع. لم أسمعه يضحك مرة ثانية. كان في أفضل الأحوال يبتسم لنا ابتسامة ضجرة بائسة، ابتسامة تذوي على الفور وتتركنا مع مشهد لحياة خامدة. كان ميّتاً يتخطّى كل أمل بالانبعاث. لم يكن ليتشكَّل لديه حتى معدة جديدة، أو جهاز معويّ جديد ومتين، لو كان ممكناً إعادته للحياة من جديد. لقد اجتاز حد

الشمبانيا والأصداف، حد الحاجة للنور والمدى. كان أشبه بطائر الدود الذي يطمر رأسه في الرمل ويُصفّر من ثقب طيزه. وحين ينام على كرسي موريس يرتخي فكّه السفلي كالمفصل المحلول؛ ولطالما كان غاطّاً جيداً أما الآن فأصبح غطيطه أعلى من ذي قبل، كرجلٍ أقرب إلى الموت بالنسبة إلى العالم. كان غطيطه، في الواقع، أقرب شبهاً بغطيط الموتى، عدا أنه مُجزّأ بصفيرٍ متقطّع طويل من النوع التافه. كان يبدو، وهو يغطّ، كأنه يُقطِّع الكون كلّه إلى قِطع صغيرة بحيث إننا نحن الذين سنخلفه سيتوفر لدينا خشب للحرق يكفينا مدى الحياة. كان أكثر أنواع الشخير روعة وإثارة للرعب استمعت إليه في حياتي : إنه غطيطٌ جهوريّ، رهيب وغريب، أحياناً كان يُشبه أكورديون ينهار، وأحياناً أخرى كضفدعة تنقّ في المستنقعات، وبعد صفرة مُطوّلة يأتي أزيز مُخيف كأنه يُسلِّم الروح، بعدئذٍ يستقرّ عائداً إلى ارتفاع وانخفاض منتظمين، إلى تقطيع فارغ ثابت وكأنه واقف وهو عارٍ حتى وسطه، في يده فأس، أمام الجنون المتكدِّس لزخارف هذا العالم. وما كان يُضفي الصبغة الجنونية على أعمال كهذه هو تعبير الوجه الموميائي الذي ليس فيه من الحياة غير الشفتين الضخمتين المُنتحبتين. كانتا كخياشيم سمكة قرش تغفو على سطح المحيط. يغطُّ بسعادة وهو غارق في نومه، لا يزعجه حلم أو خطة ما، دون تشنج، دون أنْ يبتلي برغبةٍ غير حقيقية؛ عندما يُغمِض عينيه وينهار، ينطفئ نور العالم وإذا به وحيد كما قبل الولادة، كون ينهش نفسه قطعاً صغيرة. جلس هناك على كرسي موريس كما جلس يونس في بطن الحوت، آمناً في آخر ملاذ في حُفرة سوداء، لا يتوقع شيئاً، لا يرغبُ في شيء، ليس ميتاً بل مدفون حياً، مُبتَلَع تماماً

ودون أن يُصاب بأذى، والشفتان الكبيرتان المنتحبتان ترفّان برفقٍ بجريان وإعادة جريان لأنفاس الخواء البيضاء. كان يبحث في أرض النوم عن قابيل وهابيل لكنه لا يُقابل أي كائن حي؛ لا كلمة، لا إشارة. غاصَ مع الحوت ولامسَ القاع المُثلِج الأسود، وقطع مسافة ثُمن ميل بأقصى سرعة، لا يقوده غير العروف المُجعّدة لوحوشِ باطن البحر. كان هو الدخان المنبعث ملتوياً من أعالي المداخن، وطبقات السُحُب المُثقلة التي تحجب القمر، والطين السميك الذي يُشكِّلُ أرضيّةَ قاع المحيط الشمعيّة اللزجة. كان أكثر موتاً من الموتى لأنه حيٌ وخاوٍ، ويتجاوز كل أملٍ بالانبعاث لأنه رحل إلى ما بعد حدود النور والمدى واستكانَ باطمئنان في فجوةِ الخواء السوداء. كان أكثر استدراراً للحَسَد منه للشفقة، لأنَّ نومه ليس مجرَّد استرخاءٍ أو فترة استراحة بل هو النوم نفسه الذي هو العمق الغارق في النوم، غارق في النوم حتى أسفل السافلين، أعمق وأنْوَم نوم في نوم النوم اللذيذ. كان نائماً. إنه نائم. ***سوف*** ينام. نَمْ، نَمْ. ***يا أبي، نَمْ، أتوسّلُ إليك، لأننا نحن اليقظى نغلي من الرعب...***

مع رفرفة العالم على آخر أجنحة شخير أجوف أرى الباب يفتح ليدخل غروفر واتروس. ويقول وهو يجرّ قدمه المشوَّهة إلى الأمام " ليكن المسيح معكم ! " إنه لا يزال شاباً صغيراً وقد وجد الله. لا يوجد إلا إله واحد وقد وجده غروفر واتروس وهكذا لم يعُد هناك ما يُقال عدا إنَّ كل شيء يجب أنْ يُعاد قوله من جديد بلغة غروفر واتروس الألآويّة الجديدة. هذه اللغة الجديدة اللامعة التي اخترعها الله خصّيصاً لغروفر واتروس تأسرني بشكلٍ رهيب، أولاً لأنني طالما اعتبرتُ غروفر مُغفّلاً ميؤوساً منه، وثانياً لأنني لاحظتُ أنه لم تعُد توجد أي لطخة تبغ على أصابعه

الرشيقة. حين كنا صغاراً كان غروفر يسكن جوارنا، ومن آنٍ لآخر يزورنا ليتدرَّب معي على أداء لحنٍ ثنائي. وعلى الرغم من أنه لم يكن قد تعدَّى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة إلا أنه كان يُدخِّن كشرطيّ جوّال. وقد عجزتْ أمه عن ثنيه عن ذلك لأنَّ غروفر عبقريّ وعلى العبقري أنْ يتمتع ببعض الحرية، خاصةً وأنه كان سيء الحظ فوُلِدَ بقدمٍ مشوَّهة. كان غروفر من العباقرة الذين يترعرعون على القذارة. لم تكن على أصابعه بقع النيكوتين فقط بل وأظافر سوداء قذرة تتكسّر من طول التمرين، مما دفع الصغير غروفر إلى الالتزام الفاتن بنزعها بأسنانه. وتعوَّدَ غروفر الصغير أنْ يبصق الأظافر المكسورة مع قِطع التبغ العالقة بين أسنانه. كان شيئاً بهيجاً مُثيراً. وحرقَتْ السجائر ثقوباً في البيانو، كما لاحظت أمي بنظرةٍ انتقادية، ***ولطَّخ*** المفاتيح. وبعد أنْ يذهب غروفر تفوح من الصالة رائحة قذرة كغرفة خلفية من مؤسسة دفن الموتى، تفوح بعبق السجائر الميتة، والعرق، والملابس الداخلية القذرة، وتجديفات غروفر والحرارة الجافة التي تخلّفها الأنغام الذاوية لفيبر، وبرليوز، وليست وشركاه. كانت تفوح أيضاً بتدليل وتذمُّر أمه. كان بيتهم حظيرة تلائم بشكلٍ قُدسي عبقريته، لكنَّ صالة بيتنا كانت أشبه بغرفة انتظار في مكتب حانوتي وكان غروفر أخرق ليس لديه من المعرفة ما يجعله يمسح قدميه. في الشتاء يجري أنفه كالمجرور وغروفر، المستغرق تماماً في موسيقاه لا يزعج نفسه بمسح أنفه، ويترك المخاط البارد يسيل حتى يصل شفتيه وهناك يمتصه بلسانه الأبيض الطويل جداً. إلى الموسيقى الفارغة لفيبر، وبرليوز، وليستِ وشركاه تُضاف صلصة لاذعة تجعل من تلك الشياطين الفارغة شيئاً مقبولاً. كل كلمة تخرج من بين شفتي

غروفر هي تجديف، وعبارته المفضّلة هي - " لا أستطيع أنْ أؤدي هذا الشيء العرض كما ينبغي ! " أحياناً يزداد حنقه حتى إنه يضم قبضتيه ويضرب البيانو كالمجنون. إنها عبقريته خارجة بشكل خاطئ. كانت أمه، في الواقع، تُضفي أهمية فائقة على نوبات الغضب تلك، وقد أقنعوها بأنْ لديه شيئاً يُعطيه. الآخرون قالوا إنَّ غروفر شخص لا يُطاق. كل شيء يغفر له بسبب قَدَمه المشوَّهة. وكان غروفر من المكر بحيث يستغل تلك القَدَم الفاسدة، وحين يرغب في أي شيء رغبة مُلحّة يختلق آلاماً مُبرحة في قَدمه. البيانو وحده لم يكنّ أي احترام لذلك العضو المُعطَّل، لذا كان البيانو شيئاً يُلعَنْ ويُرفَس ويُضرَب ضرباً مُبرحاً. ومن ناحية أخرى، فإنْ كان غروفر بصحة جيدة، يبقى جالساً على البيانو لساعات طوال بلا توقُّف، ولم يكن يحقّ لأحد، في الواقع، أنْ يُبعده عنه. في مناسبات كتلك تقفُ أمه على المرج المُحيط بالمنزل وتكمُن للجيران كي تعتصر منهم بضع كلمات تقريظ. وتكون مفتونة جداً بعزف ابنها " القدسي " حتى إنها تنسى أنْ تُحضِّر وجبة العشاء. والعجوز، الذي يعمل في إصلاح المجاري، يعود عادةً إلى المنزل وهو يشتكي ويتذمَّر من الجوع. أحياناً يدخل متّجهاً رأساً إلى الطابق العلوي فالصالون ثم يخلع غروفر عن مقعد البيانو. وهو نفسه لديه مفرداته القذرة وحين ينفلت على ابنه العبقري لا يبقى شيء لغروفر ليقوله. وبرأي العجوز فإنَّ غروفر هو مجرَّد ابن عاهرة بليد يُحسِن إثارة الكثير من الضجيج. وأحياناً كان يُهدِّد بقذف البيانو اللعين من النافذة - ومعه غروفر. فإذا كانت الأم من التهوُّر بحيث تتدخَّل أثناء تلك المُشاهد فإنه يكيل لها صفعة قوية ويقول لها أنْ تذهب وتتبوَّل عند نهاية الحبل. وكانت لديه لحظات ضعفه

أيضاً، طبعاً، وفي مزاجٍ كمزاجه قد يسأل غروفر ماذا يُقرقع بحق الجحيم، وإذا قال الآخر، مثلاً: "ألا تعرفها إنها "Sonata Pathethique"[1]، يقول العجوز الطنّان - " وماذا يعني هذا بحق الجحيم؟ لماذا باسم المسيح لا يقولونها بالإنكليزية المفهومة؟ " وجهل العجوز الذي يفوق وحشيته أكبر من أنْ يحتمله غروفر. كان يخجل من أبيه العجوز وعندما يغيب هذا الأخير عن ناظريه يسخر منه بلا رحمة. وبعد أنْ تقدَّمَ قليلاً في السن صارَ يُلمّح إلى أنه ما كان ليولَد بقدمٍ مشوّهة لو لم يكن العجوز ابن عرص حقير. قال لابد أنَّ العجوز رفسَ أمه في بطنها وهي حامل. ولابد أنَّ هذه الرفسة المزعومة في البطن قد أثَّرتْ في غروفر بطرقٍ مختلفة، لأنه حين كبُر وصار رجلاً، كما قلت، توجّه فجأة بكل كيانه إلى الله بهيام حتى لم يكن يسمح لأحد بالتمخُّط أمامه دون أخذ الإذن من الله أولاً.

بدأتْ هداية غروفر إبّان انكماش العجوز، وهذا هو سبب تذكُّري له. ولم يرَ أحد أنْ نقول، وغروفر يطفر مرحاً يوزّع البركات طالباً من الله أنْ يكون شاهداً عليه وقد شمَّر عن ساعديه ليخلّصنا من الشر. أول ما لاحظت عليه كان التغيُّر الذي طرأ على مظهره الخارجي، فقد اغتسلَ بدم الحَمَل. كان نظيفاً بحق، حتى كدتُ تشمُّ منه رائحة عطر. حتى كلامه أصبح نظيفاً، وحلَّ محلّ التجديف العنيف التبريك والتضرُّع. لم يكن حديثاً ما تبادله معنا بل حواراً إفرادياً، إذا ظهر فيه ما يستوجب التساؤل أجاب عليه بنفسه. وحين يأخذ الكرسي المُقدَّم إليه يقول بذكاء

---

١ - هي سوناتة البيانو من مقام دو مينور ، مصنَّف ١٣ ، من أعمال لودفيغ فان بيتهوفن .

الأرنب الأميركي إنَّ الله قد منحنا ابنه الأوحد الحبيب حتى نستمتع بالحياة أبد الدهر. أحقاً أردنا هذه الحياة الأبدية - أم كنا ببساطة نتخبّط في متع الجسد ونموت دون أنْ نعرف الخلاص؟ والتناقض في "متع الجسد" لزوج من العجائز، أحدهما يغط في النوم ويغطّ، لم يخطر في باله، طبعاً. كان من الحيوية والتهلل بأول دفق من بركة الله الرحيمة حتى إنه نسي أنَّ أختي بلهاء، لأنه، ودون أنْ يسأل عن حالها، بدأ يُخاطبها بلَغوه الروحي المكتشَف حديثاً الذي لم يكن ينفذ منه شيء إليها لأنها، كما قلت، كانت تحت الصفر بمراحل بحيث إنه لو تحدَّثَ عن فرم السبانخ فلن يكون لهذا أي معنى بالنسبة لها. وعبارة مثل " متع الحياة " كانت تعني لها شيئاً أشبه بيوم جميل ومظلّة حمراء. أتذكّرها بسرعةٍ جالسة على طرف الكرسي وهي تهزّ رأسها تنتظر أنْ يدرك أنفاسه لتبلغه أنَّ القس - الخاص بها، وهو عضو في الكنيسة الأسقفية - عاد لتوه من أوروبا وأنهم سيقيمون معرضاً في الطابق الأرضي من الكنيسة حيث ستتخذ لنفسها سقيفة صغيرة مُزوَّدة بمناديل صغيرة للمائدة مُشتراة من مخزن البضائع الرخيصة. والحقيقة هي أنه ما أنْ توقّف لحظة حتى انفلتتْ - لتتكلَّم عن قنوات مدينة البندقية، وثلوج الألب، وعربات الكلاب في بروكسل، وسجق الكبد الجميل في ميونيخ، لم تكن أختي فقط متديّنة، بل ومعتوهة تماماً. وكان غروفر قد ذكَرَ شيئاً عن رؤيته سماء جديدة وأرضاً جديدة... ***إذ أنَّ السماء الأولى والأرض الأولى قد فَنَيا***، كما قال، وهو يتمتم بالكلمات وكأنها نوعُ من حركة منزلقة هستيرية ليُزيح عن كاهله عبء رسالة نبوئية عن أورشليم الجديدة التي أسّسها الله على الأرض ووُجِدَ فيها، هو غروفر واتروس، الذي كان ذات مرة بذيء الكلام

مُشوَّه القَدَم، سلامَ وسكينةَ الاستقامة. حين مالتْ أختي إلى الأمام وسألته ببراءة تامة إنْ كان يحب أنْ يلعب البولينغ لأنَّ القسّ أقامَ لتوِّه ممراً جديداً وجميلاً للبولينغ في الطابق الأرضي من الكنيسة وعلمتْ أنه يُسعده رؤية غروفر لأنه رجل لطيف ورفيق بالفقراء، وصرخ قائلاً : "***سوف يزول الموت إلى الأبد...*** ". وقال غروفر إنه من الإثم لعب البولينغ وإنه لا ينتمي إلى أي كنيسة لأنَّ الكنائس بلا إله : بل لقد كفَّ عن العزف على البيانو لأنَّ الله احتاجه للقيام بمهامٍ أسمى. وأضافَ "***مَنْ ينتصر يرثُ كلّ شيء، وسأكون إلهه، ويكون ابني*** ". توقّفَ ثانية ليتمخَّط بمنديل أبيض جميل، وانتهزت أختي الفرصة لتذكِّره أنه فيما مضى كان أنفه يجري دائماً لكنه لم يكن يمسحه. أصغى غروفر إليها بوقار تامّ ثم ألمحَ إلى أنه شفيَ من عاداتٍ شيطانية كثيرة. وهنا استيقظَ العجوز، ولما رأى غروفر جالساً بقربه، ضخماً كالحياة، ذُهلَ تماماً ولم يتأكَّد للحظة أو اثنتين، كما بدا، إنْ كان غروفر ظاهرة مَرَضيّة للحلم أو للهلوسة، ولكن مرأى المنديل النظيف أعاده بسرعة إلى صوابه، وهتف "أوه، هذا أنت ! الفتى واتروس، حسن، باسم كل ما هو مقدَّس ما الذي تفعله هنا ؟ "

أجابَ غروفر بلا خجل " جئتُ باسم قُدُس الأقداس، تطهَّرتُ بالموت على الجمجمة[1] وأنا هنا باسم المسيح الجميل لأخلّصكَ وتخطو في النور والقوة والمجد "

بدا العجوز منبهراً، وقال وهو يبتسم لغروفر ابتسامة باهتة مواسيةً

---

١ – الجمجمة : الموقع الذي صُلبَ عليه السيد المسيح .

" حسن، ماذا أصابك؟ ". كانت أمي قد دخلتْ لتوّها قادمة من المطبخ واتّخذت لها موقفاً خلف كرسي غروفر. وبالتواء من فمها ظرف وساخر حاولتْ أنْ تُفهِمَ العجوز أنَّ غروفر مجنون. حتى أُختي بدت عارفة أنَّ به خللاً ما، خاصة حين رفضَ زيارة ملعب البولينغ الجديد الذي أقامه قسّها المحبوب خصيصاً للشباب من أمثال غروفر وأقرانه.

ماذا أصابَ غروفر؟ لا شيء. عدا أنَّ قدميه زُرعتا بثباتٍ على الأساس الخامس من السور العظيم لمدينة أورشليم المقدّسة، والأساس الخامس صُنِعَ كله من الجزع العقيقي، أطلَّ منه على مشهد نهرٍ صافٍ كماء الحياة ينبع من عرش الله. وكان مرأى نهر الحياة هذا بالنسبة لغروفر كقرص ألف قملة في قولونه السفلي. لم يجلس هادئاً ويراقب عمي ولا مبالاة الناس بشيءٍ أشبه بالاتزان إلا بعد أنْ دار حول الأرض راكضاً سبع مرات على الأقلّ. كان حيّاً مُطهِّراً، وعلى الرغم من كونه في العيون البليدة القذرة للأرواح العاقلة " مجنوناً " فقد بدا لي أفضل بما لا يُقارن وهو على ذلك الشكل منه عن ذي قبل. كان حشرةً مؤذية لا تُسبِّب أي أذى. إذا أنصتَّ إليه مدة كافية أصبحت مُطهَّراً نوعاً ما، على الرغم من عدم اقتناعك. كانت لغة غروفر الجديد تقبض عليّ دائماً من وسطي وتنظفني بالضحك الجامح من الخبث الذي كدَّسه التعقُّل البليد من حولي. كان حيّاً مثلما أملَ بونس دو ليون[1] في أنْ يكون؛ حيّاً مثلما كانت قلّة نادرة من الناس. ولما كان حيّاً بشكلٍ غير طبيعي لم يهمّه أبداً إنْ ضحكتَ في وجهه، ولا أبه إنْ سرقت مقتنياته القليلة وهي ملكه. كان حيّاً وفارغاً، وهذا أقرب إلى الألوهية المجنونة.

بقدميه المزروعتين بثبات على السور العظيم لأورشليم الجديدة فرِحَ غروفر فَرَحاً ليس له حدود. ولعله لو لم يولَدْ بقدمٍ مشوّهة لما تعرَّفَ على

---

١ - شاعر أسباني (١٥٢٧ - ١٥٩١).

ذلك الفرح الرائع. ربما كان أبوه حقاً قد رَفَسَ أمه في بطنها وغروفر لا يزال في الرحم. لعلَّ تلك الرفسة في البطن هي التي سبَّبت تحليق غروفر، وجعلَته من الحيوية التامة واليقظة بحيث يتلقَّى رسائل الله حتى وهو نائم. وكلما زاد اجتهاده قلَّ تعبه. لم يعُد لديه هموم، لا ندامات، لا ذكريات متشبّثة. لم يعُد يعترف بأي واجبات، أو التزامات، إلا نحو الله. وماذا يتوقّع الله منه؟ لا شيء، لا شيء...عدا التسبيح باسمه. الله لا يطلب من غروفر واتروس إلا أنْ يكونَ حيّاً بدمه ولحمه. لا يطلب منه إلا أنْ يكون حياً أكثر فأكثر. وحين أصبحَ حياً برُمّته غدا غروفر صوتاً وذلك الصوت كان طوفاناً حوَّلَ كل شيء ميّت إلى فوضى أوليّة وهذه بدورها صارت فم العالم في مركزه يقع صيغة فعل الكون to be. ***في البدء كانت الكلمة والكلمة كانت مع الله***، والكلمة كانت الله. إذن الله هو صيغة المصدر الصغيرة الغريبة هذه وهي كل شيء - ألا يكفي هذا؟ بالنسبة لغروفر هذا أكثر من كافٍ: هو كل شيء. وبالبدء بصيغة الفعل هذه verb ماذا يهمّ على أي طريق يُسافر؟ وترك صيغة الفعل بالنسبة إليه كان بمثابة الابتعاد عن المركز، إقامة بابل أخرى. ربما شوّه الله باتروس عمداً ليُثبّته إلى المركز، إلى صيغة الفعل. لقد ثبَّتَ الله غروفر واتروس بحبل خفي إلى وتده المارّ بقلب العالم وصار غروفر الإوزة السمينة التي تبيض بيضة ذهبية كل يوم...

لماذا أكتب عن غروفر واتروس؟ لأني قابلتُ آلافاً من الناس ولم يكن أي منهم حيّاً على طريقة غروفر. أغلبهم كان أكثر ذكاء، وكثير منهم لامعاً، بل إنَّ بعضهم كان مشهوراً، لكنَّ أحداً منهم لم يكن حياً فارغاً مثل غروفر. غروفر نبع لا ينضب. كان أشبه بذرّة من الراديوم، لا تفقد قدرتها على إصدار الطاقة حتى وإنْ دُفِنَتْ تحت جبل. رأيتُ العديد

ممَّن يُسمَّون بالأناس ***الفعّالين*** من قبل - أليست أميركا مملوءة بهم؟ - ولكن أبداً، في نطاق الشكل الإنساني، ما كانوا مخازن للطاقة. ما الذي يخلق هذا الخزّان الذي لا ينضب من الطاقة؟ إنه التنوير. نعم، فهو يحدث بطُرفة عين، وهي الطريقة الوحيدة التي يحدث بها أي شيء هام. وبين ليلة وضحاها نحّى غروفر جانباً كل القيَمْ الجاهزة. وفجأة، هكذا، توقف عن التحرُّك، كما يتحرَّك الناس، ووضعَ الكوابح وترك المحرّك دائراً. إنْ كان في السابق قد رأى، كما يحدث لبقية الناس، أنَّ من الضروري التوجه إلى مكان ما فالآن أصبح يعرف أنَّ أي مكان هو كل مكان ولذلك هو هنا بالذات إذن فلِمَ التحرُّك؟ لماذا لا يركن السيارة ويترك المحرِّك دائراً؟ وفي تلك الأثناء تكون الأرض نفسها دائرة وغروفر يعلم أنها دائرة ويعلم أنه يدور معهما. هل تصل الأرض إلى أي مكان؟ لابد أنَّ غروفر قد طرح على نفسه هذا السؤال واقتنع بلا شك بأنها ***ليست*** ذاهبة إلى أي مكان. إذن، مَنْ قال إننا يجب أنْ نصل إلى أي مكان؟ سيستعلم غروفر حول هذه النقطة وعن مكان توجههم والغريب أنه على الرغم من كونهم جميعاً يحثّون الخُطى نحو أهدافهم الشخصية لم يتوقف أحد منهم أبداً ليفكِّر في أنَّ الهدف الوحيد المحتوم لهم جميعاً هو القبر. وهذا ما حيَّرَ غروفر لأنه لا أحد تمكَّنَ من إقناعه بأنَّ الموت ليس يقيناً، في حين لم يتمكَّن أحد من إقناع أي إنسان آخر بأنَّ أي هدف آخر هو شك محض. بعد أنْ اقتنع غروفر بحتميّة الموت المُطلقة أصبح فجأةً حيّاً بشكلٍ هائل وطاغ. وللمرة الأولى في حياته بدأ يعيش، وفي الوقت نفسه سقطتْ قَدَمه المشوّهة من وعيه تماماً. وهذا شيء غريب أيضاً، حين تُمعن فيه التفكير، لأنَّ القدم المشوَّهة هي كالموت تماماً، تشكّل حقيقة أخرى لا مفرّ منها. ومع ذلك سقطت القَدَم المشوّهة من ذهنه، أو، وهو

الأهم، كل ما له صلة بالقَدَم المشوّهة. وبالطريقة نفسها حين قَبِلَ الموت، سقط الموت بدوره من ذهن غروفر. وحين تعلّقَ بيقين الموت الأوحد تلاشت الشكوك الأخرى كلها، وأضحى باقي العالم الآن يعرج متهادياً بشكوكٍ مشوّهة وغروفر واتروس وحده حرّ لا يعترض سبيله شيء. كان غروفر واتروس تجسيداً لليقين. ربما كان مخطئاً، لكنه متيقّن. ***وماذا ينفع المرء أنْ يكون على حق إذا كان سيعرج طوال حياته على قدمٍ مشوّهة***؟ فقط حفنة من الرجال النادرين أدركت حقيقة ذلك وأضحت أسماؤهم أسماءَ عظيمة جداً. قد لا يُعرَف غروفر واتروس أبداً، لكنه عظيم جداً في كل الأحوال. وربما كان ذلك هو سبب كتابتي عنه - لمجرّد أنَّ لديّ من الحسّ ما يجعلني أدرك أنَّ غروفر حقَّقَ العَظَمَة على الرغم من عدم اعترافه بها. وحتى ذلك الحين كنتُ أظن ببساطة أنَّ غروفر متعصّب لا يُسبّب الأذى، نعم، و " مجنون " قليلاً، كما ألمحتْ أمي. ولكن كل مَنْ قبضَ على حقيقة اليقين مجنون نوعاً ما وهؤلاء الرجال فقط هم الذين حقّقوا شيئاً للعالم. وهناك رجالٌ آخرون، رجال عِظام آخرون سبّبوا بعض الدمار هنا وهناك، لكنَّ تلك القِلّة التي أتحدث عنها، وأضمُّ إليها غروفر واتروس، كانت قادرة على تدمير كل شيء كي تعيش الحقيقة. أولئك الرجال يولدون عادةً بعاهة، بقدمٍ مشوّهة، بمعنى من المعاني، والمفارقة الغريبة هي أنَّ الناس لا يتذكرون إلا القَدَم المشوّهة. فإذا تحرَّرَ رجلٌ مثل غروفر من قَدَمه المشوَّهة قال الناس عنه إنه أمسى ممسوساً. وهذا المنطق هو منطق الشك وثمرته البؤس. كان غروفر الكائن الفَرِح الذي قابلته في حياتي، لذلك أُقيمُ هنا نُصباً تذكارياً إحياءً لذكراه، ذكرى يقينه المبتهج. ومن المؤسف أنه اضطرَّ إلى استخدام المسيح كركيزة، ومن ذلك فماذا يهمّ - كيف ينال المرء الحقيقة ما دام ينقضّ عليها ويقتات منها؟

فصل إضافي

الفوضى كلمة اخترعناها لسببٍ غير مفهوم. أودّ أنْ أبقى في الفترة التي كانت فيها الأشياء تتجسَّد، إذْ لابد أنَّ الوضع، إنْ كان مفهوماً، كان مذهلاً حقاً. كان هناك هايمي أولاً، هايمي الضفدع الكبير، وبويضات زوجته التي ظلّتْ تتعفَّنْ فترةً لا بأس بها. كان هايمي منشغلاً تماماً ببويضات زوجته الفاسدة. أضحتْ موضوع الحديث اليومي، وأصبحت له الأسبقية الآن على موضوع الأقراص المُسهّلة واللسان المطلي. كان هايمي يتعامل من " الأمثال الجنسية "، كما سمّاها. كل ما يقوله كان إما يبدأ أو يقود إلى موضوع البويضات. وعلى الرغم من كل شيء ظلَّ يُضاجع زوجته - مُضاجعات مُطوَّلة، باردة كالأفعى، يُدخِّن أثناءها سيجارة أو اثنتين قبل أنْ ينتهي. ويحاول أنْ يشرح لي كيف أنَّ الصديد المنبثق من بويضاتها يرفع من درجة حرارتها. لقد كانت دائماً شريكاً جيداً في المضاجعة، والآن أصبحت أفضل من أي وقتٍ مضى. وعندما تنطلق البويضات يعسر وصف ردَّة فعلها. وكانت تدرك ذلك أيضاً. إذن، ضاجع! كل ليلة، بعد أنْ تغسل الأطباق يتعرّيان في شقّتها الصغيرة التي تشبه العش ويضطجعان معاً كزوجٍ من الأفاعي. حاولَ أنْ يصفَ لي هذا في أكثر من مناسبة - أعني طريقتها في المضاجعة. كان الأمر أشبه

بجوف صَدَفة، صَدَفه لها أسنان ناعمة تمضغه. أحياناً كان يشعر أنه صار داخل رحمها، الشديد النعومة والمكسو بالزغب الرقيق وتلك الأسنان الناعمة تقضم أيره وتُهيّجه. كانا يضطجعان كمقصّين ينظران إلى السقف. ولكي لا يقذف بسرعة يفكِّر في المكتب، في المشاكل الصغيرة التي ابتُليَ بها والتي تجعل الأمعاء مربوطة كالعقدة. بين الرعشات كان يترك ذهنه يستقر على شخص آخر، حتى إذا عادت للعمل معه يتصوَّر أنه يبدأ مضاجعة جديدة تماماً مع كسٍ جديد، يُرتِّب ذلك كله بحيث يتمكَّن من تعرية امرأة واقفة في الشارع تحت نافذته ويُحضرها إلى السرير. ليس فقط هذا، بل وفي الحقيقة يستطيع أنْ يجعلها تأخذ مكان زوجته، وذلك كله دون أنْ يقذف. يقول ولماذا أُبدِّد بذوري !

من ناحية أخرى، كان ستيف روميرو يُبقيه فيها وقتاً طويلاً جداً. وستيف ضخم كالثور وينثر بذوره بحرية. أحياناً نقارن بين ملاحظاتنا ونحن جالسون في حانة صينية على بُعد خطوات من المكتب. ويشيعُ جوٌ غريب. ربما لعدم وجود خمر، وربما بسبب قطع الفطر السوداء الصغيرة المضحكة التي تقدّم لنا. مهما يكن، لم يكن ليُعيقنا عن البدء بالموضوع. وحين يُقابلنا ستيف يكون قد أنهى لتوّه عمليته، والدوش والتنظيف. يكون نظيفاً من الداخل والخارج. إنه عيّنة كاملة للرجل. ليس ذكياً جداً، لكنه ممتاز، ورفيق مثالي. هايمي، من ناحية أخرى، كان أشبه بفرخ ضفدع يأتي إلينا وكأنه قادم إلى الطاولة مباشرة من مستنقع أمضى فيه يوماً قذراً. القذارة تُحيطُ بشفتيه كالعسل. الواقع، لا يمكنك أنْ تسمّيه وَسَخاً، في هذه الحال، لأنه لا يوجد مُعادِل آخر يمكن أنْ تُقارنه به. كان كل شيء يجري في دفق واحد، مادة قذرة لزجة مصنوعة كلها

من الجنس. حين ينظر إلى طعامه يراه كأنه مني كامن، وإذا كان الطقس دافئاً قال إنه جيد للخصيتين وإذا استقلَّ الحافلة علِمَ مُسبقاً أنَّ حركتها الإيقاعية ستثير شهيته، ستمنحه انتصاباً، " شخصياً "، كما يقول. أما لماذا " شخصياً " فذلك ما لم اكتشفه، لكنَّ تلك هي طريقته في التعبير. كان يحب الخروج معنا لأننا نتأكّد تماماً من أننا سننتقي شيئاً حَسَناً. وإذا تُرِكَ ليعتمدَ على نفسه لا يأكل كما يجب. معنا يحصل على نوعٍ مغايرٍ من اللحم - على عاهرةٍ مهذَّبة، كما يقول. كان يحب العاهرة المهذَّبة. فرائحتها ألذّ، قال ذلك وهو يضحك بيُسر أيضاً... وأحياناً وسط سياق الأمور. الشيء الوحيد الذي لم يكن يتسامح فيه هو اللحم الداكن اللون. كان يُذهله ويُثير اشمئزازه أنْ يراني أتجوَّل مع فاليسكا. وقد سألني ذات مرة إنْ كانت رائحتها من النوع القوي جداً. قلتُ له إني أحبها كما هي - قويّة وفوّاحة، ويحيط بها الكثير من صلصة مَرَق اللحم. وغالباً ما يحمرّ خجلاً لسماع هذا. مذهل كم يبدو مرهفاً حيال بعض الأمور، كالطعام، مثلاً. وكان صعب الإرضاء في طعامه. لعلّها سمةٌ عرقيّة. كان نظيفاً حيال نفسه أيضاً. لا يحتمل رؤية أي بقعة على كُمّه. يفرك نفسه بالفرشاة على الدوام، وباستمرار يُخرِج مرآة الجيب ليرى إنْ كان هناك أي طعام عالق بين أسنانه. فإذا وجد قطعة صغيرة أخفى وجهه خلف الفوطة وانتزعها بخلاّلٍ ذي يد من اللؤلؤ. أما البويضات فلم يكن يراها. ولا شمَّ رائحتها، لأنَّ زوجته هي الأخرى كانت عاهرة نظيفة؛ تستحم طوال النهار استعداداً للتزاوج المسائي. لقد كان اهتمامه ببويضاتها أمراً مأساوياً.

حتى اليوم الذي نُقِلَتْ فيه إلى المستشفى كانت بمثابة جثّة تُضاجع

بانتظام. وكانت فكرة أنْ تغدو غير قادرة على المضاجعة تُخيفها حتى الجنون. وأخبرها هايمي طبعاً أنَّ ذلك لا يُشكِّلُ أي أهمية بالنسبة إليه بطريقةٍ أو بأخرى. إنه يلتصق بها كأفعى، سيجارة في فمه، والفتيات يعبرن هناك في الأسفل، ولا يكاد يتصوَّر امرأةً تفقدُ قُدرتها على المضاجعة. كان متأكّداً من أنَّ العملية ستكون ناجحة. ناجحة! بمعنى أنها ستُضاجع حتى أفضل من ذي قبل. كان يقول لها هذا وهو مُستلقٍ على ظهره ينظر إلى السقف. يقول " أنتِ تعرفين أني سأظلُّ أحبك، فقط تنحّي قليلاً، إذا أمكن... نعم، هكذا... تمام. ماذا كنتُ أقول؟ آه نعم... طبعاً، لماذا تقلقين على أشياء كهذه؟ طبعاً سأكون وفيّاً لك. اسمعي، ابتعدي قليلاً... أيوه، تمام... هكذا رائع ". كان يحكي لنا هذا ونحن في الحانة الصينية. ويضحك ستيف كالجحيم. لم يكن ستيف ليستطيع فعل شيء مُشابه. هو شريف جداً - خاصةً مع النساء. لهذا لم يكن لديه حظ. خُذْ كرلي الصغير، مثلاً - كان ستيف يكره كرلي - فهو دائماً يحصل على ما يريد... وهو كذّاب بالفطرة، مُخادع بالولادة. وهايمي أيضاً لم يحب كرلي كثيراً. يقول إنه مُخادع، يقصد طبعاً مُخادع في الأمور المالية. وهايمي شكّاك في أمورٍ كهذه. كرِه خاصةً طريقةَ كرلي في الكلام عن خالته. فمن السوء بمكان، في رأيه، أنْ يُضاجع خالته، أما أنْ يسلبها كل ما تملك عدا قطعة بائتة من الجبن، فهذا كثيرٌ جداً على هايمي. فعلى المرء أنْ يكنَّ شيئاً من الاحترام لأي امرأة، على ألاّ تكون عاهرة. وإذا كانت عاهرة فالأمر مختلف. العاهرات عاهرات. هكذا نظرة هايمي إلى الأمور.

والسبب الحقيقي لكراهيته هو أنهما كلما خرجا معاً حصل كرلي

دائماً على الأفضل. وليس هذا فقط، بل إنَّ كرلي كان يُحقق رغباته عادةً بنقود هايمي. حتى طريقة كرلي في طلب النقود كانت تُثيرُ هايمي - إنها الابتزاز بعينه، كما قال. وكان يظن أنَّ الذنبَ يقعُ عليَّ نوعاً ما، وأنني شديد التساهل مع الفتى. ويقول هايمي " ليس لديه أخلاق "، وأسأله " وماذا عنكَ أنت، وخصالك الأخلاقية؟ "، " أوه *أنا* ! اللعنة، أنا متقدم في السن لتكون لديّ خِصال أخلاقية. أما كرلي فمجرّد ولد "

ويقول ستيف " أنت غيور، هذا هو السبب "

" *أنا* ؟ أنا أغارُ *منه*؟ "، ويحاولُ أنْ يُغطّي على الفكرة بضحكة مؤنبة صغيرة. لكنها جعلته يُجفل، كمن أصابته طعنة. ويقول ملتفتاً إليّ " اسمع، هل أبديتُ في أي وقت غيرة منك؟ ألمْ أكنْ أحوِّلُ إحدى الفتيات إليك حين تطلب؟ وتلك الفتاة ذات الشعر الأحمر من مكتب SU ... ألا تتذكّرها... ذات الحلمتين الكبيرتين؟ ألم تكن مؤخرة ضخمة جميلة يمكن للمرء أنْ يضنّ بها على صديق؟ ومع ذلك فعلتُ هذا، ألمْ أفعل؟ فعلته لأنكَ قلتَ إنك تحب الحلمات الكبيرة. لكنني لن أفعل هذا لأجل كرلي. إنه مُخادع حقير. دعه يتدبَّر مضاجعاته بنفسه "

والحقيقة هي أنَّ كرلي كان يُضاجع باجتهاد، ويحصل في وقتٍ واحد على خمس أو ست دفعة واحدة، وهذا ما استطعتُ عدَّه. خُذْ فاليسكا، مثلاً - لقد ظلَّ صامداً معها طويلاً. كانت تسعد كثيراً إذا ضاجعها أحدهم دون أنْ يحمرَّ خجلاً، حتى إذا تقاسمته مع ابنة عمها ومن بعدها مع القزمة لم تكن تعترض. أفضل شيء بالنسبة إليها كانت أنْ تستلقي في المغطس وتتركه يفعل معها من تحت الماء. وجرى كل شيء على ما يرام إلى أنْ انتبهت القزمة إليه. ثم نشبت مشادّة صغيرة انتهت أخيراً

على بلاط الصالون. وأسمعُ كرلي وهو يحكي كيف امتطى كل شيء ما عدا الشمعدان، وعن النقود الكثيرة التي أنفقها. لقد كانت فاليسكا قوية ومزدهرة، أما قريبتها فعاطفية وضعيفة. يكفي أنْ تُصبح على بُعد قَدَم من أيرٍ صلب حتى تنهار. تكفي فتحة بنطلون مفتوحة حتى تقع في غيبوبة. والأشياء التي دفعها كرلي إلى القيام بها كانت مُعيبة. كان يستمتع بإذلالها. وأكاد لا ألومه، فقد كانت مُتكلّفة في تذمّرها، وعاهرة تزدري الآخرين بملابسها التي تمشي بها في الشارع. ويكاد المرء يُقسِم بأنَّ ليس لها كس، من الطريقة التي تمشي بها في الشارع. وطبعاً، حين يكون معها وحده يجعلها تدفع ثمن أساليبها الكنانة. يقترب منها بدمٍ بارد ويقول لها وقد ترك فتحة بنطلونه مفتوحة قليلاً " أخرجيه! أخرجيه بلسانك! " (كان يُبقيه في الداخل في وجه المجموعة كلها لأنهنّ، كما يقول، كنَّ تمصُّ إحداهن الأخرى حتى الإرهاق من وراء ظهره). على أي حال ما أنْ تتذوقه بفمها حتى تستطيع بعدها أنْ تفعل معها ما يحلو لك. أحياناً كان يجعلها تقفُ على يديها ويدفعها لتمشي في أنحاء الغرفة على هذا الشكل، كعربة اليد، أو يضاجعها على طريقة الكلاب وبينما هي تئن وتتلوّى يُشعِل سيجارة بلا اكتراث وينفخُ الدخان بين ساقيها. وذات مرة مارسَ معها خدعةً قذرة وهي بتلك الوضعية. فقد أنهكها حتى خرجت عن طورها. ومن ثم وبعد أنْ أرهقَ طيزها بمضاجعة الظهر تراجع برهة، وكأنه يُبرِّدْ أيره، ثم وببطء ورفق حشرَ جزرة ضخمة طويلة في كسّها. " هذا، يا آنسة أبركرومبي، هو نوعٌ من الدبلغانغر لأيري النظامي " وبهذا القول انفكَّ عنها ورفعَ سرواله. وارتبكت ابنة الخالة أبركرومبي أيّما ارتباك بذلك كله حتى إنها ضرطت

ضرطةً هائلة اهتزَّتْ الجزرة على إثرها خارجة منها. هذا، على الأقل، ما حكاه لي كرلي. لقد كان كذّاباً لا يُطاق، هذا مؤكَّد، وقد لا يكون في حديثه مثقال ذرّة من الحقيقة، ولكن لا يمكن إنكار ولعه بالقيام بهذه الخِدع. أما بالنسبة إلى الآنسة أبركرومبي وأساليبها الناراغانستية العالية النبرة، حسن، مع عاهرة مثلها يمكن للمرء أنْ يتخيَّل الأسوأ. وبالمقارنة كان هايمي تطهّرياً. بشكلٍ ما كان هايمي وأيره الضخم المُطهَّر على طَرَفيّ نقيض. فحين يحصل على انتصاب شخصي، كما وَصَفَه، فهذا يعني أنه غير مسؤول. يعني أنَّ الطبيعة تؤكّد نفسها - من خلال أيره، اقصد أير هايمي لوبشر، الضخم المُطهَّر، والأمر نفسه مع كس زوجته؟ كانت تضعُ شيئاً بين ساقيها، كالمرهم. وهو أحد مميزات السيدة لوبشر لكنّه لا يمثّل السيدة لوبشر شخصياً، إذا فهمت ما أعني.

حسنٌ، كل هذا هو ببساطة من قبيل التوصُّل لفهم فوضى جنسيّة عامة كانت سائدة في ذلك الوقت؟ كان الأمر يُشبه السكن في شقّة من أرض النكاح. فتاة الطابق العلوي مثلاً... كانت تنزل إلى أسفل بين آنٍ وآخر لكي تعتني بالطفلة، حين تكون الزوجة خارجة لتُحيي حفلة موسيقية. كانت ساذجة سذاجة واضحة بحيث إني في أول الأمر لم أكن أوليها أي انتباه. لكنّها كالأخريات لها كس أيضاً، هو نوعٌ من الكسّ الشخصي المجرَّد تعي وجوده بلا وعي. وكلما زادت مرات نزولها ازداد وعيها، بطريقتها اللا واعية. في إحدى الأمسيات، بينما هي في الحمّام، وبعدما لبثتُ هناك فترة طويلة تدعو للشك، أخذت الأفكار تتلاطم في رأسي. فقررتُ أنْ أختلس نظرة من ثقب الباب لأرى بنفسي ماذا يحدث. أنظر وأتعجَّب، كانت واقفة أمام المرآة تربتُ برفق على

كسّها الصغير؛ تداعبه وكأنها تكلّمه. وصرتُ من شدّة الإثارة حتى لم أدرِ ماذا أفعل في أول الأمر. فعدتُ إلى الغرفة الكبيرة، وأطفأتُ الأنوار، واستلقيتُ هناك على الأريكة أنتظرُ خروجها. وظلَّ كسّها الكثّ ماثلاً أمام عينيّ وأنا مستلقٍ هناك والأصابع تُداعبه فتحت فتحة بنطالي وتركتُ أيري ينتفض مرتعشاً في برودة الظلام .حاولتُ أنْ أخدِّرها من مكاني، أو على الأقلّ حاولتُ أنْ أترك أيري يُخدِّرها من مجلسي، "تعالي إلى هنا، يا شرموطة "، هكذا قلتُ لنفسي، " تعالي إلى هنا وأعطني ذلك الكس " ولابد أنها استلمَتْ الرسالة على الفور، لأنها بعد لحظة فتحت الباب وراحتْ تتلمّس طريقها في الظلام إلى الأريكة. لم أتفوّه بكلمة، ولم أقُمْ بأدنى حركة. فقط ركَّزتُ ذهني على كسّها وهو يتحرَّك بهدوء، كالسرطان. أخيراً أمست واقفة قرب الأريكة. ولم تقُلْ أي كلمة بدورها. وبقيتُ واقفة هناك هادئة، ولما زلَقتُ يدي في أعلى ساقيها تحرّكتْ قليلاً بمقدار قَدَم لتفتح فرجها أكثر. لا أظن أني وضعتُ مرةً في حياتي يدي في فرجٍ مثل فرجها. كان شيئاً كالمعجون اللزج يجري بين ساقيها، ولو كان في متناولي بعض لحظات، وبشكلٍ طبيعي وكما تحني بقرة رأسها لترعي، انحنت ووضعته في فمها. كانت أصابعي الأربعة داخلها، تجلده حتى الاهتراء. كان فمها محشواً حتى آخره والسائل يتدفّق من بين ساقيها. وكما قلتُ لم يتفوّه أحدنا بأي كلمة. كنا زوجاً من المهووسين الهادئين يعملان في الظلام كحفّاري قبور. وكانت جنة من النكاح وقد عرفتُها، وأنا راغبٌ وعلى استعداد لأنْ أبقى أنكح حتى يُنسَف دماغي عند الضرورة. وربما كانَ ذلك أفضل نكاح قمتُ به على الإطلاق. ولم تفتح فمها أبداً - لا في تلك الليلة، ولا في

الليلة التي تلت، ولا في أي ليلة. فما أنْ تعلم أني وحدي في المنزل حتى تنسلّ هابطة هكذا في الظلام وتلصق كسّها بي. وكان كسّاً ضخماً أيضاً أتذكّره؛ متاهةً مُظلمة تحت-أرضيّة مفروشة بالدواوين والزوايا المكنكنة ومزوّدة بالأسنان المطاطية والحُقن ومضاجع ناعمة وحشية من الريش وأوراق التوت. كنتُ أنسلُّ داخلاً كدودة منعزلة وأدفنُ نفسي في صدعٍ صغيرٍ حيث الصمت تام، وشديد النعومة ومُريح حتى إني أستلقي كالدولفين على حواف الأصداف. وبعد رعشةٍ خفيفة أشعر كأني في حافلة البولمان أقرأ صحيفة أو في نهاية طريقٍ مسدودةٍ حيث أحجار الرصيف معشوشبة وبوابات صغيرة من الأغصان تُفتح وتُغلَق آلياً. أحياناً يكون الأمر أشبه بركوب المزلجة اللولبية، واندفاع شديد ثم رذاذ من سرطانات البحر الواخزة. ويتمايلُ عشب البحر بعنف وخياشيم الأسماك الصغيرة تُطوى في وجهي كثقوب آلة الهارمونيكا. في الكهف الحالك الظلمة كان هناك آلة أرغن حريرية الصوت تُصدرُ أنغاماً عنيفة وكئيبة. وحين تراجعت ووقفت، بعد أنْ سفحَتْ سائلها كله، صار لونها قرمزياً، أشبه ببقعة بلون التوت الفاتح جليّة كالشفق، شفق التكلُّم من البطن، كالذي يستمتع به الأقزام والقميئون عندما يحيضون. وحملني إحساسي ذاك على التفكير في الأزهار التي تلتهم البشر، وفي قبائل الكافير وهم يندفعون كالمجانين يقتلون كلَّ مَنْ يُصادفهم، وفي وحيدي القرن حين تنزو في مساكب نبات الوردية. كان كل شيء مجهولاً وبلا شكل، في جون دو وفي زوجته ايمي جو : فوقنا قارورات الغاز وفي الأسفل حياة البحرية. من فوق الحزام بدت معتوهة. نعم، بلهاء تماماً، على الرغم من أنها ما زالت منتشية وهائمة. وربما هذا ما جعل كسّها

مُـجرّداً بروعـة. كـان كسّـاً من مليـون، وبحق لؤلؤة من الآنتـيـل، كـالتي اكـتـشـفـهـا ديك أوزبورن حين قـرأ جـوزيف كـونراد. وتمدَّدتْ في مـحـيط الجنس الرهيب، كعرقٍ معدني متلألئ تكتنفه بشقائق نعمان إنسانيـة، بسمكة نجم إنسانيـة، بمرجان متشعّب إنساني. ما كـان إلا لشخصٍ مثل أوزبورن أنْ يكتشفهـا، إذا أُعطي خطوط الطول والعرض الصـحيـحة لكسّ. كـانت مقابلتها في وَضَح النهـار، ومراقبـتهـا وهي تزداد جنوناً ببطء، شيئاً أشبه بإيقـاع ابن عرس في مصيدةٍ عند حلول الليل. كل مـا كـان عليّ أنْ أفعله هو أنْ أستلقي في الظلام بفتحة بنطال مفتوحة وأنتظر. كانت مثل أوفيليا وقد بعثت من بين قبائل الكافير. لم تكن تتذكّر أي كلمة من أي لغـة، خاصة من الإنكليزية. أصبحت صمّاء بكماء وفقدت ذاكرتها، ومع فقدان ذاكرتها فقدت ثلاّجتهـا، وأدوات تجعيد الشعر، وملاقطها وحقيبة يدها. كانت أكثر عُرياً من سمكة، ما عدا خصلة شعر بين ساقيها، بل أكثر انزلاقاً من سمكة، فعلى الأقل للسمكة حراشف، أما هي فليس لها شيء. ويلتبس الأمر أحياناً بين ما إذا كنتُ داخلاً فيها أم هي داخلة فيَّ. كان صِراعاً مفتوحاً، مباراة من طراز جديد، كل طرف فيهـا يقرص مؤخرته؛ كان حباً بين أفراد سمندل البحر والفاصل مفتوح حتى آخره؛ حباً بلا تفريق بين الجنسين وبلا سائل مُطهِّر؛ حباً حضانياً، كالذي تمارسه حيوانات الشَّرِه فوق منطقة الأحراج. على أحد الطَرَفَين المحيط المتجمد الشمالي، وعلى الجانب المقابل خليج المكسيك. وعلى الرغم من أننا لم نُشِر إليه صراحةً إلا أنَّ كينغ كونغ كان حاضراً معنا دائماً، كينغ كونغ نائم في هيكل سفينة التايتانك المُحطَّم بين عِظام متفسفرة للمليونيرات وأسماك الجلكا. لا يمكن لأي

منطق أنْ يُزحزح كينغ كونغ من مكانه. هو مجموعة روافد عملاقة تدعم ألم الروح الزائل، كعكة عرس لها ساقان مكسوتان بالشعر وذراعان طولهما ميل، ستار دوّار تمرُّ عليه الأخبار، فوهة مسدس لا ينطلق أبداً، مجذوم مُسلّح بجراثيم السيلان المستأصَلة.

هنا في فجوة الفتاق قمتُ بكل تأملاتي الهادئة عن طريق الأير. فكّرتُ أولاً في النظرية ذات الحدّين، وهي عبارة طالما حيّرتني، وضعتُها تحت المجهر ودرستُها من الألف إلى الياء. ثم في مبدأ اللوغوس (العقل)، وطالما طابقتُهُ بشكلٍ ما مع التنفُّس، ووجدتُ أنه على العكس كان نوعاً من الركود المُسيطر؛ آلة ظلّتْ تطحن ذرة طويلاً حتى بعد أنْ امتلأتْ المخازن تماماً وطُرِدَ اليهود من مصر. ثم في بيوسيفالوس[1]، وهي كلمة فتنتني أكثر من أي كلمة في المفردات كلها: كنتُ أستحضرها كلما وقعتُ في ورطة، ومعه طبعاً الإسكندر وكامل حاشيته القرمزية. وأي حصان! نشأ في المحيط الهندي، وهو آخر السلالة، ولم يتزاوج أبداً، إلا مع ملكة الأمازون أثناء مغامرة ما بين النهرين. ثم بالمناورة الاسكتلندية! وهذا تعبير مذهل ليس له أي صِلة بلعبة الشطرنج. كان دائماً يخطر على ذهني على صورة رجل يمشي على طوالتين، في الصفحة ٤٩٨، ٢ من قاموس فنك وواغنال غير المُختصَر. وكانت حركة الـ gambit[2] هي نوع من القفزة في الظلام بساقين آليتين. قفزة بلا هدف - ***إذن اقفز***! إنها جليّة كرنين الجرس وبسيطة تماماً، حين تفهمها. ثم هناك أندروميدا، والغرغونة ميدوزا، وكاستور وبولكس ذوا المنشأ الألوهي، التوأم المُثبَّتْ

---

١ - بيوسيفالوس : هو اسم حصان الإسكندر المقدوني .

٢ - gambit : افتتاح لعبة الشطرنج ببيدق ثانوي .

إلى الأبد في كتلةِ الغبار النجميّ السريعة الزوال. ثم كلمة " اجتهاد "، واضح أنها جنسية ومع ذلك توحي بتضمينات عقلية لكي تقلقني. دائماً أسمعُ عبارة " الاجتهاد الليلي "، بما أنَّ منتصف الليل هو وقتٌ ينطوي على مغزى مشؤوم. ومن ثم القماش المزركش. يُقال : طُعِنَ أحدهم في وقت من الأوقات " خلف ستارة من القماش المزركش ". شاهدتُ قماش مذبح مصنوع من الإسبستوس وفيه شق جدير بقيصر أنْ يُحدِثه.

فكرت تفكيراً رائقاً جداً، كما قلت، من النوع الذي استغرق فيه رجال العصر الحجري العتيق. لم تكن الأمور لا تافهة ولا مفهومة. بل أشبه بأحجية الصور المُقطَّعة التي يمكنك إزاحتها جانباً حين تملّها. كل شيء يمكن أنْ يُزاح بسهولة، حتى جبال الهيمالايا. إنها الطريقة المناقضة تماماً لطريقة تفكير محمد. لا تقود إلى أي مكان ولهذا كانت ممتعة. والصرح الذي قد نشيده خلال نكاح طويل يمكن هدمه بطُرفة عين. فالنكاح هو المهم وليس عملية البناء. إنه كالعيش في سفينة نوح أثناء الطوفان، حيث كل شيء متوفِّر حتى مفكّ براغي. فما الداعي لارتكاب جريمة قتل، لاغتصاب أو اقتراف السِفاح حين يكون كل المطلوب هو أنْ تقتل الوقت؟ مطر، مطر، مطر، ولكن في داخل السفينة كل شيء جاف ودافئ، وزوج من كل نوع وفي مكان حِفظ اللحوم والأطعمة يوجد لحم خنزير الويستفالي، وبيض طازج، وزيتون، ومُخلَّل البصل وصلصة وورسترشير ولذائذ أخرى. لقد اختارني الله، يا نوح، لأقيم سماء جديدة وأرضاً جديدة. وَهَبَني قارباً ضخماً كل شقوقه مسدودة ومُجفَّف بعناية. وهبني أيضاً المعرفة لأمخر عباب البحار العاصفة. وربما حين سيتوقف المطر ستكون هناك أنواع أخرى من المعرفة نكتسبها، أما في الوقت

الحاضر فتكفي المعرفة البحرية. أما الباقي فلعبة شطرنج في الكافيه رويال، الشارع الثاني، غير أنه كان عليّ أنْ أتخيَّل وجود شريك، عقل يهودي حاذق يجعل اللعبة تدوم حتى يتوقف المطر. ولكن كما قلت من قبل، لم يكن لديّ متّسع من الوقت لأضجر : فثمة أصدقائي الأوفياء، اللوغوس، وبيوسيفالوس، والأراس، والجهد الليلي المُضني وما إليها. فلماذا ألعب الشطرنج؟

بينما أنا محبوس هكذا أياماً وليال لا تنتهي أبداً مع إدراك أنَّ التفكير، حين لا يكون استمنائياً، يكون مُهدِّئاً، شافياً، ممتعاً. التفكير الذي لا يقودك إلى أي مكان يأخذك إلى كل مكان : كل التفكير الآخر يُنفَّذ وفقَ مسار معيَّن ومهما طال المدى، تجد في النهاية دائماً مركزاً لتدريب الجنود أو مبنى دائرياً. في النهاية يوجد دائماً مصباح أحمر يقول قفْ ! ولكن حين يبدأ الأير بالتفكير فلا وجود لا لقِفْ ولا لتِابع : إنها عَطلة دائمة، الطعم طازج والسمكة لا تني تقضم الخيط. وهذا يُذكِّرني بعاهرة أخرى، اسمها فيرونيكا وشيء آخر، وكانت دائماً تدفعني إلى التفكير الخاطئ. مع فيرونيكا كان ينشب دائماً قتال بيننا في الردهة. في حلبة الرقص تظن أنها ستجعلك تشعر في بويضاتها طول الوقت، ولكن ما أنْ تنفلت حتى تبدأ بالتفكير، تفكِّر في قبعتها، وفي محفظتها، في عمتها التي تنتظرها فوق، وفي الرسالة التي نسيَتْ أنْ تضعَها في صندوق البريد، وفي العمل الذي ستفقده - في كل أنواع الجنون، في الأفكار التي لا علاقة لها بالموضوع المطروح. وكأنها فجأةً وَصَلَتْ عقلها بكسّها - وهو أنشط وأبرع كس يمكن تصوّره. كان، بمعنى آخر، كسّاً ميتافيزيقياً؛ كساً يحلُّ المشاكل، وليس هذا فقط، بل

وبطريقةٍ جديدةٍ في الحل، مع مُسرِّع يدور. وبالنسبة إلى هذا النوع من الجهد البديل الإيقاعي كان لابد من وجود ضوء خاص خافت، ويجب أنْ يكون المكان مُظلماً بشكلٍ كافٍ لوطواط وأيضاً مُضاءً بما يكفي للعثور على زر إذا ما سقطَ وتدحرجَ على أرض الردهة. أنت تفهم ما أعني. هو دقّة غامضة موسوسة؛ إدراكٌ فولاذيّ تظاهرَ بالشرود؛ وهو خفّاق ومتقلّب في وقتٍ واحد، بحيث لا تستطيع أنْ تُحدّد إنْ كان سمكة أو طائراً. ***ما هذا الذي أحمله بيدي؟ أهو رائع أم فائق الروعة؟*** الجواب دائماً هو حساء البط. إذا قبضتُ عليها من عشّها فسوف تصرخ كببغاء، وإذا نزلتُ تحت ثوبها فسوف تتلوّى كحنكليز: وإذا ضممتُها بقوة شديدة فسوف تعضّك كابن مقرض. وتلكّأتْ وتلكّأتْ وتلكّأتْ. لماذا؟ إلامَ تسعى؟ هل ستستسلِمْ بعد ساعة أو اثنتين؟ لن تفعلْ أبداً. لقد كانت كحمامة تحاولُ أنْ تطير وساقاها عالقتان في فخٍ من فولاذ. كانت تتظاهر بأنها بلا ساقين. ولكن إذا قمتَ بأي حركة لتحريرها فسوف تُهدِّد بنفض ريشها عليك.

لأنها كانت عاهرة رائعة وأيضاً صعبة المنال بشكلٍ لعين، كنتُ أنظر إليها كأنها جسر الحمير[1]. إنَّ كل تلميذ مدرسة يعلمُ أنَّ جسر الحمير لا يعبره إلا قردان أبيضان يقودهما رجلٌ أعمى. لا أعلمُ لماذا، ولكن هذه هي القاعدة كما وضعها العجوز إقليدس. لقد كان مملوءاً بالمعرفة، ذلك العجوز، حتى إنه قام ذات يوم - أعتقد من باب التسلية المحض -

---

١ - جسر الحمير : عبارة تدل على القضية الخامسة من هندسة إقليدس القائلة بأنه إذا كان للمثلث ضلعان متساويان فإنَّ الزاويتين المقابلتين لهذين الضلعين تكونان متساويتين أيضاً ؛ وتعني أيضاً اختباراً عسيراً يُفرَض على الجاهل أو قليل الخِبرة .

ببناء جسرٍ لا يمكن لأي مخلوق بشري أنْ يعبره. سمّاه جسر الحمير لأنه كان عنده قردان أبيضان جميلان، وكان شديد الكَلَف بهما حتى إنه لم يكن يسمح لأحد بلمسهما. واستحضرَ حلماً مفاده أنه هو، الأعمى، سيقود يوماً القردين عبر الجسر إلى منطقة صيد جميلة للقردة. حسن، كانت فيرونيكا تشبه هذا الشيء كثيراً. كانت تفكّر كثيراً في حمارها الأبيض الجميل حتى إنها لم تكن تفارقه لأي سبب كان، وأرادت أنْ تأخذه معها إلى الجنة عندما تحين ساعتها. أما كسّها، فلا مفر من اصطحابه معها. في ضوء الردهة الخافت، ودون أنْ تشير صراحة إلى مشكلتيها، تقلقك بوجودهما. أي، تجعلك تعيهما على طريقة المشعوذ. ولا يبقى أمامك غير أنْ تلقى نظرة أو لمسة لتكتشف أنكَ خُدعتَ، ليتبيَّنَ لك أنكَ لم ترَ أو تشعر. كان أمراً أشبه بعلم جبر جنسي شديد التعقيد، أعني المجهود المبذول ليلاً الذي لن تربح منه في اليوم التالي أكثر من ألف وباء. وتقدِّم امتحانك، وتحصل على شهادتك، ومن ثم تُعتَق. في تلك الأثناء تكون قد أهلكتَ مؤخرتك من طول الجلوس وكسّك من كثرة التبوُّل. وبين كتاب المدرسة والمغسلة هناك منطقة فاصلة لا يُسمح لك بدخولها أبداً لأنها مُخصصة للنكاح. وقد تهدر وقتك سُدى، ولكن يجب ألاّ تنكح. لم يكن الضوء يُطفأ تماماً، ولا الشمس تصبُّ نورها، بل كان هناك دائماً نور أو ظلام كاف لتمييز وطواط. وذلك القَبَس الغريب القليل من الضوء فقط هو ما أبقى الذهن نشطاً، ليكون منتبهاً للحقائب، وأقلام الرصاص، والأزرار، والمفاتيح، الخ. لم يكن في وسعك أنْ تفكّر بحقّ لأنَّ ذهنك مشغول مُسبقاً. ويبقى الذهن مستعداً، كمقعدٍ فارغ في مسرحٍ تركَ عليه صاحبه قبعته العالية.

كان لفيرونيكا ، كما قلت، كسٌ متكلّم، وهذا شيء سيء لأنَّ عمله الوحيد كما بدا هو التحدُّث مع المرء لصرفه عن أداء عمله. من ناحية أخرى، كان لإيفلين كسٌ ضاحك. وهي الأخرى قطَنَتْ الطابق العلوي ولكن في منزل آخر. كانت دائماً تدخل علينا في أوقات تناول الوجبات لتخبرنا نكتة جديدة. كوميدية من الطراز الأول، وهي المرأة الوحيدة المضحكة حقاً من بين مَنْ عرفتهُنّ في حياتي. كل شيء كان نكتة، حتى النكاح. كان في إمكانها أنْ تجعل أيراً صلباً يضحك، وهذا يعني الكثير. يقولون إنَّ الأير الصلب ليس له ضمير، لكنَّ أيراً صلباً يضحك أيضاً هو ظاهرة فريدة. والسبيل الوحيد للتعبير عن الأمر هو بالقول إنه حين كانت إيفلين تحمي وتنزعج تقوم بأداء فصل من الحديث من البطن مع كسّها. وتهمّ بأنْ تزلقه داخلها وإذا بها فجأةً تصدر من بين ساقيها النموذجيتين قهقهة. وفي الوقت نفسه يتقدَّم منك ويُمسك به ويعصره. بل وكان في إمكانه أنْ يغني أيضاً، ذلك الكس النموذجي. والحقيقة هي أنه كان يتصرَّف كعجل بحر مُدرَّب.

لاشيء أصعب من ممارسة الحب في سيرك. وأداؤها لفصل عجل البحر المُدرَّب طول الوقت جعلها أصعب منالاً مما لو كانت مُحزَّمة بسياط حديدية. كان في وسعها أنْ تحطِّم أشد الانتصابات " شخصيةً " في العالم؛ تحطّمه بالضحك. وفي الوقت نفسه لم يكن الأمرُ مُذلاً بالقدر الذي قد يميل المرءُ إلى تخيّله. فثمة شيء كان يُثير العطف في ذلك الضحك المهبلي. ويبدو العالم كله وقد انكشفَ كفيلمٍ داعر موضوعه المأساوي هو العجز الجنسي، وتتصوَّر نفسك كلباً، أو ابن عرس، أو أرنباً أبيض. كان الحب شيئاً موجوداً في المقدّمة، كطبق كافيار، مثلاً، أو

حجر الدم[1] الشمعي. كان في الإمكان أنْ ترى المتحدِّث من بطنه داخلك يتحدَّث عن الكافيار أو أحجار الدم الشمعي، أما الشخص الحقيقي فهو دائماً ابن عرس أو أرنب أبيض. كانت إيفلين تستلقي دائماً على الرقعة المميَّزة متباعد الساقين تُقدِّمُ للقادم الأول ورقة خضراء لامعة. ولكن إذا تحركت لتأخذ منها قضمة ستنفجر الرقعة المميَّزة ضاحكة، ضحكاً برّاقاً، نديّاً مهبليّاً كما لم يحلم به عيسى هـ. المسيح وعمانوئيل بوسي فوت كَنْتْ، لأنهما لو فعلا لما آل العالم إلى ما آل إليه اليوم ولَما وُجِدَ كَنْتْ ولا المسيح العظيم. الأنثى نادراً ما تضحك، ولكن حين تفعل تكون ضحكة بركانية. حين تضحك الأنثى يجمُل بالذكَر أنْ يهرع إلى قبو السيكلون. لا شيء سيصمد تحت وابل الضحك المهبلي، ولا حتى الإسمنت المسلَّح. وحين يتعالى ضحك الأنثى يمكنها أنْ تُسكِتَ الضبع أو ابن آوى أو القط الوحشي. وبين الحين والآخر يسمعه المرء عند النحلة الجلاّدة مثلاً وهذا يعني أنَّ الغطاء مرفوع؛ أنَّ كل شيء ممكن. يعني أنها ستبحث عن رزقها - وانتبه كي لا تقطع خصيتيك. إنه يعني إذا كان الوباء مُقبلاً فهي مُقبلة قبله، تحملُ سوطاً شائكاً هائلاً ستسلخ به الجلد الحيّ عنك. يعني أنها لن تكتفي بمضاجعة كل مَنْ هبَّ ودبّ، بل والكوليرا والتهاب السحايا، والجذام : يعني أنها ستستلقي على المذبح كالمُهرة التي تحيض وتقبل جميع الزبائن، بمن فيهم الروح القُدُس؛ يعني أنْ ما يبنيه الذكَر المسكين، بحساباته اللوغاريتمية الحاذقة، في خمسة آلاف، أو عشرة آلاف، أو عشرين ألف سنة، ستهدمه هي في ليلة،

---

١ - حجر الدم : أحد أنواع العقيق .

ستهدمه وتبول عليه، ولن يوقفها أحد بعد أنْ تضحك بوقار. وعندما قلت عن فيرونيكا إن ضحكها جدير بأنْ يُحطِّم أشد الانتصابات "***الشخصية***" مناعة كنتُ أعني ما قلت، يمكنها أنْ تحطّم الانتصاب الشخصي وتُعيد إليك آخرَ لا شخصياً، يُشبه مِدكّاً حامياً حتى الاحمرار. قد لا تتمادى كثيراً مع فيرونيكا نفسها، ولكن يمكنك أنْ ترحل بعيداً جداً مع ما ستمنحه لك ولاشك في هذا. حين تصبح داخل مجال سماعها فكأنكَ جرعت كمية كبيرة من الذباب الهندي. ولا يمكن لأي شيء على الأرض أنْ يُنهي انتصابه، إلا إذا ضربته بمطرقة.

استمرّ الوضع على هذا الشكل، على الرغم من أنّ كل كلمة أقولها هي كذب. لقد كانت جولة شخصية في عالم غير شخصي، وكنتُ كرجل يحمل مالجاً صغيراً في يده ويحفر نَفَقاً خلال الأرض ليصل إلى طرفها الآخر، هدفي أنْ أحفر نَفَقاً لأجد أخيراً قناة كوليبرا[1]، الـ nec plus ultra (الكلمة الأخيرة)، لشهر عسل الجسد. وطبعاً لا نهاية للحفر. كان أقصى أملي أنْ أصل إلى مركز الأرض نفسه، حيث الضغط على أشدّه ومتساوٍ في كل مكان، وأبقى هناك إلى الأبد. كان هذا سيمنحني شعورَ إكسيون[2] وهو على الدولاب، وهذا نوع من الخلاص لا يمكن الاستهانة به كثيراً. من ناحية أخرى كنتُ ميتافيزيقيا من النوع الغريزي، وقد استحال عليّ البقاء ثابتاً في أي مكان، حتى في مركز الأرض نفسه. كان من المُلِحّ أنْ أعثر وأستمتع بنكاح ميتافيزيقية، لذا اضطررت

١ - قناة كوليبرا : الجزء الجنوبي الشرقي من قناة باناما .

٢ - إكسيون : في الميثولوجيا ، هو الملك التيسالي الذي عاقبه زيوس على حبه لهيرا بربطه إلى دولاب يتحرك على الدوام .

للخروج إلى نجد جديد كل الجِدَّة، إلى هضبة مستوية مملوءة بنبات الفصَّة الحلوة والأعمدة الحجرية المصقولة، حيث تطير النسور والصقور في فوضى.

أحياناً حين أكون جالساً ذات مساء في حديقة عامة، من النوع المفروش بالأوراق وفُتات الطعام، أرى واحدةً مارة، يبدو عليها أنها متوجهة إلى التيبت، فأتبعها بعينين منتبهتين آملاً أنْ تطير فجأةً، إذْ لو فعلت، لو بدأتْ تطير، لعلمتُ أني سأطير معها، وكان هذا سيعني نهاية للحفر والتخبُّط. أحياناً، وربما بسبب الشَفَق أو أشياء أخرى مزعجة، بدا لي كأنها طارت فعلاً عند منعطف الطريق. أعني، أنها ارتفعت عن الأرض فجأة إلى الفضاء بضعة أقدام، كطائرة مُثقلة بحملها، لكنَّ هذا الارتفاع اللا إرادي المفاجئ، سواء أكان متخيَّلاً أم واقعياً، منحني أملاً، منحني شجاعة لأبقي عينيّ منتبهتين ومُثبتتين عليها.

كان هناك أبواقٌ داخلي تهتفُ " هيا، تابع، تحمَّل " وما شابه من هذا الهراء. ولكن لماذا؟ إلى متى؟ إلى أين؟ من أين؟ كنتُ أضبط ساعة المنبّه لكي أستيقظ وأخرج في ساعة معيَّنة، ***ولكن لماذا أستيقظ وأخرج؟*** لماذا أستيقظ أصلاً؟ إنني بالمالج الذي أحمله بيدي كنتُ أعملُ كعبد قادس دون أدنى أمل في أي مكافأة. ولو تابعتُ الحفر لحصلتُ على أعمق حفرة حفرها إنسان. من ناحية أخرى، لو أردتُ أنْ أصل حقاً إلى الطرف الآخر للأرض، أما كان أسهل عليّ أنْ أرمي المالج وأستقلّ طائرة إلى الصين؟ لكنَّ الجسد يتبع العقل. وأسهل شيء على الجسد ليس دائماً سهلاً على العقل. واللحظة التي يصعب عندها الأمر ويُصبح مُربكاً بشكلٍ غير عادي هي اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان بالسير في اتجاهين متعاكسين.

كـان الكدّ بالمالح نعـمـة؛ يُحرِّر العـقل تماماً ومع ذلك لم يـكن هناك أدنى خطر في افتراقهما. إذا بدأتْ أنثى الحيوان تزمجر من العتمة، إذا انتفضتْ أنثى الحيوان في نوبات فجائيّة من المتعة، وتحرَّك فكّاها كرباط حذاء، وأصدرَ الصدر أزيزاً وقرقعت الأضلاع، إذا بدأتْ الأنثى اللوطية فجأةً تتفكّك على الأرض، من شدَّة المتعة والسخط، في تلك اللحظة بالذات، لا قبلها بقليل ولا بعدها بقليل، يبرز النجد الموعود أمام النظر كسفينة خارجة من الضباب ولا يبقى أمامك غير أن تزرع النجوم وتفلحها وتُطالب بها باسم العم سام وكل ما هو مقدَّس. هذه البلايا كانت تقع باستمرار حتى تعذَّر عدم الإيمان بواقعية عالم سُمّيَ نكاح. وكل شخص غرز في وقتٍ أو آخر علَماً في تلك اللحظة، ومع ذلك لم يتمكن أحد من المطالبة بملكيتها بشكلٍ مُستمر. إنها تختفي بين ليلةٍ وضُحاها - وأحياناً في طُرفة عين. كانت منطقة مُشاعاً تفوح نتانة من أشلاء الموتى الخفيين. إذا أُعلنَتْ هُدنة كنتَ تذهب إلى تلك المنطقة وتصافح أيدٍ وتقايض تبغاً. لكنَّ فترات الهدنة لا تدوم طويلاً. والشيء الوحيد الذي بدأ مُحتفظاً بديمومة هي فكرة " المنطقة المتوسطة ". هنا يتطاير الرصاص وتتكوَّم الجثث : ثم يهطل المطر وأخيراً لا يبقى غير النتانة.

كل هذا ما هو إلا طريقة تصويرية للكلام عما لا يمكن ذِكره. وما لا يمكن ذِكره هو نكاحٌ صِرف وكسّ صِرف، ولا ينبغي ذِكره إلا في طبعات دو لوكس، وإلا سقطَ العالم مُفكَّكاً. إنَّ ما يجعل العالم متماسكاً، كما عرفتُ من تجربتي القاسية، هو العلاقة الجنسية. لكن النكاح، الحقيقي، والكسّ، الحقيقي، يحوي كل منهما على عنصر مجهول هو أكثر خطراً

من النيتروغليسيرين. ولكي تكوِّنْ فكرة عمّا هو حقيقي عليك أنْ تستشير نشرة سيرز-روبوك مُوقّعةً من الكنيسة الأنغليكانية. ستجد على الصفحة ٢٣ صورة بريابوس[1] يتلاعبُ بفتّاحة سدادات على طرف أيره الصغير؛ إنه واقف في ظل هيكل الآلهة خطأً؛ عارٍ إلا من حمّالة الأعضاء التناسلية مثقوبة كان يُقرضها عداّؤو أوريغون وساسكاتشوان المقدّسون في تلك المناسبة. ثمة مكالمة خارجية على الخط يريد صاحبها أنْ يعرف إنْ كانوا سيسلّمون البيعة فوراً أم لاحقاً. ويقول ***اذهبْ إلى الجحيم*** ويُعيد السماعة إلى مكانها. إلى الخلف رامبرانت يدِّس تشريح جثة سيدنا يسوع المسيح الذي، إنْ كنتم تذكرون، صَلَبه اليهود ثم أُخذَ إلى الحبشة وضُرِبَ بحلقات الأوتاد وبأشياء أخرى. يبدو الطقس جميلاً ودافئاً، كالمعتاد، ما عدا بعض الضباب المتصاعد من الأرض الأيونيّة، وهو العَرَق المُفرَز من خصيتيّ نبتون اللتين خصاهما الرهبان القُدامى، أو ربما هم المانويون أثناء الوباء البنتيكوستي وهناك شرائح طويلة من لحم الخيل مُعلّقة في الهواء لتجفّ والذباب مُنتشر في كل مكان، تماماً كما وصفَه هوميروس في الأزمان الغابرة. وعلى مقرُبة تقعُ آلة ماكورمك لدرس الحنطة، وهي تُحصَد وتُحزَم بمحرّك قوّته ستة وثلاثون حصان وبدون أعطال. المحصول صار في الداخل والعمال يعدّون أجورهم في الحقول البعيدة. ها هي حُمرة الفجر في اليوم الأول من المضاجعة الجنسية في العالم الهلّيني القديم، يُعاد تقديمها إلينا بإخلاص وبالألوان والفضل في ذلك يعود إلى الأخوة زايس[2] وإلى المتحمسين الصبورين للصناعة. لكنها

١ - بريابوس : إله القوة الجنسية عند الإغريق والرومان .

٢ - الأخوة زايس : طوروا العدسات والزجاج المُضاد للحرارة في القرن التاسع عشر .

لم تبدُ هكذا للرجال في عصر هوميروس حين وقفوا في تلك البقعة. لا أحد يعرف كيف بدا الإله بريابوس الذي أنزلَتْ به لعنة موازنة فتّاحة سدادات على أيره الصغير. لاشك في أنه وهو واقف هكذا في ظل هيكل الآلهة سقطَ في الحلم بكسّ بعيدٍ جداً، لابد أنه فقد وعيه بفتّاحة السدادات وبآلة درس الحنطة وحصدها، لابد أنه انطوى على نفسه في صمتٍ عميق حتى فقدَ أخيراً الرغبة في الحلم. إنَّ فكرتي هي، وطبعاً أرغبُ في أنْ يُصحِّح لي إنْ أخطأت، أنه بينما هو واقف هكذا وسط الضباب المتصاعد سمع فجأة جلجلة ناقوس التبشير وفجأة يظهر أمام عينيه مُستنقع أخضر بهيّ تمرح فيه قبائل التشوكتوز مع قبائل الفنافايوس، وإلى أعلى في الجو حلّقَتْ النسور البيضاء التي طوّقت أعناقها بشرائط من القطيفة؛ شاهد أيضاً لوحاً هائلاً كُتبَ عليه جسد المسيح، وجسد أبشالوم والشرّ المُسمّى الشَبَق؛ شاهدَ الإسفنجة تُشبَّع بدم الضفادع، والعينين اللتين زرعهما أوغسطين في جلده، والثوب الذي لم يكن كبيراً كفاية ليُخفي الخطايا؛ شاهدَ تلك الأشياء في أقدم لحظة حين كان النافايوس يمرحون مع التشوكتوز وانبهرَ من المفاجأة حتى إنَّ صوتاً انبعثَ من بين ساقيه، من قَصَبة التفكير الطويلة التي فَقَدها أثناء الحلم. كان صوتاً من أشدّها إيحاءً، وحِدَّةً وقوة، ومرحاً وإغراقاً في الضحك، نبَعَ من الأعماق قاطبة. وراح يغني بواسطة إيره الطويل ذاك بجمالٍ ورشاقة إلهيين فائقين حتى إنَّ النسور البيضاء هبطتْ من السماء وطرحَتْ بيوضاً قرمزيّة هائلة الحجم في جميع أنحاء المستنقع الأخضر. ونهضَ سيدنا المسيح من سريره الحجري وأخذ يرقص، على الرغم من أنَّ آثار الضرب بالحلقات ما تزال بادية عليه، كتيس الجبال. وخرج الفلاحون

من مصر وهم مُقيَّدون، يتبعهم الإيغورت المحاربون ورجال زنجبار آكلو البزّاق.

هكذا جرتْ الأمور في اليوم الأول من المضاجعة الجنسية في العالم الهلّيني القديم. ومنذ ذلك الحين تغيَّرتْ الأمور كثيراً جداً. لم يعُدْ من اللائق أنْ تغني بايرك، ولا يُسمح حتى للنسور أنْ تنشر البيض في كل مكان. إنَّ هذا كله مواضيع داعرة موضع دراسة، وإيمان بالأخرويات، واهتمامات عالمية. إنها مُحرّمة، أو Verboten. وهكذا تتقهقر أرض النكاح أكثر، تصبح أسطورية. لذا أنا مُكرَه على التحدُّث بلغة الأسطورة. إنني أتكلّم بأقصى استمتاع، وبطلاوة أيضاً. وأستبعدُ الصنوج المدوّية، وأبواق التوبا، والقطيفة البيضاء، والدفلى ونبات الوردية. انزعوا الأشواك والأصفاد ! المسيح مات وشُوِّه بالحلقات. الفلاحون ينكمشون في رمال مصر، وقد قُيِّدَتْ أرسغهم، ونهشت الصقور كل قطعة لحم عفنة. كل شيء ساكن، ومليون فأر ذهبي يقرضون جبناً غير مرئي. والقمر بدر والنيل يجترّ الخراب المترامي على الضفتين. الأرض تتجشّأ بصمت، والنجوم ترتعش وتشتكي، والأنهار تُضيّع ضفافها. والأمر هو كما يلي... هناك أكساس تضحك وأخرى تتكلّم، وأَكساس مجنونة مُهسترة شكلها مثل آلات الأوكارين وأكساس وافرة، زلزاليّة، تسجّل ارتفاع وانخفاض الدم : ومنها أكلة لحوم البشر تنفتح حتى آخرها مثل فكّيّ حوت وتبتلع الأحياء. وهناك أيضاً المازوشية التي تنغلق كالمحارة ولها أصداف قاسية وربما كان في داخلها لؤلؤة أو اثنتان؛ والحماسية ترقص بمجرَّد اقتراب الأير وتغلّفها الرطوبة من فرط النشوة؛ والشيهميّة التي تنشر ريشها وتلوّح به كالرايات في أعياد الميلاد؛ والبرقية تتدرَّب على رموز مورس وتترك العقل مملوءاً بالنقاط

والقاطعات. ومنها السياسيّة المُشبعة بالأيديولوجيا وتُنكِر حتى سنّ اليأس؛ والخاملة التي لا تتجاوب إلا إذا اقتلعتها من جذورها؛ والدينية التي تفوح برائحة المُعطّلين يوم السبت وهي مملوءة بالخرز والديدان والأصداف، وروث الغنم وبين الحين والآخر تجفّ لتصبح كفُتات الخبز؛ والثدييّة المكسوّة ببشرة خارجية وتُثبت دوام فصل الشتاء؛ والزورقيّة التي تشبه اليخوت، وتصلح للمنعزلين والمُصابين بالصَرَع؛ والجليديّة يمكن أنْ تقذف فيها الشُهُب دون أنْ تُحدث أي ومض؛ والمتنوعة التي تتحدَّى كل تصنيف أو وصف، وتُصادفها مرةً في حياتك وتتركك ذابلاً موسوماً، والأكساس المصنوعة من المتعة الخالصة ولا تتركُ اسماً أو لَقَباً، وهي أفضلها جميعاً، ولكن إلى أين هرَبَتْ؟

ثم هناك كسٌ واحد يختصرها كلها، وسوف نُطلق عليه اسم السوبر-كس بما أنه ليس من هذه الأرض أبداً بل من ذلك البلد المُضيء الذي دُعيت مرةً لتطير إليه. هنا يتلألأ الندى أبداً وعيدان القَصَب الطويلة تنحني للريح. هنا يسكن أبو الفسق العظيم، الأب آبيس، الثور المتنبِّئ الذي شقّ طريقه إلى السماء وجرَّدَ الآلهة المخصيّة من الحق والباطل، ومن آبيس انحدرت سلالة وحيد القرن، ذلك الوحش السخيف المذكور في الكتب العتيقة ذو الحاجب المثقَّف الذي تطاول حتى أصبحَ قضيباً برّاقاً، ومن وحيد القرن انحدر بأطوار مُتدرّجة إنسان المدينة المتأخرة الذي يتحدَّث عنه أوزفولد شبنغلر[1]. ومن صُلب هذه العيّنة الحزينة نشأتْ ناطحة سحاب عملاقة بمصاعدها السريعة وأبراج مراقبتها. نحن آخر نقطة عشرية من الحساب الجنسي، ويتحول العالم

---

١ - عالم طبيعة وفيلسوف في التاريخ (١٨٩١ - ١٩٣٦)، صاحب كتاب "*انحدار الغرب*" في ثلاثة أجزاء. صدرت ترجمته إلى اللغة العربية في لبنان عام ١٩٦٤ عن دار مكتبة الحياة تحت عنوان "*تدهور الحضارة العربية*"، ترجمة أحمد الشيباني. المترجم.

إلى بيضة متعفّنة لا تزال في صندوق القش. والآن لنضع أجنحة الألومنيوم التي ستطير بها إلى ذلك المكان القصيّ، البلد المُضيء الذي يسكنه آبيس، أبو الفسق. كل شيء يتقدَّم كساعات مُزيَّتة، ومقابل كل دقيقة من الساعة الشمسية هناك مليون ساعة بلا صوت تتكّ نازعة لحاء الزمن. إننا منطلقون بأسرع من حاسب البَرق، أسرع من ضوء النجم، أسرع مما يظن الساحر. كل لحظة هي كونٌ من الزمن. وكل كون من الزمن ما هو إلا غمضة عين في النشأة الكونية للزمن. وحين تصل السرعة إلى منتهاها سوف نكون هناك، دقيقين دائماً وغير مُعيَّنين والحمد لله. سوف نخلع أجنحتنا، وساعاتنا ورفوف مواقدنا لنتكئ عليها. سوف نطفر عالياً بخفّة الريش مَرَحاً، كعمودٍ من الدم، ولن تكون هناك ذاكرة تجرّنا إلى الأسفل ثانية. هذه المرة استدعىَ عالم السوبر-كس، لأنه يتحدّى السرعة، والحساب والخيال. حتى الأير نفسه ليس له حجم أو وزن معروف. ليس هناك غير شعور النكاح الثابت ، والزائل بأقصى سرعة، والكابوس يُدخّن سيجارَه الهادئ. نيمو الصغير يتجوّل مع انتصابٍ يدوم سبعة أيام وزوجٍ رائع من الخصيّ الزرق ورّثتها له السيدة بونتيفول. إنه صباح يوم أحد على مقربُة من مقبرة إفرْغرين.

صباح يوم أحد وأنا مُستلقٍ ميتاً بحمد الله بالنسبة إلى العالم على سريري الإسمنتيّ المسلح. المقبرة تقوم عند المنعطف، وهي بتعبيرٍ آخر - ***عالم المضاجعات الجنسية***. خصيتاي تؤلمانني من النكاح المستمر، لكنه مستمر أيضاً تحت نافذتي، وفي الجادّة حيث يحتفظ هايمي بعشّ المضاجعة. أفكّرُ في امرأةٍ واحدة والباقي هباء. أقول إني أفكّر فيها، لكنَّ الحقيقة هي أني أموت موتاً نجمياً؛ مُستلقٍ هناك كنجمٍ مريض

أنتظر أنْ يبزغ النور. قبل سنين استلقيت على ذلك السرير نفسه وانتظرتُ وانتظرتُ أنْ أُولَدْ. ولم يحدث شيء. لكنَّ أمي، في نوبة غضب لوثريّة، دَلَقَتْ عليّ دلواً من الماء. وأمي الغبية المسكينة ظنّتني بليداً. لم تكن تعلم أني أُنقذتُ وسط تيار نجميّ، أني سُحقتُ حتى بتُّ عَدَماً أسودَ هناك في الطرف القصيّ للكون. حسبتُ أنَّ الكسلَ المحض هو الذي جعلني أتسمَّر في السرير. دَلَقتُ دلو الماء عليّ : فتلوَّيتُ وارتعشتُ قليلاً، لكني بقيتُ مستلقياً في مكاني على سرير الإسمنت المسلَّح. كنتُ جامداً؛ شهاباً خامداً مرمياً في مكانٍ ما بالقرب من نجم النسر الواقع.

الآن أنا على السرير نفسه والنور الداخلي يرفض أنْ ينطفئ. عالم الرجال والنساء يُشيعُ المرح في رِحاب المقبرة. إنهم يتضاجعون، فليباركهم الله، وأنا وحيد في أرض النكاح. يُخيَّل إليّ أني أسمع قرقعة آلة ضخمة، سلاسل المنضدة السطرية تمرّ عبر عصَّارة الجنس. هايمي وزوجته المهووسة بالجنس مضطجعان على مستوى واحد معي، إلا أنهما في الطرف المقابل من النهر. النهر اسمه موت ومذاقه مُرّ. خضتُ فيه مرات عديدة، حتى وركَيّ، لكنني بصورةٍ ما لا أنا تحجَّرتُ ولا خلَّدت. لا أزال أشتعل متوهجاً من الداخل، مع أنَّ خارجي ميّتٌ ككوكب. من ذلك السرير نهضتُ لأرقص ليس مرة بل مئات، آلاف المرات. وفي كل مرة يتملّكني يقينٌ بأني رقصتُ رقصة الهيكل العظمي في terrain vague "***منطقةٍ غامضة***". ربما ضيَّعتُ الكثير من جوهري في المعاناة. ربما حملتُ فكرة مجنونة هي أني سأكون أول برعم معدني للأنواع البشرية، ربما تشرّبتُ بفكرة أني أقلّ من غوريلا وأسمى من إله. على هذا السرير

المُسلّح أذكرُ كل شيء وكل شيء موجود في البلّور الصخري. ليس هناك أي حيوان، بل مجرَّد آلاف وآلاف من الكائنات البشرية يتكلّمون دفعة واحدة، لكل كلمة ينطقون بها لديَّ جواب فوري، وأحياناً يحضر قبل أنْ تخرج الكلمة من أفواههم. هناك الكثير من القتل، ولكن لا دماء. جرائم القتل تُرتَكَب بنظافة، ودائماً بصمت. حتى لو قُتِلَ كل شخص فسيبقى الحديث، وعلى الفور سيغدو الحديث مُعقّداً وسهل المتابعة. لأنني أنا الذي اخترعه ! أعرفه، ولهذا لا يقودني أبداً إلى الجنون. لديّ أحاديث قد لا تُفتح إلا بعد عشرين عاماً قادماً، وذلك حين أقابلُ الشخص المناسب، فلنقُلْ الذي سأخترعه. كل تلك الأحاديث تُفتح في قطعة أرض جرداء مُلتصقة بسريري تماماً كالحشيّة. وذات يوم أطلقتُ عليها اسماً، تلك "***المنطقة الغامضة***"، سمّيتُها أوبيغوتشي، ولكن تلك التسمية بصورة ما لم تُرضِني أبداً، كانت تدلّ على ذكاءٍ مُفرِط، لكنها مُفعمة بالمعنى. من الأفضلَ أنْ أحتفظ بلقَب "***المنطقة الغامضة***"، وهو ما قرَّرته. يعتقد الناس أنَّ الفراغ هو العَدَم، لكنَّ هذا غير صحيح. فالفراغ هو امتلاء متنافر، عالم طيفيّ مُزدحم تدخل فيه الروح لتقوم بالاستكشاف. أذكر وأنا طفل أني كنتُ أقفُ على الأرض الجرداء وكأني روح تضجُّ بالحياة تقفُ عارية داخل زوج من الأحذية. وكان الجسد قد سُرِقَ مني لأنه لا حاجة خاصةً لي إليه، كان في وسعي حينئذٍ أنْ أبقى بجسدٍ أو من دونه. وإذا اصطدتُ عصفوراً صغيراً وشويته على النار وأكلته فليس لأنني جائع بل لأنني أردتُ أنْ أعرف شيئاً عن تومبكتو أو تييرا دل فيوغو. كان عليّ أنْ أقف على الأرض الجرداء وآكل عصافير ميتة لأخلق توقاً إلى تلك الأرض الوضّاءة التي سأسكنها لاحقاً وحيداً في حين يكتفي

الناس بالحنين إليـهـا. توقّـعتُ أشـيـاء مُطلقـة من ذلك المكان، لكنني خُدِعتُ بصورةٍ تدعو إلى الرثاء. ذهبتُ إلى أقصى ما يستطيع المرء وهو في حالة موتٍ تام، ومن ثم وبتأثير قانونٍ ما، لابد أنه قانون الخلق، بدأتُ أتوهَّج فجأة وصرتُ أعيش حياةً لا تنضب، كنجمٍ لا ينطفئ نوره. من هنا بدأتْ نزهات نهش اللحم البشري التي كانت تعني لي الكثير؛ لا عصافير مشوية بعد الآن، بل لحم بشريُ حيّ، لحمُ بشريُ طريّ، ريّان، أسرارٌ أشبه بأكبادٍ طازجة مُلطَّخة بالدم، عهودُ ثقةٍ كأورامٍ مُنتفخة حُفظَتْ في الثلج. تعلّمتُ ألاّ أنتظر موت ضحيتي، بل أنْ أنهشها وهي تتحدَّث إليّ. غالباً حين كنتُ أبتعدُ عن وجبةٍ غير مُنتهية أكتشفُ أنها لم تكن أكثر من صديقٍ قديم هو أقلّ قيمة من ذراعٍ أو ساق. أحياناً كنتُ أتركه واقفاً مكانه - جزعاً مملوءاً بأمعاءٍ نتنة.

بما أني من المدينة، من المدينة الوحيدة في العالم وبرودواي لا يشبهه أي مكان، فقد كنتُ أتجوَّل متسكّعاً أحملق في قِطع لحم الخنزير المزدهرة واللذائذ الأخرى. كنتُ فُصامياً من أسفل حذائي وحتى أطراف شَعري. عشتُ في صيغة المصدر حصراً، ولم أفهمها إلا في اللغة اللاتينية. وقبل أنْ أقرأ عنها بزمن بعيد في ***الكتاب الأسود*** كنتُ أعيش مع هيلدا، قرنبيطة أحلامي العملاقة. اجتزنا جميع أمراض الزواج غير المتكافئ معاً وكان قليل منها ex cathedra "ناتج عن السلطة" . سكنّا في جسد الغرائز وتغذّينا على الذكريات العُقَديّة ganglionic. لم يكن هناك كون واحد، بل ملايين وبلايين الأكوان، وكلها معاً ليست أكبر من رأس الدبوس. كان نوماً نباتياً في بريّة العقل. كان الماضي، الذي وحده يُشكّل الأبد. وسط حيوانات ونباتات أحلامي سمعتُ نداءً آتياً من

مسافة قصيّة. كانت الرسائل تنهال على طاولتي من المشوَّهين والمصروعين. أحياناً هانس كاستورب[1] يُنادي وكنا معاً نرتكب جرائم بريئة. أو، إذا كان نهاراً مُثلجاً برّاقاً أقوم بدورةٍ في ساحة السباق مع دراجتي السريعة مُنطلقاً من تشيمنيتز في بوهيميا.

كانت رقصة الهيكل العظمي أفضل شيء. أولاً أغسلُ جميع أعضائي في الحوض، أبدِّل ملابسي الداخلية، أحلق ذقني، أتبودر، أُسرِّح شعري، وأقوم بخطوات الرقصة. ومع شعوري بالخِفّة التامة الخارقة أطيرُ مندمجاً في الحشد فترة من الزمن لأحصل على الإيقاع الإنساني المضبوط، على ثقل جوهر الجسد. ثم أسلك أقصر الطُرُق أبغي حلبة الرقص، واختطف كتلة ضخمة من اللحم المُصاب بالدوار وأدور على إصبع واحد دورة خريفية. هكذا دخلت إلى منزل اليونانية المشعرة ذات ليلة وطيَّرتُ لها قبلة قوية. بدتْ سوداء مُزرقّة، بيضاء كالطباشير، لا عمر لها. لم يكن هناك فقط المشاوير المستمرّة، بل والتدفُّق المتواصل، وشهوانيّة القلق الفعلي. كانت زنبقيّة وذات وزن مثالي. نظرتها مرمرية كأنها أحد آلهة الحقول مطمور في اللافا. وفكَّرتُ في أنَّ الوقت قد أزف لأعود من السطح الخارجي. تحرّكت صوب المركز لأجد الأرض تتغيَّر تحت قدمي. وانزلقت الأرض بسرعة تحت قدميّ الضالتين. فتحرّكتُ ثانية مبتعداً عن حزام الأرض وأنظر، فأرى يديَّ مملوءتين بالأزهار الشهبية. مددتُ إليها يدين مُلتهبتين لكنها كانت أكثر تملُّصاً من الرمل. فكَّرت بكوابيسي المفضّلة، لكنها لم تكن تشبه أي شيء سبق أنْ سبَّب لي

---

١ – هانس كاستورب : بطل رواية " الجبل المسحور " لتوماس مان .

التعرُّق والهذر. رحتُ وأنا في اهتياجي أطفر فرحاً وأصهل. اشتريتُ ضفادع وزاوجتُها مع شراغف الطين. فكَّرتُ في أسهل ما يمكن عمله، أي أنْ أموت، لكنني لم أفعل شيئاً. وقفتُ جامداً وبدأتُ أُصعَق أمام الأهوال. كان ذلك رائعاً جداً، شافياً جداً، محسوساً ببروز، حتى إني أخذتُ أضحك حتى أسفل أحشائي، كضبعة جُنَّتْ من حيضها. استطعتُ أنْ أتحوَّل فأغدو حجر رشيد ! وبقيتُ واقفاً هكذا أنتظر. أتى الربيع والخريف ومن ثم الشتاء. جدَّدتُ بوليصة التأمين على حياتي تلقائياً. أكلتُ العشب وجذور الأشجار النفضيّة. جلستُ أياماً طويلة دون انقطاع أشاهد الفيلم نفسه. أحياناً أنظِّف أسناني. ولو أنكَ أطلقتَ النار عليّ لانحرفت الرصاصات وارتدَّتْ تتا-تتا عن الجِدار بطريقة غريبة. وذات مرة، في شارع مُظلم مملوء بقُطّاع الطُرُق، شعرتُ بسكين تخترقني. شعرتُ كأني أستحمّ بالإبر. والغريب أنَّ السكين لم تترك أثراً على جلدي. كانت التجربة من الجِدَّة بحيث إني عدت إلى المنزل ورحتُ أغرز السكاكين في جميع أنحاء جسمي. والمزيد من حمّامات الإبر. جلستُ، سحبتُ جميع السكاكين، وازداد عَجَبي حين لم أجد أي أثر للدم، لا ثقوب، لا ألم. وهممتُ بقرص ذراعي فإذا بالهاتف يرن. مكالمة من مسافة بعيدة. لم أعرف أبداً مَنْ يُتّصل بي لأنَّ أحداً لم يردّ على الهاتف. على أي حال فرقصة الهيكل العظمي...

تمرّ الحياة عابرةً واجهة العرض، وأنا مُستلق هناك كقطعة من لحم الخنزير مُسلَّط عليها ضوء غامر تنتظر الفأس لينهال. في الحقيقة، ليس ثمة ما يُخيف، كل شيء مُقطَّع بأناقة إلى شرائح صغيرة رقيقة وملفوفة بالسيلوفان. وفجأة تُطفأ أنوار المدينة كلها وتُطلَق صفّارات الإنذار

تحذيرها. المدينة مُغلّفة بغاز سامّ، وهناك قنابل تنفجر، وأجسادُ مُشوَّهة تتطاير في الهواء، وكهرباء في كل مكان، ودماء وشظايا ومكبرات صوت. المتطايرون في الهواء يملؤهم الحبور، والذين في الأسفل يصرخون جائرين. حين يأتي الغاز واللهب على كل اللحم تبدأ رقصة الهيكل العظمي. أراقبُ من واجهة العرض التي سادها الظلام الآن. إنه مشهد يفوق نهب روما لأنَّ هناك المزيد ينتظر التدمير.

لماذا ترقص الهياكل العظمية بكل هذه النشوة، وأتعجَّب. أهو انهيار العالم؟ أهي رقصة الموت التي طالما بُشِّرَ بها؟ إنَّ رؤية ملايين الهياكل العظمية ترقص في الثلج بينما المدينة تغرق لهو مشهد مُروِّع. هل سيعود أي شيء للنمو من جديد؟ هل سيخرج الأطفال من الرحم؟ هل سيتبقّى طعام وخمر؟ الرجال هناك في الهواء، بالمناسبة. سيهبطون لكي ينهبوا. سوف تتفشّى الكوليرا والديزنطاريا والذين كانوا في القمة ومنتصرين سيفنون كالباقين. ولديّ شعور أكيد بأني الإنسان الأخير على الأرض. سوف أبرز من واجهة العرض حين ينتهي كل شيء وأمشي بهدوء وسط الأنقاض. سوف أملك الأرض وما عليها.

اتصال هاتفي خارجي! تُنبئني بأني لستُ وحيداً تماماً. إذن فالدمار لم يكن كاملاً؟ أمر غير مُشجِّع. إنَّ الإنسان ليس قادراً حتى على تدمير نفسه، لا يقدّر إلا على تدمير الآخرين. وأنا أشعر بالاشمئزاز. أي مستنقع خبيث! أي أوهام قاسية! إذن لا يزال هناك أحياء وسيعيدون ترتيب الفوضى ويبدؤون من جديد. سوف يهبط الله من جديد بلحمه ودمه ويتحمَّل عبء الذنب على كاهله. وسوف يؤلّفون موسيقى ويبنون بالحجارة ويدوّنون كل شيء في كتب صغيرة. أوف! أي عناد أعمى، أي طموحات خرقاء!

أنا في السرير ثانية. العالم الإغريقي القديم، فجر المضاجعات الجنسية - وهايمي ! هايمي لوبشر دائماً على مستوى واحد، ينظر أسفلاً إلى الجادّة الكائنة عبر النهر. ثمة ركود في حفل الزفاف وسمك البطلينوس المقلي أُحضِر. يقول، ***زيحي شويّ زغيرة. أيوه، هكذا، تمام*** ! أسمعُ ضفادع تنقّ في المستنقع خارج نافذتي. ضفادع مقابر كبيرة تتغذّى على الأموات، مُحتشدة كلها في جماعٍ جنسي، تنقّ بمرح جنسي.

أدركَ الآن كيف حُبِلَ بهايمي وأُخرِجَ إلى الوجود. هايمي الضفدع الضخم ! كانت أمه في أسفل الصرّة وهايمي، الجنين، مختفياً في كيسها. حدثَ ذلك في أيام الجِماع الجنسي الأولى ولم يكن هناك مركيز كوينسبري يحكم ليُعيق. بل ناكحاً ومنكوحاً - وليأخذ الشيطان هذا الأخير. والحال هو الحال منذ أيام الإغريق - نكاحٌ أعمى في الوحل ومن ثم تفريغٌ سريع فموت. والناس ينكحون على مستويات مختلفة ولكن كلها تحدث في مستنقع والمواليد محكومٌ عليها دائماً بالنهاية نفسها. وبعد أنْ يتهدَّم المنزل يبقى السرير قائماً : رمزاً لمذبح الجنس الشامل.

كنتُ ألوِّث السرير بأحلامي. وحين أتمدَّد على سرير الإسمنت المسلّح نفسه تترك روحي جسدها وتحوم متنقّلة على حافلة صغيرة كالمستعملة في مخازن البنايات لاستبدال العملة. وأقوم بتغيّرات أيديولوجية ونزهات، فأنا متشرِّد في بلدِ العقل. كل شيء واضح تماماً أمامي لأنه مُثبَّتْ في الحجر الكريستالي، على أي مخرج كُتِبَ بحروفٍ كبيرة **عَدَمْ**. الخوف من الفناء جمَّدني وغدا جسمي نفسه قطعة من الاسمنت المسلّح، مُزيّنةً بانتصابٍ دائمٍ بأفضل ذوق. لقد حققّتُ تلك الحالة من الفراغ برزانة يُحبّذها بعض أعضاء ورعين في عبادات سرية. لقد فنيتُ. ***لم أكنْ حتى انتصاباً شخصياً***.

في نحو ذلك الوقت تقريباً، وتحت اسمٍ مستعار هو شمشون لاكاوانا، بدأتُ عمليات السلب. فقد بات لغريزة الإجرام عندي اليدُ الطولى. حتى ذلك الحين لم أكنْ غير روح ضالة، نوعاً من الديبك[1] غير يهودي، أصبحتُ شبحاً يلبس لحماً. اتّخذتُ الاسم الذي أعجبني وما كان عليّ إلا أنْ أتصرَّف بتلقائيّة. في هونغ كونغ، مثلاً، ذهبت على أني وكيل لنشر الكتب، وحملت كيس نقود جلدي مملوء بالدولارات المكسيكية وزرتُ تحت ستار الدين كل الصينيين الذين كانوا في حاجةٍ إلى مزيدٍ من الثقافة. في الفندق طلبتُ النساء كما يُطلَبْ الويسكي والصودا. ومنذ الصباح بدأتُ في دراسة اللغة التيبتيّة استعداداً لرحلتي إلى لهاسا. وكنتُ أتقنُ لغة اليهود بطلاقة، والعبرية أيضاً. كان في وسعي أنْ أعدّ صفّين من الأرقام فوراً. وكان سهلاً جداً خِداع الصينيين وعدتُ إلى مانيلا وأنا أشعر بالاشمئزاز. هناك اتّخذتُ شخصاً يُدعى السيد ريكو مُساعداً لي وعلّمته فن بيع الكتب بدون دفع رسوم. كانت الأرباح تأتني من نِسَبْ أجور البحر، لكنها كانت كافية لتجعلني مُرفّهاً طالما كانت قائمة.

أصبح النَفَس خدعة كما التنفُّس. لم تكن الأشياء ثنائية فقط، بل مُضاعفة. وأصبحت قَفَصاً من المرايا تعكس خواء. ولكن حين يتكاثف الخواء بعنف أشعرُ بألفة ولا يكون ما يُدعى بالخَلْق غير وظيفة وصل المآخذ. حملتني الحافلة المريحة وتجوّلت بي هنا وهناك وفي جيبٍ جانبي صغير من الفراغ العظيم وضعتُ طناً من القصائد لأزيل فكرة العَدَم.

---

١ – الديبك : عند اليهود ، هي روح الميت الآثم التي تتلبَّس جسد إنسان حيّ . – المترجم .

كانت دائماً تظهر أمامي آفاق لا حدود لها. وعشتُ داخل المشهد كأني ذرّة مجهرية على عدسة منظار مُكبِّر عملاق. لم يكن هناك ليلُ أرتاحُ فيه، بل ضياء نجم دائم على السطح المُحدَّب للكواكب الميتة. وأحياناً بحيرة سوداء كالرخام أرى فيها نفسي سائراً وسط دوائر متلألئة من الأضواء. كانت النجوم قريبة والضياء الذي تبعثه مذهل الجمال، حتى لقد بدا وكأنَّ الكون على وشك أنْ يولَدْ الآن فقط. وما جعل الانطباع أقوى هو كوني وحيداً، ليس فقط أنه لم يكن هناك حيوانات، ولا أشجار، ولا كائنات أخرى، بل ولا حتى ورقة عشب واحدة، جذر ميّت. في ذلك الضوء البنفسجي المتوهج وبدون أي أمل في وجود ظِلّ بَدَتْ الحركة نفسها غائبة. كان أشبه بلهب وعي نقي، وأصبح الفكر هو الله. والله، وللمرة الأولى في تاريخ معرفتي، كان نظيفاً تماماً. وأنا أيضاً كنتُ نظيفاً تماماً، بلا أخطاء، ودقيقاً بشكلٍ مُطلَق. شاهدتُ صورتي منعَكسة على البحيرات الرخامية السوداء وكانت مُزيَّنة بالنجوم. نجوم، نجوم... كأنكَ تضرب ضربة بين العينين وإذا بجميع الذكريات تنهمر منك. كنتُ شمشون وكنتُ لاكاوانا وكنت أموت وكأني في نشوة الوعي الصرِف.

والآن ها أنا ذا، أبحرُ في النهر في زورقي الصغير. أقوم بكل ما أريد أنْ أقوم به - مجاناً. هذه هي أرض النكاح، حيث لا حيوانات، ولا أشجار، ولا نجوم، ولا مشاكل. هنا تسود مملكة الحيوان المنوي. لاشيء مُقرّر مُسبقاً، والمستقبل مشكوك فيه أبداً، والماضي غير موجود. مقابل كل مليون وليد يُقدَّر لـ ٩٩٩ . ٩٩٩ منهم أنْ يموتوا ولا يولدوا بعدها أبداً. ولكن مَنْ يهرب يضمن لنفسه الأبدية. فالحياة مضغوطة في بذرة،

هي الروح. كل شيء فيه روح، حتى المعادن، والنباتات، والبحيرات، والجبال، والصخور. كل شيء فيه حس، حتى وهو في أدنى دَرَجات الوعي.

حين تفهم هذه الحقيقة لا يعود هناك يأس. أسفل السلَّم، عند الحيوانات المنوية، يوجد النعيم كما في القمة، عند الله. الله هو اختصار كل الحيوانات المنوية وهي في حالة الوعي التام. وبين القاع والقمة لا توجد نقطة توقّف، لا محطة في منتصف الطريق. يبدأ النهر في كل مكان من الجبال ويتدفَّق ليصبّ في البحر. في هذا النهر المؤدي إلى الله يخدم القارب الصغير وكأنه مُدرّعة. والرحلة منذ البدء تُيمِّم شطر المنزل.

أبحرت في النهر... ببطء كدودة الأنكلوستوما، لكنني صغير جداً أقوم بكل انحناء؛ وزلاّق كحنكليز أيضاً. صرخَ أحدهم، ما اسمك؟ ***اسمي؟ وَلّوْ، فقط سَمِّني الله - الله الجنين***، وأتابعُ الإبحار. يريد أحدهم أنْ يبتاع لي قبعة. ما هو مقاسك، أيها المغفَّل! هكذا يصرخ. أي ***مقاس؟ إنه مقاس*** x! (ولماذا يصرخون في وجهي دائماً؟ هل يظنون أني أصمّ؟) ضاعت القبعة في الشلال الذي تلا. ***خسارة*** - على القبعة؟ وهل يحتاج الله إلى قبعة؟ إنَّ الله لا يحتاج إلا إلى أنْ يصبح الله، الله أكثر فأكثر. كل ذلك الترحال، وكل تلك الأشراك، ومرور الزمن، والمشهد العام، المشهد الذي يقفُ الإنسان في صدره، وهناك تريليونات وتريليونات من الأشياء تُسمّى الإنسان، مثل بذور الخردل. حتى وهو جنين ليس لدى الله ذاكرة. الستارة الخلفية للوعي صُنِعَتْ من الكُتَل العصبيّة المتناهية في الصغَر، وهي طبقة من الشعر الناعم كالصوف. يقفُ تيسُ الجبل وحيداً وسط جبال الهيمالايا؛ إنه لا يسأل كيف وصلَ

إلى الذروة، ويرعى بهدوء وسط ***الزخرفة***، وعندما يحين الوقت المناسب سوف يهبط من جديد. إنه يُبقي فمه قريباً من الأرض، باحثاً عمّا تناثر من الغذاء الذي تُقدّمه ذُرى الجبال. في تلك الحال الجديدة لله الجنيني يجترّ التيس في سعادة كسلى بين ذرى الجبال. والذُرى العالية تغذّي جرثومة الانفصال التي ستغرّبه يوماً ما كلياً عن روح الإنسان، ستعزله، ستجعله أباً مُتحجّر القلب يعيش منفرداً إلى الأبد في فراغ لا يمكن تصوّره. ولكن أولاً تأتي أمراض اللا تلاؤم، وسوف نتحدَّث عنها الآن...

هناك حالة من البؤس لا علاج لها - لأنَّ أصلها قد ضاع بغموض. ومحل بلومنغديل مثلاً، يمكن أنْ يُسبّب هذه الحالة. كل مخازن البنايات هي رموز للاشمئزاز والخواء، لكنّ محل بلومنغديل هو اشمئزازي الخاص، مَرَضي الغامض الذي لا شفاء منه. في عماء محل بلومنغديل هناك نظام، ولكن ذلك النظام بالنسبة إليّ هو الجنون المطبق؛ إنه النظام الذي قد أجده على رأس دبوس لو وضعته تحت المُكبِّر. نظام سلسلة عَرَضيّة لوقائع مفهومة تلقائياً. ولذلك النظام، قبل أي شيء، نكهة - ونكهة محل بلومنغديل هي التي بثّتْ الرعب في قلبي. في محل بلومنغديل انهرتُ تماماً : سقطتُ على الأرض، كومة لا حِراك بها من أحشاء وعِظام وغضاريف. فقد انبعثتْ رائحة، ليس من التعفُّن بل من الافتقار إلى الانسجام. لقد لُحِمَ الإنسان، ذلك البائس، معاً في مليون قالب وشكل، ومادة وجوهر لا يجمعها أي قاسم مشترك. لأنَّ في رأسه وَرَماً ينهشه بلا رحمة، تركَ القارب الصغير الذي كان يحمله بسعادة في النهر ليبني قارباً أكبر وأكثر أمناً، قد يتوفَّر فيه مكان لكل إنسان. وجرفته جهوده

بعيداً جداً حتى فقدَ كل ذكرى لسببِ تركه القارب الصغير. القارب مملوء حتى آخره بالطُرَفْ حتى أمسى بناءً لبيع القرطاسية قائماً عبر أحد الطُرُق الفرعية تنتشر فيه رائحة مُشمَّع الأرضيّة وتطغى على كل شيء. اجمعْ كل ما يكمن من مغزى في تضاعيف منوعات محل بلومنغديل وضَعْها على رأس دبوس، وستكون بذلك قد تركتَ كوناً تتحرَّك فيه أجرامٌ هائلة متألّقة دون أدنى خطر من تصادمها. هذا العماء المجهري هو سبب عللي اللا تلائميّة. في الشارع أبدأ في طعن الأحصنة بلا تمييز، أو أرفعُ طَرف ثوب نسائي هنا أو هناك باحثاً عن صندوق بريد، أو أضعُ طابع بريد على فم، أو عين، أو فرج، أو أُقرِّر فجأة أنْ أرتقي بناءً شاهقاً، كذبابة، وحين أصل إلى السطح أطير بجناحين حقيقيين وأطير أطير أطير، ماسحاً مُدُناً مثل ويهوكن، وهوبوكن، وهاكنساك، وكارناسي، وبرغن بيتش بطُرفة عين. وما أنْ تصبح فصامياً حقيقياً حتى يغدو الطيران أسهل شيء في العالم، والخدعة هي أنْ تطير بالجسَد الأثيري، أنْ تُخلِّف وراءك في محل بلومنغديل حقيبتك المملوءة بالعظام، والأحشاء، والدماء والغضاريف؛ أنْ تطير فقط بذاتك الثابتة التي هي دائماً، إذا ما وقَفتَ لحظةً وفكّرت، مزوَّدةٌ بجناحَين. الطيران على ذلك الشكل، في رابعة النهار، له مزايا على الطيران الليلي العادي الذي ينغمسُ فيه الجميع. يمكنك أنْ تغادر لحظة إلى لحظة أخرى بنفس السرعة والحزم اللذين تدوس بواسطتهما على المكبح، ولا صعوبة في إيجاد ذاتك الأخرى، لأنك لحظة تخلق، تكون الذات الكلّية، التي قام الكثير من التفاخُر حولها - بينما تجربة بلومنغديل تتكشَّف - تنهار بسهولة كبيرة. سوف تبقى رائحة مُشمَّع الأرضية، ولسبب غريب، تجعلني أتفتَّتْ وأنهار على الأرض. إنها

رائحة جميع الأشياء غير الطبيعية التي لَصَقَتْ بي معاً، وتجمّعت، إنْ صحّ التعبير، بموافقة سلبية.

لم تبدأ هِبات الصباح، التي ورّثتها صِلات القربى الزائفة بين الأسلاف، بالاختفاء، وتتهلّل الصخرة الحقيقية للروح، الصخرة السعيدة من أعماق سخرية الروح، إلا بعد تناول الوجبة الثالثة. ومع هبوط الليل يبدأ كونُ رأس الدبوس بالامتداد. يمتد عضوياً، بدءاً من ذرّة متناهية في الصِغر، بالطريقة نفسها التي تتشكل بها المعادن والمجرّات، ويقرض في العماء كله المحيط به كجرذ يحفر طريقه إلى مخزن الأجبان. يمكن للعماء كله أنْ يتجمَّع على رأس دبوس، لكنَّ الذات، المجهرية في أول الأمر، تعمل على إنشاء كون بدءاً من أي نقطة في الفراغ، وليست هذه هي الذات التي تتحدث عنها الكتب، بل الذات السرمدية النامية عبر عصور ألفيّة لأناس لهم أسماء وتواريخ، الذات التي تبدأ وتنتهي كدودة، وهي الدودة التي تنهش في قطعة الجبن المُسمّاة العالم. وكما أنَّ أرقّ النسمات قادرة على تحريك غابة مترامية الأطراف كذلك الروح القوية كالصخرة، وبدافعٍ داخلي لا يُسبر عمقه، يمكنها أنْ تبدأ بالنمو، وبذلك النمو لا شيء يمكن أنْ يفوز عليها. إنها أشبه بجاك فروست أثناء عمله، والعالم كله هو بمثابة زجاج نافذة. لا أثر لعمل، لا صوت، لا صِراع، لا راحة، بل يستمر نماء الذات بلا لين، ولا رحمة وبلا انقطاع. في قائمة الطعام لا يوجد إلا بندان : الذات واللا ذات. وأبديّة لتحقيقهما. في هذه الأبدية، التي لا علاقة لها بالزمان والفراغ، هناك فواصل زمنية يُقحَم فيها شيء كالذوبان. ويتحطّم شكل الذات، لكنَّ الذات، كالمناخ، تبقى. في الليل يتّخذ القسم اللا متبلور من الذات أشدّ

الأشكال تملُّصاً : يتسلَّل الخطأ مُخترقاً الكُوى ويفصل الهائم عن بابه. هذا الباب الذي يرتديه الجسد، إذا فُتِحَ على العالم، يؤدي إلى العَدَم. هو باب موجود في كل قصة خيالية منه يخرج الساحر، ولم يسمع أحد أنه يعود إلى المنزل من الباب نفسه. إذا فُتِحَ إلى الداخل فثمة أبواب لا نهاية لها، كلها تشبه الأبواب المسحورة : لا ترى خطوطاً، لا أنهار، لا خرائط، لا تذاكر. كل سرير هو توقُّف لقضاء ليلة فقط، سواء أكانت خمس دقائق أم عشرة آلاف عام، ليس للأبواب مقابض وهي لا تبلى أبداً. وأكثر ما يُلفتْ الانتباه - أنه لا نهاية لمرمى النظر. تلك التوقعات كلها لقضاء ليلة، إنْ صحّ التعبير، هي اكتشافات ناقصة للأسطورة. يمكن للإنسان أنْ يتلمَّس طريقه متجولاً، أنْ يتّخذ له وجهة أو وقفة، أنْ يراقب الظواهر الجارية، بل ويمكنه أنْ يشعر بالألفة. ولكن لا مجال لضرب الجذور. فلحظة تبدأ بالشعور أنكَ " استقرّيت " تنهار المنطقة كلها، وتنزلق التربة من تحت قدميك، وتتفكّك المجرّات عن مراسيها، ويبدأ الكون المعروف كله، بما فيه الذات الخالدة، بالتحرُّك بصمت، بشؤم، صافٍ ولا مبالٍ يُثير القشعريرة، نحو هدف مجهول، خفيّ. تبدو الأبواب كلها كأنها تُفتَح في الحال، والضغط عالٍ جداً حتى إنه يحدث انفجار داخلي وينفجر الهيكل العظمي إرباً في سرعة بالغة. كان انهياراً جبّاراً من النوع الذي عاناه دانتي حين وضعَ نفسه في الجحيم، لم يكن قاعاً ما لَمَسَه بل لُبّاً، نقطة ميتة منها يُحسَبْ الزمن نفسه. هنا تبدأ الملهاة، فهنا المكان قُدسي.

إنَّ كل ما سبق إنما هو لأقول إني وأنا أدخل من باب صالون أماريللو للرقص الدوّار في إحدى الأمسيات قبل اثنتي عشرة أو أربع

عشرة سنة، وقعَ الحدثُ الأعظم. الفترة الإضافية التي أصِفها بأرض النكاح، وهي عالم زمن أكثر منه عالم فراغ، تعادل بالنسبة إليّ المظهَر الذي وَصَفَه دانتى بتفصيلٍ جميل. فما أنْ وَضَعتُ يدي على الدرابزين النحاسيّ للباب الدوّار لأغادر صالون أماريللو للرقص حتى انهار كل ما كُنته وما سأكونه. لم يكن زيفاً ما حدث، وانقضى الوقت الذي وُلدتُ فيه، جَرَفه تيار عات. وكما خرجت من الرحم صُرّة صغيرة، هكذا الآن تحوّلَتْ عائداً إلى قوة موجّهة لا زمنيّة حيث أُبقيَتْ عملية النمو مُعطَّلة. عَبَرتُ إلى عالم المؤثرات، حيث لا خوف، بل شعور بالفاجعة. وُصِلَ عمودي الفقري إلى المنبت، وصرتُ مُنتصباً على عصعص عالم جديد عنيد. في الانطلاق يتفجَّر الهيكل العظمي متناثراً، تاركاً الذات الثابتة عاجزة كقملة مسحوقة.

إذا لم أبدأ من هذه النقطة فلأنه لا وجود لبداية. وإذا لم أطُرْ على الفور إلى الأرض البرّاقة فلأنَّ الأجنحة لا نفع فيها. إنها ساعة الصِفر والقمر في الدرك الأسفل...

لماذا أفكِّر في ماكسي شناديغ؟ لا أدري! اللهم إلا إذا كان بسبب دوستويفسكي. فذات ليلة جلستُ لأقرأ دوستويفسكي أول مرة كان هذا أهمّ حدث في حياتي، بل أكثر أهمية من حبي الأول. كان أهمّ عمل مدروس، واعٍ، له أهمية بالنسبة إليّ، وقد غيَّر وجه العالم كله. لم أعُدْ أعرف إنْ كانت الساعة قد توقفتُ لحظة، هذا ما أعرفه. كانت تلك أول نظرة ألقيها على روح إنسان، أم هل أقول ببساطة إنَّ دوستويفسكي كان أول مَنْ كشَفَ عن نفسه لي؟ ربما كنتُ شاذاً قليلاً قبل ذلك، دون أنْ أعلم، ولكن منذ اللحظة التي انغمستُ فيها داخل

دوستويفسكي صرتُ شاذاً بشكلٍ مطلق، نهائيّ، راض. وانطوى عالم اليقظة العادية، العمل اليومي، إلى الأبد. وقُتِلَ كل طموح لي في الكتابة أيضاً - ولزمن طويل تلى. كنتُ أشبه أولئك الذين لبثوا طويلاً جداً في الخنادق وتعرّضوا طويلاً لإطلاق النار. صارت المعاناة الإنسانية العادية كومة قذارة بالنسبة إليّ.

يمكنني أنْ أصورِّ حالتي بطريقة أفضل حين أفكِّر في علاقتي بماكسي وأخته ريتا. في ذلك الوقت كنتُ وماكسي مهتمّين بالرياضة. وكنا كثيراً ما نذهب معاً لنسبح، هذا ما أذكره تماماً. وغالباً ما أمضينا النهار بطوله والليل على الشاطئ. ولم أكنْ قد قابلتُ أخت ماكسي أكثر من مرة أو اثنتين، وكلما ذكرت اسمها يبدأ ماكسي بشيء من الانفعال بالتحدُّث عن شأن آخر. وهذا ما أزعجني لأنني كنتُ قد مللتُ حتى الموت صُحبة ماكسي، لقد احتملته فقط لأنه أقرضني بعض النقود بسهولة وابتاع لي أشياء أحتاجها. وفي كل مرة انطلقنا إلى الشاطئ كنتُ آمل أنْ تهبط علينا أخته فجأة. ولكن كلا، كان يعمل دائماً على إبعادها. حسنٌ، ذات يوم بينما نحن نخلع ملابسنا في المقصورة وكان يُريني أي صَفَنٍ متين رائع لديه، قلتُ له على نحوٍ غير متوقَّع - " اسمع يا ماكسي، كل شيء حَسَن في جوزتيك، إنهما رائعتان وغندورتان، ولا داعي للقلق ولكن بحق الجحيم أين تكون أختك ريتا طوال الوقت، لماذا لا تُحضِرها معك أحياناً وتتركني ألقفي نظرة متفحّصة على عشّها... نعم، **عش**، أنتَ تفهم ما أعني ". ولما كان ماكسي يهودياً أو من أوديسا، فلم يسبق له أنْ سمعَ لكلمة عش من قبل. وقد صُعِقَ بقوة من كلماتي وفي الوقت نفسه فُتِنَ بتلك الكلمة الجديدة. وقال لي بنوعٍ من

الذهول - " يا لليسوع، يا هنري، ينبغي ألا تقول لي شيئاً كهذا ! "أجبتُ " ولِمَ لا ؟ إنَّ لها كسّاً، أختك، أليس كذلك؟ " وكدتُ أضيف شيئاً آخر حين انفجر في نوبة ضحك هائلة مما أنقذ الموقف في تلك الأثناء. لكنَّ الفكرة لم تُعجب ماكسي أبداً وبعمق. ظلَّ منزعجاً منها طوال النهار، على الرغم من أنه لم يُشِر إلى حديثنا بعدئذٍ. كلا، بل لزِم الصمت في ذلك النهار. والشكل الوحيد الذي فكَّر فيه للانتقام كان يحثّني على المضي في السباحة إلى ما بعد المنطقة الآمنة بكثير آملاً أنْ يُنهِكَ قِواي ويدعني أغرق. كنتُ أرى بوضوح ما يدور في رأسه حتى كأني كنتُ أملك قِوى عشرة رجال. اللعنة إنْ كنتُ سأغرِق نفسي لمجرد أنْ لأخته كسّاً كباقي النساء.

حدثَ ذلك في فار روكاواي. وبعد أنْ أرتدينا ملابسنا وتناولنا طعام الغداء قرّرتُ فجأةً أني أريد أنْ أكونَ وحدي، وهكذا، بسرعة، على قارعة الطريق. تصافحنا وقلتُ إلى اللقاء. وإذا بي وحيداً ! شعرتُ على الفور تقريباً بوحدتي في العالم، وحيد كما لا يشعر المرء إلا في لحظات الألم الممضّ. أعتقد أنني كنتُ أخللُ أسناني بذهنٍ شارد حين أغارتْ عليّ موجةُ الشعور بالوحدة تلك حتى غَمَرتني، كالزوبعة. وقفتُ هناك على قارعة الطريق أتحسَّسُ نفسي في كل مكان لأرى إنْ كان قد أصابني مكروه. كان شيئاً عصيّاً على الفهم، وفي الوقت نفسه، رائعاً جداً، منعشاً جداً، وقد أقولُ إنه كان كمُنشِّط مُضاعَف. وحين أقول إني كنتُ في فار روكاواي أعني أني كنتُ واقفاً عند حافة الأرض، في مكانٍ يُدعى زانثوس، هذا إنْ وُجِدَ، وحقاً يجب أنْ يكون هناك كلمة كتلك لتصِفَ لا مكان. ولو جاءت ريتا آنئذٍ لما عرفِتُها. لقد أصبحتُ غريباً

تماماً وأنا وسط قومي أنفسهم؛ بدا لي قومي مجانين، بوجوههم التي لفحتها أشعة الشمس وملابسهم الداخلية وجواربهم الآلية. كانوا يستحمّون مثلي لأنه كان نشاطاً ممتعاً وصحّياً، والآن هم مثلي مملؤون بالشمس والطعام ومتراخون قليلاً من شدة التعب. وحتى وقت إغارة هذه الوحدة عليّ كنتُ بدوري مُرهقاً، ولكن فجأةً، وأنا واقف مُغلَق تماماً في وجه العالم، استيقظت مع بداية جديدة. كنتُ مُكهرَباً إلى درجة أني لم أجرؤ على الحركة خشية أنْ أنطلق كالثور أو أبدأ بتسلُّق جدار بناية أو الرقص أو الصراخ. أدركتُ فجأةً أنَّ كل ذلك حدث لأني أخٌ حقيقي لدوستويفسكي، لأني ربما كنتُ الرجل الوحيد في أميركا الذي عرف ما كان يعني بكتابة تلك الكتب. ليس ذلك فقط، بل شعرتُ بكل الكتب التي قد أكتبها يوماً وهي تتوالد داخلي : كانت تتفجَّر داخلي مثل شرانق ناضجة. وبما أني حتى ذلك الحين لم أكن قد كتبتُ غير رسائل شيطانية طويلة عن كل شيء ولا شيء، فقد تعسَّر عليَّ إدراك أنه لابد أنْ يأتي وقت أبدأ فيه، أدوِّن الكلمة الأولى، ***الكلمة الحقيقية الأولى***. وذلك الوقت كان الآن! هذا ما أوحيَ لي.

استخدمت كلمة زانثوس قبل قليل. لا أعلم إنْ كان هناك وجود لزانثوس أم لا، ولا آبه حقاً، ولكن يجب أنْ يوجد مكان كهذا في العالم، ربما في الجُزُر اليونانية، حيث تصل إلى نهاية العالم المعروف وتصبح وحيداً تماماً، ومع ذلك لا تخاف منه، بل تبتهج، لأنه في ذلك المكان المنعزل في وسعك أنْ تشعر بالعالم السلفي القديم، الشاب والجديد والخصب أبداً. تقفُ هناك، أينما كان المكان، كصوص مولود حديثاً يقفُ قرب قشرة بيضته. هذا المكان هو زانثوس، أو كما حدث في حالتي هو فار روكاواي.

كنتُ هناك ! وهبط الظلام، وهبّتْ الريح، وأقفرت الشوارع وأخيراً بدأتْ تهطل أمطاراً. يا يسوع، هذا ما أهلكني ! حين هطل المطر، وتلقّيت صفعاته على وجهي وأنا أنظر إلى السماء، أخذت أجأر بهجة. ضحكتُ وضحكتُ وضحكتُ، كمجنون حقيقي. دون أنْ أعلم لماذا أضحك. لم أكنْ أفكّر في شيء. بل كنتُ مغموراً بالفرح؛ كنتُ فقط مجنوناً ببهجة كوني وحيداً وحدة مُطلَقة. ولو قُدِّمَ لي عندئذٍ هناك عش جميل رطيب على طبق كبير، لو قُدِّمَتْ إليّ جميع أعشاش العالم لأنتقي منها، لما رفّ لي جفن. كان لديّ ما لا يستطيع أي عش أنْ يُعطيني إياه. عند تلك النقطة بالذات، وأنا منقوع برمّتي ولا أزال جذلاً، فكّرت في أكثر الأشياء بُعداً عن حالتي في العالم - ***أجرة ركوب الحافلة*** ! يا يسوع، لقد غادرني ابن الحرام ماكسي وتركني خالي الوفاض. وها أنا مع عالمي العتيق النامي وبنطلوني الجينز لا يحتوي بنساً واحداً. على الهِرّ دوستويفسكي الابن أنْ يباشر التنقُّل هنا وهناك مُحملقاً في الوجوه الودّية وغير الودّية ليرى إنْ كان يستطيع أنْ يستولي على دايم. ومشى من أحد أطراف فار روكاواي إلى آخر دون أنْ يأبه أحد بنفحه أجرة ركوب الحافلة في ذلك الطقس الماطر. وبينما كنتُ أتجول بذاك الانشداه الحيواني الثقيل الذي أتى بعد استجداء فكّرتُ في ماكسي صانع النوافذ وكيف أنه في أول مرة وقع نظري عليه كان يقف في واجهة العَرض يُلبسُ تمثالَ عارضة أزياء. انتقلتُ من هذا وخلال بضع دقائق إلى دوستويفسكي، ثم توقّفَ العالم ميتاً، ثم، وكشجيرة ورد كبيرة تتفتّح في الليل، إلى لحم أخته ريتا المخملي الدافئ.

والآن إليكم ما هو أشد غرابة... بعد أنْ فكّرت في ريتا قليلاً،

وفي عشّها الخاص غير العادي ركبتُ القطار متوجهاً إلى نيويورك وأنا ناعس مع انتصاب بطيء رائع. والأغرب من ذلك أني ما أنْ ترجّلتُ من القطار، وابتعدتُ مسافة بناية أو اثنتين عن المحطة، وإذا بريتا نفسها تبرز لي فجأةً عند المنعطف. وكما لو أنه وصَلَها بالتخاطُر ما يجول في ذهني، كانت ريتا بدورها حامية وحتى أسفل قدميها. وسرعان ما بتنا جالسين في إحدى الحانات الصينية، جنباً إلى جنب في مقصورة واحدة.. كأننا زوج من الأرانب في حالة حيض. على حلبة الرقص بالكاد تحركنا. كنا مُلتصقين تماماً وبقينا هكذا، تركناهم يدفعوننا ويهزّوننا قدر ما يستطيعون. وكان يمكن أنْ أصحبها إلى منزلها، بما أني أعيش وحيداً، ولكن كلا، صمَّمتُ على أنْ أعيدها إلى منزلي، وأوقفها في الردهة وأنكحها تحت أنف ماكسي - وهذا ما فعلت. وبينما أنا كذلك فكَّرت من جديد في تمثال عارضة الأزياء الموجودة في واجهة العرض والطريقة التي ضحك بها بعد ظهر ذلك اليوم حين قلت كلمة عش. وكدتُ أنفجر في ضحكٍ عالٍ حين شعرت فجأة أنها وَصَلَتْ إلى الرعشة، إحدى تلك الرعشات الطويلة التي تنتابك أحياناً وأنت داخل كسٍ يهودي. مددتُ يدي إلى ردفيها، وأخذت أطراف أصابعي في كسّها، تحت السروال الداخلي، هكذا كان، ولما بدأتْ ترتعش رفعتها عن الأرض ورحتُ أرفعها وأُخفضها برفق على رأس أيري. حسبتُ أنها ستفقد عقلها تماماً، من طريقتها في المتابعة. ولابد أنها قد حصلت على أربع أو خمس رعشات مثل هذه وهي مرفوعة، وقبل أنْ أُعيد قدميها إلى الأرض. أخرجتُه منها دون أنْ أسفح قطرة واحدة وجعلتُها تستلقي على أرض الردهة. كانت قبعتها قد تدحرجتْ إلى الركن ووقعَتْ حقيبتها وانفتحت وانتثر منها

بضع قطع نقدية. لاحظتُ ذلك لأنني قبل أنْ أقوم معها بهذا العمل الرائع صمَّمت أنْ آخذ بضع قطع نقدية لأجرة الركوب إلى المنزل. على أي حال، لم يكن قد مرَّ أكثر من بضع ساعات على ما قلته لماكسي ونحن في الكابين من أنني أودّ لو ألقي نظرة على عش أخته، وها هو الآن مضروب، وملتصق بي، ينزّ رطوبة وينضح سائلاً على دفعات. إنْ كانت قد نُكِحَتْ من قبل فهي لم تُنكَح كما يجب، هذا مؤكد. وأنا نفسي لم أكن مرة في حالة ذهنية علمية مترابطة رائقة ورائعة وأنا مستلق على أرض الردهة تحت أنف ماكسي مباشرة، أضخّه في عش أخته ريتا، الخاص، المقدَّس والاستثنائي. كان في إمكاني إبقاؤه داخلها إلى ما لانهاية - وما أعجب استقلالي عنها عندئذٍ رغم أني بقيتُ واعياً لكل ارتعاش واهتزاز قامت به. ولكن كان على أحدهم أنْ يدفع. ثمن جعلي أخرج تحت المطر باحثاً عن دايم. على أحدهم أنْ يدفع ثمن النشوة التي نتجت عن توالد كل تلك الكتب المدوَّنة داخلي. على أحدهم أنْ يتحقَّق من أصالة هذا الكسّ الخاصّ المستور والذي ظلَّ يُغيظني لأسابيع وشهور طويلة. ومَنْ غيري مؤهَّل لهذا؟ فكَّرتُ بجهد وسرعة بين الرعشة والرعشة أنه كان على أيري أنْ يكبر بوصة أو بوصتين أخريين. أخيراً قرَّرتُ أنْ أضع حداً لذلك بأن أقلبها وأخرقها من الخلف. انكمشَتْ قليلاً في أول الأمر، ولكن ما أنْ شعرت بالشيء ينزلق منها حتى كادت تجن وراحت تبربر: " أوه نعم، أو نعم، افعلها، افعلها! " وهنا ثارت ثائرتي حقاً، وبالكاد زلقته فيها حين شعرتُ به يقذف، واحدة من تلك الانبجاسات الطويلة المُعذِّبة الآتية من رأس العمود الفقري. وحشرتُه عميقاً حتى شعرت كأنَّ شيئاً قد انهار. وتباعدنا، مُنهكَين، كلانا، نلهث

ككلبَين. وفي الوقت نفسه كان لديّ من حضور الذهن لأتلمَّس باحثاً عن بضع قطع نقدية. ليس لأنه يلزمني، فقد كانت قد أقرضتني لتوّها بضعة دولارات، بل لأجمع أجرة المواصلات التي تنقصني وأنا في فار روكاواي. ويا يسوع، حتى ذلك الحين لم يكن الأمر قد انتهى. فسرعان ما شعرت بها تتلمَّس حولها، بيديها أولاً، ومن ثم بفمها. وكان لا يزال لديّ قرابة نصف انتصاب. وَضَعَته في فمها. وكان لا يزال لدي نصف انتصاب، وَضَعَته في فمها وأخذتْ تداعبه بلسانها. ورأيتُ النجوم. بعد ذلك أصبح ساقاها حول عنقي ولساني داخل كسّها. ومن ثم كان عليّ أنْ أعود فوقها وأحشره فيها من جديد حتى آخره. وتلوَّتْ كالحنكليز، فساعدني يا رب. ثم بدأتْ رعشاتها تتوالى، طويلة، متباطئة، مُعذِّبة. وأنين وهَذَر هذياني. أخيراً كان لابد أنْ أسحبه وأخبرها أنْ تكفّ. أي عش ! ومع ذلك كنتُ قد طلبتُ فقط أنْ ألقي عليه نظرة !

أعادَ إليّ حديث ماكسي عن أوديسا شيئاً كنتُ قد فَقَدَته وأنا صغير. وعلى الرغم من أنه لم يكن لدي صورة واضحة عن أوديسا فقد كان شذاها يُشبه شذا الحي الصغير المجاور لبروكلن والذي عنى لي الكثير وسرعان ما سُلختُ عنه. كلما شاهدتُ لوحة إيطالية بلا نِسَبْ منظورية أشعر به شعوراً مُحدَّداً : فإذا كانت، مثلاً، صورة شارع مفتوح، والنساء واقفات عند النوافذ فهنَّ جالسات في الشارع وليس فوقه وبعيداً عنه. وكل ما يحدث يعرفه الجميع فوراً، كما هو الحال بين الناس الفطريين. الجريمة تلوح في الأفق، والمصادفة تسود.

وكما أنَّ تلك النسب المنظورية مفقودة من الأعمال الفنيّة البدائية الإيطالية، كذلك في الحي الصغير المجاور الذي نشأتُ فيه طفلاً كانت

الأسطح الشاقولية المتوازية التي يحدث عليها كل شيء وسيلة تُمرّر خلالها، من طبقة إلى أخرى، جميع الأشياء وكأنما بالتنافُذ. كانت الحدود دقيقة، واضحة، غير مستحيلة لعبورها. إذن عشتُ وأنا صبي قرب الحدود الفاصلة بين الحيّين الشمالي والجنوبي. كنتُ أقرب قليلاً للحي الشمالي، على مبعدة بضع خطوات من الشارع الكبير، المؤدي إلى برودواي فيري، لكنَّ ذلك الشارع لا يعني لي شيئاً، عدا أنه كان قد بدأ يمتلئ باليهود. كلا، كان الشارع الشمالي الثاني هو شارع الغموض، الحد الفاصل بين عالمي. لذا عشتُ بين حدّين، أحدهما حقيقي، والآخر مُتخيَّل - وهكذا بقيتُ طوال حياتي. كان هناك شارع بطول بناء واحد يقع ما بين الشارع الكبير والشارع الشمالي الثاني، يُدعى ساحة فيلمور. ذلك الشارع الصغير كان يُقابَلْ بشكلٍ منحرف بيت جدّي الذي عشتُ فيه. إنه من أكثر الشوارع التي رأيتُها في حياتي فتنة. شارع مثالي - لصبي، لعاشق، لمهووس، لسكّير، لمحتال، لفاسق، لقاطع طريق، لعالِمْ فَلَك، لموسيقى، لشاعر، لبحّار، لحذّاء، لسياسي. في الواقع هكذا كان حال الشارع بالضبط، يحوي ممثلين ممتازين للجنس البشري، وكل منهم عالم بحد ذاته يعيشون معاً بتناغُم وتنافُر، لكنهم معاً يُشكّلون تعاوناً متيناً، بوغة إنسانية متراصّة لا يمكن حلّها إلا إذا حلَّ الشارع نفسه.

هكذا بدا، على الأقل. إلى أنْ أُقيمَ جسر ويليامسبرغ، وبعدها بدأ الغزو اليهودي من شارع ديلانسي، في نيويورك. مما سبَّبَ تفكُّك عالمنا الصغير، الشارع الصغير المُسمّى ساحة فيلمور، وكان كاسمه، شارعاً ذا قيمة، وهيبة، ونور، ومفاجآت. جاء اليهود، كما قلت، وبدؤوا ينهشون

في نسيج حياتنا كالعثّ حتى لم يتبقَّ شيء بحضورهم العثّي الذي جلبوه معهم إلى كل مكان. وسرعان ما صارت تفوح من الشارع رائحة كريهة، وسرعان ما انتقل الناس الأصليون، وسرعان ما بدأتْ البيوت تتلف، حتى الشرفات الخارجية تساقطت، كتساقط الدهان. وسرعان ما بدا الشارع كفمٍ قذر سقطَتْ منه جميع الأسنان الدائمة، وظهرت فيه هنا وهناك جدعات أو جُدَع (جمع جدعة) محروقة قبيحة؛ يتثاءبُ، شفتاه تتعفّنان، والحنك مفقود. وسرعان ما ملأتْ النفاية المجرور بطول رُكبة وازدحمت سلالم الحريق بالشراشف القذرة، بالصراصير، بالدم الجاف. وسرعان ما ظهرتْ علامة كوشر (أو حلال، بالمفهوم اليهودي) على واجهات الدكاكين وانتشرتْ الدواجن في كل مكان والمخللات الرخوة الحامضة وأرغفة ضخمة من الخبز. وسرعان ما ظهرتْ عربات الأطفال في الممرات وعلى الشرُفات وفي الباحات الصغيرة وأمام واجهات المحلات. وفي مجرى التغيير اختفَتْ اللغة الإنكليزية أيضاً، ولم يعُدْ المرء يسمع إلا اللغة اليهوديّة، غير ألفاظ من البقبقة والاختناق، والهسّ حيث تتشابه كلمتا الله والخضار العفنة لفظاً ومعنى.

كنا بين أوائل العائلات التي نزحَتْ، إبّان الغزو. وصرتُ أعود مرةً أو اثنتين في العام إلى الحي القديم، للمشاركة في عيد ميلاد أو عيد الميلاد أو عيد تقديم الشكر. وفي كل زيارة ألاحظ فقدان أحد الأشياء التي أحببتها وتعلّقتُ بها. كان كابوساً. وازداد الحال سوءاً على سوء. والمنزل الذي لا يزال يعيش فيه أقربائي أضحى أشبه بحصن عتيق على وشك الانهيار. وقد جنحوا إلى أحد أجنحة ذلك الحصن، وراحوا يعيشون حياة بائسة منعزلة، وبدؤوا بدورهم يبدون كالماشية، مُضطهَدين ومُهانين.

وأخذوا يفرّقون بين جيرانهم من اليهود، فوجدوا بعضهم إنسانيين تماماً، مُهذّبين تماماً، ونظيفين، ولطيفين ومتعاطفين، ومُحسنين، الخ الخ. أما أنا فوجدتُ أنه وضعٌ يمزّقُ نياط القلب. ووددتُ لو أتناول مدفعاً رشاشاً وأحصد الحي كله عن بكرة أبيه، اليهودي والجنتلمن معاً.

مع اقتراب وقت الغزو قرَّرت السلطة تغيير اسم الشارع الشمالي الثاني إلى ميتروبوليتان آفنيو. هذا الشارع، الذي كان بالنسبة إلى الجنتلمانات هو الطريق المؤدية إلى المقابر، أصبح الآن ما يُسمّى بشريان المواصلات، يصل ما بين حيّين لليهود. ومن جانب نيويورك حوَّلتْ واجهة النهر بسرعة إلى ما يُلائم ناطحات السحاب الناهضة. ومن طَرَفنا، طرف بروكلن، أخذتْ تراكم مستودعات السلع، والسُبُل المؤدية إلى الجسور الجديدة استلزمت وجود ساحات عامة، ومحطات استراحة، ومكاتب مراهنات الخيل، ودكاكين القرطاسية، ومحلات بيع المثلجات، ومطاعم، مخزن بيع الألبسة، دكاكين بيع الخمر، الخ. باختصار بات كل شيء يصير عاصمياً، بالمعنى البغيض للكلمة.

طوال الفترة التي عشنا خلالها في الحي القديم لم نكن نُشير أبداً إلى ميتروبوليتان آفنيو، بل إلى الشارع الشمالي الثاني، على الرغم من التغيير الرسمي للاسم. وربما كانت قد مرَّتْ ثماني سنوات أو عشرة حين وقفت في أحد الأيام الشتائية عن أحد منعطفات الشارع المواجه للنهر. ولاحظت للمرة الأولى البرج الهائل للمبنى المترو-بوليتاني للتأمين على الحياة، وأدركتُ أنَّ الشارع الشمالي الثاني قد اختفى إلى الأبد. تغيّرتْ الحدود المُتخيَّلة لعالمي. وصار رمحي الآن يسافرُ إلى ما وراء المقابر، ما وراء الأنهار، ما وراء مدينة نيويورك وولاية نيويورك، بل

إلى ما وراء الولايات المتحدة برمّتها. في بوينت لوما، في كاليفورنيا أطللتُ على المحيط المترامي وشعرتُ هناك بشيء أبقى وجهي مُثبَّتاً دائماً إلى جهة أخرى. وعدتُ إلى الحي القديم، كما أذكُرْ، في ليلة مع صديقي القديم ستانلي الذي سُرِّحَ من الجيش، وجبنا الشوارع بحزن واشتياق. إنَّ الأوروبي يكاد لا يعي هذا الشعور. فحتى بعد أنْ تتمدن إحدى المدن الصغيرة في أوروبا تبقى هناك آثار قدَم. في أميركا، وعلى الرغم من وجود آثار للقدَم، فهي مطموسة، ممحاة من الوعي، مُداسة باحتقار، مُزالة، مُلغاة بالجديد. والجديد يغدو، من يومٍ إلى يوم، عثّاً ينهشُ في نسيج الحياة، ولا يترك في آخر الأمر غير فجوة هائلة. كنتُ وستانلي نمشي عبر هذه الفجوة الرهيبة. حتى الحرب لا تُحدث مثل ذلك النوع من الخراب والدمار. بالحرب قد تتحوَّل مدينة إلى رماد ويُزالُ سكانها من الوجود، ولكن ما ينهضُ من جديد يُشبه القديم. الموت خصب، للتربة كما للروح. في أميركا الدمار يُمحي تماماً. حيث لا ولادة بل نمو سرطانيّ، وتراكمُ لطبقاتٍ من نسيج سامّ جديد، وكل واحدة أبشع من سابقتها.

كنا نمشي خلال تلك الفجوة الهائلة، كما أقول، وكانت ليلةً شتائيّة، صافية، قارصة، متلألئة، وحين اجتزنا الجانب الجنوبي متّجهين صوب الخط الفاصل ودّعنا كل الأطلال القديمة والمرابع التي كانت يوماً قائمة حيث وُجِدَ ذات يوم شيءُ من أنفسنا. ولما اقتربنا من الشارع الشمالي الثاني، بين ساحة فيلمور والشارع الشمالي الثاني - وهي مسافة لا تتعدّى بضع ياردة من أغنى وأكمل بقاع الكرة الأرضية - أمام كوخ السيدة أوميليو توقفتُ ورفعتُ بصري إلى المنزل الذي عرفتُ فيه ذات

يوم ما كان يحوي حقاً وجوداً متميّزاً. لقد انكمشَ كل شيء الآن إلى أبعادٍ حقيرةٍ، بما فيه العالم الواقع خلف الخط الحدودي، العالم الذي كان بالنسبة إليّ بالغ الغموض وضخماً بشكلٍ مُريع، ومُحدَّداً بدقّة. وبينما أنا واقف وسط ذهولي استعدتُ فجأةً حُلماً حلمتُ به، ولا أزال أحلمُ به بين الحين والآخر، وآمل أنْ أظل أحلم به طوال حياتي. حلماً عَبَرتُ فيه الخط الحدودي. وكما في جميع الأحلام فإنَّ أروع شيء فيه هو حيوية الواقع، وشعور الرائي ***بأنه موجود في الواقع*** وليس في الحلم. ولما عبرتُ الخط إذا بي مجهول ووحيد وِحدة مُطلقة. حتى اللغة تغيَّرتْ. في الواقع، لقد عوملَتُ على أني شخص غريب، أجنبي. يتوفَّر لدي وقتٌ غير محدود وأنا راضٍ تماماً عن تسكّعي في الشوارع ويجب أنْ أقول إني لا أعترفُ إلا بشارعٍ واحد - هو امتداد للشارع الذي عشتُ فيه. وصلتُ أخيراً إلى جسر حديدي قائم عبر ساحات السكك الحديدية. دائماً يكون الليل قد حلّ حين أصل إلى الجسر، على الرغم من أنه لا يبعُد إلا مسافة قصيرة عن الخط الحدودي. هنا أنظرُ أسفلاً إلى العربات المتشابكة، ومحطات الشحن، والمقطورات، وسقيفات التخزين، وبينما أنظر إلى هذه الكتلة من الأشياء الغريبة المتحركة تحدث سلسلة من التحوّلات، كما في الحلم. وفي خضم هذه التحولات والتشوُّهات أعلمُ أنَّ هذا هو الحلم القديم الذي طالما حلمتُ به. ويمسسني خوفٌ عنيف حتى أُقرر أنْ أستيقظ، وأنا أعلم حقاً أني سأستيقظ بعد قليل، في اللحظة نفسها التي أهمُّ وأنا وسط مساحة شاسعة مفتوحة بالدخول إلى المنزل الذي يحوي شيئاً مما يشكِّلُ الأهمية العظمى بالنسبة إليّ. وحالما أتوجّه إلى ذلك المنزل إذا بالبقعة التي أقفُ فيها تصبح غير واضحة عند أطرافها،

تنحلّ، تتلاشى، وينفرشُ الفضاء نحوي مثل سجّادة ويبتلعني، ومعي المنزل الذي لم أنجح أبداً في ولوجه طبعاً.

لا انتقال من هذا على الإطلاق؛ إنه أقرب حلم ممتع عرفته إلى قلب كتاب "***التطوُّر الخلاَّق***". في هذا الكتاب الذي ألّفه هنري برغسون، الذي صادفته بشكلٍ طبيعي كالحلم بالأرض الواقعة خلف الحدود، أشعر أني وحيد من جديد، شخص أجنبي من جديد، ومن جديد رجل بلا عُمر مُحدَّد يقفُ على جسرٍ حديدي يُراقبُ تحوّلات خاصة في الخارج والداخل. ولو لم يقع الكتاب بين يديّ في اللحظة الدقيقة، لجُننت. عثرتُ عليه في لحظةٍ كان فيها عالمٌ آخر هائل يتقوَّض أمامي. ولو لم أفهم كلمة مما كُتِبَ فيه، لو لم أستوعب غير ذِكرى كلمة واحدة هي " خلاّق " لكان هذا كافياً. هذه الكلمة كانت تعويذتي. بها استطعتُ على تحدّي العالم كله، خاصة أصدقائي.

هناك أوقات يتوجَّب فيها على المرء أنْ يفصِم علاقته مع أصدقائه ليفهم معنى الصداقة. قد يبدو هذا القول غريباً، لكنَّ اكتشافي هذا الكتاب كان يُعادل اكتشاف سلاح، أداة، أشذِّبُ كل الأصدقاء المُحيطين بي والذين ما عادوا يعنون لي أي شيء. لقد أضحى هذا الكتاب صديقي لأنه علَّمني أنه لا حاجة لي إلى الأصدقاء. منحني الشجاعة على الوقوف وحيداً، وجعلني قادراً على استحسان الوحدة. لم أفهم الكتاب أبداً. أحياناً أظنُ أني أوشك أنْ أفهم، لكنَّ ذلك الفهم لم يحدث حقاً. لقد كان من الأهم بالنسبة إليّ ألاّ افهم. حين أفتح هذا الكتاب بين يديّ، وأقرأ بصوت عالٍ لأصدقائي، أسألهم، أشرحُ لهم، توصّلتُ إلى الفهم الواضح أنه لا أصدقاءَ لي، وأني وحيد في العالم. لأنه في عدم

فهمي للكلمات، أنا وأصدقائي، كان هناك شيءٌ واحد واضح وجليّ وهو أنه يوجد أكثر من طريقة لعدم الفهم وأنَّ الفرقَ بين لا فهم فرد ولا فهم آخر أوجَدَ عالماً من اليبس ربما أكثر صلابة من اختلافات الفهم. وانهار كل ما ظننت أني فهمته، وصرتُ سجلاً نظيفاً. من ناحية أخرى، حصَّنَ أصدقائي أنفسهم باستحكامات أقوى في خندق الفهم الصغير الذي حفروه لأنفسهم. ماتوا بارتياح في سرير فهمهم الصغير، ليُصبحوا مواطنين صالحين للعالم. أشفقت عليهم، وفي الحال، تخلّيت عنهم واحداً تلو الآخر، دون أقل ندم.

إذن ما الذي كان في الكتاب مهمّاً بالنسبة إليّ وظلَّ مع ذلك غامضاً؟ أعود إلى كلمة خلاّق. أنا متأكّد من أنَّ اللغز كله يكمنُ في إدراك معنى هذه الكلمة. حين أفكّر في الكتاب الآن، وكيف دنوتُ منه، أفكِّرُ في رجلٍ يقومُ بطقوسٍ لشعائر معيَّنة. والانحراف والتقويم اللذان يُرافقان الشعائر إلى داخل أي لغز هما أروع خبرة يمكن اكتسابها. إنَّ كل ما سعى العقلُ جاهداً طوال حياته لاستيعابه، وتصنيفه، وتركيبه يجب أنْ يُنحّى جانباً ويُعاد ترتيبه. إنه يوم متحرّك للروح ! وطبعاً ليس ليوم واحد فقط، بل لاسابيع وشهور مستمرّة. وتُقابل صديقاً في الشارع مصادفة، من الذين لم ترهم منذ عدة أسابيع، وقد أضحى غريباً لديك تماماً. وترسل إليه بضع إشارات من موقعك الجديد فإذا لم يتجاوب معك تجاوزه - هكذا أفضل. إنَّ الأمر أشبه بتطهير ساحة قتال : اقتلْ كل المعاقين والمتألمين الميؤوس منهم بضربة سريعة من هراوتك. وتقدَّمَ، إلى ساحات جديدة للقتال، إلى انتصارات أو هزائم جديدة. ولكن لا تتوقف ! وبينما أنتَ تتحرَّك يتحرَّك العالم معك، بدقّة مرعبة. ابحثْ عن مجالات

جديدة للعمل، عيّنات جديدة من الجنس البشري أرشدهم بصبر وزوّدهم بالرموز الجديدة. أحياناً عليك أنْ تنتقي أولئك الذين لم يقع بصرك عليهم من قبل. جرِّبْ كل شخص وكل شيء ضمن حدود، شريطة أنْ يكونوا جاهلين بالإلهام.

وهكذا وجدتُ نفسي جالساً في غرفة إصلاح الملابس في مؤسسة أبي، أقرأ بصوتٍ عالٍ لليهود العاملين هناك. أقرأ لهم من ذلك الإنجيل الجديد بالطريقة نفسها التي تحدَّثَ بها بولس إلى حوارييه. وأؤكّد لك إنه مما زاد في الفائدة أنَّ أولئك اليهود أولاد الحرام المساكين لم يكن في استطاعتهم القراءة بالإنكليزية. مبدئياً كنتُ أتوجّه إلى بنتشك القصّاص الذي له عقل حاخاميّ. أفتحُ الكتاب وأنتقي فقرة لا على التعيين وأقرأها لهم بلغة إنكليزية محوَّرة حتى غَدَتْ بدائية مثل اللغة الإنكليزية الأوّلية. ثم أحاولُ أنْ أشرح، وأختار على سبيل المثال والتمثيل الأشياء المألوفة لديهم. وكم أذهلني مدى حُسن فهمهم، كم كانوا يفهمون أكثر من، دعني أقول، أستاذ جامعي أو أديب أو أي إنسان مثقّف. وطبعاً ما فهموه لم تكن له أي صلة في آخر الأمر بكتاب برغسون، ككاتب، ولكن أليس هذا هو الهدف من كتاب مثله؟ إنَّ فهمي لمعنى كتابٍ ما هو أنَّ الكتاب نفسه يختفي عن الأنظار، أنْ يُمضَغ حيّاً، يُهضَم ويُدمَج في الجسم كاللحم والدم وهذا بدوره يخلق روحاً جديدة وربما العالم. كانت وليمة ربّانية عظيمة تشاركنا فيها في قراءة هذا الكتاب وكانت الميزة البارزة فيه هي الفصل الخاص بموضوع الفوضى، وبما أنه نفَذَ بي عميقاً عميقاً، فقد وهبني حسّاً رائعاً بالنظام بحيث لو أنَّ شهاباً ضربَ الأرض فجأةً ونسفَ كل شيء، وَقَلَبَه رأساً على عقب، وأصبح داخل الأشياء

خارجها، لتمكّنتُ من توجيه نفسي إلى النظام الجديد بطُرفة عين. متاهتي هي مرتعي وكلما حفرتُ عميقاً في المتاهة صرتُ أكثر معرفة بوجهتي.

استقللتُ الخط الصاعد متأبطاً الـ " ***التطور الخلاّق*** " عند جسر بروكلن بعد انتهاء العمل لأبدأ رحلتي إلى المنزل صوب المقبرة. وأحياناً أركبُ من شارع ديلانسي، قلب الحيّ اليهودي النابض، بعد مسيرٍ طويل في الشوارع المزدحمة. وأدخل الخط الصاعد تحت الأرض، كدودة محشورة في الأمعاء. وكلما اتخذت مكاني وسط الحشد الطاحن على الرصيف أعرفُ أني أندر مخلوق هناك. أنظرُ إلى كل ما يدور حولي كمراقب من كوكبٍ آخر. لغتي، عالمي، تحت ذراعي. أنا حارس سر عظيم، إذا فتحتُ فمي وتكلّمتُ عطّلتُ حركة المرور، وما عليّ أنْ أقوله، وما أحمله في كل ليلة من حياتي في هذه الرحلة إلى المكتب والعودة منه هو ديناميت بحت.لستُ مستعداً بعد لأرمي إصبع ديناميتي. أقضمُ فيه متأملاً، متفكّراً، مُفحماً. بعد خمسة أعوام أُخَرْ، وربما عشرة، سأكون قد أزلتُ أولئك الناس جميعهم. إذا ترنّحَ القطار بعنف وهو يقوم بانعطافٍ أقول لنفسي ***عظيم ! اقفزْ عن الخطوط، امحقهم !*** لن أعتبر نفسي في خطر إذا قفز القطار عن خطّه. إننا محشورون فيه كالسردين وكل اللحم الحار المضغوط عليّ يُشتِّتُ أفكاري، وأشعر بساقَين متشابكتين بساقَيّ. أنظرُ أسفلاً إلى الفتاة الجالسة قبالتي، أنظرُ في عينيها مباشرةً وأدفعُ بساقّي أكثر نحو فرجها؛ تقلقُ، تتململُ في مقعدها، وأخيراً تلتفتُ إلى جارتها وتشتكي من أنني أتحرَّشُ بها، وينظرُ الناس المحيطون إليّ بعداء. أنظر من النافذة برقّة وأتظاهرُ بعدم

سماع شيء. ما كان في إمكاني أنْ أزيح ساقي حتى ولو رغبتُ. ونجحتْ الفتاة، شيئاً فشيئاً، بعد تدافُع وتزحزُحٍ عنيفَين من تخليص ساقَيها من ساقيّ، فوجدتُ نفسي في الوضع نفسه تقريباً مع جارتها التي كانت تُخاطبها شاكية. وفي الحال تقريباً شعرتُ بلمسة تعاطُف ثم، ويا لدهشتي، سمعتُها تقول إنه لا يمكن للمرء أنْ يتجنَّب أشياء كهذه، وإنها ليست غلطة الرجل حقاً بل غلطة الشركة لأنها حشرتنا هكذا كالمواشي. ومن جديد شعرتُ بارتجاف ساقيها على ساقيّ، بضغطٍ دافئ إنساني، كعصر اليد. وبيدي الحرّة نجحت في فتح كتابي، وكان هدفي ذا شقّين: أولاً أردتُها أنْ تعرف نوع الكتاب الذي أقرأ، ثانياً، أردتُ أنْ أستمر في لغة الساقين دون إثارة الانتباه. ونجحتُ بتفوق. وحين فرغ القطار قليلاً تمكّنتُ من اتّخاذ مجلسي بجوارها ومحادثتها - عن الكتاب، طبعاً. إنها يهودية حسّية لها عينان كبيرتان برّاقتان وصراحة تنتج عن الحسّية. عندما حان وقت نزولنا مَشَينا متشابكَي الذراعين وجبنا الشوارع، في طريقنا إلى منزلها. واقتربنا من تخوم حيّنا القديم. كل شيء مألوف لديّ ومع ذلك بدا غريباً غرابة بغيضة. لم أكن قد سرتُ في تلك الشوارع منذ سنوات وها أنا الآن أتمشّى مع فتاةٍ يهودية من الغيتو؛ فتاة جميلة بلكنة يهودية قوية. أبدو متنافراً وأنا أسير بجانبها. أشعر بالناس ينظرون إلينا من خلف ظهرينا. أنا الدخيل، الـ Goy [1] الذي جاء إلى الحيّ ليقتطف عاهرة جميلة ناضجة. وهي من ناحية أخرى تبدو فخورة بفتحها، وتعرضني على أصدقائها. ها كم ما التقطتُ من القطار؛ Goy

١ - غوي : لفظ يُطلقه اليهود على غير اليهودي بينهم . الغريب / الدخيل .

مثقفاً، مُهذّباً ! أكاد أسمعها تفكّرُ في ذلك. أمشي متمهلاً أحدِّدُ الوضع كله، التفاصيل العملية التي ستقرِّر إنْ كنتُ سأتصل بها هاتفياً بعد العشاء أم لا. لم يخطر في بالي أنْ أدعوها إلى العشاء؛ إنها مسألة تتعلّق بزمان ومكان المقابلة وكيف سنتّفق عليها، لأنه بينما هي تتركني وقبل أنْ تصل إلى الباب مباشرة، أنبأتني أنَّ لها زوجاً يعمل بائعاً متجولاً وعليها أنْ تكون حذِرة. ووافقتُ على أنْ أعود لأقابلها عند منعطف الشارع أمام مخزن بيع الحلويات في ساعة معيَّنة. إذا أردتُ أنْ أُحضِر صديقاً فسوف تُحضِرْ هي صديقتها. كلا، أُقرِّر أنْ أقابلها وحدها. واتّفقنا. وتضغط على يدي ثم تنطلق إلى داخل رواق قذر. وأعود مسرعاً إلى المحطة المرفوعة وأخفّ إلى المنزل لأزدرد الوجبة.

إنها ليلة صيف وكل شيء منفتح حتى آخره. في طريق عودتي لأقابلها يندفع الماضي كله بألف لون ولون. هذه المرة تركت الكتاب في المنزل. أنا خارج الآن سعياً وراء عاهرة وليس في رأسي أي تفكير في الكتاب. وهاأنذا عائد من جديد إلى هذا الطَرَف من الخط الحدودي، في كل محطة يجعل الماضي الخاطف عالمي يبدو أصغر. وحين أصل إلى هدفي سأكون قد أصبحتُ طفلاً تقريباً. وأنا طفل مرعوب من التحولات التي طرأتْ. ماذا حدث لي، أنا الرجل من الحي الرابع عشر، حتى أقفز إلى هذه المحطة سعياً وراء عاهرة يهودية؟ لنفرض أني نكحتها وماذا بعد؟ ماذا لديّ أقوله لفتاة كهذه؟ ماذا تعني جلسة نكاح حين تكون حاجتي هي إلى الحب؟ نعم لقد خطرَ لي هذا فجأةً كإعصار... أونا، حبيبتي، الفتاة التي عاشت هنا في هذا الحي، أونا العينان النجلاوان الزرقاوان والشَعر الأصهب، أونا التي جعلتني أرتجف لمجرَّد النظر إليها،

أونا التي كنت أخشى تقبيلها أو حتى لمس يدها. أين هي أونا ؟ نعم، فجأةً، يبرزُ هذا السؤال المُستعر، أين هي أونا ؟ مرّتْ لحظتان وها أنا ذا أفقدُ أعصابي تماماً، أضيع، أكتئب، وسط أشد أنواع الآلام واليأس روعاً. كيف تركتُها تذهب؟ لماذا ؟ ماذا حدث؟ متى حدث؟ إنني أفكّرُ فيها كمهووس ليلَ نهار، وعاماً بعد عام، ومن ثم، ودون أنْ ألاحظ، تسقط من ذهني هكذا، كسقوط بنسٍ من ثقبٍ في جيبك. شيء لا يُصدَّق، فظيع، مجنون. إنَّ كل ما كان عليَّ أنْ أفعله هو أنْ أطلب الزواج منها، أنْ أطلب يدها - هذا كل شيء. ولو فعلتُ لوافقَتْ على الفور. لقد أحبَّتني، أحبَّتني حبّاً جمّاً. نعم، أذكُرُ الآن، أذكُرُ كيف نظرَتْ إليّ في آخر مقابلةٍ بيننا. كنت أودّعها لأذهب إلى كاليفورنيا، تاركاً كلاً لحياته الجديدة. لم أفكّر يوماً في البدء بحياةٍ جديدة. قرّرتُ أنْ أطلبَ الزواج منها، لكنَّ القصة التي لفّقتُها بغباء خرجت من بين شفتيّ طبيعية جداً حتى إني صدَّقتُها بنفسي، وهكذا ودّعتُها وذهبت، وبقيَتْ واقفة مكانها تتابعني بنظراتها وشعرتُ بعينيها تخترقانني عميقاً عميقاً. سمعتُها تصرخ من داخلها، لكنني تابعتُ المسير كآلة متحركة وأخيراً انحدرتُ عند المنعطف وكان ذلك نهاية كل شيء. الوداع ! هكذا وكأنها غيبوبة. وكنتُ أقصد ***تعالي إليّ ! تعالي إليّ لأنني لا أقوى على العيش بدونك !***

أشعرُ بوهنٍ شديد، وهنٍ شديد، حتى أكاد لا أقوى على هبوط سُلَّم قائم. والآن صرتُ أعرف ما حدث - لقد عَبَرتُ الخط الحدودي ! وهذا الإنجيل الذي أحمله معي سيرشدني، سيُطلعني على طريقة جديدة في الحياة. العالم الذي أعرفه اندثر، مات، انتهى، انمحى. ومعه امّحى كل حالي السابق. أنا جثة تحصل على جرعة من حياة جديدة. أنا لامع

مُتلألئ، مسعور باكتشافات جديدة، لكنَّ المركز لا يزال منصهراً، لا يزال رخواً. أبداً بالبكاء - وأنا واقف على السلّم القائم. أنشجُ بصوتٍ عالٍ، كطفل. الآن يتراءى لي الأمر بوضوح تام : ***أنت وحيد في العالم !*** أنت وحيد... وحيد... وحيد. مريرٌ أنْ تكونَ وحيداً... مرير، مرير، مرير. ولا نهاية له، هو شيءٌ لا يمكن سبر غوره. وهو نصيب كل إنسان على الأرض، وبالأخصّ نصيبي... بالأخصّ نصيبي. وتقعُ تحوّلاتٌ جديدة. ومن جديد. ومن جديد يتداعى كل شيء ويترنَّح. وأعود إلى الحلم، حلم ما وراء الحدود مؤلم، هذياني، سارّ، يُثير الجنون. أقفُ وسط أرضٍ جرداء، ولكنْ لا أرى بيتي. ليس لي بيت. كان الحلم سراباً. لم يُبنَ أي منزل على الأرض الجرداء. لهذا لم أقدر أبداً على دخوله. بيتي ليس في هذا العالم، ولا في العالم الآخر. أنا رجل بلا بيت، بلا صديق، بلا زوجة. أنا وحشٌ ينتمي إلى واقعٍ لم يوجَدْ بعد. آه، لكنه موجود، سيوجد، أنا متأكّد. الآن أمشي بسرعة، خافض الرأس، أكلّم نفسي، نسيتُ كل شيء عن موعدي حتى لم ألاحظ إنْ كنتُ قد مررتُ بمنزلها أمْ لا. ربما مررتُ. ربما نظرتُ إليها مباشرة ولم ألاحظها. وربما لم تلاحظني أيضاً. أنا مجنون، مجنون من شدَّة الألم، مجنون من شدَّة الأسى. أنا يائس. لكنني لستُ ضائعاً. كلا، ثمة الواقع الذي أنتمي إليه. إنه بعيد، بعيد جداً. لكنّه موجود، أنا متأكد. أرمي الناس بنظرات إجرامية. ولو كان في وسعي أنْ ألقي قنبلة وأنسف الحيّ كله وأبدِّده لفعلت. كنتُ سأسعد بمرآهم يتطايرون في الهواء، مشوَّهين، يصرخون، مُقطّعي أوصال، محوقين. أودّ لو ألغي العالمَ كله. لستُ جزءاً منه. إنه مجنون من أوّله إلى آخره. مباراة الرمي كلها. إنه قطعة هائلة من الجبن العفن

والدود يعيثُ فيه فساداً، أيري فيه ! إلى الجحيم ! اقتلْ، اقتلْ، اقتل : اقتلهم جميعاً، يهوداً وجنتلمانات، شبّاناً وشيباً، طيبين وأشرار...

إنني أُصبحُ خفيفاً، خفيفاً كريشة، وخطوي يزداد ثباتاً، وهدوءاً، واستقامة. يا لها من ليلة جميلة ! النجوم تشعّ بتوهُّج شديد، بصفاءٍ شديد، نائية البُعد. إنها لا تضلّلني تماماً، بل تُذكّرني بعبثها جميعاً. مَنْ تكون أيها الشاب حتى تتكلّم عن العالم، ونسف الأشياء أشلاءً؟ أيها الشاب، إننا موجودون هنا منذ ملايين وملايين السنين. رأينا كل ما يجري، كل شيء، ولا نزال نسطع كل ليلة بسلام، نُضيء الطريق، ولا نزال القلب النابض. انظر حولك، أيها الشاب، انظر كم أنَّ كلّ شيءٍ هادئ وجميل. أترى، حتى القمامة الموجودة في المجرور تبدو جميلة في هذا النور. التقطْ ورقة الملفوف الصغيرة؛ احملها برفقْ في يدك. أنحني والتقطُ ورقة الملفوف الموجودة في المجرور. تبدو لي جديدة جدَّة مُطلقة، كوناً كاملاً قائماً بذاته. أقتطعُ منها نتفةً وأتفحّصها. لا تزال كوناً. لا تزال جميلة وغامضة بما لا يوصَفْ. أكاد أشعر بالخجل من رميها ثانية إلى المجرور. أنحني وأضعها برفق مع باقي القمامة. وأستغرق في تفكيرٍ عميق وأُصبِحُ هادئاً جداً، جداً. أحبُّ كلَّ إنسان في العالم، وأعرفُ أنَّ هناك في مكانٍ ما امرأة تنتظرني ويكفي أنْ أتقدَّم بهدوء شديد، برفقٍ شديد، ببطءٍ شديد، لأصلَ إليها. ربما ستكون واقفة عند منعطف الشارع، وعندما أصبحُ على مرأى منها ستعرفني - على الفور. هذا ما أؤمن به، فساعدني يا رب ! أؤمن بأنَّ كل شيء عادل ومُقدَّر. وبيتي؟ إنه العالَمْ - العالم كله ! أنا في بيتي أينما حللتُ، لكنني لم أكنْ أعرف هذا من قبل. وصرتُ أعرفه الآن. لم يعُدْ هناك خط حدودي. لم يكن

هناك مرة خط حدودي : أنا الذي ابتكرته. أمشي ببطء وسعادة غامرة خلال الشوارع. الشوارع المحبوبة. حيث الكلُ يمشي والكلّ يعانون في الخفاء. حين أقفُ وأميل على عمود الكهرباء لأشعِل سيجارتي حتى عمود الكهرباء يبدو ودوداً. إنه ليس مصنوعاً من حديد - هو من خلق العقل الإنساني،مُصاغ بشكلٍ معيَّنْ، ملويّ ومُشكَّل بأيدٍ إنسانيّة، منفوخ عليه بنَفَسٍ إنسانيّ، وموضوعٌ بأيدٍ وأقدامٍ إنسانيّة. أدورُ حوله وأفركُ يديّ على سطح الحديد. يكاد يُكلّمني. إنه عمود كهرباء إنساني. له ***انتماء***، كورقة الملفوف، كالجوارب الممزقة، كالحشيّة، كمغسلة المطبخ. كل شيء يقفُ بطريقة خاصة في مكانٍ خاص، مثل عقلنا في صلته بالله. العالم في مادته المرئية، الملموسة، هو خريطة لحبّنا. ليس الله بل ***الحياة*** هي الحب. حب، حب، حب. وفي قلب قلبه يمشي هذا الشاب، أنا، الذي ليس غير غوتليب ليبريخت مولر.

غوتليب ليبريخت مولر ! هذا اسم رجل فقد هويته. لم يستطع أحد أنْ يُخبره مَنْ هو، من أين أتى أو ماذا حدث له. في السينما، حيث تعرّفَتْ للمرة الأولى على ذلك الشخص كان من المفروض أنه حصَلَتْ له حادثة في الحرب. ولكن حين رأيتُ نفسي على الشاشة، وأنا أعرف أني لم أذهب إلى الحرب أبداً، أدركتُ أنَّ المؤلّف اخترعَ تلك القطعة الأدبية كي لا يكشف عن شخصي. وغالباً ما أنسى أيّهما أنا الحقيقي؛ غالباً ما أتناول جرعة النسيان في أحلامي، كما يُسمّونها، وأطوفُ مهجوراً يائساً، باحثاً عن الجسد والاسم اللذين يخصّانني. أحياناً لا يفصل بين الحلم والواقع غير أوهى خيط. وتارةً بينما يتحدَّث شخص إليّ أخرجُ من حذائي كالنبات الذي جَرَفه التيار، وأبدأ رحلة ذاتي المنزوعة الجذور. في

هذه الحالة أكون قادراً تماماً على إنجاز متطلبات الحياة العادية - من إيجاد زوجة وأنْ أصير أباً، وأوفّر نفقات البيت، ومن تسلية الأصدقاء وقراءة الكتب، ودفع الضرائب، وأداء الخدمة العسكرية وهكذا دواليك. في هذه الحالة أنا قادر إذا اقتضَتْ الحاجة أنْ أقتل بدم بارد، من أجل خاطر أسرتي أو لأحمي وطني، أو مهما كان السبب. إنني المواطن العادي المبتذل الذي يُجيب على مناداته بالاسم، والمُعطى رقماً على جواز سفره. وأنا غير مسؤول مُطلقاً عن قَدَري.

وذات يوم، وبلا أدنى تحذير، أستيقظ وأنظر حولي فلا أفهم أي شيء على الإطلاق مما يدور، لا سلوكي ولا سلوك جيراني، لا أفهم لماذا الحكومات في حربٍ أو سِلم، أو كيفما كان وضعها. وفي لحظات كتلك أنا مولود من جديد، مولود ومُعمَّد باسمي الصحيح : غوتليب ليبريخت مولر ! كل ما أفعله تحت اسمي الصحيح يُعتَبَر جنوناً. يقوم الناس بإشارات ماكرة من وراء ظهري، بل وأحياناً في وجهي. إنني مُجبَر على فصم علاقتي مع أصدقائي وعائلتي وعشيقاتي؛ مُجبَر على شدّ الرِحال. وكمجرى حلم عادي، أجدُ نفسي من جديد منجرفاً مع التيار، ماشياً كالمعتاد في الشارع الرئيسي، ووجهي مُيمَّم شطر الشمس الغاربة. الآن نشطَتْ جميع قدراتي. أنا أشدّ الحيوانات ذات البشرة الحريرية الناعمة دهاءً - وفي الوقت نفسه أنا من النوع المُسمّى بالرجل المبارك. أعرفُ كيف أصون نفسي، وكيف أتفادى العمل، وأتفادى الانخراط في علاقات الصداقة، والشفقة، والتعاطف، والشجاعة، وكل الأشراك الأخرى. لا أبقى في مكان أو مع شخص إلا بما يكفي للحصول على ما أحتاج، ومن ثم انطلق. ليس لديّ هدف : يكفيني طوافي هائماً على

وجهي. أنا حر كعصفور، وكبهلوان طبعاً. يسقط المنّ عليّ من السماء، ويكفي أنْ أمدّ يدي وأتلقّى. وأخلّف في كل مكان أغادره أشدّ المشاعر إقناعاً، وكأني بقبولي للهِبات التي تنهمر عليّ أعمل معروفاً للآخرين. حتى ثيابي الداخلية القذرة تلقى العناية من أيدٍ داخلية. لأنَّ الجميع يحبّون الإنسان الذي يعيش كما يجب! غوتليب! يا له من اسم جميل! غوتليب! أقولها لنفسي مرة بعد مرة. غوتليب ليبريخت مولر.

دائماً وأنا في هذا الحال أقابل لصوصاً ومحتالين ومجرمين، وكم كانوا كيّسين ورقيقين معي! وكأنهم أخوتي. ولكن أليسوا كذلك، حقاً؟ أما كنتُ مُتّهَماً بشتى أنواع الجرائم، أما عانيتُ من ذلك؟ أليست جرائمي هي سبب التحامي بإخواني البشر؟ دائماً حين أرى ومضة اهتمام خاصّ في عينيّ شخص آخر، أميِّز هذا الرباط السرّي. المستقيمون لا يعرفون سرّ المودّة الإنسانية أبداً، هم الذين يرتكبون الجرائم ضد الإنسان، وهم الوحوش الحقيقيون. المستقيمون هم الذين يطلبون بصمات أصابعنا، ويبرهنون لنا أنَّ مجرَّد وقوفنا أمامهم بدمنا ولحمنا يعني موتنا. المستقيمون يفرضون علينا أسماء استبدادية، أسماء مزيّفة، ويضعون تواريخاً مزيّفة في السجل ويدفنوننا أحياء. أفضِّل عليهم اللصوص، المحتالين، المجرمين، اللهم إلاّ إذا وجدتُ رجلاً على مثالي، من معدني.

لم أعثر على ذلك الرجل أبداً! لم أعثر دهري رجلاً يُعادلني في كَرَمي، وغفراني، وتسامحي، وابتهاجي، وتهوُّري، ونقاء قلبي. إنني أغفرُ لنفسي كل جريمة ارتكبتُها، لأنني ارتكبتُها باسم الإنسانية. أنا أعرفُ معنى أنْ أكونَ إنسانياً، أعرفُ ضعفه وقوّته، وأعاني من تلك المعرفة وأستمتعُ بها أيضاً. ولو أُتيحَتْ ليَ الفرصة لأكون الله لرفضتُها.

ولو أُتيحَتْ ليَ الفرصة لأكون نجماً لرفضتُها. إنَّ أروع فرصة تمنحها الحياة هي أنْ نكونَ إنسانيين. إنها تعانق الكون كلّه، وتشمل معرفة الموت، التي لا يستمتعُ بها حتى الله.

منذ بداية كتابة هذا الكتاب صرتُ الإنسان الذي عمَّدَ نفسه جديداً. مرَّتْ سنون عديدة على ذلك وجدَّ الكثير من الأمور بحيث باتَ من الصعب العودة إلى تلك اللحظة واقتفاء أثر رحلة غوتليب ليبريخت مولر. مهما يكن، ربما أساهمُ في حل اللغز إذا قلتُ إنَّ الرجلَ الذي هو أنا الآن وُلِدَ من جُرح. وذلك الجرح امتدَّ حتى القلب. وطِبقاً للمنطق الذي وضَعَه الإنسان يجب أنْ أكونَ ميّتاً. والحقيقة هي أنَّ كل مَنْ عرِفني سلَّمَ بأني من الأموات، هكذا مشيتُ وسطهم كشبح. وأخذوا يستخدمون صيغة الماضي في الإشارة إليّ، وأشفقوا عليّ، وزادوا في حفر قبري أعمق فأعمق. ومع ذلك أذكرُ كيف كنتُ أضحكُ وقتها، كالمعتاد، وكيف ضاجعتُ النساء الأخريات، كيف استمتعت بالطعام والشراب، والسرير الناعم الذي تعلَّقتُ به كعفريت. وقُتلِتُ، لكنّي بقيتُ حيّاً. غير أني كنتُ حياً بلا ذاكرة، بلا اسم؛ مُنِعتُ من الأمل والندم والأسف. لم يكن لديّ ماض وربما ما كان ليتوفَّر لي مستقبل. ودُفِنتُ حيّاً في حفرةٍ هي الجرح الذي تلقّيته. ***كنتُ الجرح نفسه***.

لديّ صديق يُحدّثني من وقتٍ لآخر عن معجزة الجلجلة التي لا أفهم منها أي شيء. لكنّي أعرف شيئاً عن الجُرح المُعجز الذي تلقّيته، الجرح الذي قتلني في عينيّ العالم وولدتُ منه جديداً مُعمَّداً. أعرفُ شيئاً عن معجزة هذا الجُرح الذي عشته واندمل بموتي. أتحدَّثُ عنه وكأنما قد مضى

عليـه زمن طويل، لكنه مـعي دائمـاً. إنَّ كـل شيء قـد انقـضى منـذ زمنٍ بعيد ويبدو مرئياً في الظاهر، كمجرَّة غاصت خلف الأفق.

مـا يُذهلني هو عـودة الحـيـاة إلى شيءٍ انقـضى مـثلي، ليس مـرة واحدة، بل مرات لا تُحصى. وليس هذا فقط، بل وفي كل مرة تلاشيتُ فيها غصتُ أكثر فأكثر في الحفرة الخاوية، بحيث تعاظمَتْ المعجزة مع كل بعثٍ جديد. ودون أي نُدب ! إنَّ مَنْ يولَدْ من جديد يبقى دائماً الرجل نفسه، مع كل ولادة يُصبح نفسه أكثر فأكثر. كل ما في الأمر أنه يسلخ جلده في كل مرة، ومع جلده آثامه. الرجل الذي يحبه الله هو رجلٌ يعيش بشكلٍ صحيح. الرجل الذي يحبه الله هو البصلة ذات المليون قشرة. سلخُ الطبقة الأولى مؤلم بقدرٍ لا يوصَف، والطبقة الثانية أقلْ إيلاماً، والتالية أقلّ، إلى أنْ يُصبح الألم أخيراً ممتعاً، وتزداد متعته أكثر فأكثر، إلى حد البهجة، النشوة. ومن ثم لا يعود هناك متعة ولا ألم، بل ببساطة ظلام يستسلم في وجه النور. وبينما الظُلمة تتراجع يخرج الجُرح من مخبئه : والجُرح الإنسان، عشقُ الإنسان، يستحم في النور. وتستعاد الهوية الضائعة. ويتقدَّم الإنسان من جُرحه المفتوح، من القبر الذي حمله معه زمناً طويلاً.

في القبر الذي هو ذاكرتي أراها مدفونة الآن، محبوبتي التي أحببتها أكثر من أي شيء آخر، أكثر من العالم، أكثر من الله، أكثر من لحمي ودمي. أراها تتقيَّح هناك في جرح الحب اللعين، شديدة القُرب مني حتى أكاد لا أميّزها عن الجرح نفسه. أراها تصارع لتتحرَّر، لتتخلَّص من ألم الحب، وكلما اشتد صراعها غاصت بعيداً في الجرح، تُغمَر، تختنق، تتخبَّط في الدم. أرى النظرة الرهيبة في عينيها، الألم الأبكم

الجدير بالشفقة، نظرة وحشٍ وقعَ في الفخ. أراها تُباعد ما بين ساقيها استعداداً للاستسلام ومع كل رعشة جنس أنّة ألم. أسمعُ الجدران تنهار، الجدران تنهار علينا والمنزل يشتعل لظى. أسمعهم يُنادوننا من الشارع، دعوات للعمل، دعوات لحمل السلاح، لكننا مُسمّران في الأرض والجرذان تقرضنا. قبر الحب ورحمه يغطياننا، الليل يملأ أحشاءنا والنجوم تومض فوق البحيرة السوداء السحيقة. أُضيّع ذاكرة الكلمات، أُضيّع اسمها الذي نطَقته كأني ممسوس به. نسيتُ شكلها، ملمسها، رائحتها، وأسلوبها في النكاح، نافذاً أعمق فأعمق داخل ليل الكهف العميق. تبعتُها إلى أعمق ركن من كيانها، إلى موضع رُفات روحها، إلى النَفَس الذي لم ينبعث بعد من بين شفتيها. بحثتُ بلا هوادة عن التي لم يُكتَبْ اسمها في كل مكان، شققتُ طريقي إلى قلب المذبح ووجدتُ - لا شيء. تدثّرتُ لمصادفة العَدَم الجوفاء هذه كأفعى بالتفافات مُتَّقدة، استلقيتُ بلا حراك طوال ستة قرون دون أنْ أتنفَّس بينما أحداث العالم تتسرَّب إلى القاع مُشكِّلةً بقعة مُخاط لزجة. شاهدتُ المجرّات تدور حول الفجوة الهائلة في سقف الكون: شاهدتُ الكواكب البعيدة والنجم الأسود الذي كان سينقلني. شاهدتُ التنين يهتزّ مُتحرّراً من التقاليد والأعراف؛ شاهدتُ السلالة الإنسانية الجديدة تتّضح في مُخّ المستقبل. نفذتُ ببصري إلى الإشارة والرمز الأخيرين، ***لكنني لم أستطع*** أنْ أقرأ وجهها. لم أرَ غير عينيها ترسلان أشعتهما، وثدييها الكبيرين المُضيئين المتلئين، وكأني أسبح وراءهما في التبخُّر الكهربائي الخفي لرؤياها المتوهجة.

كيف توصّلتُ إلى الامتداد هكذا بعيداً عن قبضة الوعي؟ وفِق أي قانون هائل انتشرت هكذا فوق وجه العالم، كاشفة كل شيء وهي

مختفية؟ كانت مختفية في وجه الشمس، كقمرٍ في كسوف، كانت مرآة فَقَدَتْ زِئبقها، المرآة التي تعكس الصورة والرعب معاً. أنظرُ إلى خلفية عينيها، إلى اللحم الطريّ الشافّ، فأرى البناء العقلي لكل التشكيلات، كل العلاقات، كل اضمحلال. رأيتُ دماغ الدماغ، الآلة الأبدية التي لا تتوقّف، وكلمة أمل تدور على بصقة، تُشوى، تنضح بالسمن، تدور بلا توقف في مِحجر العين الثالثة. سمعتها تحلم مُغمغمة بلغاتٍ بائدة، والصراخ المكبوت يُرجِّع في تضاعيف الدقيقة، واللهاث، والأنين، وتنهدات المتعة، وهسيس سياط تجلد. سمعتها تنادي باسمي الذي لم أكنْ أنا قد نطقت به، سمعتها تلعن وتصرخ بغضب، سمعت كل شيء مُضخَّم ألف مرة، كقزم مسجون في أرغن البطن. سمعتُ تنفُّس العالم المكبوت، وكأنه مُثبَّتْ وسط تقاطُع طُرُق الصوت.

هكذا مشينا ونمنا وأكلنا معاً، كتوأم سيامي جمعهما الحب ولا يفرّقهما إلا الموت.

مشينا رأساً على عقب، يداً بيد، عند عنق الزجاجة. كانت ترتدي رداءً كله أسود اللون، ما عدا بقعاً من اللون القرمزي هنا وهناك. لم تكن ترتدي ملابس داخلية، بل مجرَّد قطعة بسيطة من المخمل الأسود مُشبّعة بعطرٍ شيطانيّ. نأوي إلى السرير عند الفجر وننهض عند المغيب. عشنا في ثغورٍ سوداء. مُسجَلة الستائر، وأكلنا من صحون سوداء، وقرأنا في كتبٍ سوداء. ألقينا نظرة من ثغر حياتنا الأسود إلى ثغر العالم الأسود. والشمس مطموسة بالسواد على الدوام، كأنما لتساعدنا في صراع مُهلِك متواصل. كانت الشمس بالنسبة إلينا هي المريخ، والقمر هو زُحل: عشنا بلا انقطاع في سمت العالم السُفلي. توقفت الأرض عن

الدوران زمن ثقب في السماء عُلِّقَ نجم أسود لا يومض أبداً، بين تارة وأخرى تنتابنا نوبات ضحك، مجنونة، ضحك برمائي جعل الجيران يرتعدون خوفاً. وأحياناً نغني بهياج، بنشاز، بأعلى اهتزاز. نُغلِق على نفسينا طوال الليل المُظلِم الطويل للروح، فترة من الزمن لا يمكن قياسها بالمقاييس العادية تبدأ وتنتهي على شكل كسوف. دُرنا حول نفسينا، كتابعين وهميين. سكِرنا بصورتنا التي رأيناها عندما تبادلنا النظرات. كيف نظرنا إذن إلى الآخرين؟ كما ينظر الحيوان إلى النبات، كما تنظر النجوم إلى الحيوان، أو كما ينظر الله إلى الإنسان إذا منحه الشيطان جناحَين. وسط هذا كله، في ألفةٍ ثابتةٍ حميمةٍ لليلٍ بلا نهاية كانت متورِّدة، مرحة، مرحاً حالك السواد يجري منها كدفقٍ مستمر من المني من ثور ميثرائي Mithraic. كانت ذات أنبوبين، كبندقية صيد، أنثى ثور في رحمها مشعل كهربائي يعمل بالأستيلين. حين يسخن تُركّزه على فوهة البركان الكونية العظمى، وترتد عيناها إلى البياض، وتعود شفتاها إلى النعومة. في بؤرة الجنس العمياء كانت ترقص فالس كفأرٍ مُدرَّب، فيتباعَدْ فكّاها كفكَّي حيّة، ويقشعرّ جلدها كأنه منتوف الريش. كانت شَبِقة شبقَ وحيد قرن نهم، ولهفة حطّتْ بالمصريين أسفل السافلين. حتى الثقب في السماء الذي سطع من خلاله النجم الباهت غاصَ في غضبها العنيف.

عشنا مُلتصقين بالسقف، وعطر الحياة اليومية الحارّ الزنخ يفوحُ ويخنقنا. عشنا في حرارة رخاميّة، ووهج الجسم الإنساني المتصاعد يُدفئ الالتفافات الثعبانية التي انغلقنا داخلها. عشنا مُثبَّتين إلى الأعماق السحيقة، جلودنا مسْوّدّة بلون سيجار رمادي بدخان الانفعال الدنيوي.

وكرأسَين محمولَين على رماح جلاّدينا رحنا ندور ببطء وثبات فوق رؤوس وأكتاف العالم من تحتنا. ماذا كانت تعطي الحياة على الأرض الصلبة لنا نحن أصحاب الرأسين المقطوعَين، المُلتصقَين أبداً عند الأعضاء التناسلية؟ كنا ثعبانَيّ الجنة التوأم، معتدلي الحرارة والبرودة كالعماء نفسه. كانت الحياة نكاحاً دائماً أسود يدور حول قطب أرقٍ ثابت. كانت الحياة هي العقرب مضموم إلى المريخ، إلى عطارد، إلى الزهرة، إلى زحل، إلى بلوتو، إلى أورانوس، إلى الزئبق، واللودانيوم، والراديوم، والبزموث. وكان الاتحاد الكبير يحصل مساء كل سبت، ليو تزني مع دراكو في بيت الأخوّة. المصيبة الكبرى هي في شعاع الشمس المُتسلِّل من خلال الستائر. واللعنة الكبرى هي أنَّ جوبيتر، ملك الأسماك قد يتلصَّص عليهما.

والسبب في صعوبة التعبير هو أنني أذكرُ الشيء الكثير. أذكرُ كل شيء، ولكن كالدمية الجالسة في حضن المُتكلِّم من بطنه. ويبدو لي أني طوال فترة الانقلاب الزيجي الطويل المتواصل كنتُ جالساً في حضنها (حتى وهي واقفة) أردِّدُ الكلام الذي علّمتْنيه. يبدو لي أنها لابد قد أمَرَتْ رئيس سمكرية الله أنْ يُبقي النجم الأسود متلألئاً من خلال ثقب السقف، لابد أنها أمَرته أنْ يظل يُمطِر طوال الليل ومع المطر العذابات الزاحفة المتحركة بلا صوت في المكان تحت جنح الظلام حتى يُصبح العقل كبوم دوّار يحفر مسعوراً في الخواء الأسود. هل كان كلامها المتواصل محض ابتكار من خيالي، أم هل أصبحت دمية مُدرَّبة تدريباً رائعاً بحيث قاطعت التفكير قبل وصوله إلى الشفتين؟ كانت الشفتان منفرجتين انفراجاً دقيقاً، وقد صُقِلتا بمعجون كثيفٍ من الدم الداكن :

راقبتهما تنفرجان وتنغلقان بسحرٍ كامل، سواء هسّتا حقداً ساماً أو هدّلتا كطائر القمرية. إنهما دائماً مُغلقتان كما في السينما الصامتة، حتى أني عرفتُ كل شقٍ، كلَّ سُمّ. وعندما بدأ سيل اللعاب الهذياني رحتُ أراقبُ عطر اللعاب وزَبَده وكأني على كرسي هزّاز تحت شلالات نياغارا. عرفتُ ماذا أفعل وكأني جزء من كيانها الحيّ ,كنتُ أفضَلْ من دمية المتكلّم من بطنه لأنني استطعتُ أنْ أمثّل دون أنء أحرّك الخيطان بعنف. وبين آنْ وآخر أؤدي الأشياء كأني أرتجلها، مما كان يُدخل أحياناً سروراً جماً إلى قلبها، وطبعاً كانت تتظاهر بعدم ملاحظة هذه المقاطعات، لكنني عرفتُ دائماً متى تكون مسرورة من طريقتها في هندمة نفسها. كانت تتمتّع بموهبة التحوُّل، بسرعة ودهاء الشيطان نفسه. بالإضافة إلى نمور البانثر والجاغوار كانت تُحسِن بعدها تقليد الطيور. كمالك الحزين البرّي، وأبو منجل، والفلامنكو، والبجعة أثناء حيضها. كانت لها طريقتها في الانقضاض المفاجئ، وكأنها لمحتْ جثة ناضجة، لتغوص إلى داخل أحشائها، قافزة على الفور نحو الأطباق الشهيّة - القلب، الكبد أو البويضات - وتنطلق من جديد في طُرفة عين. فإذا رآها أحدهم، استلقت جامدة بهدوء الحجر عند أسفل شجرة، عيناها مغمضتان قليلاً لكنهما جامدتان كحدقة العظاءة الثابتة. هزّها قليلاً فإذا بها تصبح وردة، وردة حالكة السواد بتويجات ناعمة كالمخمل وعَبَق طاغٍ. مذهلٌ كم كانت معرفتي بدوري رائعة، ومهما كان التحوُّل سريعاً أكون حاضر الذهن في حضنها، حضن الطائر، حضن الحيوان، حضن الأفعى، حضن الوردة، أو كائناً ما كان : حضن الأحضان، شَفة الشفاه، طَرَفُ إلى طَرَف، ريشة إلى ريشة، المُحّ في البيضة، اللؤلؤة في

الصَدَفة، تشبُّث السرطان، لون المني أو عشب الذرّاح. كانت الحياة هي العقرب مُلتصِق بالمرّيخ، مُلتصِق بالزهرة، بزحل، بأورانوس، الخ الخ، وكان الحب هو التهاب مُلتحمة الفكّ السُفلي، تشبَّثْ بذاك، تشبَّث، تشبَّثْ، تشبُّثُ فكّي - تشبُّث دولاب المندلة[1] الخاصّ بالشبق. حان وقت الطعام أكاد أسمعها تُقشِّر البيض، وفي داخل البيضة صوت تشيب-تشيب، وهو فألٌ خيِّر لتوفِّرْ الوجبة التالية. أكلتُ كمهووس أحادي : بنهمٍ مُطوَّل كالحلم لرجلٍ نقَضَ صيامه ثلاث مرات. وبينما أنا آكُلْ تُخرخر هي، بأزيز سقّوبة[2] إيقاعي مُتقطِّع وهي تلتهم وليدها. أي ليلة حب مُفعم بالسعادة ! لعاب، منِي، مضاجعة أثناء النوم، معصورة كلها معاً : إنه قصف زيجي في ثغرة كلكوتا السوداء.

كان هناك النجم مُعلّقاً، في صمتٍ إسلاميّ شامل، كما في العالم الكهفي حيث الريح نفسها راكدة. وفي الخارج، إنْ كنتُ أجرؤ على التفكير في هذا، ثمة هدوء الجنون الشبحي، عالم الرجال، الكسالى، المستنفّذين بعد قرونٍ من الذبح المستمر. وهناك في الخارج غشاء شامل يُجمِّد الدم في العروق يحدث داخله كل النشاط، عالم بطولي من المتعصّبين والمهووسين سقوا نور السماء بالدم. ما أشد هدوء حياة الحمامة والنسر التي نعيشها في الظلام ! لحم نغرز فيه أسناناً أو أيراً، لحمٌ وافرٌ عبِق لا أثرَ فيه لسكّين أو مقصّ، لا أثر باقياً لقنبلة متفجّرة، لا خردل يحترق، لا رئتين مُحترقتين. وما خلا الثقب المهلوس في السقف،

١ - دولاب المندلة : رمز الكون عند الهندوس والبوذيين ، وهو على شكل دائرة تطوّق مُربّعاً وعلى كل من جانبَيها رسم إله .

٢ - سقوبة : شيطانة زُعِمَ أنها تجامع الرجال أثناء نومهم .

فهي حياة رحميّة كاملة. لكنَّ الثقب موجود - كالصدع في المثانة - ولا يمكن لأي عملية حشو أنْ تسدّه إلى الأبد، ولا لأيّ تبوّل يمكن أنْ يتم مع ابتسامة. تبوَّلْ بوفرة وحريّة، نعم، ولكن كيف تنسى التصدُّع في برج الكنيسة، والصمت غير الطبيعي، والخطر المُحدِق، والرعب، ودمدمة العالم " الآخر "؟ املأ بطنك بالطعام، نعم، وغداً املأه، وغداً وغداً وغداً - ولكن ***في النهاية***، ماذا بعد ذلك؟ ***في النهاية***؟ ما ذا حدث ***في النهاية***؟ حدث تغيير المتكلِّم من بطنه، تغيير الحضن، انحراف في المحور، وصدع آخر في القنطرة... ***ماذا؟ ماذا؟*** سأقول لك - بينما أنا جالس في حضنها، مُتيبِّس بسكون وسطوع أشعة النجم الأسود مُحذَّر، مكبوح، مُلجَمْ، مُغوى بالحِدَّة التخاطريّة لهياجك المتفاعل، لم أكنْ أفكّر بأي شيء، لا شيء خارج الزنزانة التي سكنّاها، ولا حتى بمقدار كسرة خبز صغيرة على مفرش المائدة. كان تفكيري محصوراً تماماً داخل جدران حياتنا الأميبيّة، تفكير نقيّ كالذي نفحنا به عمانوئيل بوسي فوت كانَتْ ولا يمكن إلا لُمتكلِّم من بطنه أنْ يفرِز مثله. راجعت كل نظرية علميّة، كل نظرية فنية، كل ذرة من الحقيقة في كل نظام مخبول للخلاص. حسبتُ كل شيء بدقّة متناهية، وحتى كسور عِشرية روحيّة، كالحسنات التي ينالها السكّير في نهاية سباق الستة أيام. ولكن كل شيء محسوب من أجل حياة أخرى قد يعيشها أحدهم يوماً ما - ***ربما***. كنا عند عنق الزجاجة بالضبط، هي وأنا، كما يقولون، لكنَّ العنق انكسر وصارت الزجاجة مجرَّد وهم.

أذكُرُ قولها حين قابلتُها للمرة الثانية أنها لم تتوقَّع رؤيتي من جديد أبداً، وفي المرة التالية قالتْ إنها تظن أني عفريت مُغفَّل، وفي المرة التي

بعدها سمَّتني إلهاً، وبعد ذلك حاولتْ أنْ تنتحر ثم حاولتُ ذلك بدوري ومن ثم أعادت الكرة، ولم يعمل هذا كله إلا في تقريبنا من بعض، وقد تقاربنا كثيراً حتى تداخلنا، تبادلنا شخصيتينا، والاسم، والهوية، والدين، والأب، والأم، والأخ. حتى جسمها تبدَّلَ تبدّلاً فوضوياً، ليس مرةً بل مرات عدّة. في أول الأمر كانت كبيرة ناعمة كالمخمل، كجلد نمر الجاغوار، توحي بتلك القوة الحريرية المُضلِّلة لحيوان السنّور، بطريقة جثومه، وقفزه، وانقضاضه، ثم صارت نحيلة، هشّة، رقيقة، كالقنطريون العنبري، ومع كل تغيُّر وبعده تمرُّ بأدقّ التحوّلات - في الجلد، والعضَل، واللون، والوِقفة، والرائحة، والمشية، والإشارة، الخ الخ. أخذتْ تتحوَّل كحرباء، ولم يستطع أحد أنْ يقول ما هي حقاً لأنها مع كل تحوُّل تغدو شخصاً مختلفاً تماماً. وبعد فترة لم تعد هي نفسها نعرف ما هو مظهرها الحقيقي، وقد بدأتْ بتلك السلسلة من التحوّلات قبل أنْ أقابلها، واكتشفتُ ذلك لاحقاً. وكجميع النساء اللواتي يعتقدن أنهنّ قبيحات أرادتْ أنْ تجعل نفسها جميلة، باهرة الجمال. ولكي تفعل ذلك غيَّرتْ اسمها أولاً، ثم عائلتها، فأصدقائها، وكل ما من شأنه أنْ يصلها بالماضي. سخَّرَتْ كل ما لديها من مَلَكات وقُدُرات لرعاية جمالها، سحرها، اللذين كانت تتمتَّع بهما بقدرٍ فائق لكنها اعتقدتْ أنَّ لا وجود لهما؛ قضتْ حياتها أمام المرآة، تدرس كل حركة، كل لمحة وأقلّ التعبيرات؛ غيَّرَتْ طريقتها في الكلام، وطريقة إلقائها، وتنغيمها، ولكنتها، وصياغتها اللفظية؛ أدارت نفسها بمهارة فائقة حتى استحال مجرَّدْ طَرقْ أي موضوع هو الأصل. كانت في حالة حراسة مستمرّة لنفسها، حتى وهي نائمة، وكالضابط الذكي، اكتشفت بسرعة أنَّ أفضل

وسائل الدفاع هي الهجوم. لم تترك أبداً موقفاً واحداً لم تختله؛ كانت مواقعها الأمامية، كشّافيها، وحرّاسها موجودين في كل مكان. ورأسها يدور كالنور الكاشف الذي لا يخفت أبداً.

ولمّا كانت عمياء عن جمالها، وسحرها، وشخصيتها المتميِّزة، ناهيك عن كيانها، وجَّهَتْ قواها نحو صنع مخلوق أسطوري، هيلين أخرى، جونو[1] أخرى، لا يقوى رجل أو امرأة على مقاومة سحرها. وشيئاً فشيئاً بدأتْ، بطريقة آليّة، دون أدنى معرفة بالأساطير، تخلق الخلفيّة الوجودية Ontological، التسلسل الأسطوري للأحداث السابقة للميلاد الواعي. لم يكن بها حاجة لتتذكَّر أكاذيبها، قصصها المُلفَّقة - بل كفاها أنْ تحفظ دورها. لم يكن ثمة كذبة من الضخامة بحيث تعجز عن إلقائها، فحين أداء دورها المُقرَّر كانت تُخلص لنفسها كل الإخلاص. لم تكن مضطرة **لاختلاق** ماض: فهي **تتذكَّر** ماضيها الخاص. لم تتفادَ أي سؤال صريح بما أنها لم تتقدَّم من خصمها إلا بشكلٍ غير مباشر. قدَّمَتْ فقط زوايا الأسطح المتقلّبة، الأضواء الموشورية المُبهِرة التي جَعَلَته دائم الدوران. لم تكن كياناً تاماً، كالذي يمكن ملاحظته أخيراً في فترة الراحة، بل الآليّة ذاتها، التي تُشغِّل بلا هوادة المرايا التي لا حصر لها التي تعكس الأسطورة التي خلقَتها. لم تكن متوازنة أبداً؛ كانت متوازنة دائماً فوق مستوى كياناتها المتعددة في فراغ ذاتها. لم يكن في نيّتها أنْ تجعل من نفسها شخصية أسطورية، أرادت فقط أنْ تُبرزَ جمالها. ولكن وسط سعيها لإبراز جمالها سرعان ما نسيَتْ تماماً هدفها، وأضحت

---

١ - جونو : ملكة السماء في أساطير الرومان .

ضحيةَ خلقها؛ أصبحت ذات جمال أخّاذ حتى إنها كانت أحياناً تبدو مخيفة، وفي أحيانٍ أخرى بدت أشد قُبحاً من أقبح امرأة في العالم. كانت تُثير الرعب والفزع، خاصةً عندما وصلت فتنتها إلى ذروتها. وكأنَّ الإرادة العمياء والجامحة كانت تشعّ من خلال خلقها، كاشفة عن حقيقتها كوحشٍ شنيع.

في الظلام، وهي حبيسة في الفجوة المظلمة لا زيارات، ولا خصوم، ولا منافسين، وقد أبطأتْ فاعلية الإرادة العمياء قليلاً، ذلك كله مَنَحها توقُّد النحاس الذائب، وصارت الكلمات تخرج من فمها كاللافا وجسدها يتوق بنهم لاحتضانٍ، لجلوسٍ على شيءٍ صلبٍ جوهريّ؛ شيء تكتمل به وترتاح بعض الوقت؛ شيء أشبه برسالة مسعورة آتية من مسافة بعيدة، نداء نجدة من سفينةٍ تغرق. في أول الأمر خلطتُ بينه وبين الانفعال المشبوب، النشوة الناتجة عن حكّ اللحم على اللحم. ظننتُ أني عثرتُ على بركانٍ حيّ، على فيزوف أنثى. لم أفكِّر مرة في سفينةٍ إنسانية تغرق في محيط اليأس، في سرغس العقم. الآن أفكِّر في ذلك النجم الأسود المُشعّ من خلال ثقب السقف، النجم المُثبَّتْ المُعلَّق فوق زنزانتنا الزيجيّة، أكثر ثباتاً، وأكثر نأياً من المُطلَق، وأعرفُ أنها هي، مُفرَغة من كل ما كان نفسها حقاً: شمسٌ سوداء ميّتة بلا أوجه. أعرفُ أننا كنا نصرِّف الفعل بحب كمهووسين يحاولان أنْ يتناكحا من خلال صندوقٍ حديديّ. قلتُ إنه أثناء التصارُع المسعور في الظلام كنتُ أنسى اسمها أحياناً، وشكلها، وهويتها. حقاً. ففي الظلام كنتُ أتجاوزُ نفسي. تخطّيت سياج الجسد إلى فضاء الجنس اللا متناهي، داخل أفلاك القناة التي أسّسها هذا أو ذاك، أضربُ مثلاً، جورجيانا، فترة قصيرة بعد

الظهـر، وتيلمـا، العـاهرة المصـرية، وكـارلوتا، وآلانا، وأونا، ومـونا، وماغدا، حوالي ست أو سبع فتيات، ضالات، مع آمالٍ خادعة، وجوه، أجساد، أفخاذ، مناوشة في شارعٍ جانبيّ، حلم، ذكرى، رغبة، اشتياق. كان يمكن أنْ أبدأ مع جورجيانا بعد ظهر يوم أحد قرب عربات القطار، بثوبها السويسري المُنقَّط، ووركها المتمايل وطريقتها المتشدقة الجنوبية في الكلام، وفمها الداعر، وثدييها الرخوين، كان يمكن أنْ أبدأ مع جورجيانا، شمعدان الجنس ذو آلاف الشُعَب، وأعمل خارجاً وعالياً في تشعّبات الكسّ إلى أقصى أبعاد الجنس، عالم بلا نهاية. كانت جورجيانا أشبه بغشاء أُذُن صغيرة جداً لوحش لم يمُتْ بعد اسمه الجنس. كانت حيّة بوضوح، تتنفَّس على ضوء ذِكرى بعد ظهر يوم قصير في الشارع العام، أول عبق مُدرَك وجوهر عالم النكاح الذي يشكّل بذاته وجوداً غير محدود ولا معروف، كهذا الحالم عالمنا. عالم النكاح كله يُشبه داخل الغشاء الحيواني المتنامي أبداً ونسمّيه الجنس، ويشبه كياناً آخر ينمو داخل كياننا ويحلّ مكانه تدريجياً، وهكذا سيأتي وقت لن يكون الحالم الإنساني إلا ذِكرى غامضة لهذا الكيان الجديد، الكلّي الشموليّ، الكليّ التناسل الذي يولَدْ من نفسه.

هذا الجماع الثعباني في الظلام، هذا الالتصاق الثنائي، التحالف ذو الأنبوبَين بالذات هو الذي سبَّبَ لي الشك الجنوني، الغيرة، الخوف، الوحدة. إذا بدأتُ تطريزي مع جورجيانا وشمعدان الجنس ذو آلاف الشُعَبْ أتأكّدْ أنها بدورها تُكوِّنْ غشاءً حيوانياً، تضعُ آذاناً، عيوناً، أصابع أرجل، فروة رأس وما شابه من الجنس. كانت تبدأ بالحيوان الذي اغتصبها، على فرض أنَّ القصة حقيقية؛ على أي حال كانت تبدأ في

موقع ما على درب موازٍ، تعمل في كل الاتجاهات في هذا الكيان المتعدد الأشكال، الأزليّ الذي جاهدنا معاً كي نلتقي داخل جسده. ومع أني لا أعرفُ إلا نبذة عن حياتها، ولا أملك غير حفنة من الأكاذيب والتلفيق، والتخيلات، ومن الهواجس والأوهام، وأضمّ نهايات إلى بعضها، أحلام الكوكايين، وأحلام اليقظة، والجُمل الناقصة، وأضغاث أحلام، وكلام هستيري، وأوهام مخفيّة بشكلٍ رديء، ورغبات مريضة، وأقابل بين حين وآخر اسماً يُصبحُ لحماً، وتصل إلى مسمعي شذرات متفرّقة من حديث، أراقبُ نظرات مُهرَّبة، وألاحظُ إيماءات مسروقة، إيماءات شبه مُلتَقَطَة، كان في استطاعتي أنْ أنسبها إلى هيكل آلهة النكاح الخاصة بها، إلى مخلوقات من لحم ودم وتضجّ بالحيوية، رجال ربما قابلتهم بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، ربما قبل ساعة من الزمن، ولا يزال كسّها محشواً ربما بمني أخر نكاح. وكلما زادت خضوعاً، تصرّفت بحماس مُتّقد، وبدت متهتّكة، وانتابني الشك. لم تكن هناك بداية، لا نقطة ابتداء شخصية، خاصة، بل تقابلنا كمتبارزين في ساحة الشرف التي أضحَتْ الآن مُحتشدة بأشباح الانتصار والهزيمة. كنا نشطين ومسؤولين عن أقلّ غرزة، كما لا يستطيع إلا المتمرسون.

أتينا معاً تحت جنح الظلام مع جيشينا واقتحمنا بوابات الحصن من طرفَين متقابلَين. لم نواجه أي مقاومة أو عمل دموي، لم نطلب الرحمة ولم نمنحها. أتينا معاً نسبح في الدم، ليلاً في اتّحاد مُسربل بالدم بلون الغلوكوز، وكل النجوم خامدة عدا النجم الأسود يتدلّى ثابتاً كفروة رأس فوق ثغرة في السقف. وحين تُنكَح كما ينبغي تتقيّأ كل شيء كالوحي، تتقيّأ كل ما حدث لها خلال اليوم، والأمس واليوم الذي قبله، والسنة

قبل الماضية، ***كل شيء***، وحتى يوم مولدها. دون أي كلمة صحيحة، ولا أقلّ تفصيل. لم تتوقف لحظة واحدة، ولو فَعَلَتْ لسبَّبَ الفراغُ الذي تخلّفه بطيرانها انفجاراً مُفاجئاً كفيلاً بتفتيت العالم إرباً. كانت آلة العالم الكاذبة في شكلٍ مجهريّ، مُتطابق مع الخوف الأبدي المُدمِّر نفسه الذي يجعل الرجال يرمون طاقاتهم كلها لخلق أداة الموت. وعند النظر إليها قد يظنها المرء غير هيّابة، قد يظنها تجسيداً للشجاعة وهكذا هي فعلاً، شرط ألاّ تُجبر على كشف آثارها. خلفها تكمن حقيقة الواقع الهادئة، كعملاق يتعقَّب خطوها. وفي كل يوم يتّخذ هذا الواقع الهائل أبعاداً جديدة، كل يوم يغدو أشد بثّاً للرعب، والصاعقة. كان عليها كل يوم أنْ تُنمّي أجنحة أسرع، وأنياباً أحدّ، وعيوناً أكثر نفاذاً وقُدرة على التنويم. كان سباقاً إلى أقصى أقاصي العالم، سباقاً ضائعاً منذ البداية ولا أحد يوقِفه. وعلى حافة الخواء وَقَفَتْ الحقيقة، مستعدّة لاسترجاع الأرض المُغتصبة بحركة اكتساح واحدة سريعة كالبرق. كان شيئاً بسيطاً واضحاً حتى إنه سبَّبَ لها هياجاً مسعوراً. نظِّمْ ألف شخصية بارزة، جنِّدْ أضخم المدافع، اخدع أعظمْ العقول، وقُمْ بأطول الرحلات - في النهاية ستبقى الهزيمة من نصيبك. في اللقاء الأخير يُقدَّر الدمار لكل شيء - المكر، المهارة، القوة، كل شيء. وستكون هي حبة رمل على شاطئ أكبر محيط، والأسوأ من كل شيء أنها سوف تشبه أي حبة رمل أخرى على شاطئ ذلك المحيط. سوف يُحكَمُ عليها أنْ ترى ذاتها الفريدة في كل مكان حتى نهاية الزمان. أي قَدَرٍ اختارته لنفسها ! حتى تحجز فرادتها في الكونيّ ! حتى تختزل قوتها إلى أدنى نقاط الهمود ! كان أمراً يُثير الجنون، يُصيب بالهذيان. لا يمكن أنْ يحدث هذا ! يجب ألاّ يحدث ! إلى

الأمام ! كالفيالق السوداء. إلى الأمام ! عبر كل درجة من الدائرة الدائمة الاتّساع. إلى الأمام هروباً من الذات، وإلى أنْ تمتد آخر ذرّة من ذرّات الروح حتى الأبد. بدت بهروبها المذعور كأنها تحمل العالم كله في رحمها. كنا ننجرف بعيداً عن تخوم الكون نحو غمامة سديمية لا يمكن لأي أداة للرؤية أنْ تموت بالمقارنة معها عربدة ساحرات مجنونات.

في الصباح، أتفرَّس في حفرة وجهها الخالية من الدماء. لا خط فيه، لا تجعيد، ولا عيب واحد ! بل نظرة ملاك بين ذراعيّ خالقه. مَنْ قَتَلَ كوك روبن؟ مَنْ ذبحَ الإركواز[1] ؟ لستُ أنا، قد يقول ملاكي، ويا لله، مَنْ يمكنه أنْ يحملق في وجهها النقي الخالي من العيوب، ويُنكرها ؟ مَنْ يستطيع أنْ يكتشف في هذا النوم البريء إن نصف الوجه هو لله والنصف الآخر للشيطان؟ كان القناع ناعماً كالموت، بارداً، لطيف الملمس، شمعياً، كتويجٍ يُفتَح أمام أخفّ نسمة؛ مُغرياً جداً وساكناً وبلا رياء حتى يمكن للمرء أنْ يغرق فيه، أنْ يغوص، بجسمه وكل شيء، كالغواص، ولا يعود أبداً. سوف تبقى مستلقية هكذا إلى أنْ تفتح عينيها على العالم، وهي مُخمَدة تماماً تتلألأ بضوء معكوس، كالقمر نفسه. في غيبوبة براءتها التي تشبه الموت كانت أشد سحراً، وقد ذابت جرائمها، نضحت من خلال المسام، ورقدَتْ مُلتفّة كأفعى نائمة مُثبّتة إلى الأرض. الجسم، قويّ، لدنْ، عضليّ، كأنَّ ثقله غير طبيعي، وكانت جاذبيتها أكثر من إنسانيّة، يمكن القول إنها جاذبية جثّة دافئة. كانت جميلة جمال نفرتيتي بعد الألف سنة الأولى من تحنيطها، أعجوبة في

---

١ – الإركواز : مجموعة من هنود أميركا الشمالية كانت تعيش بين نهر هدسن وسينت لورنس وبحيرة إيري .

الكمال الجثثي، حلم جسد محفوظ بعيداً عن الفناء المُدمِّر. رقَدَتْ مُلتفّة عند قاعدة هرم أجوف، محفوظة بقُدسيّة في خواءٍ من خلقها كأثرٍ مقدّس من الماضي. حتى تنفّسها بدا متوقفاً، وغطيطها عميقاً. سقطَتْ أسفل الفلك الإنساني، أسفل الفلك الحيواني، أسفل الفلك النباتي : غاصت حتى مستوى العالم المعدني حيث الحيوية موجودة فوق الموت بدرجة. وتضلّعت في فن الخداع حتى عجز الحلم نفسه عن تضليلها. تعلّمتُ كيف لا تحلم : فحين تلتفّ على نفسها وتنام تقطع التيّار آلياً. فإذا ضبطَها أحدهم وهي على ذلك الحال وفتحَ جمجمتها فسيجدها خاوية تماماً. لم تكن تُخفي أي سرّ مزعج؛ لقد قُتِلَ كل ما يُمكن قتله بإنسانيّة. ربما كان يمكن أنْ تحيا إلى الأبد، كالقمر، كأي كوكب ميّت، تشعُّ سطوعاً مُنوِّماً، تخلقُ تيارات من الانفعال، تغمرُ العالمَ بالجنون، تغيِّر ألوان المواد الأرضية كلها بأشعتها المغناطيسية المعدنية. وجرَفَتْ كل مَنْ حولها إلى حمأة الحُمَّى وهي تنثرُ موتها الخاص. في سكون نومها الشنيع جدَّدَتْ موتها المغناطيسي بالاتّحاد مع الصهارة الباردة للعوالم السيّارة. واحتفظت ببكارتها كالسحر. كانت نظرتها تنزل على المرء بثبات نافذ : حملقة قَمَريّة ينفثُ تنّين الحياة الميّتْ تحت تأثيرها ناراً باردة. كانت إحدى العينين بلون بني دافئ، لون أوراق الخريف، والأخرى بلون البندق، عين مغناطيسية تحرفُ إبرة البوصلة. حتى أثناء النوم تستمر تلك العين بالاهتزاز تحت غطاء الجفن، وكانت دلالة الحياة الوحيدة فيها.

ولحظة تفتح عينيها تستيقظ تمام اليقظة. كانت تستيقظ ببداية عنيفة، وكأنَّ مرأى العالم ومعدّاته الإنسانية بمثابة صدمة. وفي التو

يدبُّ النشاط الشامل فيها ، تندفعُ في المكان لاسعةً الفضاء كأفعى أصلة ضخمة. أما ما يزعجها فهو النور ! تستيقظ وتلعن الشمس، تلعن بريق الواقع. يجب إظلام الغرفة، وإضاءة الشموع، وإيصاد النوافذ جيداً لمنع ضجيج الشارع من اختراق الغرفة. وتتجوَّل في المكان عارية وسيجارة تتدلّى من زاوية فمها. وكانت زينتها مسألة تستلزمُ انغماسها الكامل؛ فيجب الاهتمام بألف تفصيلٍ قبل أنْ تضع عليها ثوب الاستحمام. كأنها رياضيّة تستعدُّ لحَدَثٍ جلل. ومن جذور شعرها، الذي تتفحّصه بانتباه حادّ، إلى شكل وطول أظافر قدميها، يُفتَّشُ كل جزء من جسمها تفتيشاً كاملاً قبل أنْ تجلس لتتناول طعام الإفطار. كانت كالرياضي، كما قلتُ، لكنّها في الحقيقة أقرب شَبَهاً بميكانيكي يتفحَّص بدقّة طائرةً سريعة قبل إقلاعها. وما أنْ تنزلق داخل ثوبها حتى يبدأ يومها، وتباشر طيرانها الذي قد ينتهي بها في إيركوتسك أو طهران. وتتناول ما يكفي من الوقود على مائدة الإفطار لتقوم بجولتها الكاملة. الإفطار قضيةٌ طويلة : إنه الطقس الوحيد الذي تتلكّأ في أدائه وتتوانى أثناء النهار. طقس مُطوَّل بصورة مُغالية، حقاً. حتى إنَّ المرء يتساءل إنْ كانت ستُقلِع، يتساءل إنْ لم تكون قد نسيَتْ المهمة العظمى التي أقسَمَتْ على إنجازها كل يوم. ربما كانت تحلم بتطوافها، أو ربما لم تكن تحلم على الإطلاق بل ببساطة تمنح بعض الوقت للعمليات الوظيفية لآلتها الرائعة حتى إذا ما باشرتْ عملها لا يبقى هناك مُبرِّر للعودة. كانت هادئة جداً ومتماسكة في تلك الساعة من النهار، كعصفور هائل يجثم فوق جرف جبلي، تمسح المنطقة الواقعة في الأسفل بنظرةٍ حالمة لم تكن تندفع مباشرة من مائدة الإفطار لتغوص وتنقضّ على فريستها. كلا، فمن مجثمها في الصباح

الباكر تنطلق ببطء وفخامة، وهي تُزامنُ كل حركة من حركاتها مع نبض المحرِّك. الفضاء كله مفتوح أمامها، واتّجاهها يُعيِّن بالنزوة فقط. كانتْ تجسيداً للحرية، لولا ثقل جسمها الزُحلي وامتداد جناحيها غير العادي. ومهما بدت متوازنة، خاصة عند الانطلاق، فإنَّ المرء يشعر بالرعب الذي يحثّ طيرانها اليومي. كانت في وقتٍ واحد مُخلصة لقَدَرَها وتوّاقة بعنف إلى قهره. كانت في صباح كل يوم تحوِّم انطلاقاً من مجثمها وتحلِّق عالياً، كأنما من إحدى قمم الهيمالايا، ودائماً تبدو أنها متجهة نحو منطقة غير مُدوَّنة على الخريطة، وإذا مضى كل شيء كما يجب، تختفي إلى الأبد. في صباح كل يوم تحمل معها عالياً هذا الأمل اليائس المتعلِّق بآخر لحظة، تذهب بجلال هادئ، وقور، وكأنها تستعد للذهاب إلى القبر. لم تحوِّم مرة فوق المطار، لم ترمِ مرةً نظرة واحدة إلى الوراء نحو مَنْ تهجرهم، ولم تترك خلفها درّة صغيرة من شخصيتها، بل كانت تصعد إلى الفضاء بكل ما يخصُّها، مع أقلّ ذرة برهان قد تشهد على حقيقة وجودها. بل لم تكن تترك تنهيدة واحدة خلفها، ولا حتى قُلامة ظِفر؛ خروجٌ نظيف، كما قد يفعل الشيطان نفسه لأسبابٍ تخصّه. وتترك ضحيتها خالية الوفاض، وتهجره، وليس فقط تهجره، بل وتخدعه، تخدعه بأسلوبٍ غير إنساني. ولا تبقى لديه رغبة في إبقائها ولا يطلبها ثانية. يترك مع لعنة على شفتيه، وحقد أسود يُسوِّد يومه كله. بعد ذلك، أثناء تجواله متمهلاً على طريقة المشاة المبتذلين، زاحفاً كدودة، يسمع شائعات عن طيرانها المُثير، فقد شوهدتْ تحوم حول منطقة معيَّنة، ثم غاصت هنا وهناك، لماذا؟ لا أحد يعلم، وأشاعت الاضطراب في كل مكان آخر، ومرّت كالشهاب، وكتبَتْ رسائل من الدخان في السماء،

الخ. لقد كان كل ما نفعله مُبهماً ومُبالَغاً فيه، وبلا سبب طبعاً، كأنه تعليقٌ رمزيٌ ساخرٌ على الحياة الإنسانية، على سلوك مخلوقٍ يُشبه النملة، يُرى من منظورٍ آخر.

عشتُ بين وقت انطلاقها ووقت رجوعها حياة فُصاميّة تامة لعينة. لم تكن أبدية لا تنقضي، لأنّ للأبدية بشكلٍ ما صِلة بالسلام والنصر، هي شيء من صُنع الإنسان، شيء يُكسَبْ: كلا، لقد مررت بتجربة داخلية أصبحت كل شعرة في رأسي أثناءها بيضاء حتى جذرها، كل مليمتر من الجلد بات يحكّ ويلتهب حتى أصبح الجسم كله يفرز الصديد. أرى نفسي جالساً أمام طاولة في الظلام، يداي وقدماي تنمو نمواً عملاقاً، لكأنّ التضخُّم يُباغتني قفزاً. أسمعُ الدم يندفع إلى دماغي ويضرب بشدّة على طبلتيّ أذنيّ كشياطين الهيمالايا يحملون مرزبّات، أسمعها تخفق وتتقدَّم، دائماً إلى الأمام، ودائماً بعيداً عن المتناول. الغرفة هادئة جداً وخالية بصورة مُخيفة حتى إني أزعق وأصرخ لمجرَّد أنْ أثير قليلاً من الضجيج، قليلاً من الصوت الإنساني. وأحاول أنْ أرفع نفسي عن الطاولة لكنّ قَدَميّ ثقيلتان ويديَّ أصبحتا كقدميّ وحيد قرن لا شكل لهما. وكلما ثقُلَ جسمي خفَّ جو الغرفة، سأمتدّ وأمتدّ إلى أنْ أملأ الغرفة بكتلة هُلاميّة واحدة، سأملأ حتى الشقوق في الجدار، سأنمو خلال الجدار كنباتٍ طفيليّ، أمتدُّ وأمتدّ حتى أعلمُ أنَّ هذا هو الموت، لكنني عاجز عن قتل معرفتي هذه، أو العارف. هناك قطعة صغيرة جداً مني حيّة، ذرّة وعي لا تزال تلحّ وتصرّ، وبينما الجثة الداخلية تتمدَّد، يصبح قبس الحياة هذا أكثر حِدَّة فأكثر ويومضُ داخلي كنار حجرٍ كريم باردة. إنه يُضيء كل الكتلة الرغويّة حتى يُصبح شبيهاً بغوّاص يحملُ

مصباحاً كهربائياً داخل جسمٍ بحريّ عملاق ميّتْ. لا أزالُ، بفعل فتيلٍ رقيقٍ خفيّ اتّصل بالحياة فوق سطح الأعماق، لكنَّ العالم العلويّ بعيد جداً، والجثّة من الثقَلْ بحيث سيستغرق الوصول إلى السطح، إنْ أمكنَ ذلك، سنوات طويلة. أتجوَّل بجسمي الميّت، أستكشف كل ركن وزاوية مُظلمة من كتلته الهائلة التي لا شكل لها. إنه استكشاف لا ينتهي، فبسبب النمو المستمرّ تتغيَّر التضاريس كلها، تنزلق وتنجرف كصهارة الأرض الحارّة. ولا تتحوَّل إلى مادة تُرابيّة أبداً، لا يبقى أي شيء ثابتاً مميّزاً ولو للحظة: إنه نماء بلا نقاط علاّم، رحلة يتغيَّر الهدفُ أثناءها مع أقلّ حركة أو اهتزاز. هذا الملء اللا متناهي للفراغ هو الذي يقتل كل حسّ بالفراغ أو الزمان، وكلما امتدّ الجسم صَغُرَ العالم، إلى أنْ صرتُ أخيراً أشعر أنَّ كل شيء مُتركّز على رأس دبوس. وعلى الرغم من تخبُّط هذه الكتلة الهائلة الميتة التي إلتُ إليها، أشعرُ أنَّ ما يُغذّيها، أي العالم الذي نَمَتْ منه، ليس أكبر من رأس دبوس. ووسط التدنيس، في قلب قلب الموت، أشعرُ بالبذرة، بالعتلة المجهرية المعجزة التي توازنُ العالم. لقد طغيتُ على العالم كشراب حلو وإحساسي بالفراغ هذا مُرعِب، ولكن لا سبيل إلى إزالة البذرة، فقد أصبحَتْ عقدة صغيرة من النار الباردة تهدر كشمس في الفراغ المترامي للجثة الميتة.

حين تعود العصفورة المفترسة العظيمة الحجم مُرهَقَة من طيرانها ستجدني هنا وسط العدم، أنا، الفصامي الأبدي، بذرة خفيّة تتلظّى، تسكن قلب الموت. كل يوم تأمل أنْ تجد وسيلة أخرى لكسب العيش ولكن لا وجود لغيرها، لا يوجد إلا هذه البذرة الأبدية من النور التي لم أكنْ أعيد اكتشافها لأجلها إلا بعد أنْ أموت كل يوم؟ طِرْ، أيها

العصفور المفترس، طِرْ إلى أقاصي الكون ! هاكَ غذاءك يتوهّج في الفراغ المُقزّز الذي خلقته ! ستعود من جديد لتتلاشى في الثقب المظلم، ستعود مرة بعد مرة، إذ ليس لديك الأجنحة القادرة على حملك خارج العالم. هذا هو العالم الوحيد الذي يمكنك أنْ تسكنه، قبر الأفعى هذا حيث يسود الظلام.

وفجأة دون أي سبب، حين أفكّر في عودتها إلى عشها، أذكر صباح أيام الآحاد في المنزل الصغير القديم قرب المقبرة. أذكر نفسي جالساً إلى البيانو برداء المساء، أعملُ على الدواسات بقدمَين حافيتين، والأهل مضطجعون في أسرّتهم يدفئون أنفسهم في الغرفة المجاورة، والغرف مفتوحة على بعضها، كما المجهر، وكما في الشقق القطاريّة الأميركية القديمة. في صباح أيام الآحاد يظل المرء مستلقياً في السرير إلى أنْ يغدو مستعداً للصراخ من الشعور بالتحسُّن. قرابة الحادية عشرة أو نحوها يطرق الأهل على جدار غرفة نومي ويطلبون حضوري إليهم لأعزف لهم. وأكاد أرقص في الغرفة كالأخوة فراتيللي، يملؤني الحماس والزهو حتى أكاد أرتفع كالبرج إلى آخر فرع في شجرة السماء. أمكنني أنْ أفعل أي شيء وكل ما يُنفَّذ فرديّاً، وأنا مزدوج المِفصل في الوقت نفسه. كان العجوز يدعوني بـ " جيم الشمس " لأنني مملوء بـ " القوة " مملوء بالحيوية والنشاط. كنتُ أقوم أمامهم أولاً ببعض الشقلبات اليدوية على السجادة أمام السرير، وأغني فاليستو، محاولاً تقليد دمية المتكلّم من بطنه، ثم أرقص بخطوات خفيفة ساحرة لأريهم من أين تهب الرياح، وزووم ! كالنسيم أجلسُ على مقعد البيانو وأقوم بتمرين السرعة. كنتُ

أبدأ دائماً بـ Czerny[1] لأصبح لدنَ الحركة للبدء بالعزف. كان العجوز يكره تشيرني، وأنا أيضاً، لكنَّ تشيرني كان بمثابة طبق اليوم على قائمة الطعام حينئذٍ، وهكذا عزَفتُ مقطوعة لتشيرني حتى أصبحت مفاصل أصابعي كالمطاط. وتشيرني يُذكّرني بطريقة غامضة بالإحساس بالفراغ الذي حلَّ عليّ لاحقاً. وكم كنتُ سريعاً في العزف وأنا مُثبَّتٌ إلى مقعد البيانو! كان كابتلاع زجاجة من مقوٍ دفعةٍ واحدة ثم يُقيّدك أحدهم إلى السرير. بعد أنء عزفت ما يُقارب ثمانية وتسعين تمريناً استعددتُ للقيام ببعض العزف الارتجالي. تعوَّدتُ أنْ أتناول حفنة من النغمات المتآلفة وأمرُّ على البيانو من طرف إلى طرف، ثم أنتقل فجأةً إلى "احتراق روما" أو " عربة سباق بن هُرّ " التي أحبّها الجميع لأنها ضجّة مفهومة. وقبل أنْ أقرأ كتاب فيتغنشتاين[2] " مقالة في الفلسفة المنطقية " بوقتٍ بعيد كنتُ أؤلف له الموسيقى، على مقام ساسافراس Sassafras. كنتُ قد درستُ حتى ذلك الحين العلوم والفلسفة، وتاريخ الديانات، والمنطق الاستقرائي والاستدلالي، وتشخيص الكبد، وشكل وأوزان الجماجم، والصيدلة وعلم المعادن، وكافة فروع المعرفة التافهة التي تسبّب لك الإمساك والكآبة قبل الأوان. هذا القيء من النفاية العلمية كان يتخمّر في أحشائي طوال الأسبوع، وأنا أنتظر مجيء يوم الأحد لكي أعزف الموسيقى. وبين مقطوعتيّ إنذار حريق منتصف الليل " و " المارش

---

١ - تشيرني ، كارل (١٧٩١ - ١٨٥٧) : مؤلف موسيقي نمساوي ، تتلمذ على أيدي والده والموسيقار بيتهوفن . اكتسب سمعة واسعة كمعلم (كان ليست أحد تلامذته) .

٢ - لودفيغ جوزيف يوهان فيتغنشتاين (١٨٨٩ - ١٩٥١) : فيلسوف نمساوي . ساهم في مذهب الإيجابية المنطقية . ولاحقاً عمل على المشاكل الزائفة التي خلقها غموض اللغة .

العسكري " يحلُّ عليّ الوحي، ليدمّر كل أشكال الهارموني البائدة ويخلق تنافُر نغماتي الخاصة. تخيَّل أورانوس مرئياً واضحاً من المريخ، وعطارد، والقمر، والمشتري، والزهرة. من الصعب تصوُّر هذا لأنَّ أورانوس يكون في أحسن أوقات عمله حين يرى بشكلٍ سيئ، حين يكون بالأحرى " مُبتلياً ". ومع ذلك فتلك الموسيقى التي كنتُ أعزفها في صباح أيام الآحاد، موسيقى الثراء واليأس والحَسَن التغذية، وُلِدَتْ من أورانوسٍ مرصود جيداً بشكلٍ غير منطقي وموثق بثبات إلى البرج السابع. لم أكن أعلم هذا حينئذٍ، لم أكن لأعلم أنَّ أورانوس موجود، ومن حُسن حظي أني كنتُ جاهلاً، لكنني صرتُ أفهم الآن، لأنها كانت متعة، هي وليدة المصادفة، صحة زائفة، نوعاً مُدمّراً من الخلق الناري. وكلما زادت فورة نشاطي هدأ الأهل. حتى أختي الخرقاء أضحَتْ هادئة ساكنة. كان الجيران يقفون خارج النافذة ويُنصتون، وبين حين وآخر كنتُ أسمع هتاف استحسان، ومن ثم زيب ! وأنطلقُ من جديد كالقذيفة - التمرين السريع رقم ٩٤٧ ونصف فإذا تصادفَ ولمحتُ صرصاراً يزحفُ على الجدار فأنا في النعيم : وهذا يقودني بلا أدنى انتقال إلى أوبوس إيزي Opus Izzi على آلة كلافيكورد مُموَّجة بحزن. وفي أحد أيام الآحاد، كهذا اليوم، ألّفتُ واحدة من أجمل مقطوعات السكيرتزو التي يمكن تصوّرها - لقملة. كان الوقت ربيعاً وكنا جميعاً نخضع للعلاج بالكبريت، وطوال الأسبوع أنكبُّ على جحيم دانتي باللغة الإنكليزية. حلَّ يوم الأحد كالذوبان، وصارت العصافير كالمجنونة من موجة الحرّ المفاجئة حتى باتت تطير داخلة خارجة من النافذة، مُحصّنة ضد الموسيقى. كان قد وصلنا أحد الأقارب الألمان من هامبورغ أو بريمن، وهي عمّة عذراء تشبه ثور

الماء كان يكفي بقائي قربها حتى تجتاحني نوبة من الغضب. كانت تربت على رأسي وتقول لي سأكون موتسارت آخر. وكرهتُ موتسارت، ولا أزال أكرهه، ولكي أتعادل معها عزفت بشكل سيء، عزفتُ كل النغمات النشاز التي أعرفها. ثم جاءتْ القملة الصغيرة، كما كنتُ أقول، وهي قملة حقيقية كانت مدفونة في ملابسي الداخلية الشتوية. أخرجها وأضعها برفق على طرف مفتاح أسود. ثم تنام، كما يبدو، على عزفي الناري الرشيق. هذا الجمود الذي يُشبه الغيبوبة يستولي على أعصابي. فأقرِّر أنْ أقدِّم لها سُلّماً لونياً Chromatic Scale بإصبعي الأوسط يهبط عليها بقوة تامة. وأقبض عليها بأمانة، ولكن بقوة حتى إنها تلتصق بطرف إصبعي. وهذا ما أصابني بمرض الرقّاص[1]. ومنذ ذلك الحين يبدأ لحن السكيرتزو، وهو خليط من الأنغام المنسيّة مُتبّلة بعُصارة الألو Aloe وعصير حيوان الشيهم، يُعزَفُ عادة على ثلاثة مفاتيح دفعة واحدة وهو يدور طوال الوقت على محوره كفأرٍ يرقصُ الفالس حول الحَبَل بلا دَنَس. وبعد ذلك، حين ذهبتُ لأستمع إلى بروكوفييف، فهمتُ ما كان يحدث له، فهمتُ وايتهد ورَسِلْ وجينز وأدينغتُن ورودولف يوكن وفروبنيوس ولينك غيليسبي، فهمت لماذا، لو لم يكن هناك نظرية ثنائية الحدود، لاخترعها الإنسان، فهمتُ علّة الكهرباء والهواء ناهيك عن حمّامات sprudle وعُلب fango. ويجب أنْ أؤكد أني فهمتُ بوضوح تام أنَّ هناك قملة ميتة في دم الإنسان، وأنه حين تُقدَّم لك سيمفونية أو لوحة جصّية أو مادة عالية الانفجار فإنكَ تحصل حقاً على ردَّة فعل نبات الـ ipecac

---

١ – الرقّاص : اضطراب عصبي يتميز باختلاجات تشنجية في الوجه والأطراف .

(عرق الذهب) وهو غير متضمَّن في لائحة الطعام المُقدَّرة. فهمتُ أيضاً لماذا فشلتُ في أنْ أصبحَ موسيقياً بتلك الموهبة. إنَّ كل المؤلفات التي ابتدعتها في ذهني، كل تلك التجارب الخاصة والفنيّة التي أُتيحت لي، والفضل في ذلك للقديسة هيلدغارد أو القديس بريدجيت، أو يوحنا المصلوب، أو يعلمُ الله مَنْ - كُتبَتْ لعصرٍ قادم، لعصرٍ فيه أدوات أقلّ وهوائيات أقوى، وطبلات أُذُن أَقوى أيضاً. وقبل أنْ يتم تذوُّق موسيقى كهذه يجب اختبار معاناة متنوعة أولاً. لقد احتلَّ بيتهوفن المنطقة الجديدة - هي بالنسبة إلينا ضبابة مُعتمة، لأنَّ علينا أولاً أنْ نتجاوز مفهومنا للمعاناة؛ علينا أولاً أنْ نستوعب هذا العالم الضبابي، ومخاضه، وهدفه. لقد سُمِحَ لي بسماع موسيقى مذهلة مُنكفئة لا مبالية بالأحزان التي تحوطني. سمعتُ عن جبلٍ بالعالم الجديد، وهدير أنهارٍ جارفة تشقُّ مجاريها، صوت نجومٍ تطحن وتحك، ونوافير مرصّعة بأحجار كريمة وامضة. لا تزال الموسيقى كلها محكومة بعلم الفلك القديم، هي نِتاج المُستنبَتْ الزجاجي، دواء عام للمعاناة العالمية، لا تزال الموسيقى ترياق اللا مُسمّى، لكنَّ هذه لم تصبح بعد موسيقى. الموسيقى نارٌ أرضيّة، شيءٌ لا يمكنُ إنقاصه وهو كافٍ مُكتفٍ؛ إنها لوحة الكتابة للآلهة، تعويذة يُتمتمُ بها العارف والجاهلُ على السواء لأنَّ المحور نُزِعَ من مكانه. انتبه إلى الأحشاء، إلى الذي لا يواسى ولا يمكنُ اجتنابه ! لا شيء مُحدَّد ,لا شيء مُقرَّر أو يُعرَفُ له حل. كل ما يجري، كل الموسيقى، كل فن العمارة، كل القانون، كل الحكومات، والمخترعات، والمكتشفات - كل ذلك ما هو إلا تمارين سريعة في الظلام، تشيرني Czerny بحرف Z كبير يمتطي حصاناً أبيض داخل زجاجة من الهلام النباتي.

أحد أسباب عدم انتشار موسيقاي اللعينة في أي مكان أنها دائماً ممزوجة بالجنس. فما أنْ أعزف أغنية حتى تجتمع العاهرات حولي كالذباب، والخطأ قبل كل شيء يقعُ بشكلٍ كبير على لولا. ولولا هي أول معلمة موسيقى لي. لولا نيسن، كان اسماً سخيفاً ونموذجياً في الحي الذي كنا نسكنه. بدا كسمك عفن، أو كسّ مُدوَّد. والحقيقة هي أنَّ لولا لم تكن جميلة بمعنى الكلمة. بدت أشبه بأحد الكالمك[1] أو التشينوك[2] ذات بشرة شاحبة وعينين لهما نظرة صفراوية. كانت لها ثآليل وأكياس دهنية، فضلاً عن الشارب. وما أثارني فيها، على أي حال، هو تشعّرها، كان لها شعر طويل أسود جميل ورائع تُصفّفه على شكل كعكات هابطة صاعدة فوق جمجمتها المنغولية. وعند قفا عنقها تجعّده إلى أعلى في عقدة أفعوانيّة. كانت دائماً تتأخّر في مجيئها، بما أنها بلهاء حيّة الضمير، وحين تصل أكون قد وَهَنَتْ قليلاً من ممارسة الاستمناء. ولكن ما إن تجلس إلى جانبي حتى تعود لي شهوتي، ويساعد على ذلك جزئياً العطر النتن الذي تضعه تحت إبطها. في الصيف ترتدي ثوباً بأكمام فضفاضة حتى أكاد أرى الشعر تحت إبطها. ومرآه يزيد من شبقي. تصورّتها وقد غطّاها الشعر، حتى سُرّتها؛ رغبتُ في التدثُّر به، في أنْ أغرز أسناني فيه. كان في استطاعتي أنْ ألتهم شَعر لولا كأنه طبق شهيّ لو أرفقَتُ معه قطعة صغيرة من اللحم. على

---

١ - الكالمك : إحدى قبائل القلموق المغوليّة البوذية القاطنة في منطقةٍ تمتد من غرب الصين وحتى وادي نهر الفقلغا الأدنى .

٢ - التشينوك : شعب من الهنود الحمر في أميركا كان يقطن الضفة الشمالية من نهر كولومبيا .

أي حال كانت مُشعرة، هذا ما أريد أنْ أقوله وبما أنها مُشعرة كالغوريلا حوّلَتْ انتباهي من الموسيقى إلى كسّها. كنتُ مُشتاقاً بقوة لأرى ذلك الكس حتى إني في آخر الأمر رشوتُ أخيها الصغير ليدعني أختلس النظر إليها وهي في الحمّام. وكان أكثر روعة مما تصوَّرت : كتلة من الشعر الأشعث تمتد من السُرّة إلى الفرج، كتلة هائلة، جزدان مفعم كالدثار المشغول باليد. حين تمرّ عليه بقطيفة البودرة يكاد يُغمى عليّ. وحين جاءت من أجل الدرس في المرة التالية تركَتْ زرّين من بنطلوني محلولَين. ولا يبدو أنها لاحظَتْ أي شيء ناقص . في المرة التالية تركتُ الفتحة محلولة الأزرار. في هذه المرة لاحظتْ. قالتْ " أعتقدُ أنكَ نسيتَ شيئاً، يا هنري ". نظرتُ إليها ووجهي أحمر بلون الشوندر، وسألتُها برقّة : " ماذا ؟ " فتظاهرتْ بأنها تُشيحُ ببصرها بعيداً وهي تشير إليها بيدها اليسرى. واقتربَتْ يدها كثيراً حتى لم أتمكّن من منع نفسي من الإمساك بها وحشرها في الفتحة. نهضتْ على الفور، شاحبة ومرعوبة. ولكنْ في هذه المرة كان أيري قد أصبحَ خارج الفتحة ينتفض من النشوة.التصقتُ بها ومددتُ يدي تحت ثوبها لأصل إلى الدثار المشغول باليد الذي رأيته من ثقب المفتاح. وفجأةً تلقّيتُ لكمةً عنيفةً على أذني، وتبعتها أخرى وشدَّتني من أذني وقادتني إلى ركن الغرفة ثم أدارت وجهي ناحية الجدار وقالتْ " والآن زرِّرْ فتحة بنطلونك أيها الولد السخيف ! "، وعدنا إلى آلة البيانو بعد بضع لحظات - إلى تشيرني والتمارين السريعة. ولم أعدْ أميِّز علامة الرفع من علامة الخفض، بل تابعتُ العزف لأنني خفتُ أنْ تُخبر أمي بما حدث. ولحُسن الحظ لم يكن من السهل إخبار أمي.

أحدَثَتْ الواقعة، المُحرجة، تغيُّراً في علاقتنا. ظننتُ أنها في المرة

القادمة ستكون عصبية معي، ولكن على العكس، بدت مُسيطرة على نفسها، وقد تضمَّخَتْ بمزيدٍ من العطرِ بل وكانت أكثر مرَحاً بقليل وهو شيء غير متوقَّع من لولا لأنها كانت من النوع الكئيب المنطوي. لم أجرؤ على فكّ الأزرار مرةً أخرى، بل كان يحصل لديّ انتصاب وأظلّ أحتمله طوال مدة الدرس، ولا شك في أنَّ هذا ما أرضاها، لأنها بقيَتْ تسترق النظرات الجانبية إلى تلك الجهة. عندئذٍ لم أكنْ قد تجاوزتُ الخامسة عشرة، وهي قد بلغت بكل ارتياح الخامسة والعشرين أو الثامنة والعشرين. لم أعرف ماذا أفعل، اللهم إلا أنْ أنكحها في يومٍ تكون أمي غائبة فيه. وطبعاً مرّتْ فترةٌ من الوقت صرتُ أراقبها ليلاً حين تكون وحدها. كانت متعوِّدة على الخروج للتمشية وحدها ليلاً، فأتعقَّبُ خُطاها، على أمل أنْ نصل إلى بقعةٍ مهجورة قرب المقبرة حيثي أجرِّب بعض التكتيك العنيف. أحياناً كنتُ أشعر أنها تعرف أني أتعقّبها وأنَّ ذلك يُرضيها. وأعتقد أنها كانت تنتظرني كي أكمن لها - هذا ما أعتقده. على أي حال، ذات ليلة كنتُ مستلقياً على العشب قرب عربات سكة الحديد، وكانت ليلة صيفية شديدة الحرارة، والناس يتمدَّدون في كل مكان، كالكلاب اللاهثة. لم أكنْ أفكّرُ في لولا على الإطلاق - بل فقط أحلم، فقد كان الحرّ أشدّ من أنْ أفكِّر أثناءها في أي شيء. وإذا بي فجأةً أرى امرأةً آتية من الممر الضيق الحارّ. كنتُ متمدداً على طولي على الجسر ولا أرى أحداً في الجوار. المرأة تتقدَّم ببطء، خافضة الرأس، وكأنها تحلم. حين تقترب أتعرَّفُ عليها وأنادي " لولا ! لولا ! "وتبدو مندهشة حقاً لرؤيتي، وتقول " أوه، ماذا تفعل هنا ! "، ثم تجلس إلى جانبي على الجسر. لم أزعج نفسي بسؤالها ولم أفُه بكلمة بل زحفتُ

فـوقـهـا ورحتُ أداعـبـهـا. توسّلتْ قـائـلة " ليس هنا، أرجـوك " لكنني لم أصغِ إليـهـا، ووضـعتُ يدي بين سـاقـيـهـا، فـتـشـابكت داخل ذلك الجزدان الكثّ، وهـي تنضحُ رطوبةً، كـفـرسٍ يفـرز لعـاباً. كـان نكاحي الأول، يا يسـوع، وتصـادفَ أنْ مـرَّ قطارٌ ونثرَ علينا شـرارات حارّة. لـولا أصـيـبَتْ بالرعب. وكان ذلك نكاحها الأول أيضاً، على ما أعتقد، وربما كانت في أمسّ الحـاجة إليـه أكـثـر مني، ولـكن حين شـعـرتُ بالشـرارة أرادت أنْ تتهتّك. وكأني كنتُ أحاول أنْ أروّض مُهرة بريّة. لم أتمكّن من ترويضها، على الرغم من كل صراعي معـهـا. نهـضَتْ، نفَـضَتْ مـلابسـهـا، وسـوَّتْ كعكة شعرها عند قفا عنقها، وقالتْ " يجب أنْ تعود إلى المنزل "، فقلتُ " لن أعـود إلى المنزل "، وهـنا جذبتُـهـا من ذراعـهـا ورحنا نـتـمـشّى. سرنا يلفّنا صـمت مُطبق مـسـافـةً لا بأس بهـا. لم يبدُ على أحدنا انه يعلم إلى أين نحن ذاهبان. وأخيراً خرجنا إلى الشارع العام وكانت إلى الأعلى منا المستودعـات، وبالقرب من المسـتـودعـات كـانت البـحيرة. اتّجـهت بصـورة غـريزية إلى البحيرة. كـان علينا أنْ نمرّ من تحت بضع شجيرات منخفضة ونحن نقـتـرب من البـحـيـرة. وبينمـا كـنتُ أسـاعد لولا على الانحنا ء إلى الأسـفل، انزلقتْ وجـرّتني مـعـهـا. ولم تُتعبِ نفسـهـا بالوقوف، وبدل هذا تمسّكتْ بي وضـغـطتني إلـيـهـا، ولدهشـتي العظمى وجدتها تمدّ يدها إلى فـتـحـة بنطلوني، وداعـبـتني بصورة رائعـة حتى استـسلمتُ بين يديها. ثم تناولتْ يدي ووضـعـتـهـا بين سـاقـيـهـا. وتمدَّدتْ على طولها واسترخت تماماً وباعدتْ ما بين ساقيها. فانحنيتُ وقبّلتُ كل شعرة على كسّها، ووضعتُ لساني في سُرّتها ولعقتُها حتى النظافة. ثم اضطجعتُ مُقحماً رأسي بين سـاقـيـهـا ولَعَقتُ اللعاب السـائل منها. أخذت تئن وهي تتشبَّث بي بعنف

بكلتا يديها، وانحلّ شعرها كله وانهمرَ فوق بطنها العارية. وباختصار، وَضَعته فيها ثانية، وأبقيتُه فترةً طويلة. ولابد أنها كانت ممتنّة كثيراً لهذا لأنها استجابت لمرات لا أعرف عددها - كانت كحزمة من المفرقعات منطلقة، ومع كل هذا غرزَتْ أسنانها فيَّ، وآذت شفتيّ، وخدشتني، ومزَّقتْ قميصي وماذا لم تفعل بحق الجحيم. حين عدتُ إلى المنزل وألقيتُ نظرةً على نفسي في المرآة كنتُ موسوماً كثورٍ مخصيّ.

كان شيئاً رائعاً طوال دوامه، لكنه لم يدُمْ طويلاً. وبعد شهر انتقلَتْ عائلة نيسن إلى مدينةٍ أخرى، ولم أرَ لولا بعد ذلك أبداً. لكنني علّقتُ جزدانها فوقَ سريري وصلّيتُ له كل ليلة. وكلما باشرتُ عزف مقطوعة لتشيرني يحصل لديّ انتصاب، مُتخيّلاً لولا مستلقية على العشب، متخيلاً شعرها الأسود الطويل، وكعكة الشعر عند قفا عنقها، والأنين الذي أطلقَته واللعاب الذي انصبَّ منها. أمسى مجرَّد العزف على البيانو بمثابة نكاح واحد طويل بديل بالنسبة إليّ. كان عليّ أنْ أنتظر سنتين أخريين قبل أنْ تتاح لي فرصة إدخال رأسه مرة أخرى، كما يقولون، وعندئذٍ لم أستمتع كثيراً لأنني أُصبتُ بسببها بمرضٍ جميل، ثم إنَّ الأمرَ لم يحصل فوق العشب ولم يكن الوقت صيفاً ولا الجو حاراً أبداً بل كان مجردَ نكاحٍ رتيب وبارد بدولار تمَّ في غرفةٍ في فندقٍ صغير وقذر، وقد حاولَتْ بنت الحرام أنْ تتظاهر بأنها ستقذف ولم تقذف إلا بقدر ما كان عيد الميلاد قادماً. وربما لم تكن هي التي نَقَلَتْ المرض إليّ بل صديقتها التي ضاجعَت صديقي سايمونز في الغرفة المجاورة. وحدثَ الأمر كما يلي - كنتُ قد أنهيت نكاحي الرتيب بسرعة ففكّرتُ أنْ أدخل لأرى كيف يجري الأمر مع صديقي سايمونز. وبُصْ شوف، كانا

لا يزالان منهمكين، وفي الذروة. كانت فتاته تشيكية بلهاء قليلاً، ولم تكن قد مارسَتْ الجنس منذ زمن طويل، هكذا اتّضح، وكانت تنسى نفسها وتستمتع بالعمل. ولما أنهَتْ عملها قرَّرتُ أنْ أنتظر لأباشر معها بدوري، وهكذا كان. وقبل انصرام الأسبوع أُصيبتْ بالصديد، وتصوّرتُ أني سأُصاب بازرقاق الخصيتين أو بتحجُّر الأعضاء التناسلية.

بعد مرور عام أو نحوه صرتُ أعطي بدوري الدروس، وشاء الحظ أنْ تكون والدة الفتاة التي أعلّمها عاهرة ومتشردة وقذرة إنْ كان لها وجود. كانت تعاشر زنجياً، كما اكتشفت فيما بعد. ويبدو أنها استطاعت الحصول على أير ضخم بما يكفي لإرضائها. على أي حال، كلما استعددتُ لأعود إلى المنزل تتمسك بيّ عند الباب وتحكّه عليّ. كنتُ خائفاً جداً من المباشرة معها لأنَّ الإشاعات كانت تقول إنها مملوءة بالسفلس، ولكن ماذا تفعل بحق الشيطان حين تلصق عاهرة حامية مثلها كسّها بكَ وتزلق لسانها إلى حنجرتك. كنتُ أنكحها وأنا واقف في الردهة، ولم يكن هذا صعباً كثيراً لأنها خفيفة وحملتُها بيدي كاللعبة. وبينما أنا أحملها هكذا ذات ليلة سمعتُ فجأةً المفتاح يوضع في ثقب الباب، وسمعتُه بدورها وجمدَتْ من الرعب. لم يكن هناك مكان أختبئ فيه. ولحسن الحظ كانت هناك ستارة مُعلّقة في الممر فاختبأتُ خلفها. ثم سمعتُ رجلها الزنجي يُقبّلها قائلاً كيف حالك يا حبيبتي؟ وتقول هي إنها كانت في انتظاره ومن الأفضل أنْ يصعدا فوراً إلى الطابق العلويّ لأنها لا تقوى على الانتظار وما إلى ذلك. وحين كفَّ الدَرَج عن الصرير فتحتُ الباب برفق وتسللتُ خارجاً، ويعلمُ الله أنَّ خوفاً

حقيقياً قد تملّكني يومئذٍ، فلو رآني ذلك الزنجي لفقدتُ عنقي لا محالة. وهكذا توقفتُ عن إعطاء الدروس في ذلك المنزل، ولكن سرعان ما راحت ابنتها تتعقبني - وبالكاد كانت تبلغ السادسة عشرة - وتسألني ألا أرغبُ في إعطاء دروسها في منزل إحدى صديقاتها؟ ونبدأ تمارين تشيرني من بدايتها، بتفاصيلها وكل شيء. كانت أول رائحة نضرة لكسّ أشمّها، وهي بديعة، كالتبن المحصود حديثاً. وشققنا طريقنا نكاحاً من درس إلى آخر وبين الدروس نقوم بمزيد من النكاح. وفي يوم حدثت الحكاية المُحزنة - لقد حَبلتْ، فما العمل؟ لقد اضطررت إلى إحضار أحد الشبّان اليهود كي يساعدنا للخروج من هذه الورطة، وطلب خمسة وعشرين دولاراً للقيام بالعملية. لم أكنْ قد رأيت قطعة نقدية بخمسة وعشرين دولاراً في حياتي. قال إنها قاصر، وقد تُصاب بتسمُّم في الدم. أعطيته خمسة دولارات على الحساب وفررتُ إلى الأديروانداكس أسبوعين. في الأديروانداكس قابلتُ معلّمة مدرسة تكاد تموت شوقاً لتأخذ دروساً. ومزيداً من التمارين السريعة، مزيداً من أغلفة منع الحمل والألغاز. وكلما لمست البيانو أشعر كأني أعرّي عاهرة.

حين تُقام حفلة ما كان عليّ أنْ أجعل الموسيقى اللعينة تنهمر، وكان هذا بالنسبة إليّ كأني أغلّف أيري بمنديل وأضعه تحت إبطي. في وقت الإجازة، في بيتٍ ريفيّ أو نُزُل، حيث دائماً هناك الكثير من العاهرات، كان للموسيقى تأثير غير عادي. وكان وقت العطلة فترة أصبو إليها طوال العام، ليس بسبب العاهرات بقدر ما لأنه يعني اللا عمل. فما أنْ أتخلّى عن روتين العمل حتى أصبح مهرّجاً، مملوءاً بالطاقة حتى الزُبى حتى لأكاد أطفر من جلدي. أذكر أني ذات صيف قابلتُ فتاة في

كاتسكيلز اسمها فرانسي، جميلة وداعرة، لها حلمتان اسكتلنديتان قاسيتان وصفٌ من الأسنان البيضاء المستقيمة المذهلة. بدأ هذا في النهر حيث كنا نسبح. كنا نحاول الصمود للوصول إلى القارب فأفلتْ أحد ثدييها من عِقاله، وحرَّرتْ ثديها الآخر ثم حللت الحمّالتين. غاصت تحت القارب خجلى فتبعتها وهي تصعد إلى السطح طَلَباً للهواء وخلّصتُها من رداء الاستحمام اللعين وإذا بها تعوم كالحورية بثدييها الكبيرين القويين ينتفضان في ارتفاع وانخفاض كفلّينتين منفوختين ونزعت عني سروالي. وبدأنا اللعب كدلفينين تحت القارب. وبعد فترةٍ وجيزة جاءتْ صديقتها على قارب صغير، وكانت فتاة ضخمة شقراء بلون التوت البري، عيناها بلون العقيق ومملوءة بالنمش. وصُدِمَتْ حين شاهدتنا عريانَين، لكننا سرعان ما أسقطناها عن القارب وعريناها ثم بدأنا معاً مطاردتنا الطفوليّة تحت الماء، ولكنْ كان من الصعب التمادي معهما أكثر من هذا لأنهما كانتا زلاّقتين كالحنكليز. وبعد أنْ اكتفينا هرعنا إلى كابينة الحمّام الصغير القائم مثل كشك مهجور. أحضرنا ثيابنا معنا ودخلنا، ثلاثتنا معاً، لنرتدي ملابسنا داخله. كان الجو حاراً جداً ورطباً والغيوم تتكاثر مُنذرةً بالعاصفة. كانت أغنس - صديقة فرانسي - متعجّلة لتلبس. فقد بدأتْ تخجل من نفسها وهي واقفة عارية أمامنا. أما فرانسي فعلى العكس كانت على راحتها، جلست على المقعد متصالبة الساقين وهي تدخن سيجارة. مهما يكن، بينما أغنس ترتدي قميصها وَمَضَ البرق وأعقبه على الفور قصف رعد مُخيف. صرخت أغنس وأسقطَت قميصها. وخلال ثوان وَمَضَ برقٌ آخر وتبعته أيضاً جلجلة رعد قريب بشكلٍ خطِر. وصار الهواء أزرق حولنا وأخذ الذباب

يقرص وشعَرنا بالتوتُّر وبرغبة في الحك وذُعِرنا قليلاً، وكانت أغنس خاصة خائفة من البرق بل أشدّ خوفاً مما لو وجدونا ميّتين معاً وعرايا. أرادتْ أنْ تعجِّل بارتداء ملابسها لتهرع إلى المنزل، كما قالت. وبعد أنْ أزاحتْ هذا الهمّ عن صدرها انهمرَ المطر مدراراً، وظننا أنه سيتوقّف بعد دقائق ونحن واقفون عراة ننظر إلى النهر المُتبخِّر من خلال الباب المفتوح جزئياً. وبدا كأنَّ الدنيا تُمطر أحجاراً والبرق يومضُ من حولنا بلا توقُّف. حينئذ تولانا الخوف جميعاً. شعرنا أننا متورطين ولا ندري ماذا نفعل. ضمَّتْ أغنس يديها معاً وأخذتْ تصلي بصوتٍ عالٍ، وبدتْ كجورج غروتز الأبله، كإحدى أولاء العاهرات المنكفئات وقد أحاطت عنقها واصفرَّ لونها حتى أخمص قدميها. وظننتُ أنها توشك أنْ تُصاب بالإغماء بين أيدينا أو ما شابه. فجأةً طرأتْ على بالي فكرة نيِّرة بأداء رقصة الحرب تحت المطر - لألهيهما. وما أنْ قفزتُ لأباشر رقصتي حتى وَمَضَ شريطٌ من البرق وقَصَفَ شاطراً شجرة قريبة. كان خوفي فظيعاً حتى كاد يُفقدني عقلي. ودائماً عندما أخاف أضحك. فضحكتُ بضراوة، ضحكاً يُجمّد الدمَ في العروق، جعل الفتاتين تصرخان. وحين سمعت صراخهما، ولا أعلم لماذا، تذكَّرتُ التمارين السريعة وشعرتُ كأني واقف داخل فجوة خاوية وكان الفضاء أزرق من حولنا والمطر ينقر نقرات حارّة وباردة كضربات الوَشَم على لحمي الطريّ. تجمّعتْ أحاسيسي كلها على سطح جلدي أما الطبقة الدنيا من الجلد فكانت فارغة، وخفيفة كالريشة، أخفّ من الهواء أو الدخان أو التَلك أو المغنيزيوم أو من أي شيء لعين تريده. وفجأةً إذا بي أصبحُ أحد التشيبيوا وتعود طبقة الساسافراس ثانية ولم يهمني إنْ صَرَخَتْ الفتاتان أو أُصيبتا أو تبرّزتا في سرواليهما،

وهذا ما كان ينقصهما. وحين رأيتُ أغنس المجنونة بالمسبحة التي تُحيطُ بعنقها وسلّة خبزها الضخمة مُزرقّة من الخوف خطر لي أنْ أؤدي رقصة مقدَّسة، ضممتُ خصيتي بيد وباليد الأخرى وَضَعتُ إبهامي على أنفي ورحتُ أسخر من الرعد والبرق. كان المطر حاراً وبارداً وبدا العشب مملوءاً باليعاسيب. ورحتُ أقفز كالكنغر، وصرختُ بكل ما أوتيت من قوة - " أوه أيها الأب يا ابن العاهرة المدوِّد العجوز، اسحب ذلك البرق المَنيَكْ وإلا لن تؤمن بك أغنس بعد الآن ! أتسمعني، إنكَ تدفع أغنس إلى حافة الجنون. هيه، أنت، أأنتَ أطرش، أيها الفطزر العجوز؟ ". ومع تلك القرقعة المستمرة من الهراء المتحدّي المنهمر من بين شفتيّ رحتُ أرقص في أنحاء الحمام وأتقافز كالغزال مُستخدماً أقذع السباب الذي أتذكَّره. وحين انشقَّ البرق قفزتُ عالياً وحين قصف الرعد زمجرتُ كالأسد وتشقلبتُ على يديّ وتدحرجتُ على العشب كالجرو ومضغتُه وبصقته لأجلهما وضربتُ على صدري كالغوريلا وطوال الوقت أتخيَّل تمارين تشيرني مستقرّة على آلة البيانو، والصفحة البيضاء مملوءة بعلامات الرفع والخفض، والبهيم المَنيَكْ، هكذا أقول لنفسي، يتصوَّر أنَّ في السماء طريقة التعامل مع آلة الكلافيكورد المدوزن جيداً. وفجأةً يخطر لي أنه ربما أصبح تشيرني في السماء يُلقي نظرة عليّ لذا بصقتُ عليه بأعلى ما أستطيع وعندما هدر الرعد من جديد صرختُ بكل قواي - "تشيرني، يا ابن الحرام، أنتَ الذي فوق، ليت البرق ينزع خصيتيك... ليتك تبلع ذيلك المعقوف وتختنق... هل تسمعني، أيها الأير المجنون؟ "

ولكن على الرغم من الجهود المشكورة كلها التي بذلتُها ازدادت أغنس فزعاً على فزع. كانت أيرلندية كاثوليكية بليدة ولم تكن قد

سمعت أحداً يُخاطب الله هكذا من قبل. وفجأةً، وبينما كنتُ أرقص في مؤخرة كابين الحمام اندفعت كالسهم إلى النهر. وسمعتُ فرانسي تصرخ - " أعدها، ستغرق نفسها ! أعدها ! " وانطلقتُ خلفها، والمطر لا يزال ينهمر كالمذراة، وأصرخُ أناديها أنْ تعود، لكنها تابعتْ ركضها كالعمياء كأنما مسّها شيطان، وحين وصلتْ إلى حافة الماء غاصت على الفور وسبحت نحو القارب. سبحتُ خلفها ولما وصلنا إلى جانب القارب، وكنتُ أخشى أنْ تقلبه، أمسكتها من خصرها بيدٍ واحدة ورحتُ أكلمها بهدوء وبرقة، كأنني أتحدث إلى طفلة. فقالتْ " ابتعد عني، أنت كافر ! " ويا يسوع، كان في إمكانكَ أنْ تطرحني أرضاً بنفخة واحدة كريشة من شدة ذهولي لسماع هذا. إذن هذا هو الأمر؟ كل تلك الهستريا لأنني أهنتُ الرب العظيم. وشعرتُ برغبةٍ في ضربها على عينها لأعيدها إلى صوابها. ولكن لم يكن ظاهراً منا غير رأسينا وخفتُ أنْ تقومَ بأي تصرُّفٍ مجنون كأنْ تقلبَ القارب على رأسينا إنْ لم أعاملها كما ينبغي. لذا تظاهرتُ بأنني آسفٌ منتهى الأسف وقلتُ إنني لم أكن أعني أي كلمة مما قلت، وإني كنتُ خائفاً حتى الموت، وما شابه، وبينما كنتُ أتحدث إليها بلطف، ونعومة زلقتُ يدي تحت خصرها وخرقتُ مؤخرتها بلطف. وذلك ما كانت بحاجة إليه بالضبط. وأخذت تتحدث معي وهي تنتحب حول كم كانت كاثوليكية صالحة وكيف حاولتْ ألا تأثم، وربما كانت مستغرقة كل الاستغراق بما تقول ولم تعرف ماذا كنت أفعل، لكنَّ الأمر لم يتغيَّر حين وضعتُ يدي في فرجها وقلتُ كل الأشياء الجميلة التي خطرتْ ببالي، عن الله، عن الحب، وارتياد الكنيسة والاعتراف وكل ذلك الهراء، ولابد أنها شعرتْ بشيء لأنني حشرت ثلاثة أصابع كبيرة فيها

ورحتُ أديرها كبكرات سكرانة. قلتُ لها بنعومة " ضعي ذراعك حولي يا أغنس "، وأنا أخرجُ يدي وأضمّها إليّ حتى أضع ساقيّ بين ساقيها... " أيوه، هكذا تكوني فتاةً صالحة... اهدئي الآن... سينتهي الأمر سريعاً " ولا أزال أتحدَّثُ عن الكنيسة والاعتراف، وحب الله، وكل الهراء اللعين الذي نجحتُ في حشوها به، فقالت " أنت طيب معي جداً " وكأنها لم تعلم أنَّ أيري صار فيها، " وأنا آسفة لأنني تصرّفتُ بغباء ". قلت " أعلم يا أغنس. كل شيء على ما يرام... اسمعي، تمسّكي بي جيداً... أيوه هكذا "، وتقول " أخشى أنْ ينقلب القارب " وهي تبذل جهدها لكي تُبقي مؤخرتها في الوضع الصحيح بتحريك يدها اليمنى، وقلت " نعم، دعينا نذهب إلى الشاطئ "، وبدأتْ بالابتعاد عنها فقالت " أوه لا تتركني "، وتشبّثتْ بي، " لا تتركني، سأغرق ". وهنا وصلتْ فرانسي راكضة إلى الماء. قالتْ أغنس " أسرِعْ، أسرِعْ... سأغرق "

يجب أنْ أقول أنَّ فرانسي كانت من معدن جيد. من المؤكد أنها لم تكن كاثوليكية وإذا كانت تحمل أي قيَمْ أخلاقية فهي من النوع الزاحف. كانت واحدة من اللواتي وُلِدنَ لكي يُنكحنَ. لم يكن لديها أهداف، لا رغبات عظيمة، ولا تُبدي الغيرة، ولا تحمل أحزاناً، وهي دائمة المرح ولا ينقصها الذكاء أبداً. في الأمسيات التي جلسنا أثناءها في الشرفة في الظلام نتحدث إلى الضيوف كانت تجلس في حجري دون أنْ ترتدي شيئاً تحت ثوبها وأزلّقُه فيها وهي تضحك وتتكلّم مع الضيوف وأعتقد أنها كانت ستواجه الأمر بوقاحة أمام البابا لو أُتيحتْ لها الفرصة. وفي المدينة حين أزورها في منزلها تقوم بالتصرف نفسه أمام أمها التي كان بصرها يضعف تدريجياً لحُسن الحظ. وإذا كنا نرقص وزادت حرارة ما

تحت سروالينا تجرّني إلى حجيرة الهاتف، وبدافع من شذوذها، تتحدث إلى أحدهم، إلى أغنس مثلاً، وهي تلعب لعبتها. يبدو أنها تستمد متعة خاصة من القيام بها تحت أنوف الناس، قالتْ إنها تكون مُسلّية أكثر إذا لم تفكّر فيها كثيراً. وفي طريق عودتنا، مثلاً، من الشاطئ، في شارع فرعي مزدحم تفتح ثوبها قليلاً بحيث يكون شقّها في المنتصف وتتناول يدي وتضعها في كسّها تماماً. إنْ كان القطار مزدحماً حتى آخره ونحن محشوران بأمان في الزاوية تخرج أيري من الفتحة وتمسكه بكلتا يديها كأنه عصفور. أحياناً كانت تتمادى في العبَث وتُعلّق حقيبتها عليه، وكأنما لتبرهن أنه لا وجود لأدنى خطر. أمرٌ آخر عنها هو أنها لم تتظاهر أبداً بأني الشاب الوحيد في حياتها. ولا أدري إنْ كانت قد أخبرتني بكل شيء، ولكن من المؤكّد أنها أخبرتني الكثير. حكتْ لي عن علاقاتها وهي تضحك، وهي تمتطيني أو حين يكون فيها، أو وأنا أوشك أنْ أقذف. حكت لي عن سلوكهم معها، عن ضخامتهم أو ضآلتهم، وما يقولون حين يزداد هياجهم وما إلى ذلك. أمدَّتني بأكبر قدر من التفاصيل، وكأني أنوي أنْ أؤلّف كتاباً مدرسياً عن الموضوع. ولم يبدُ أنها تحمل أقلَّ قدرٍ من الشعور بالقداسة نحو جسدها أو مشاعرها أو أي شيء يتعلّق بذاتها. وأقول لها " فرانسي أنت ناكحة جيدة، وتتحلّين بفضائل شخص صموت "، فتجيب " لكنني أعجبكَ، أليس كذلك؟ الرجال يُحبّون النكاح، والنساء أيضاً يحببنه. وهذا لا يُسبّبُ أذى لأحد وهو لا يعني أنَّ عليك أنْ تعشق كل مَن تنكح، مو هيك؟ أنا لم أرغبْ مرةً في العشق؛ لابد أنَّ من المريع أنْ أنكح الرجل نفسه طوال حياتي، ألا تعتقد ذلك؟ اسمعْ، إنْ لم تنكح أحداً غيري طوال الوقت فسرعان ما

ستملّني، أليس كذلك؟ جميلٌ أحياناً أنْ يُنكح المرء من شخصٍ لا يعرفه أبداً. نعم، أعتقد أنَّ هذا أفضل شيء على الإطلاق "، وتُضيف - "ليس هناك تعقيدات، لا أرقام هواتف، لا رسائل حب، لا مشاجرات، ما رأيك؟ اسمعْ، هل تعتقد أنَّ هذا سيئ جداً؟ في إحدى المرات حاولتُ أنْ أدفع أخي لينكحني، وأنتَ تعلم كم هو مُخنّث - إنه يُسبب الألم للجميع. لم أعد أذكر بالضبط كيف حدث ذلك، ولكن على أي حال كنا وحدنا في المنزل وكنتُ حامية في ذلك اليوم. وولجَ غرفة نومي ليطلبَ شيئاً ما. كنتُ مستلقية هناك رافعةً ثوبي، أفكِّرُ في النكاح وأشتاقُ إليه بقوة، وحين دخل لم يعُدْ يهمّني أنه أخي، فقط فكَّرتُ فيه كرجل، هكذا تمددتُ هناك مرفوعة الثوب وقلتُ له إني لستُ على ما يرام، وأنَّ بطني تؤلمني. وكاد يُهرول خارجاً ليُحضِر لي علاجاً لكني منعته، وقلتُ إنه يكفي أنْ يفركَ الجلد العاري وسوف أشعر بتحسُّن. فككتُ صدارتي وجعلته يفرك جلدي العاري. حاولَ أنْ يواري عينيه نحو الجدار، ذلك الأبله الكبير، وأخذ يفركني كأني قطعة خشب. فقلت " ليس هنا، يا أبله، إلى أسفل... ممَّ أنتَ خائف؟ "، وتظاهرتُ بأني متألمة. وأخيراً لمسني مصادفة، فصرختُ "أيوه ! هنا ! أوه ! افرك، إنه شيء ممتع جداً!". أتعلمْ أنَّ الأحمق ظلَّ يُدلّكني حوالي خمس دقائق دون أنْ يعلم أنها كانت لعبة؟ وتفاقم غيظي حتى قلتُ له أنْ يذهب إلى الجحيم ويتركني وحدي. وقلت " أنت مخصي "، لكنه كان من شدة الحمق بحيث لم يفهم معنى الكلمة ". وضحكتْ، وقالت كم كان أخوها أخرق. وربما كان لا يزال بتولاً. ما رأيي في هذا - أكان تصرّفاً سيئاً جداً؟ هي تعلم طبعاً أني لن أفكِّر على هذا النحو، فقلت " اسمعي يا فرانسي، هل سبقَ

وأخبرتِ هذه القصة لرجل الشرطة الذي ترافقينه؟ ". إنها لا تظن ذلك. فقلتُ وهذا ما أظنه أيضاً، فلو سمعَ هذه الحكاية لسلخَ جلدك ". فأجابت على الفور " لقد ضربني منذ مدة ". قلت " ماذا؟ أتركتِه يضربكِ؟ "، قالت " لم أطلب منه ذلك، لكنكَ تعلم كم هو حادّ المزاج. إنني لا أسمح لأي شخص آخر بضربي، ولكنني لسببٍ ما لا أهتمُّ كثيراً إذا ضربني هو. أحياناً يُريحني نفسياً... لا أعلم، ربما على المرأة أنْ تُضرَب أحياناً. إنه ليس مؤلماً كثيراً، إذا كنتَ تحب مَنْ يضربك. وهو بعد ذلك يُصبحُ لطيفاً جداً - حتى أكاد أخجل من نفسي... "

إنكّ لا تقابلُ كثيراً عاهرة تسمح بأشياء كهذه - أعني عاهرة رسمية بلهاء. كانت هناك تريكس ميراندا، مثلاً، وأختها، السيدة كوستيللو: زوجاً رائعاً من الطيور. تريكس، التي تُصاحب صديقي ماكغريغور، حاولتْ أنْ تدّعي أمام أختها، التي تقطنُ معها، بأنها لا تُقيم علاقات جنسية مع ماكغريغور. والأخت تدَّعي أمام الجميع أنها باردة جنسياً، ولا تستطيع أنْ تقيم علاقات مع أي رجلٍ حتى وإنْ رغبتْ في ذلك، لأنها " ضئيلة البُنية ". وفي تلك الأثناء كان ماكغريغور ينكح البلهاوتين معاً، وكلتاهما كانت تعرف ما تفعله الأخرى وتتبادلان الأكاذيب. لماذا؟ لم أعلم. كانت العاهرة كوستيللو هستيرية. وكلما شعرَتْ أنها لا تنال قسطاً عادلاً من المضاجعات التي يمنحها إياها ماكغريغور تنطرحُ في نوبةٍ عُصابيّة زائفة. وهذا يعني وضع المناشف فوقها، الربت على رسغها، فتحُ صدرها، فركُ ساقيها وأخيراً حَمَلَها إلى الطابق العلوي إلى السرير وهناك يعتني بها صديقي ماكغريغور حالما تنام الأخرى. أحياناً تستلقي الفتاتان معاً لأخذ غفوة بعد الظهر، وإذا

كان ماكغريغور موجوداً يصعد إليهما ويضطجع بينهما. ويشرح لي ضاحكاً أنَّ اللعبة هي أنْ يتظاهر بالنوم، ويبقى مستلقياً يتنفّس بعمق، ويفتح تارة عيناً، وتارة العين الأخرى، ليري مّنْ منهما تستغرق في النوم. وحالما يقتنع بأن إحداهما قد نامت يباشر مع الأخرى. وفي مناسبات كهذه يُفضّل الأخت الهستيرية، السيدة كوستيللو، التي يزورها زوجها مرة كل ستة أشهر. وكلما كبرت مخاطرته، ازدادت إثارته، كما قال. وإذا ما حصل الأمر مع الأخت الأخرى، تريكس، التي من المفترض أنْ يُغازلها، يدَّعي أنه من المريع أنْ تراهما الأخرى معاً، وفي الوقت نفسه، كما اعترفَ لي، يأمل دائماً أنْ تستيقظ الأخرى وتقبض عليهما متلبّسَين. ولكنَّ الأخت المتزوجة، ذات " البنية الضئيلة " كما تقول، كانت عاهرة ماكرة وتشعر بالذنب نحو أختها وإذا قبضت عليهما مُتلبّسة لادَّعتْ أنها ربما كانت مُصابة بنوبة ولم تعِ ماذا كانت تفعل. ولا شيء في العالم يجعلها تعترف بأنها في الحقيقة تسمح لنفسها بالاستمتاع بنكاح رجل.

كنتُ أعرفها حقّ المعرفة لأنني أعطيتها دروساً لفترة من الزمن، وبذلت قُصارى جهدي لأجعلها تعترف أنَّ لها كساً عادياً وأنها تستمتع بنكاح جيد عندما تحصل عليها بين الحين والآخر. كنتُ أقصّ عليها حكايات عنيفة هي في الواقع سرد مموَّه قليلاً لأفعالها، ومع ذلك ظلّتْ عنيدة. ووصلتُ معها ذات يوم إلى النقطة المطلوبة - مما نسفَ كل شيء - حين تركتني أضعُ إصبعي فيها. ظننتُ أنَّ الأمر قد استتب حتماً. صحيح أنها كانت جافّة وضيّقة قليلاً، لكنني أرجعتُ السبب إلى هستيريتها. ولكن تصوَّرْ أنكَ تماديت إلى هذا الحد مع عاهرة وإذا بها

تقـول لك في وجـهك، وهي تنزل ثوبهـا بعنف - " أرأيت، قلتُ لك أنَّ بنيتي ليست على ما يرام ! " وقلتُ لها بغضب " إنني لا أرى شيئاً من ذلك، ماذا تتوقعين أنْ أفعل - أنْ أستخدم المجهر عليك؟ "

قالتْ وهي تدَّعي العجرفة " أحبّ هذا. يا لها من طريقة للتحدُّث معي ! "

وأتابع " أنت تعرفين معرفة لعينة أنكِ تكذبين. لماذا تكذبين هكذا ؟ ألا تعتقدين أنه شيء إنساني أنْ يكون لكِ كس وتستخدمينه أحياناً؟ أتريدين أنْ يجفّ عليك؟ "

قالت وهي تعضّ على شفتها السفلى وتحمرّ كالشوندر، " يا لها من لغة ! طالما ظننتُ أنكَ إنسان مُهذَّب "

وأُجيب "حسن، أنتِ لستِ سيدة محترمة، لأنه حتى السيدة المحترمة تسمح أنْ تُنكَحْ بين حينٍ وآخر. ثم إنَّ السيدات المحترمات لا يطلبن من السادة المهذبين أنْ يغرزوا أصابعهم فيهنّ ليروا كم هنَّ ضيقات "

قالتْ " أنا لم أطلب منكَ أبداً أنْ تلمسني، لم أكن لأفكّر في الطلب منك أنْ تضع يدك عليّ، ليس في الأجزاء الخاصة على أي حال "

" ربما ظننتِ أنني سأمسح على أذنكِ، أليس كذلك؟ "

" في تلك اللحظة نظرتُ إليكَ كطبيب، هذا ما يمكنني قوله ". قالت هذا بجفاف، مُحاولة أنْ تُخفِّف من حماستي. قلتُ مُنتهزاً فرصةً وحشيّة " اسمعي، دعينا نتظاهر بأنَّ ما حدث هو خطأ،؛ أنه لم يحدث شيء، لا شيء على الإطلاق. أنا أعرفكِ جيداً ولا يمكن أنْ أهينك هكذا. لا يمكن أنْ أفكّر في التصرُّف على هذا الشكل معك - كلا، لعنني الله إنْ قصدتُ. كنتُ أتساءل فقط إنْ كنتِ على حق فيما تقولين، إنْ كانت

بنيتك حقاً ضئيلة. أتعلمين، لقد حدثَ الأمر بسرعة كبيرة حتى إني وضعتُ إصبعي فيك. لابد أني لمستُكِ من الخارج - هذا كل ما في الأمر. اسمعي، اجلسي هنا على المقعد... ولنكنْ أصدقاء من جديد "، وجذبتُها إلى جواري - وكانت تذوب بشكلٍ واضح - وأحطتُ خصرها بذراعي، على سبيل مواساتها برقّة أكبر. وسألتُها ببراءة " هل يحدث معك هذا دائماً؟ " وكدتُ أضحك في تلك اللحظة، وأنا أعلم مدى بلاهة السؤال. أخفضتْ رأسها خجلاً، وكأننا نؤدي دوراً مأساوياً لا يوصَفْ، "اسمعي، ربما إذا جلستِ في حضني... "، ورفعتُها إلى حضني، وفي الوقت نفسه مددتُ يدي برقّة تحت ثوبها وأرحتُها برشاقة على ركبتها... " ربما إذا جلستِ هكذا لحظة فستشعرين بتحسُّن... أيوه، هكذا، فقط ارتاحي بين ذراعيّ... هل تشعرين بتحسُّن؟ " لم تُجبْ، لكنها لم تُمانع أيضاً، وبقيَتْ مُسترخية بهدوء وأغمضَتْ عينيها وبالتدريج وبرقّة شديدة ونعومة حركتْ يدي إلى أعلى ساقيها، وأنا أتحدَّثُ إليها طوال الوقت بصوتٍ منخفض مُهلّل، وعندما أدخلتُ أصابعي في فرجها وباعدتُ ما بين الشفتين الصغيرتين كانت مُندّاة كخرقة تجفيف الأطباق. ودلّكتُهُ برفق، وأنا أفتحه أكثر فأكثر ولا أزال على الخط التخاطري حول أنّ النساء يُخطئنَ أحياناً بحق أنفسهنّ وكيف أنهنّ أحياناً يعتقدن أنهنَّ ضيّقات كثيراً في حين أنهنَّ طبيعيات جداً، وكلما أطلتُ مدة إثارته ترطَّبَتْ وانفتحتْ أكثر. ثم وضعتُ الأصابع الأربعة فيه وكان لا يزال هناك حيِّز للمزيد منها لو كان لديَّ غيرها. لقد كان لها كس ضخم سُحِلَ تماماً، كما شعرت. نظرتُ إليها لأرى إنْ كانت لا تزال مُغمضة العينين. كان فمها مفتوحاً وتلهث لكنَّ عينيها

مُغمضتان تماماً، كأنها تُقنعُ نفسها بأنَّ كل ما يحدث حلم. وأضحى في وسعي عندئذٍ أنْ أحركها بقسوة - دون أي خطر من وجود اعتراض. ورحتُ أدفعها في شيءٍ من الخبث دون ضرورة لذلك لأرى فقط إنْ كانت ستستيقظ، لكنها كانت رخوة كوسادة من الريش وحتى حين ضربتُ رأسها على حافة ذراع الصوفا لم تُبدِ أي دلالة على الغضب. وكأنها خدَّرتْ نفسها لكي تحصل على نكاح مجاني. فنزعتُ عنها ملابسها ورميتُها على الأرض، وبعد أنْ قمت معها ببعض التمارين أخرجتُه ومددتُها على الأرض، فوق ملابسها؛ ثم أدخلتُهُ فيها من جديد فقبضَتْ عليه بشدّة بذلك الصمّام الماصّ الذي تُحسِن استخدامه بمهارة، على الرغم مما يبدو عليها من سُبات.

يبدو لي غريباً أنَّ الموسيقى دائماً تقود إلى الجنس. في ليالٍ كثيرة. وحين أخرج للتمشية، كنتُ أتأكَّد من أنني سأعثر على إحداهن - على ممرضة، فتاة خارجة من قاعة الرقص، أو بائعة في محل، أو أي شيء يرتدي تنورة. وإذا خرجتُ مع صديقي ماكغريغور في سيارته - في نزهةٍ قصيرة على الشاطئ، كما يقول - أجد نفسي في منتصف الليل جالساً في صالون غريب في حيّ أشد غرابة وفتاة في حضني، وعادةً تكون من اللواتي لا آبه بهنّ لأنَّ ماكغريغور هو أقلّ قُدرة على الاختيار مني. وغالباً ما كنتُ أقول له وأنا ألجُ سيارته - " اسمعْ، لا عاهرات الليلة، ما رأيك؟ "، فيقول " يا يسوع، كلا، لقد شبعت... فقط نزهة قصيرة في مكانٍ ما... إلى ميناء شيبشيد مثلاً، ما رأيك "، ولا نكون قد ابتعدنا أكثر من ميل حين يوقف السيارة فجأةً عند حافة الطريق ويلكزني قائلاً " أنظر إلى هذه " مُشيراً إلى فتاة تتسكَّع على الرصيف،

" يا إلهي، أي ساق ! "، أو يقول " اسمعْ، ما رأيك أنْ نطلب منها المجيء معنا؟ وربما أحضرَتْ معها صديقةً لها ". وقبل أنْ أتمكَّن من التفوّه بأي كلمة يكون قد بدأ يُحييها ويُكيل لها ثرثرته المعتادة، كما كان يفعل مع كل واحدة. وفي تسع حالات من عشرة تأتي الفتاة معه. وقبل أنْ نبتعد كثيراً، وبعد أنْ يتحسّسها بيده الحُرّة يسألها إنْ كانت لديها صديقة يمكنها أنْ ترافقنا. فإذا أثارتْ ضجيجاً، إذا لم يُعجبها أنْ تُطرَد سريعاً بتلك الطريقة، يقول لها - " حسن، اغربي إلى الجحيم... لا يمكن أنْ نُضيِّع وقتنا مع أمثالك ! "، وهنا يُخفِّف من سرعته ويطردها خارجاً. " لا يمكن أنْ نسمح لأمثالها بإزعاجنا، أليس كذلك يا هنري؟ ". يقول هذا وهو يُقهقه برقة، " انتظر، أعدكَ بشيءٍ جيد قبل انصرام الليل". وإذا ذكّرته بأننا سنُقلع عن الممارسة لليلة واحدة يُجيب " حسن، كما تريد... ظننتُ فقط أنَّ هذا يسرّك أكثر "، ويتوقف فجأةً ويقول لشبحٍ هفهاف يتراءى في الظلام - " مرحباً يا أختاه، ماذا تفعلين - هل تتمشّين؟ ". وقد تكون هذه المرة عاهرة صغيرة مُثيرة وعصبية، ليس لديها ما تفعل غير أنْ ترفع طرف ثوبها وتعطيك إياه. ربما لا نضطر إلى تقديم شراب لها، ويكفي أنْ نأخذها إلى مكان ما قريب من الطريق ونباشر معها، واحدا بعد آخر، في السيارة. وإذا كانت بلهاء، فارغة الرأس، كما هنّ عادةً، فقد لا يزعج نفسه بإيصالها إلى المنزل. وقد يقول ابن الحرام "لسنا ذاهبَين في هذا الاتجاه، فمن الأفضل لك أنْ تقفزي هنا"، ويفتح الباب ويرميها خارجاً. والفكرة التالية التي تخطر له هي : هل كانت نظيفة؟ وتظل تشغل باله طوال طريق العودة، ويقول "يا يسوع، يجب أنْ نكون أكثر حَذَراً. أنت لا تعرف ما تفعل في نفسك حين

تلتقطهن هكذا من قارعة الطريق. لقد تعلّمتُ من الحادثة الأخيرة - أتذكُرْ تلك التي التقطناها للقيام بنزهة - كنتُ متلهّفاً كالجحيم. ربما هي العصبية فقط... إنني أفكّر فيها كثيراً. لماذا لا يلتزم المرء بعاهرة واحدة، قُلْ لي يا هنري. عندك تريكس، مثلاً. إنها طفلة جيدة كما تعلم، وأنا أحبها أيضاً، بصورة ما، ولكن... خراء، ما فائدة الحديث عن هذا؟ أنت تعرفني - أنا نهِمْ. أتعلم، إنَّ حالتي تزداد سوءاً حتى إني أحياناً وأنا في طريقي إلى الموعد - وأؤكد لك أنها تكون فتاة أريد أنْ أنكحها وكل شيء على ما يرام - كما أقول، أحياناً وأنا أتمشّى ألمح من زاوية عيني ساقاً تعبر الشارع وقبل أنْ أتعرَّف عليها أكون قد صحبتها في السيارة وإلى الجحيم للفتاة الأخرى. لابد أني مُصاب بضربة كس، على ما أظن... ما رأيك؟ لا تقلْ لي " ويُضيف مُسرعاً، " أعرفكَ، أيها اللوطي... حتماً ستقول لي أسوأ كلام "، ثم أردفَ، بعد توقّف - " أنتَ شاب طيب، أتعلم هذا؟ لم ألاحظ أنكَ ترفض أي شيء. ولكنك لا تبدو، نوعاً ما، قلقاً حول الموضوع طوال الوقت. أحياناً تصدمني كأنكَ لا تأبه لأي شيء مهما كان. أنتَ ابن حرام متين أيضاً - تكاد تكون أحادي الزواج. قُدرتكَ على البقاء مع امرأة واحدة مدة طويلة تلسعني. ألا تملّهنّ؟ يا يسوع، أعلم جيداً ماذا سيقُلن. أحياناً أشعرُ برغبة في أنْ أقول... كما تعلم، أنْ أقول لهنَّ في وجوههن " اسمعي يا طفلتي، لا تقولي أي كلمة... فقط أخرجيه وافتحي ساقيك حتى آخرهما "، ويضحك من قلبه، " هل تتخيَّل التعبير على وجه تريكس إذا ما فعلت مثل هذا معها؟ سأقول لك، كدتُ أفعلها مرة. بقيتُ مرتدياً معطفي ومُعتمراً قبعتي. **وكم غضِبَتْ**! لم يكن يهمّها أنْ أبقى مرتدياً المعطف

طويلاً، ولكن ليس القبعة ! قلتُ لها أخشى تيار الهواء... وطبعاً لم يكن هناك أي تيار هواء. والحقيقة هي أنني كنتُ نافد الصبر جداً للبدء وفكَّرتُ في أنَّ من الأسرع أنْ أبقى بالمعطف والقبعة. وبدل هذا بقيتُ معها طوال الليل. وأثارتْ من الشجار ما أعجزني عن تهدئتها... ولكن اسمعْ : إنَّ هذا لا شيء. وذات مرة كانت معي عاهرة أيرلندية ثملة وكان لها بعض الأفكار الشاذة. فأولاً، لم تكن ترغب في القيام بها على السرير... بل دائماً على الطاولة. وأنت تعلم، أنَّ هذا جيد مرة كل حين، ولكن إذا فعلته غالباً تهلكك. فذات أمسية - وكنتُ ثملاً قليلاً، على ما أظن - أقول لها، كلا، لا ينفع، يا بنت الحرام يا سكرانة... يجب أنْ تذهبي معي إلى السرير هذه الليلة. أردتُ نكاحاً حقيقياً - في السرير. وكما تعلم، كان عليّ أنْ أجادل بنت الحرام لمدة ساعة تقريباً قبل إقناعها بالذهاب معي إلى السرير، بشرطٍ واحد هو الموافقة على أنْ أحتفظ بالقبعة على رأسي. اسمعْ، هل تتخيّلني ممتطياً تلك العاهرة البلهاء وأنا أعتمر قبعتي؟ وأنا عارٍ حتى أخمص قدميّ ! وسألتها... "لماذا تريدين أنْ أحتفظ بقبعتي؟ ". أتعلمْ ماذا قالت؟ قالت إنها تجعلني أكثر أناقة. أتتصوَّر أي عقل تحمله تلك العاهرة؟ كنتُ أكره نفسي وأنا مع تلك العرصة. لم أذهب إليها مرة وأنا صاحٍ، هذا مؤكَّد. وكان عليّ أنْ أمتلئ خمراً أولاً وأُصبحُ كالأعمى والمعتوه - وأنت تعلم كيف أغدو أحياناً... "

فهمتُ تماماً ماذا يقصد. كان أحد أعزّ أصدقائي وأحد أكثر أولاد الحرام الذين عرفتهم حباً بالمشاكسة. لم تكن تكفي معه كلمة عنيد. كان كالجحش - اسكتلندي كبير الرأس. وأبوه أسوأ منه. عندما يتشاجر

الاثنان يكون مشهداً لطيفاً. يرقصُ العجوز رقصاً حقيقياً من الغضب. وإذا تدخّلَتْ الأم العجوز بينهما نالتْ لكمةً على عينيها. وغالباً ما كانا يطردانه من المنزل. ويخرج، بكل أمتعته، حتى الأثاث، والبيانو أيضاً. وبعد شهر أو نحوه يعود ثانية - لأنهما دائماً يثقان فيه وهو في المنزل. وذات مساء يعود إلى المنزل وهو سكران وبرفقته امرأة التقطها من مكانٍ ما ويبدأ الشجار من جديد. ولا يبدو أنهما يهتمان كثيراً لأنه يجلب فتاةً معه إلى المنزل ويُبقيها طوال الليل. أما اعتراضهما فكان على طلبِهِ من أمه إحضار فطوره إلى السرير. فإذا ما حاولتْ أمه أنْ تطرده أخرسها قائلاً - " ماذا تريدين أنْ تقولي؟ ما كنتِ لتتزوجي لو لم تحبلي أولاً "، وتلوِّح العجوز بيديها وتقول - " أي ابنٍ ! أي ابن ! ساعدني يا رب، ماذا فعلتُ حتى أستحق كل هذا؟ " ويُجيب على ذلك بـ " أوه لا داعي ! ما أنتِ غير خوخة عجوز ! "، وحين تأتي أخته، ونادراً ما تفعل، لتُهدّئ الأمور تقول " يا يسوع ! يا ويلي، لا يهمني ما تفعل، ولكن ألا تتحدث مع أمك بطريقة أكثر احتراماً؟ " وهنا يجلس ماكغريغور أخته على السرير ويتملّقها لتُحضِر له الفطور. وغالباً ما يسأل شريكته في السرير عن اسمها ليُقدّمها إلى أخته، ويقول مُشيراً إلى أخته، " ليست سيئة، إنها المُهذّبة الوحيدة في العائلة... والآن اسمعي، يا أختي، هل لكِ أنْ تُحضّري لنا لُقمة؟ طبعاً مؤلفة من اللحم المقدّد والبيض اللذيذ، هه، ما رأيكِ؟ اسمعي، هل العجوز هنا؟ كيف حال مزاجه اليوم؟ أريد أنْ اقترض منه دولارين. حاولي أنْ تهيّئي الأمر معه. هل تفعلين؟ سأحضّر لكِ شيئاً جميلاً في عيد الميلاد ". وبعد ذلك، وكأنَّ كل شيء قد بات مضموناً، يُزيح الأغطية ليكشف عن الحسناء التي إلى جانبه، " انظري

يا أخت، أليستْ جميلة؟ انظري إلى هذه الساق ! اسمعي، يجب أنْ تجدي لنفسك رجلاً... أنتِ نحيلة جداً. عندك باتنسي هنا، أراهن على أنها لم تتوسل للحصول عليه، هه باتسي؟ " ويُكيل صفعةً قوية على ردف باتسي، " والآن، هيا يا أخت، أريد بعض القهوة... ولا تنسي، اتركي اللحم المقدَّد حتى يتغضَّن ! لا تجلبي من اللحم المُخزَّن القذِر... أحضري نوعاً ممتازاً. وأسرعي ! "

إنَّ ما أعجبني فيه هو نقاط ضعفه ,وككل الرجال الذين يمارسون قوة الإرادة كان رخواً تماماً من الداخل. لم يكن ثمة شيء لم يرغب في القيام به - بدافع من الضعف. كان دائم الانشغال وفي الحقيقة لم يكن يفعل أي شيء، ودائماً ينكب على شيء معيَّن، ودائماً يحاول أنْ يُطوِّر عقله. فمثلاً يتناول القاموس غير المُختصَر ويقرأه كله، وفي كل يوم يقطع ورقة منه، وبعناية فائقة أثناء طريق الذهاب والإياب من المكتب وإليه. كان مملوءاً بالحقائق، وكلما كانت الحقائق تافهة متنافرة، زاد استمتاعه بها. بدا مُصراً على أنْ يُبرهن للناس جميعاً على أنَّ الحياة مهزلة، ولا تستحق المشاركة فيها، وأنَّ الأشياء يلغي بعضها بعضاً، الخ. نشأ في الحي الشمالي ليس بعيداً عن الحيّ الذي عشتُ فيه سنوات طفولتي، وترك الحي الشمالي انطباعه القويّ عليه، مثلي، وهذا أحد الأسباب التي حبَّبَته إليّ. فطريقته في الكلام من زاوية فمه، مثلاً، ولهجته الجلفة حين يتحدّث بها إلى رجل الشرطة، وطريقته في البصاق اشمئزازاً، وكلمات السِباب الخاصة التي يستخدمها، وطبيعته العاطفية، وضيق أفقه، وتحمّسه للعب البلياردو والرمي، وقضاؤه الليل وهو يُلفِّق الحكايات، واحتقاره للأغنياء، والحديث بلا تكلُّف مع السياسيين،

واهتمامه الفضولي بالتوافه، واحترامه للمعرفة وروعة صالة الرقص، والحانة ومسرح المنوعات، والحديث عن التجوّل في أرجاء العالم دون أنْ يتزحزح من مدينته، وتأليهه لشخصٍ لا على التعيين ما دام " حيوياً وجريئاً "، وألف سمة وسمة من الصغائر والصفات الخاصة من هذا النوع قرّبَته إليّ لأنَّ هذه الحساسيات المتطرفة بالذات هي التي ميَّزتْ الأشخاص الذين عرفتهم طفلاً. لم يكن الحي، كما بدا لي، يتألّف إلا من الفاشلين الأحبّاء. كان الكبار يتصرفون كالأطفال عنيدين لا يمكن إصلاحهم. لم يكن أحد يتمكّن من الارتفاع كثيراً فوق جاره وإلا أُعدِم فوراً. كان من المذهل أنَّ الكل يغدو طبيباً أو محامياً. أكثر من ذلك، كان عليه أنْ يكون طبيباً، أنْ يُقلِّد لغة الآخرين، أنَّ يُصوِّتْ لصالح الديمقراطية. إنَّ الاستماع إلى ماكغريغور يتكلّم عن أفلاطون أو نيتشه، مثلاً، إلى زملائه شيء جدير بالتذكُّر. فأولاً، ولكي ينال الإذن بالتحدُّث عن أمثال أفلاطون ونيتشه إلى رفاقه، كان عليه أنْ يدَّعي أنه مرَّ على أسمائهم مُصادفةً، أو قد يقول إنه قابلَ أحد السكارى المُسلّين في إحدى الأمسيات في الغرفة الخلفية من الحانة وهذا السكّير هو الذي بدأ الحديث عن أفلاطون ونيتشه. بل وقد يدَّعي أنه لا يُحسن لفظ اسميهما. ويقول مُعتذراً إنَّ أفلاطون ليس ابن حرام بليداً، فلدى أَفلاطون فكرة أو فكرتان في مخه، نعم يا سيدي، نعم يا سيدييييي. ويسعده أنْ يرى أحد أولئك الساسة في واشنطن يحاولون التجادل مع أشخاص مثل أفلاطون. ويستمر بتلك الطريقة المداورة الواثقة في الشرح لرفاق لعبة القمار أي عصفور ذكي كان أفلاطون في زمانه وكيف تفوّقَ على آخرين في أزمان أخرى. وطبعاً ربما كان خصيّاً، يُضيف، على سبيل رشّ بعض الماء البارد

على كل تلك المعرفة الواسعة. ففي تلك الأيام، هكذا أخذ يشرح بنباهة، كان الرجال العظام، الفلاسفة، يقطعون خصاهم - إنها حقيقة ! - لكي يكونوا أبعَدْ ما يمكن عن الإغواء. الفتى الآخر نيتشه، هو حالة حقيقية، حالة من اختصاص مستشفى المجانين. قيل إنه عشقَ أختَه. بحساسيّة مُفرطة. وكان عليه أنْ يعيش في مناخ خاص - في نيس، على ما يظن. بشكلٍ عام هو لا يأبه كثيراً بالألمان، لكنَّ هذا الفتى نيتشه كان مُختلفاً. والحقيقة هي أنَّ نيتشه هذا يكره الألمان، وقد ادّعى أنه بولندي أو شيء من هذا القبيل. وكان مُحقاً كل الحق بشأنهم. قال إنهم أغبياء وبهائم، وحقّ الله أنه كان يعرف عمّا يتكلّم. مهما يكن، لقد فضحهم. قال إنهم مملؤون بالخراء، هذا باختصار، ويا لله، ألمْ يكن مُحقّاً في ذلك؟ هل رأيتم كيف لوى أولاد الحرام أذنابهم حين نالوا جرعتهم من الدواء؟ "اسمعوا، أعرفُ شاباً أبادَ ملء وكر منهم في منطقة أرغون - قال إنهم سَفَلَة ملاعين ولم يكن ليتنازل ويتبرَّز عليهم. قال إنه لن يُفرِط في طلقة رصاص واحدة عليهم - واكتفى بهرس رؤوسهم بهراوة. نسيتُ ذلك الشاب الآن، ولكن على أي حال أخبرني أنه شاهد الكثير خلال الشهور القليلة لوجوده هناك. قال إنَّ أفضل ما حصل عليه من كل العمل المَنْيَكْ كان التخلُّص من رئيسه. ولا يعني ذلك أنَّ لديه أي شكوى ضده - فقط لم يحب خِلقته. لم يُحب الطريقة التي يُصدِر بها أوامره. مُعظم الذين ماتوا تلقّوا طلقة في ظهورهم، كما قال. وقد خَدَمهم أيضاً، الأيور ! كان مجرّد صبي من الحي الشمالي، وأظنُّ أنه يُدير صالةً للعب البلياردو الآن في مكانٍ قريب من سوق ولابوت. وهو إنسان هادئ، مُلتزم بعمله. ولكن إذا حدّثته عن الحرب يطيش صوابه، ويقول إنه سيغتال رئيس

الولايات المتحدة إذا بدؤوا حرباً أخرى. أيه، وسينفّذ ما يقول، أؤكد لكم... ولكن اللعنة ماذا كنتُ أريد أنْ أقول حول أفلاطون؟ أوه، إيه..."

بعد أنْ يذهب الآخرون يُطلِق فجأةً قذائفه. " أنتَ لا تؤمن بالحديث على هذا النحو، أليس كذلك؟ " هكذا يبدأ، وأعترفُ بأني لا أؤمنُ، ويتابع " أنت مُخطئ، يجب أنْ تبقى مع الناس، فأنتَ لا تعرف متى تحتاجُ إلى أحدهم. أنتَ تتصرَّف على افتراض أنكَ حرّ، مُستقلّ! تتصرَّف وكأنكَ متفوِّق على هؤلاء الناس. حسنٌ، هذا هو خطؤك الأكبر. كيف لك أنْ تعرف أين ستكون بعد خمس سنين من الآن أو حتى بعد ستة أشهر؟ قد تصبح أعمى، قد تدوسك سيارة شحن، قد يودعونك مستشفى المجانين، لا يمكنك التكهُّن بما سيحدث لك، ولا أحد يستطيع، قد تصبح عاجزاً كطفل... "

وأُجيب " وشو يعني؟ "

" حسنٌ، ألا تعتقد أنه من المُستحسن أنْ يكون لك صديق تلجأ إليه؟ فقد تصبح يائساً لعيناً وسيسعدك أنْ يكون أحدهم إلى جانبك ليُعينك على عبور الشارع. أنتَ ترى أنَّ هؤلاء الناس لا قيمة لهم. وتظنّ أني أُضيِّع وقتي معهم. اسمع، أنتَ لا تعي مقدار ما قد يُقدمه رجل منهم إليك في يوم. لا يمكن لأحد أنْ يبلغ أي شيء وحده... "

كان شديد التحسُّس من استقلالي، ويُسمّيه لا مبالاتي. ولو اضطررت لطلب مبلغ صغير منه لأبتهج، ولمنحه هذا فرصة إلقاء موعظة صغير في الصداقة، فيقول، وابتسامة الرضا تمتد على وجهه " إذن أنتَ بحاجة إلى نقود أيضاً؟ إذن على الشاعر أنْ يأكل أيضاً؟ عظيم، عظيم... أنتَ محظوظ لأنكَ أتيت إليّ، هنري يا بُنيّ، لأنني أتساهل

معك، أنا أعرفك، أنت يا ابن العرص يا قاسي القلب. أأمر، ماذا تريد؟ ليس لديّ الكثير، لكنني سأتقاسمه معك. أعتقد أنَّ هذا عدل كفاية، أليس كذلك؟ أم تعتقد يا ابن الحرام أني يجب أنْ أعطيك كل شيء وأذهب لأقترض شيئاً لنفسي؟ أعتقد أنكَ أنْ تتناول وجبة دسمة، هه؟ لحم مُقدَّد وبيض سيكون جيداً، أليس كذلك؟ أعتقد أنكَ تريد مني أنْ أوصلك بالسيارة إلى المطعم أيضاً، هه؟ اسمع، انهضْ عن هذا الكرسي قليلاً - أريد أنْ أضع وسادة تحت طيزك. عظيم، عظيم، إذن أنتَ مفلس! يا يسوع، أنتَ دائماً مفلس - لا أذكُر أني رأيتك تحمل نقوداً في جيبك. اسمع، ألا تخجل من نفسك؟ وتتكلّم عن المُشرّدين الذين أتسكَّع معهم... اسمع إذن، يا سيد، أولئك الشبان لا يأتون أبداً ليطلبوا نقوداً مثلك؛ إنهم أشد إباءً من أنْ يفعلوا - إنهم يفضّلون السرقة على الاستيلاء عليها مني، أما أنت، يا خراء، فمملوء بالأفكار الطنّانة، لا تريد أنْ تعمل لتحصل على نقود، كلا، ليس أنت... أنت تتوقَّع أنْ يُقدّمها إليك أحدهم على طبق من الفضة، هه! من حظك أنه يوجد أناس مثلي يفهمونك. أنتَ بحاجة إلى أنْ تعود إلى صوابك، يا هنري. أنتَ واهم. الكل يريدون أنْ يأكلوا، ألا تعلم هذا؟ أغلب الناس يرغبون في العمل للحصول عليه - إنهم لا يتمدَّدون في السرير طوال يومهم مثلك وفجأةً يكشفون عن عوراتهم ويهرعون إلى أول صديق لديهم. لنفرض أني لم أكن موجوداً، ماذا كنتَ ستفعل؟ لا تُجب... أعرف ماذا ستقول. ولكنْ اسمع، لا يمكنك أنْ تستمر هكذا طوال حياتك. طبعاً أنت تتكلّم بشكلٍ حسن - ومن الممتع الإصغاء إليك. أنتَ الوحيد الذي أستمتعُ حقاً بالتحدّث معه، ولكن إلى أين سيوصلك

هذا؟ ذات يوم سيودعونك السجن بتهمة التشرُّد. ما أنت إلا متشرّد، ألا تعلم هذا؟ بل إنكَ لستَ جيداً مثل المتشردين الآخرين الذين تتخذهم كعِبرة. أين تكون حين أقع في ورطة؟ لا أحد يجدك. إنكَ لا تُجيب على رسائلي، ولا على مكالماتي الهاتفية، بل وأحياناً تختبئ حين آتي لزيارتك. اسمع، أعرف - لستَ مضطراً إلى الشرح. اعلم أنكَ لا تريد سماع قصصي طوال الوقت. ولكن خراء، يجب أنْ أتحدث معك. مع أنكَ لعين لا تهتم بشيء. فما دمتَ بعيداً عن المطر وتملأ بطنك بوجبة من الطعام فأنتَ سعيد. أنتَ لا تفكِّر في أصدقائك - إلاّ حين يتملّكك اليأس. ليست هذه طريقة حَسَنة في التصرُّف، أليس كذلك؟ قُلْ لا وسأعطيك دولاراً. اللعنة، يا هنري، أنت صديقي الحقيقي الوحيد ولكن فلتكن ابن عاهرة قذر إنْ كنتُ أعلم عما أتحدث. أنتَ ابن عاهرة لا تصلح لشيء منذ ولادتك. وتفضِّل أنْ تموت جوعاً على أنْ تستخدم يدك في أي شيء مفيد... "

وطبعاً أضحك وأمدّ يدي طلباً للنقود التي وعدني بها. ويغضبه هذا من جديد، " هل أنت مستعد لتقول شيئاً، إذا أعطيتك النقود التي وعدتك؟ أي شاب أنت! تتحدث عن الأخلاق - يا يسوع، إنَّ لديك أخلاق ثعبان ذي أجراس. كلا، وحقّ المسيح، لن أُعطيك إياها الآن. سأذيقك المزيد من العذاب أولاً. سأجعلك تنال هذه النقود بالكسب، إنْ استطعت. اسمع، ما رأيك في تلميع حذائي - افعلْ هذا لأجلي، هل تفعل؟ لن يلمعْ أبداً إذا لم تُلمّعه بنفسك الآن "، وأتناول الحذاء وأسأله عن الفرشاة. لا يزعجني تلميع حذاءه، على الإطلاق. ولكن حتى هذا يبدو أنه يُثير سخطه، " إذن فأنت تنوي تلميعه، أليس كذلك؟ يا يسوع،

هذا ينسف خطتي الجهنمية برمّتها. اسمع، أين كبرياؤك - أليس لديك أي كبرياء؟ وأنت الذي يعرف كل شيء. أمر مذهل. أنت تعرف أشياء كثيرة لعينة فتضطر إلى تلميع حذاء صديقك لتسلبه ثمن وجبة. ورطة رائعة ! إليك، يا ابن الحرام، إليك الفرشاة ! امسحْ الزوج الآخر أيضاً، ما دمتَ فيها "

فترة صمتْ. إنه يغتسل عند المغسلة ويُدندن قليلاً. وفجأةً، وبنبرةٍ مُشرقة مرحة : " كيف الطقس اليوم في الخارج، يا هنري؟ أهو مشمس؟ اسمع، لديّ المكان الذي يعجبك تماماً. ما رأيك أن نقفز ونأكل اللحم المقدَّد مع القليل من الطرطير إلى جانبه؟ من دكانٍ صغير هنا قرب المدخل. إنَّ يوماً مثل هذا اليوم جدير بأنْ نقفز فيه ونأكل لحماً مقدداً، هه ما رأيك، يا هنري؟ لا تقل لي إنَّ لديك عملاً تقوم به... إذا أخذتكَ إلى هناك فيجب عليك أنْ تقضي معي بعض الوقت، أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟ يا يسوع، ليت لديّ مزاجك، إنكَ تكتفي بالعيش من دقيقة إلى أخرى. أحياناً أعتقد أنكَ صاحب بصيرة لعينة أفضل منا جميعاً على الرغم من أنكَ ابن عاهرة نتن وخائن ولص. حين أكون معك يمرُّ النهار كالحلم. اسمع، ألا ترى ما أعني حين أقول إني أرغبُ في زيارتك أحياناً؟ أكاد أجنّ حين أبقى وحيداً طوال الوقت. لماذا أهرعُ من مكانٍ إلى آخر خلف إحدى العاهرات في أغلب الأحيان؟ لماذا أقضي الليل في لعب الورق؟ لماذا أتسكّعُ مع أولئك المتسكعين من منطقة بوينت؟ إنني بحاجة إلى مَنْ أتكلم معه، هذا كل شيء "

بعد ذلك بقليل يُتابع في الخليج، وهو جالس يُطل على البحر، وقد تناول جرعة من الجودار في انتظار أنْ يُقدَّم له طعام البحر... " لا تكون

الحياة بهذا السوء إذا استطعت أنْ تفعل ما تريد، ايه، هنري؟ إذا حصلت على بعض المال سأقوم برحلة حول العالم - وستأتي معي. نعم، مع أنك لا تستحق، وسأنفق عليك مبلغاً كبيراً من المال. يوماً ما. أود أنْ أرى كيف ستتصرَّفُ إذا تركتُ لك الحبل على الغارب. سوف أعطيك النقود، أترى... لن أدَّعي أني أعطيك إياها كقرض. سوف ترى ماذا سيحدث لأفكارك الرائعة حين سيغدو في جيبك بعض النقود. اسمعه، حين كنتُ أتحدَّث عن أفلاطون في ذلك اليوم كنتُ أنوي أنْ أسألك عن شيء : كنتُ سأسألك إنْ كنتَ قد قرأتَ حكايته عن أطلانتس، هل فعلت؟ هل قرأتها؟ حسن، ما رأيك فيها؟ هل تعتقد أنها كانت مجرَّد حكاية، أم تُرى أنه ربما وُجِدَ مكان مثله في وقتٍ من الأوقات؟ "

لم أجرؤ على البوح بأني أعتقد بوجود مئات وآلاف القارات التي وُجِدَتْ في الماضي أو ستوجَد في المستقبل لم نبدأ بعد بالحلم بها، لذا قلتُ ببساطة إنه من الممكن تماماً أنَّ في مكان كالأطلانتس قد وُجِدَ ذات مرة. وتابع قائلاً " الواقع، أنَّ الأمر لا يهم بصورةٍ أو بأخرى، في اعتقادي، لكنني سأخبرك بما أظن : أظنُ أنه لابد أنَّ مكاناً كهذا قد وُجِدَ ذات مرة، في زمنٍ كان الناس فيه مختلفين. لا يمكنني أنْ أؤمن بأنهم كانوا دائماً خنازير كما هم الآن وكما كانوا خلال البضعة آلاف سنة الأخيرة .أظنُ أنَّ من المعقول تماماً أنه قد مرَّ وقت عرفَ فيه الناس كيف يعيشون، عرفوا كيف يتناولون الأمور ببساطة ويستمتعون بالحياة. أتعلَمْ ما الذي يجرفني نحو الجنون؟ إنه النظر إلى أبي العجوز. فمنذ أنْ تقاعدَ وهو يجلس أمام المدفأة طوال النهار ويستغرق في تفكيرٍ كئيب. هذا ما اجتهدَ من أجله طوال حياته : الجلوس كغوريلا مُحطَّمة. خراءُ إذن، لو

كنتُ أعـرفُ أنَّ هذا مـآلي لنسـفتُ رأسي الآن. انـظر حـولك... انـظر إلى الناس الذين نعرفـهم... هل ترى بينهم مَنْ يُساوي أي شيء؟ ما الداعي إلى كل هذه الجَلَبة، أود أنْ أعرف؟ ***يقولون، يجب أنْ نعيش.*** لماذا؟ هذا ما أودُّ أنْ أعـرفـه. من الأجدى لهم جـمـيعـاً أنْ يموتـوا. إنهم أقـرب إلى الروث. وحين نشبت الحرب ورأيتهم يندفعون إلى الخنادق قلتُ في نفسي عظيم، قد يعودون وقد استعادوا بعضَ الحسّ! وطبعاً لم يعُد معظمهم. ولكن مـاذا عن البـاقين! - اسـمع، هل تعـتـقـد أنهم أصـبـحـوا أكـثـر إنسانيّة، أكثر تروّياً؟ أبداً والله! إنهم جميعاً جزارون من داخلهم، وحين يقعـون يُصبحـون مـتـعـادلين. المنايك كلهم يُثيـرون الاشمئزاز. أرى كـيف يُصبحـون حين يُطلقـون سراحـهم كل يوم. أرى جانبَيّ السـور. إنَّ المشـهـد يُثيرُ اشمئزازي على الطرف الآخر. لا تتعجَّب، إذا أخبرتكَ بعض الأشياء التي عـرفـتـهـا عن القـضـاة الذين يحكمـون على أولاد الحـرام المسـاكين فسوف ترغب في ضربهم. انظرْ فقط إلى وجوههم. نعم يا سيدي، هنري، إنني أمـيـل إلى الظن أنه مرَّ وقت كـانت فـيـه الأمـور مـختـلفـة. إننا لم نرَ حياة حقيقية - ولن نرى أبداً. وسيـستـمر هذا الحال بضع آلافاً من السنين الأخـرى، مع أنـي أتوق إلى ربح الكـثـيـر من المال، أليـس كـذلك؟ إذن سأقـول لك، أودّ أنْ أربح قليـلاً منه يكفي لأخرِجَ قدميّ من هذا الروث، أود أنْ أعـيش مع عـاهرةٍ زنجـيـة لو كـان في إمكاني أنْ أبـتـعـد عن هذا الجو. لقد أهلكتُ خصيـتيّ وأنـا أحاول أنْ أصل إلى حيث أنا الآن، وهو ليس بالمكان البعـيد جداً. لم أعد أؤمن بالعمل أكثر منك - كل ما في الأمر أنهـم دربّوني على هذه الطريقـة - لو أنجح في صـفـقـة، لو أمـكنني أنْ أسلب بعض النقـود من أحد أولاد الحرام أولئك الذين أتعاملُ معـهم،

لفعلتُها بضمير نقي. إنني لا أعرف إلا القليل النادر عن القانون، وهذه هي المشكلة. ومع ذلك سأحتال عليهم، وسوف ترى. وحين سأنجح سيكون نجاحي ساحقاً... "

وجرعة أخرى من الجودار في انتظار مجيء ثمار البحر ويبدأ الحديث من جديد، " إنني أعني بحق أنْ أصحبك معي في رحلة. أفكّر في هذا جدّياً. أعتقدُ أنكَ ستقول لي إنَّ لكَ البلطة التي لديك؟ ألا تعلم أنَّ عليك أنْ تلفظها؟ " ويضحك بنعومة. " هو! هو! كم يضحكني التفكير في أني أنا الذي انتقيتها لك! هل كنتَ تعلم أنكَ ستصبح من الغباء بحيث تتعلّق بها؟ ظننتُ أني أهديتكَ قطعة جميلة وأنت، يا أجدب يا مسكين، تزوجتها، هو هو! اسمع يا هنري، ما دام لا يزال لديك بقية من حس: لا تدع تلك الهرّة الفاسدة الخصيتين تنغّص عليك حياتك، هل تفهمني؟ لا يهمني ماذا تفعل أو أين تذهب. أكره أنْ أراك مغادراً المدينة... سأشتاق إليك، أقولها صراحةً، ولكن يا يسوع، حتى إذا اضطررتُ إلى السفر إلى أفريقيا، لا تتردَّد، تحرَّر من قبضتها، إنها لا تصلح لك. أحياناً حين أقع على عاهرة جيدة أقول لنفسي، هاك قطعة رائعة جديرة بهنري - ويخطر على بالي أنْ أقدِّمها إليك، وبعد ذلك أنسى طبعاً. ولكن يا يسوع، يا رجل، في العالم آلاف العاهرات لتضاجعهن. أما التفكير في أنَّ عليك الالتزام بعاهرة كهذه... ***هل تريد المزيد من اللحم المقدَّد*** ؟ الأفضل لك أنْ تأكل ما بين يديك الآن، أنت تعلم أنه لن يتبقى معنا أي نقود بعد ذلك. تناول كأساً أخرى، هه؟ اسمع، إذا حاولتَ أنْ تفرّ مني اليوم أُقسم على ألا أقرضك سنتاً واحداً... ماذا كنتُ أقول؟ أوه، ايه، عن تلك العاهرة المعتوهة التي تزوجتها. اسمع، هل

ستقوم بما أقول أم لا ؟ في كل مرة أراك فيها تقول إنكَ ستهرب، لكنكَ أبداً لم تفعل. آمل ألا تظن أنكَ تعيلها ؟ إنها ليست بحاجة إليك، أيها الأخرق، ألا ترى هذا ؟ هي تريد فقط أن تعذّبك، أما بالنسبة للطفلة... اللعنة، لو كنتُ مكانك لأغرقتها. يبدو كلامي حقيراً نوعاً ما، أليس كذلك، لكنك تفهم ما أعني. أنتَ لستَ أباً، إنني وحق الجحيم لا أعرف ما أنت... كل ما أعرفه هو أنكَ صاحبٌ رائع ملعون لا تستحق أنْ تُبدِّد حياتك معهن. اسمع، لماذا لا تحاول أنْ تجعل من نفسك شيئاً عظيماً؟ أنت لا تزال شاباً ومظهرك جيد جداً. اذهب إلى أي مكان، انطلق بحق الجحيم، وابدأ كل شيء من جديد. إذا كنت بحاجة إلى بعض النقود سأدبرّها لك. وكأني سأرميها في بالوعة، أعلم هذا، ومع ذلك سأفعلها إكراماً لك. الحقيقة، يا هنري، هي أنني أحبك حباً جحيمياً ,اكتسبتُ منكَ أكثر مما اكتسبتُ من أي إنسان في العالم. وأعتقد أننا نشترك في كثير من الأشياء، فقد خرجنا من حي واحد. غريب كيف لم أعرفك في تلك الأيام. خراء، إني أصبحُ رومانسياً... "

انصرمَ النهار على ذلك الشكل، ومعنا الكثير لنأكل ونشرب، والشمس ساطعة قوية، وسيارة لتنزّهنا، وسيجار في الاستراحات، ونأخذ غفوة قصيرة على الشاطئ ونحن ندرس العاهرات المارّات بنا، نتكلّم، نضحك، نغني قليلاً أيضاً - وفي أحد الأيام، الأيام البعيدة قضيتُ وقتاً مماثلاً مع ماكغريغور. إنَّ أياماً كتلك جعلت دولاب الزمن يتوقف لاحقاً. في ظاهرها بدت مرحة سعيدة ومحظوظة، والزمن يمرّ كحلم دبِق. أما من الداخل فمُهلكة ومُهدِّدة، تتركني لأغدو في اليوم التالي كئيباً قلقاً. كنتُ أعلم أني سأنطلق في يوم، عرفت كل المعرفة أني أهدر وقتي.

لكنني عرفتُ أيضاً أنه لا حيلة لي في ذلك - بعد. كان يجب أنْ يحدث شيء، شيء كبير، شيء جدير بانتزاعي من جذوري. كل ما احتجت إليه هو دفعة، ولكن كان يجب على القوة التي ستدفعني أنْ تكون من خارج عالمي، كنتُ متأكداً. ولم يسعني إرهاق نفسي، فليس هذا في طبيعتي. طوال حياتي كانت الأمور تُنجز لأجلي من تلقاء نفسها - في آخر الأمر. فلم يُقدَّر لي أنْ أجهد نفسي، يجب أنْ يُترَك شيء للعناية الإلهيّة لتقوم به - وفي حالتي كل شيء. وعلى الرغم من الظواهر الخارجية لسوء حظي وفشلي علمتُ أني مولود وملعقة من فضة في فمي، وتاج مُضاعَف أيضاً على رأسي. كان الوضع الخارجي سيئاً، أعترف - أما أكثر ما أزعجني فقد كان الوضع الداخلي. كنتُ أخاف حقاً من نفسي، من شهيتي، من فضولي، من مرونتي، من قدرتي على النفاذ، من لدانتي، من سماحتي، من قدرتي على التكيُّف. لم يكن لأي وضع منفصل أنْ يُخيفني : ولطالما رأيتُ نفسي بشكلٍ ما في وضعٍ مريح، جالساً داخل زهرة حوذان، وأنا أرشفُ العسل. وحتى لو قُذِفَ بي إلى زنزانة لبدأتُ أستمتع بوضعي على الفور. وهذا يعود، على ما أظن، إلى أني أعرف كيف لا أقاوم. كانت بقية الناس يهلكون أنفسهم في الكدّ والشدّ والجذب : أما استراتيجيتي فكانت أنْ أطفو مع التيار. ولم يزعجني ما يفعله الآخرون معي ولم يزعجني ما يفعلونه للآخرين أنْ لأنفسهم. كنتُ في صحة داخلية تامة لعينة حتى بات عليّ أنْ أتحمّل مشاكل العالم كلها. ولهذا وجدتني في فوضى عارمة على الدوام. بمعنى أني لم أتزامن مع قَدَري، بل حاولتُ أنْ أتزامن مع قَدَر العالم. فإذا عدتُ إلى المنزل ذات مساء، مثلاً، ولم أجد طعاماً، حتى للطفل، أقوم بجولة للبحث عن

طعام. ولكن ما لاحظته على نفسي، وهو ما حيَّرني، أنّه ما أنْ أخرج باحثاً حتى أعود إلى النظرة العالمية Weltanschanuny[1] من جديد. لم أكن أفكِّر في جلب طعام لنا جميعاً على وجه الحصر، بل في الطعام بشكلٍ عام، بالطعام في مراحله كلها، في كل مكان من العالم في تلك الساعة وكيف يتمُ الحصول عليه وكيف يعدّ وماذا يفعل الناس إذا لم يحصلوا عليه وكيف أنه ربما تكون هناك طريقة لحلّ هذا بألاّ يحصل كل شخص إلاّ على ما يحتاج إليه ولا داعي لهدر مزيدٍ من الوقت على مشكلة بسيطة بلهاء كهذه. شعرتُ بالأسف لأجل الزوجة والطفلة، طبعاً، لكنني شعرتُ أيضاً بالأسف من أجل قبائل الهوتنتوت وسكان أدغال أوستراليا، فضلاً عن البلجيكيين والأتراك والأرمن. شعرتُ بالأسف للجنس البشري كله، لغباء الإنسان وافتقاره إلى الخيال. لم يكن المريع فقدان وجبة - بل خواء الشوارع المرعب هو الذي أقلقني وبعمق، تلك المنازل اللعينة، واحداً إثر آخر، بمنظرها الخاوي الخالي من المرح. تحت الأقدام أحجار رصف رائعة وإسفلت في وسط الشارع وأحجار سمراء أنيقة بجمال وبشاعة تنحني لتدوس عليها، ومع ذلك يمكن للمرء أنْ يتجوَّل طوال النهار والليل على هذه المادة النفيسة وهو يفتش عن كسرة خبز. هذا ما أثارني. هذا التناقض. ليت المرء منا ينطلق كالسهم حاملاً جرس العشاء ويصرخ " اسمعوا، اسمعوا، يا ناس، أنا إنسان جائع. مَنْ يُريد تلميع حذائه؟ مَنْ يريد أنْ تُزال زبالته؟ مَنْ يريد أنْ يُنظِّف أنابيب مجاريره؟ ". ليتك فقط تخرج إلى الشارع وتقول لهم ذلك بالوضوح

---

١ - النظرة العالمية :فلسفة فردية أو عِرقيّة في تفسير التاريخ أو تفسير الغاية من العالم ككل .

نفسه. ولكن كلا، أنت لا تجرؤ على فتح بوزك. إذا قلتَ لإنسان يسير في الشارع أنك جائع فسوف ترعبه حتى يخري تحته، وسوف يفرّ هارباً. هذا شيء لم أفهمه أبداً. ولا أزال. إنَّ الأمر شديد البساطة - قُلْ نعم فقط حين يقترب أحدهم منك. فإذا كنتَ لا تستطيع أنْ تقول نعم يمكنك أنْ تمسكه من ذراعه وتطلب من عصفور آخر أنْ يساعدك لمساعدته. لماذا تضطر لارتداء زي رسمي وقتل أناس لا تعرفهم، لمجرَّد أنْ تنال كسرة خبز. هذا ما لم أحلّ لغزه بعد. ولماذا أهتمّ بكلفة أي شيء؟ إنني هنا لأعيش، وليس لأحسب. وهذا بالذات ما لا يريده أولاد الحرام - ***أنْ يعيشوا*** ! يريدونك أنْ تنفق حياتك برمَّتها تجمع الأرقام؛ فهذا شيء يجدون له معنى، وهو معقول. بارع. لو تولّيتُ الأمر بنفسي لما كانت الأشياء أكثر تنظيماً، بل أكثر مرحاً، وحقّ يسوع ! ولما كنتَ مُجبراً على أنْ تخري في سروالك من أجل تفاهات. قد لا تكون هناك طرقات مرصوفة بالحصباء وسيارات انسيابية ومكبّرات صوت وأدوات صغيرة من مليون بليون صنف، ولا زجاج في النوافذ، وتضطر للنوم على الأرض، وقد لا يوجد طعام فرنسي، وطعام إيطالي، وطعام صيني، وقد يقتل الناس بعضهم حين ينفد صبرهم وقد لا يقف في طريقهم أحد لأنه لا وجود للسجون والشرطة والقضاة ولن يكون هناك حتماً أي وزراء أو هيئة تشريعية لأنه لا وجود لقوانين لعينة لتُطاع أو لتُخرَق، وقد يستغرق شق الطريق من مكانٍ إلى آخر شهوراً وأعواماً، لكنك لن تحتاج إلى تصريح بالمرور أو جواز سفر أو هوية شخصية لأنك لن تكون مُسجّلاً في أي مكان ولن تحمل رقماً وإذا أردت أن تغيِّر اسمك كل أسبوع ففي إمكانك أنْ تفعل ذلك لأنه لا يهمّ ما دمتَ لن تقتني إلا ما يمكنك حمله في تنقلاتك ولماذا تريد أنْ تملك أي شيء حين يكون كل شيء مجانياً؟

خلال تلك الفترة التي كنتُ أنتقل أثناءها من باب إلى باب، من عملٍ إلى عمل، من صديقٍ إلى صديق، من وجبةٍ إلى وجبة، حاولتُ مع ذلك أن احتفظ بمساحةٍ صغيرة لنفسي آملاً أنْ تكون بمثابة ملاذ، أو أشبه بطوقِ النجاة وسط قناة جارية. وحين تصل إلى مسافةِ ميلٍ مني تسمعُ ناقوساً ضخماً حزيناً يدق. لم يرَ أحدُ الملاذ - كان مدفوناً عميقاً في قاع القناة. كنتَ تراني أغوص ثم أطفو على السطح، تارةً أهتزُّ بلطف أو أتمايلُ إلى الخلف والأمام بعنف. وما ثبَّتني إلى أسفل بأمان كان المقعد المملوء بثقوب حَمامٍ كبيرة الذي وضعته في الصالون. وهذا المقعد نفسه بقيَ في مؤسسة العجوز للخياطة للخمسين سنة التي خلت، وأخرجَ الكثير من الفواتير والأنين، وضمَّ ذكريات غريبة بين أجزائه، وقد سرقته منه يوم كان مريضاً وغائباً عن المؤسسة، والآن هو قائم وسط صالون بيتنا الكئيب في الطابق الثالث من عمارة محترمة ذات حجارة بنيّة في مركز أكثر أحياء بروكلن احتراماً. كان عليّ أنْ أخوض معركة ضارية لأضعه هناك، لكنني أصررت على أنْ يكون هناك وسط الكوخ. كان الأمر أشبه بوضع حيوان المستوردن وسط مكتب طبيب أسنان. ولكن بما أنه لم يكن للزوجة أصدقاء يزورونها وبما أنَّ أصدقائي لا يهتمون البتّة حتى وإنْ كان مُعلّقاً من الثُريا، أبقيته في الصالون ووضعتُ كل ما لدينا من كراسٍ زائدة حوله على شكل دائرة كبيرة وجلستُ لأرتاح ووضعتُ قَدَميّ على المقعد ورحتُ أحلمُ بما سأكتب إذا ما استطعت أنْ أكتب. ووضعتُ مبصقة بموازاة طاولة المكتب، واحدة نحاسيّة كبيرة من المؤسسة نفسها، وأخذتُ أبصقُ فيها بين حين وآخر لأذكّر نفسي بأنها موجودة. كانت حُفر الحَمام والأدراج كلها فارغة، ولا شيء على المقعد

أو داخله عدا ورقة بيضاء وُجِدَتْ من المستحيل أنْ أرسم عليها أكثر من علامة كُلاّب القدْر[1].

حين أفكِّرُ في الجهود الجبّارة التي بذلَتُها لشقّ طريقي وسط اللافا الملتهبة التي كانت تُبقبق داخلي، الجهود التي كرّرتها آلاف المرآت لأوجّه هذا السيل إلى مكانٍ ما وألتقط كلمة، عبارة، أفكِّرُ على الفور في رجال العصر الحجري. لا يزال أمامي مائة ألف، مائتا ألف عام، ثلاثمائة ألف عام لأصلَ إلى فكرةِ صُنع أداةٍ من العصر الحجري. إنه صراع الأشباح، لأنهم لن يكونوا يحلمون بشيءٍ كأداةٍ من العصر الحجري. لقد أتتْ بلا جهد، وهي وليدة اللحظة؛ يمكنك أنْ تقول إنها معجزة، غير أنَّ كل ما يحدث هو ضرب من المعجزات. فالأمور تحدث أو لا تحدث، هذا كل شيء. ولا شيء يُنجَزُ بالعَرَق والكفاح. وكل ما نُطلِق عليه اسم حياة ما هو إلا أرَقْ، أسى لأننا فقدنا عادة الاستغراق في النوم. لم نعُدْ نعرف كيف نكون على سجيتنا. نحن مثل عفريت العلبة جاثمون على قمة رقّاص وكلما اشتدّ جهادنا صعُبَتْ علينا العودة إلى العلبة.

أفكِّر في أني لو كنتُ مجنوناً لوقعتُ على مشروعٍ أفضل لتعزيز ملاذي من وضع ذلك الشيء النياندرتالي وسط الصالون. إنني بجلوسي هكذا وقدماي على طاولة المكتب، أستعيد دفق التيار، وعمودي الفقري مغروز باستكانة في وسادة ثخينة من الجلد، أقمتُ علاقة مثالية مع الأشياء التافهة الكثيرة الدائرة حولي، ولأنها جنونية وجزء من الدفق، حاولَ أصدقائي إقناعي بأنها هي الحياة. أذكُرُ وبحيوية أول اتّصال لي

---

١ - كُلاَب القدْر : كُلاَب على شكل حرف S لتعليق القُدور في نارٍ مكشوفة .

مع الواقع الذي خضته بقدميّ، كما يُقال. والمليون كلمة أو نحوها التي كتبها، بالمناسبة، بنظامٍ فائق، بترابُطٍ متين كانت لا شيء بالنسبة إلي - رموز مُبهمة بدائية من العصر الحجري - لأنَّ الاتّصال تمَّ من خلال الرأس والرأس زائدة عديمة النفع إلا إذا ثُبِّتت وسط القناة عميقاً في الطين. كل ما كتبته من قبل كان مادةً مُتحفيّة، ومعظم الكتابات لا تزال مُتحفيّة ولهذا هي لا تحترق، لا تلهب العالم. كنتُ مجرَّد بوق للجنس السالف الذي يتحدث من خلالي، حتى أحلامي لم تكن أصيلة، لم يكن هنري ميللر الأصل هو الحالم كان جلوسي ساكناً أنتظرُ أنْ تخرج مني، من طوق النجاة، فكرةٌ ضخمة. لم تكن تنقصني الأفكار ولا الكلمات ولا المقدرة على التعبير - بل افتقرتُ إلى شيءٍ أشد أهمية : إلى العتلة التي يمكنها أنْ توقِف تدفّق العُصارة. الآلة اللعينة لا تريد أنْ تتوقف، وهذه هي الصعوبة. لم أكن فقط وسط التيار لكنَّ التيار كان يجري داخلي ولم تكن لي أي سيطرة عليه.

أذكُرُ اليوم الذي أوصلتُ فيه الآلة إلى نقطة التوقف التام وكيف بدأتْ الآليّة التي طبعتُها بطابعي الخاص وصنعتها بيدي الاثنتين وبدأ دمي يعمل ببطء. كنتُ قد ذهبتُ إلى المسرح القريب لأشاهد عَرْضاً هزلياً في الحفلة الصباحية، ومعي بطاقة للجلوس في الشرفة. وبينما أنا واقف في الطابور في الردهة، إذا بي وبتجربة شعورٍ غريب من التماسُكْ، كأني صرتُ أتخثَّر، أصبحت كتلة متماسكة من الهلام واضحة المعالم. كانت أشبه بالمرحلة الأساسية من شفاء جرح، وأنا في ذروة الوضع العادي، وهذا أمر غير عادي. قد تأتي الكوليرا وتنفث أنفاسها القذرة في فمي - ولكن لا يهم. كان في وسعي أنْ أنحني وأُقبِّل تقرّحات يدٍ مجذومة،

دون أنْ يُصيبني أذى. لم يوجد حتى توازن في تلك الحرب المتواصلة بين الصحة والمرض، وهو كل ما قد يأمل به معظمنا، بل تكامل زائد في الدم دلَّ، لبضع لحظات على الأقلّ، على أنَّ المرضَ قد تأصَّلَ تماماً. ولو أنَّ المرءَ تحلَّى عندئذٍ بالحكمة فضَرَبَ جذوره في لحظةٍ كتلك، لصَمَدَ إلى الأبد في وجه المرض والتعاسة والموت أيضاً. لكنَّ الانتقال إلى هذه النتيجة يعني القيام بقفزة تعيد المرءَ إلى أبعد من العصر الحجري العتيق. في تلك اللحظة لم أكن أحلم حتى بضرب جذوري، كنتُ أمرُّ للمرة الأولى في حياتي بتجربةِ معنى المُعجز. كنتُ من شدة الذهول حين سمعتُ مُسنّناتي تتعشَّق بحيث رغبتُ في الموت في التوّ واللحظة لفوزي بالتجربة.

وما حدث هو ما يلي... بينما أنا أمرُّ بالحاجب ممسكاً بجزء البطاقة المُقتَطَع خفَتتْ الأضواء ورُفِعَتْ الستائر. وقفتُ برهة وأنا مبهور قليلاً من التعتيم المفاجئ. ومع ارتفاع الستائر البطيء تملَّكني شعورٌ بأنه طالما جَمَّدَتْ هذه اللحظة الوجيزة السابقة لبدء العرض الإنسان على مرّ العصور. شعرتُ بالستارة ترتفع داخل الإنسان. وأدركتُ على الفور تقريباً أنَّ ذلك رمزٌ تراءى له طوال فترة نومه وأنه لو كان يقظاً لما احتلَّ الممثلون المسرح، ولاعتلى هو، الإنسان، الخشبة. لم أفكّر في ذلك عن قصد - بل كان إدراكاً، كما قلت، بسيطاً وواضحاً وضوحاً غامراً بحيث توقّفت الآلة توقّفاً تاماً وإذا بي أجدني واقفاً في حضوري الخاص وأنا أستحمّ في واقع مضيء. أدرتُ عينيّ عن المسرح ونظرتُ في اتجاه الدَرَج الرخامي الذي توجب عليّ ارتقاؤه لأحتل مقعدي في الشرفة، فرأيتُ رجلاً يصعد الدَرَج يصعد الدرج ببطء ويده على الدرابزين. قد يكون

الرجل هو أنا، ذاتي القديمة التي ظلّتْ تمشي وهي نائمة منذ ولادتي. لم تستوعب عيناي الدَرَج كله، بل استوعبت الدَرَجات القليلة التي ارتقاها الرجل أو كان يرتقيها في تلك اللحظة. لم يصل الرجل إلى أعلى الدَرَج أبداً ويده لم تتحرَّك عن الدرابزين الرخامي. وشعرتُ بالستارة تهبط، وخلال اللحظات التي تلَتْ كنتُ خلف المشاهد أتحرَّك وسط الأجهزة، وكأنَّ المسؤول عنها نهضَ فجأة من نومه وهو غير متأكِّد إنْ كان لا يزال يحلم أو ينظر إلى حلم يمثّل على خشبة المسرح. كان شيئاً شديد النضارة والغضاضة، وجديد بشكلٍ غريب مثل أراضي العيش الكَفاف التي تراها حسناوات بيدندن Biddenden كل يوم من حياتهن الطويلة مضمومة عند الأوراك. لم أرَ إلاّ ما هو حي! أما الباقي فتلاشى في شبه ظل. ولكي أحافظ على العالم حيوياً انطلقت إلى المنزل دون أنْ أشاهد العرض وجلستُ لأصف البقعة الصغيرة من الدَرَج والتي لا تفنى.

في ذلك الوقت تقريباً كان الدادائيون[1] في قمة مجدهم، تبعهم بعد ذلك بفترةٍ قصيرة السُرياليون[2]. ولم أسمع عن أيٍ من الجماعتين إلاّ بعدها بعشر سنين، لم أقرأ كتاباً فرنسياً ولم أتلقَّ أي فكرة فرنسية. ربما كنتُ دادائياً فريداً في أميركا، دون علمي. وربما كنتُ أعيشُ في غابات الأمازون إذا أخذنا في الاعتبار صلتي التي أقمتُها مع العالم الخارجي. لم يفهم أحدٌ ما كنتُ أكتب أو لماذا كتبته بذلك الأسلوب. كنتُ من شدة

١ – نسبة إلى المذهب الدادائي أو الداداتية: وهو يتميَّز بالتأكيد على حرية الشكل تخلُّصاً من القيود التقليدية.

٢ – نسبة إلى المذهب السريالي، أو الفة قواقعي: ويهدف إلى التعبير عن نشاطات العقل الباطن بصورٍ يعوزها النظام أو الترابط.

صفاء الذهن بحيث قالوا إنني مخبول. وصفتُ العالم الجديد - ولسوء الحظ في وقتٍ مبكّر قليلاً لأنه لم يكن قد وُجِدَ بعد ولم أتمكّن من إقناع أحد بوجوده. كان عالماً مبيضيّاً، لا يزال مُخبّئاً في أنابيب فالوب. وطبعاً لم يكن هناك شيء واضح المعالم: بل لم يكن يُرى إلا أثر واهٍ للعمود الفقري، وطبعاً لا أذرع ولا سيقان، لا شعر، لا أظافر، لا أسنان. كان الجنس هو آخر ما يحلم به، عالم من الأزمان Chronos وذرّيته البويضية. كان عالم الذرّة iota، وكل ذرة أساسية لا غِنى عنها، منطقيّة بشكلٍ مُخيف، وعصيّة تماماً على التنبّؤ. لم يكن هناك ما يُسمّى بالشيء، لأنَّ مفهوم " الشيء " كان مفقوداً.

قلتُ إنَّ ما كنتُ أشرحه هو عالم جديد، ولكن وكالعالم الجديد الذي اكتشفه كولومبوس اتَّضحَ أنه أقدم العوالم التي عرفناها قاطبة. رأيتُ تحت الملامح الخارجية للجلد والعظم العالمَ الذي لا يمكن تدميره وطالما حَمَلَه الإنسان داخله، ولم يكن قديماً ولا جديداً في الواقع، بل العالم الحقيقي الأبديّ المتغيِّر من لحظةٍ إلى لحظة. كان كل ما أنظر إليه هو لوحٌ ممسوح ولم توجد أي طبقة من الكتابة فيه من شدّة الغرابة بحيث يعصى عليّ إزالتها. وبعد أنْ يُغادرني رفاقي في المساء أجلسُ لأكتب إلى أصدقائي سكان الأدغال الأستراليين أو إلى بنّائي المتاريس في وادي المسيسيبي أو إلى قوم الإيغورت في الفيليبين. وطبعاً كان ينبغي أنْ أكتب باللغة الإنكليزية، لأنها اللغة الوحيدة التي أجيدها، ولكنْ بين لغتي والشفرة البرقية التي يستعملها أصدقائي المُقرَّبون كان هناك عالمٌ من الفرق. كان في إمكان أي رجل بدائي أنْ يفهمني، أو أي رجل من العصور القديمة إلا أولئك الذين أحاطوا بي، وبمعنى آخر، قارة كاملة من

مائة مليون نسمة، فشلوا في فهم لغتي. ولكي أكتبَ لهم بلغة مفهومة كنتُ سأضطر أولاً إلى قتل شيء ما، وثانياً، إلى أنْ أعتقل الزمن. كنتُ قد أدركتُ لتوي أنَّ الحياة لا يمكنُ أنْ تزول وأنه لا وجود لما يُسمّى بالزمن، بل هناك فقط الحاضر. هل توقّعوا مني أنْ أنكرَ حقيقةً استغرقت مني حياتي كلها لأحظى منها بقبس؟ هذا ما توقّعوه حتماً. الشيء الوحيد الذي لم يرغبوا في سماعه هو أنَّ الحياةَ لا يمكن تدميرها. ألمْ يقُمْ عالمهم الجديد النفيس على تدمير البرادة، على الاغتصاب، والسلب، والتعذيب، والتخريب؟ كلا، القارتان انتُهكتا، وكلاهما جُرِّدتا وسُلبتا من كل ما هو نفيس - من الأشياء. لا يبدو لي أنَّ هناك مهانة أفدح من التي تلقّاها مونتيزوما[1]، ولا سلالة أزيلَتْ بوحشية أكبر من سلالة الهنود الحمر، ولم تُغتَصَب أرض بطريقة شنيعة ودموية كما اغتُصِبَتْ كاليفورنيا من قِبَل الباحثين عن الذهب. إنني أحمرُّ خجلاً عند التفكير في أصلنا - في أيدينا المُشبّعة بالدم والجريمة. لا مجال للتقليل من هَول ذلك القتل والنهب، هذا ما اكتشفته أثناء ترحالي في طول البلاد وعرضها. كل رجل حتى أقرب الأصدقاء، الكلّ سفّاح في داخله. وفي الغالب لا ضرورة لشهر مسدس أو رمي أنشوطة أو ميسم حديدي - فقد اكتشفوا سُبُلاً أكثر ذكاءً وشيطانيةً لتعذيب وقتل إخوانهم. كان الأسى الأشدُ إيلاماً بالنسبة إليّ هو أنْ تُعدَم الكلمة قبل أنْ تخرج من فمي. لقد تعلّمتُ، من التجربة المريرة، أنْ أمسكَ

---

١ - مونتيزوما الثاني (١٤٨٠ - ١٥٢٠) : إمبراطور شعب الأزتك ما بين (١٥٠٢ - ١٥٢٠) . أسره كورتيث عام ١٥١٩ أثناء الغزو الأسباني وأُخِذَ كرهينة في مكسيكو سيتي (كان اسمها تينوتشيتيتلان) . قتله أفراد رعيته .

لساني، تعلّمتُ أنْ أجلسَ صامتاً، بل وأبتسم، حين يكون فمي مُزبِداً في الحقيقة. تعلّمتُ أنْ أصافحَ وأقول كيف حالك لكل الشياطين ذوي النظرات الملائكية الذين كانوا ينتظرونني فقط لكي أجلسَ ويمتصوا دمي.

كيف أمكنني إذن، وأنا جالس في الصالة على مقعدي ما قبل التاريخي، أنْ أستخدمَ تلك اللغة المُرمَّزة عن الاغتصاب والجريمة؟ كنتُ وحيداً وسط ذلك العنف الخاصّ بنصف الكرة الأرضية، لكنني لم أكن وحيداً فيما يخص الجنس البشري. كنتُ أمر بطاقةٍ لا يمكنُ تحريرها إلا لخدمة الموت والعقم. لم أقدر على البدء بتصريحٍ كامل - وإلا لانتهى بي الأمر إلى ارتداء قميص المجانين أو الجلوس على الكرسي الكهربائي. كنتُ أشبه برجلٍ طال احتجازه في زنزانة - وكان عليّ أنْ أتلمَّس طريقي ببطءٍ واضطراب، وإلا تعثَّرتُ ووُطئتُ. كان عليّ أنْ أُنمّي بشرةً جديدة قد تحميني من النور المتوهِّج في السماء.

العالم المبيضيّ هو نِتاج إيقاع حياة. فلحظة يولَدُ طفلٌ يغدو جزءاً من عالمٍ لا يوجد فيه فقط إيقاع الحياة بل وإيقاع الموت. إنَّ شهوة الحياة العارمة، الحياة بأي ثمن، ليست نتيجة إيقاع الحياة فينا، بل إيقاع الموت. وليس فقط لا حاجة إلى البقاء أحياء بأي ثمن، بل، وإذا كانت الحياة غير مرغوبة، هو أمر خاطئ أساساً. إنَّ إصرار المرء على الحياة، بدافع من رغبته العمياء في قهر الموت، هو بحدّ ذاته وسيلة لبذر الموت. وكل مَنْ لم يقبل الحياة قبولاً تاماً، مَنْ لا يزيد الحياة، إنما يُساعد على ملء العالم بالموت. إنَّ القيام بأرقّ الإيماءات باليد يمكن أنْ ينقل أرقى أحاسيس الحياة، فالكلمة المنطوقة بتمامها يمكنها أنْ تهِب الحياة. الحيوية بحدّ ذاتها لا تعني شيئاً : هي في الغالب دلالة على الموت. بضغطٍ

خارجي بسيط، بقوة الأشياء المُحيطة والقدوة، بالمناخ نفسه الذي تولّده الحيوية، يمكن للمرء أنْ يُصبح جزءاً من آلة للموت جبّارة، كأميركا، مثلاً. ماذا يعرف مولّدٌ عن الحياة، والسلام، والواقع؟ ماذا يعرف أي مولّد أميركي فرد عن الحِكمة والطاقة، عن الحياة الوافرة الأبدية التي يملكها شحّاذ رث جالس تحت شجرة يتأمّل؟ بل ما ***الطاقة؟ ما الحياة؟*** ليس على المرء إلا أنْ يقرأ الهذر الأبله في مُقرراتنا المدرسية العلمية والفلسفية ليُدرك مدى عبث حِكمة هؤلاء الأميركيين الفعالين. اسمع، لقد جعلوني في حالة نشاط مستمر، هؤلاء الشياطين المجانين المملوئين بقوة الأحصنة، ولكي أوقف إيقاعهم المجنون، إيقاع موتهم، كان عليّ أنْ ألجأ إلى طول الموجه الذي عمل، وإلى أنْ وجدتُ المؤازرة الصحيحة في أعماقي، على الأقلّ على إخماد الإيقاع الذي أثاروه. وطبعاً لم أكنْ بحاجة لهذا المقعد الغريب، الثقيل، الآتي من قَبل الطوفان الذي وضَعتُه في الصالون، وبالتأكيد لم أحتجْ إلى اثني عشر كرسي فارغ لأصفّهم في نصف دائرة، احتجتُ فقط إلى مجال واسع للحركة لأكتب فيه وكرسي ثالث عشر ليُخرجني من دائرة البروج التي كانوا يستخدمونها، وليضعني في سماء ما وراء السماء. ولكن حين تكاد تدفع رجلاً إلى حافة الجنون ويجد مع ذلك، وسط دهشته، أنه لا يزال يملك بعضَ المقاومة، بعضاً من قِواه، فسوف نجد رجلاً كهذا يتصرَّف تماماً مثل مخلوق بدائي. ورجل مثله ليس فقط جديراً بأنْ يكون عنيداً صلباً، بل ومتشائماً، ومؤمناً بالسحر ويمارسه؛ رجلٌ كهذا يتجاوز الدين - بل إنَّ تديُّنه هو ما يعاني منه؛ رجلٌ كهذا يُصبح مهووساً أحادياً، ينكبّ على عملِ شيءٍ واحد ووحيد هو أنْ يُحطِّم التعويذة الشريرة التي وُضِعَتْ

عليـه؛ رجلٌ كـهـذا يعلو على رمي القنابل، وإحـداث ثورة؛ إنه يـريد أنْ يوقف التـفـاعُلْ، الخـامـد منه والنشطْ؛ هذا الرجل، من بين كل رجـال الأَرض، يريد أنْ يـكون العـمل مـظهـراً للحيـاة؛ وإذا مـا بدأ، وقـد أدركَ حاجته المريعة، بالانكفاء، وأضحى انعزالياً، يُتمتمُ ويتـأفف، ويُثبتْ عدم صـلاحيـتـه المطلَقَـة لكسب عـيشـه، فـاعلم أنَّ هذا الرجل قـد وجـدَ طريق عـودته إلى الرحم ونبع الحياة وأنه في الغد، وبدل أنْ يُصبح ذلك الشيء السـخيف المُثير للاشمئزاز الذي جعلتَ منه، سـوف يستمر في سيره على دربه الخاص وسوف تعجز قِوى العالم جمعاء عن الوقوف في وجهه.

ومن الصفر التافه الذي يتّصل بواسطته من مقعده ما قبل التاريخي مع رجال العالَم العجائز تنشأ لغةٌ تخترقُ لغة الموت اليومية كالاتّصال اللاسلكي وسط العاصفة. لم يعُدْ في طول الموجة هذا من السحِر أكثر مما في الرحم. الناسُ وحيدون ولا اتّصال قائم بينهم لأنَّ كل مختـرعـاتهم لا تتكلّم إلا عن الموت. الموت هو الآليّـة التي تحكمُ عـالم النشـاط. الموت صامت، لأنه بلا فم. الموت لم يُعبِّر يوماً عن أي شيء. والموت رائعُ أيضاً - ***بعد الحياة***. إنَّ رجلاً مثلي فقط فتحَ فـمه وتكلَّم، واحداً مثلي قال نعم، نعم، نعم، ونعـم ! يمكنه أنْ يفتح ذراعيه واسعاً للموت بلا خوف. الموت كـجائزة، نعم ! الموت كنتيـجـة لإنجاز، نعم ! الموت كـتـاجٍ وترس، نعم ! ولكن ليس مـوتاً من الجـذور، يعـزلُ النـاس، يبثُّ فـيـهم المرارة والخـوف والوحدة، يمنحهم طاقةً لا مُجدية، يملؤهم بإرادة لا يمكنها إلا أنْ تقول لا ! إنَّ أول كلمة يكتبـها أي إنسـان حين يجد نفسـه، إيقاعـه، وهو إيقـاع الحياة، هي نعم ! وكل ما يكتبه بعد ذلك هو نعم، نعم، نعم - نعم بألف مليـون طريقة. لا مولّد، مهـما عَظُمَ - ولا حتى مولّد بقدرة مائة مليون روح - ميتة - يمكنه أنْ يُجابه رجلاً يقول نعم !

كـانت الحـرب دائـرة والناس يَذبَحون، مليـوناً، مليـونين، خـمسـة ملايين، عشرة ملايين، عـشرين مليـوناً، وأخيراً مائة مليون، وثم بليـون، الكلّ، رجل، امـرأة، وطفل، وحتى آخر واحد. ويصـرخون " **لا ! لا ! لن يمرّوا !** "، ومع ذلك مـرَّ الجـميع، الكلّ مـرّوا بحـرّية، سـواء صرخـوا أم لم يصرخوا. ووسط تظاهرة الانتـصار تلك ذات الطبـيعـة التبـادلية الروحـية المُدمِّرة جلستُ وقـدماي مُـثبّـتتـان على طاولة الكـتابة الكبـيـرة أحـاولُ أنْ أتواصل مع زيوس والد أطلانتس وذريتـه الضـائعـة، جـاهلاً حـقـيـقـة أنَّ أبولينير كـان يموت في اليوم السابق لإعلان الهدنة في مستشفى عسكري، جاهلاً أنه في " كتابته الجديدة " خطَّ هذه الأبيات التي لا تُمحى :

" *تجمَّل بالصبر وأنتَ تقارننا*
بمَنْ مثّلوا الكمال في النظام .
نحن الذين نفتّشُ عن المغامرة في كل مكان ،
لسنا أعداءك .
سنهبُكَ ممالك شاسعة غريبة
ينتظرُ فيها اللغز اليانع مَنْ يجنيه "

جاهلاً أنه في هذه القصيدة بالذات كتبَ يقول أيضاً :

" *أشفقْ علينا نحن الذين دائماً نقاتل على جبهات*
المستقبل المترامي بلا حدود ،
أشفق علينا لأخطائنا ، أشفق علينا لآثامنا "

كنتُ جاهلاً أنَّ هناك رجالاً عـاشـوا في تلك الفتـرة وعُـرِفـوا بأسـمـاء غـريبة مثل بليـز سندرار، جـاك فاش، لوي أراغـون، ترسـتان تزارا، رينيـه

كريفيه، هنري دو مونترلان، أندريه بريتون، ماكس إرنست، جورج كروتشه؛ جاهلاً حقيقة أنه في الثامن عشر من تموز، ١٩١٦، في سال فاغ، في زيوريخ، أُعلِنَ أول بيان دادائي - " بيان من المسيو انتيبرين " - وإنه في ذلك البيان الوثائقي الغريب أَقرَّ بأنَّ " دادا هي حياةٌ بلا خفّ... هي ضرورة مُلحّة بلا انضباط ولا أخلاق ونحن نبصقُ على الإنسانية "؛ جاهلاً أنَّ بيان الدادائيين لعام ١٩١٨ حوى هذه الأسطر "أكتبُ بياناً ولا أريدُ شيئاً، ومع ذلك أقول أموراً يقينية، وأنا ضد البيانات المبدئية، وضد المبادئ أيضاً... أكتبُ هذا البيان لأبيِّنَ أنَّ المرء يمكنُ أنْ يُحقِّق أفعالاً متناقضة معاً، بنَفَسٍ واحد نقيّ، أنا ضد الفعل، لصالح التناقض المستمر، والتوكيد أيضاً، لستُ مع ولا ضد ولا أشرحُ لأنني أكره الحسّ السليم... هناك أدبٌ لا يصلُ إلى الجمهور النهِم. إنَّ عملَ المبدعين ينشأ من حاجةٍ حقيقيةٍ من جانب المؤلف، ولأجله. هو وعي ذات مُطلَقة عنده تتلاشى النجوم... وكل صفحة يجب أنْ تتفجَّر، إما بالرصين والجادّ بعمق، بالدوامة، الدوار، الجديد، الأبدي، بالخداع الشامل، بحماس للمبادئ أو بالأسلوب الطِباعي. من ناحية هو عالم مُترنِّح هارب، وثيق الصِلة برنين أجراس من المجموعة الجحيمية، ومن ناحية أخرى هو : " ***مخلوقات جديدة...*** "

مرّ اثنان وثلاثون عاماً وأنا أقول نعم ! نعم، مسيو انتيبرين ! نعم، مسيو تريستان بستانوني تزارا ! نعم، مسيو ماكس إرنست غيبور ! نعم، مسيو رينيه كريفيه، الآن وبعد أنْ مُتُّم انتحاراً، نعم، العالم مجنون، كنتم على حق. نعم، يا مسيو بليز سندرار كنتَ مُحِقاً في القتل. أكان يوم إعلان الهدنة يوم أخرجتَ كتابك الصغير - J'ai tue ؟

نعم، " تابعوا يا أولاد، الإنسانية... " نعم، جاك فاش مُحقّ تماماً - "الفن يجب أنْ يكون شيئاً مُضحكاً ومملاً قليلاً " نعم، يا عزيزي الميت فاش، كم كنتَ مُحقاً وكم هو مضحك وممل ومؤثّر ورقيق وحقيقي قولك : " جوهر الرموز أن تكون رمزياً ". قُلها ثانية، من عالمك الآخر ! هل لديك مكبر صوت هناك في الأعالي؟ هل وجدتَ الأذرع والسيقان التي نُسِفَتْ أثناء الاضطراب؟ هل يمكنك أنْ تلصقها معاً من جديد؟ هل تذكُر اجتماع نانت عام ١٩١٦ مع أندريه بريتون؟ هل تحتفلون معاً بذكرى مولد الهستريا ؟ هل أخبركَ بريتون إنه لم يكن هناك إلا الرائع ولا شيء غير الرائع وأنَّ الرائع دائماً رائع - أليس رائعاً سماع هذا من جديد، على الرغم من أنَّ أذنيك ما عادتا تسمعان؟ أود أنْ أضيف هنا، قبل الذهاب، صورة شخصية صغيرة لك رسمها إميل بوفييه لصالح أصدقائي في بروكلن الذين ربما لم يتعرّفوا عليّ آنئذٍ لكنهم سيعرفونني الآن، وأنا متأكّد...

"... لم يكن مجنوناً تماماً، ويمكنه أنْ يُبرِّر تصرّفه عند الضرورة. ومع ذلك، فأفعاله هي بنفس إرباك أسوأ تصرّفات جاري[1] الغريبة. فمثلاً، ما إنْ خرجَ من المستشفى حتى راح يعمل حمالاً في السفن، وهكذا قضى فترات بعد الظهر يفرغ الفحم في الموانئ الموجودة على طول نهر اللوار. ومن ناحيةٍ أخرى، في المساء يقوم بجولاته على المقاهي ودور السينما، يلبس على آخر طراز وبذلته ذات ألوان وأشكال متنوعة. وزيادة على ذلك، كان يتبختر أثناء الحرب تارة بزيّ ملازم أول من

١ - ألفريد جاري (١٨٧٣ - ١٩٠٧) : شاعر وكاتب مسرحي فرنسي . هو الذي أطلقَ مسرح العبَث بمسرحيته الشهيرة " أوبو ملكاً " - المترجم

فـرسان الهـوسـار، وتارة بزيّ ضـابط إنكليـزي، في الطيـران أو في قـسم الجراحة. في الحيـاة المدنيـة كان حراً تماماً وفي نعـمة، لا يفكّر في تقديم بريتـون تحت اسم أندريه سـالمون، في حين خلَعَ على نفسـه، ولكن بلا أي خيلاء، أروع الألقاب وانتـحلَ المغامرات، لم يقُلْ مرة أسعدتَ مساءً ولا إلى اللقاء، لم تصله أي رسائل، ما عدا القادمة من أمه، حين كان يطلب منها نقوداً، ولم يعُدْ يتعرَّف على أفضل أصدقائه من يومٍ إلى آخر... "

هل تتـعـرّفـون عليّ، يا أولاد؟ إنني مـجـرَّد صـبي من بروكلن يُقـيم اتّصالاً مع الأمهات حُمر الشعور من منطقة زوني. إنه يسـتعـدّ، وقدماه على المقـعد، ليـكتب " أعـمـالاً قـوية، أعـمـالاً تبـقى غـيـر مفـهـومـة إلى الأبد"، كمـا كـان رفـاقي الأعـزّاء يعدون. هذه هي " الأعـمـال القـوية " - تُرى هل تتـعـرّفـون عليـهـا إذا رأيتـمـوها؟ هل تعـرفـون أنَّ مـن بين الملايين الذين قُتلوا لم تكن هناك ميتـة واحدة ضرورية لتـقديم " العمل القوي "؟ ***مخلوقات جديدة، نعم!*** إننا لا نزال بحاجة إلى مخلوقات جديدة. يمكننا الاسـتـغنـاء عن الـهـاتـف، والسـيـارة وطنّاني الطبـقـة الراقـيـة - لكننا لا نستطيع الاستغناء عن مخلوقات جديدة. إذا عـادت قارة الأطلنتيس إلى الظهور من تحت الماء، إذا بقيَ أبو الهول والأهرامات لغزاً أبدياً، فلأنه لم تعد تولد مـخلوقات جديدة. أوقفـوا الآلات قليلاً! وعـودوا بسرعـة البرق، عودوا كـالبرق إلى عـام ١٩١٤، إلى القيـصر الجالس على حصـانه. دعوه جالساً هكذا لحظة بذراعه الواهنة المتـشبّثة باللجام. انظروا إلى شاربه! انظروا إلى كبريائه وعجرفته المتغطرستين! انظروا إلى مظهره المُستهلَك المتمثّل في انضباطه الصارم، الكلّ مستـعدّ لتنفيذ الأمر، ليُقتَل، لتُنتَزَع أحشاؤه، ليُحـرَق بالجيـر الحي. توقفـوا قليـلاً الآن، وانظروا إلى الجهـة

المقابلة، إلى المُدافعين عن حضارتنا العظيمة الجليلة، الرجال الذين سيُحاربون حتى النهاية. يُغيّرون لباسهم الرسمي، يُغيّرون الأحصنة، يُغيّرون الأعلام، يُغيّرون التضاريس. يا الله، هل ذلك هو القيصر من أرى على حصان أبيض؟ هل أولئك هم قبائل الهَنْ الرهيبون؟ وأين مدفع بيغ برثا؟ آه، فهمتُ - ظننتُ أنه يُشير إلى كنيسة نوتردام؟ إنَّ الإنسانية، يا أبنائي، الإنسانية تمشي دائماً في الطليعة... ماذا عن الأعمال القوية التي كنا نتكلّم عنها؟ أين الأعمال القوية؟ ادعُ لاجتماع الاتّحاد الأوروبي وابعثْ مُراسلاً سريع الانطلاق - ليس أعرجَ أو ثمانينياً، بل شاب يافع! اطلبْ منه أنْ يعثُر على العمل العظيم ويُعيده إلى هنا. إننا بحاجة إليه. لدينا متحف جديد جداً يستعد لحفظه - وأوراق سيلوفان ونظام ديوي العشري لتصنيفه. كل ما تحتاج إليه هو اسم المؤلف. حتى لو لم يكن له اسم، حتى لو كان عملاً لمجهول، فلن نتردَّد. حتى لو كان فيه قليل من غاز الخردل لا يهم. أعده حياً أو ميتاً - هناك مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار مُخصّص كجائزة لِمَنْ يحضره.

وإذا قالوا لكم إنَّ تلك الأشياء كان يجب أنْ تحدث، وإنها ما كان يمكن أنْ تحدث بطريقة أخرى، وإنَّ فرنسا بذلت أفضل ما لديها وألمانيا بذلت الأفضل وذلك البلد الصغير ليبريا والصغيرة الإكوادور وجميع الباقين من الحلفاء أيضاً بذلوا أفضل جهودهم، وإنه منذ بداية الحرب والجميع يبذلون أفضل ما لديهم لتسوية الأمور أو النسيان، قولوا لهم إنَّ أفضل جهودهم لا تكفي، وإننا لا نريد أنْ نسمع المزيد عن هذا أفضل الصفقات السيئة، ولا نؤمن بالصفقات الجيدة منها والرديئة، ولا في النُصُب التذكارية الحربية. لا نريد أنْ نسمع عن منطق الأحداث - أو عن أي نوع

من المنطق. قــال مــونتــرلان: "Je ne parls pas logic, Je parle generosite"، سمعتموها جيداً، بما أنها قيلَتْ بالفرنسية. سأعيدها عليكم بلغة الملكة نفسها، " إنني لا أتكلّم منطقياً، إنني أتكلّم بسماحة " هذه لغة رديئة، كما تتحدث بها الملكة نفسها، لكنها واضحة. سماحة، هل تسمعون؟ أنتم لم تمارسوها أبداً، ولا واحد منكم، لا في السلم ولا في الحرب. ولا تعرفون معناها. تظنون أنَّ إرسال ممرضات الصليب الأحمر إلى الجبهة أو جيش الخلاص هو سماحة، تعتقدون أنَّ معاشاً تقاعدياً وكرسياً بدولاب هو سماحة، تعتقدون أنكم إذا أعدتم إلى رجل عمله القديم فهذا سماحة. أنتم لا تعرفون ما هي الحرب اللعينة، يا أولاد الحرام ! أنْ يكون المرء سَمْحاً هو أنْ يقول نعم حتى قبل أنْ يفتح فمه. ولكي تقول نعم عليك أولاً أنْ تكون سريالياً أو دادائياً، لأنكَ عرفت معنى كلمة لا. بل ويمكنك أنْ تقول نعم ولا في آنٍ واحد، شرطَ أنْ تقوم بأكثر مما يُتوقَّع منك. كُنْ حمّالاً في النهار ورجلاً شديد التأنُّق في الليل. البِسْ أيَّ زيّ طالما أنه ليس لك. حين تكتب إلى أمك اطلب منها أنْ تُنزلْ لكَ مبلغاً من المال من أنفها لتشتري به خرقة نظيفة تمسح بها دبرك. لا تنزعج إذا رأيت جاركَ يركض خلف زوجته شاهراً سكيناً : فلديه في الغالب سبب للركض خلفها، وإذا قتلَها فتأكّد أنه سيكون وراضياً لأنه يعرف لماذا فعل هذا. إنْ كنتَ تحاول أنْ تطوِّر عقلك، فكُفّ عن هذا ! فليس هناك مجال لتطوير العقل. انظر في قلبك وحوصلتك - فالعقل مركزه القلب.

آه نعم، لو كنتُ أعرفُ عندئذٍ أنَّ لأولئك العصافير وجوداً - أعني سندرار، وفاش، وغروتز، وإرنست وأبولينير - لو عرفتُ ذلك حينئذٍ، لو عرفتُ أنهم كانوا يفكرون بما أفكر فيه بالضبط بأسلوبهم الخاص،

لانفجرت. نعم، أعتقد أني كنتُ تناثرتُ كقنبلة. لكنني كنتُ جاهلاً، جاهلاً أنه قبل خمسين عاماً كان هناك يهوديٌ مجنون في جنوب أميركا أبتكرَ عبارات رائعة مذهلة مثل " الشكّ بطّة لها شفتا خمر الفرموث " أو " رأيتُ تينة تأكل منجنيقاً " - هذا في الوقتْ الذي قال فيه فرنسي، ولم يزل صبياً[1] : " ابحثْ عن أزهارٍ هي كراسٍ "... " جوعي هو عقص الهواء الأسود "... " قلبه، وكهرمانه، وجرأته ". وربما في الوقت نفسه تقريباً، بينما كان جاري Jarry يتحدَّث عن " أكل صوت العث "، وأبولينير يُردِّد بهده " قُرب جنتلمن يبتلع نفسه "، وبريتون يُغمغمُ بصوتٍ خافت " دواسات الليل تتحرَّك بلا انقطاع "، وربما كان " في الهواء الجميل والأسود " الذي وجده اليهودي المتوحِّد تحت الصليب الجنوبي رجل، متوحّد بدوره ومنفي من أصلٍ أسباني، يستعد لتدوين هذه الكلمات الجديرة بالحفظ على الورق : " أعملُ، جاهداً، لأواسي نفسي في منفاي، بعيداً عن الأزل، عن الأرض (destierro) التي أنا مولع بالإشارة إليه بأنه انتزاعي من الجنة... والآن أرى أنَّ أفضل طريقة لكتابة هذه الرواية هي بالقول كيف يجب أنْ تُكتَب. إنها رواية الرواية، خلقُ الخلق، إله الإله، Deus de deo". لو كنتُ أعلم أنه سيضيف هذا، ما سيلي، لانفجرتُ حقاً كقنبلة... " حين يغدو المرء مجنوناً يُفهَمُ أنه فقدَ عقله. العقل، وليس الحقيقة، إذ هناك مجانين يقولون الحقائق بينما آخرون يلزمون الصمت... " عندما أتكلّم عن هذه الأشياء، عن الحرب وموتى الحرب، لا أستطيع منع نفسي عن ذكرِ أنه بعد ذلك بعشرين

---

١ - المقصود هنا الشاعر الفرنسي آرتور رامبو ، الذي ألّفَ معظم أشعاره قبل أنْ يبلغ التاسعة عشرة من عمره .

عاماً مررتُ على تلك العبارة التي كتبها فرنسي. أوه يا أعظم المعجزات Il faut le dire, il ya des Cadavers que je ne respect qu'a moitie. نعم، نعم، ونعم. أوه، فلنقُمْ بأفعالٍ متهورة - لمجرد الاستمتاع ! فلنفعل شيئاً حيوياً ورائعاً، حتى وإنْ كان مُدمِّراً ! قال الإسكافي المجنون : " كل الأشياء تنشأ عن اللغز العظيم، وتتقدَّم من مرتبةٍ إلى أخرى، وما يتطوَّر داخل مرتبته، لا يعود عليه بالبغضاء "

وفي كل مكان في كل زمان يعلن العالم المبيضي ذاته عن نفسه. وأيضاً، إلى جانب هذه التصاريح، هذه النبوءات، تقفُ كشوف الأمراض النسائية، توازنِها وتعاصرها أقطاب طوطمية جديدة، تابوات جديدة، رقصات حرب جديدة. وبينما أخوة الإنسان، والشعراء، وحفّارو المستقبل ينفثون أسطرهم السحرية في الهواء الحالك السواد الفائق الجمال، كان رجال آخرون، أيها اللغز العميق المُحيِّر، يقولون في الوقت نفسه " هل لك أنْ تتفضَّل وتأتي لتستلم عملاً في مصنع الذخيرة. نعدك بأعلى الأجور، وبأكثر الظروف صحّة ونظافة. والعمل سهل جداً حتى يمكن لطفل أنْ يقوم به " وإذا كان لديك أخت، أو زوجة، أو أم، أو عمّة، وما دامت قادرة على استخدام يديها، وتستطيع أنْ تُثبت أنه ليس لديها عادات سيئة، فإن كنتَ خجلاً من تلويث يديك فسوف يشرحون لك وبمنتهى اللطف والذكاء كيف تعمل هذه الآلات الدقيقة، وماذا يفعلون حين تنفجر، ولماذا لا يجب أنْ تفرط بنفايتك الخاصّة لأنه... et ipso facto e pluribus unum وما أثَّرَ فيَّ، وأنا في تجوالي بحثاً عن عمل، ليس أنهم كانوا يجعلونني أتقيّأ كل يوم (على افتراض أني أكون محظوظاً بحيث أضعُ شيئاً في جوفي) ولكن لأنهم دائماً يسألون إنْ كانت تصرفاتك

لائقة، وإنْ كنتَ موثوقاً، ورصيناً، ومجتهداً، وإنْ عملتَ في أي شيء قبلاً وكان الجواب نفياً فلماذا. حتى النفايات، التي عملت في جمعها للبلدية، كانت عزيزة عليهم، القَتَلة. وقفتُ وأنا غارق حتى ركبتيّ في الروث، أسفل السافلين، حمّالاً حقيراً، منبوذاً، ولا أزال جزءاً من صَخَب الموت. حاولتُ أنْ أقرأ " *الجحيم* "[١] ليلاً لكنّه كان مكتوباً بالإنكليزية والإنكليزية لغةٌ لا تصلح لعملٍ كاثوليكي. "إنَّ كل ما يدخل بذاته إلى ذاتيته، أي إلى الـ !Lubet ..."! lubet لو كانت لدي كلمة كتلك لأسحر بها، فكم كنتُ سأقوم بجمع النفاية بسلام ! أيُ جمال، حين يكون دانتي، في الليل، بعيد المنال واليدان تفوحان بالروث والقذارة، لو تضمّ هذه الكلمة بين أعطافك وهي تعني بالألمانية " شبق " وباللاتينية lubitum أو الكلمة المقدسة beneplacitum. وقفتُ ذات يوم غارقاً في القذارة حتى ركبتيّ وقلتُ ما روى أنَّ المايستر إيكرهارت قاله منذ زمن بعيد " إنني حقاً بحاجة إلى الله، لكنَّ الله أيضاً في حاجةٍ إليّ " كان هناك عمل في انتظاري في المسلخ؛ عمل صغير جميل في تصنيف الأمعاء، لكنني لم أستطع توفير أجرة السفر إلى شيكاغو. وبقيت في بروكلن، قلعتي المُختصّة بالأمعاء، ورحتُ أدور وأدور على الأرض المتاهة. بقيتُ في المنزل أبحث عن " الحويصلة الجرثومية "، " قلعة التنين في قاع البحر "، " القيثارة السماوية "، " حقل الإنش المربّع "، " بيت القَدَم المربّع "، "الممر المُظلم "، فضاء السماء السابعة ". بقيتُ حبيس سجن فوركولوس، إله الباب، وكارديا، إله المفصل، وليمنتيوس، إله العتبة. لم أتكلّم إلا

١ - " الجحيم " : لدانتي الليجري .

مع أخواتهم، الإلاهات الثلاث المدعوات : الخوف، والشحوب، والحمّى.
لم أرَ أي " ترف أسيوي " كالذي رآه القديس أوغسطين، أو هكذا خُيِّلَ إليه. ولم أرَ " لتوأم الملتصق بحيث كان الثاني يمسكُ الأول من كعب قدمه "، بل رأيتُ شارعاً اسمه جادّة الآس، ممتداً من بورو هول إلى شارع فريش بَند، وفي هذا الشارع لم يسبق لملاك أنْ مرَّ (وإلاّ تفتَّتَ)، في هذا الشارع لم يسبق لمعجزة أنْ عَبَرَتْ، ولا شاعر، ولا أثر للعبقرية الإنسانية، ولم تنمُ أي زهرة فيه، ولا أشرقَتْ عليه الشمس بشكلٍ كافٍ، ولا غَسَلَه المطر. أُقدِّمُ إليكَ مقابل النسخة الأصليّة لد " الجحيم " والتي كان عليّ أنْ أُرجئ قراءتها عشرين عاماً، جادة الآس، وهي أحد دروب الخيل التي لا حصرَ لها، المُبتليّة بوحوشٍ حديدية تؤدي إلى قلب خواء أميركا. لو أنكَ رأيتَ فقط مانشستر أو شيكاغو أو ليفالو-بيريه أو غلاسغو أو هوبوكن أو كارناسي أو بيون فلنْ تكون قد شاهدت شيئاً من خواء التقدُّم الرائع والتنوير. عزيزي القارئ، يجب أنْ ترى جادة الآس قبل أن يُدركك الموت، ولو فقط لكي تعرف إلى أي مدى اخترقَ دانتي المستقبل ببصيرته. يجب أنْ تصدقني حين أقول إنه في هذا الشارع لن تجد لا في البيوت التي تُحدده، ولا في الحجارة التي ترصفه، أو الأبنية المتعالية التي تقطعه إلى نصفَين متطابقين، ولا في أي مخلوق يحمل اسماً ويعيش هناك، أو في أي حيوان أو عصفور أو حشرة مارة خلاله لتُقتَل أو تكون قُتلَتْ لتوّها أي أمل في وجود " للشبق " " للتصعيد " أو " للبغض ". إنه ليس شارع أحزان، فالحزن إنساني ويمكن رؤيته؛ إنه خواء محض، بل أشد خواءً من أكثر البراكين ركوداً، ومن الفراغ التام، ومن كلمة الله في فمِ كافر.

قلتُ إني لم أكنْ أعرف كلمة فرنسية واحدة حينئذ، وهذا صحيح، لكنني كنتُ على شفا الوقوع على اكتشافٍ عظيم، اكتشافٍ جدير بالتعويض عن خواء جادة الآس وكل القارة الأميركية. كنتُ قد وصلتُ لتوي إلى شاطئ المحيط الفرنسي العظيم المعروف باسم إيلي فور[1]، مُحيط لم يُبحِر فيه حتى الفرنسيون أنفسهم وقد أخطؤوا على ما يبدو فحسبوه بحراً داخلياً. وحتى بعد أنْ قرأته بلغة واهنة كالإنكليزية تمكّنت من فهم أنَّ هذا الرجل الذي وصفَ مجد الجنس البشري على مسؤوليته كان الأب زيوس رب أطلانتس، الذي طالما بحثتُ عنه. سمّيته مُحيطاً، غير أنه أيضاً سيمفونية عالمية. كان أول موسيقي قدّمه الفرنسيون، وكان مُصفّي ومُنظّماً، وشاذاً، بيتهوفن غاليّاً، فيزيائياً عظيماً في الروح، مانعاً عظيماً للصواعق. كان أيضاً زهرة عبّاد شمس تتوجّه شطر الشمس، دائماً يتشرَّب النور، دائماً يشعّ ويتَّقد بالحيوية. لم يكن متشائماً ولا متفائلاً إلا بقدر ما يمكن القول إنَّ المحيط خيِّر أو حقود. كان مؤمناً بالجنس البشري. وأضافَ مقدار ذراع إلى ذلك الجنس بأنْ أعادَ إليه سُموَّه، وقوَّته، وحاجته إلى الخلق. رأى كل شيء بوصفه خلقاً، بهجةً شمسيّة. ولم يُسجّله بطريقةٍ مُنظَّمة، بل موسيقية. كان لاَ مبالياً بحقيقة أنَّ للفرنسيين آذاناً من تنك - كان يوزّع ألحانه ليسمعها العالم كله في آنٍ واحد. وما أذهلني عندئذ، حين وصلتُ إلى فرنسا بعد ذلك ببضع سنوات، أنني لم أجد له نُصُباً تذكارياً، لا شوارع تحمل اسمه. والأسوأ من ذلك أنني خلال ثماني سنوات لم أسمع مرةً رجلاً فرنسياً يذكر اسمه. كان عليه أنْ يموت أولاً لكي يضعوه في بانثيون الآلهة الفرنسيين - وكم يبدو معاصروه المؤلّهون شديدي السَقَم في حضور

[1] - مؤرخ فرنسي : أهم أعماله "*تاريخ الفن*" ويقع في خمسة أجزاء .

شمسه الساطعة ! ولو لم يكن طبيباً، هكذا سُمِحَ له بكسب عيشه، فما الذي كان لن يحدث له ! ربما كانت الأيدي القادرة على قيادة شاحنات القمامة زادت يداً! الرجل الذي أعادَ الحياة إلى لوحات الجدارية الجصيّة المصرية بكل ألوانها الملتهبة، هذا الرجل كان في استطاعته أيضاً أنْ يموت جوعاً دون أن يهتمّ لأمره أحد. لكنه كان مُحيطاً وقد غاصَ النقّاد في ذلك المحيط، والمُحررون والناشرون والعامة أيضاً. وسوف يستغرق تجفيفه وتبخيره دهوراً لا نهاية لها. وسوف يحتاج الفرنسيون فترة مساوية ليكتسبوا أذناً موسيقية.

ولو لم يكن هناك موسيقى لذهبتُ إلى مستشفى المجانين مثل نيجنسكي[1] (في ذلك الوقت كانوا قد اكتشفوا للتو أنَّ نيجنسكي قد جُنّ) لقد وُجدَ وهو يهبُ نقوده للفقراء - وهي دائماً علامة سيئة ! كان رأسي مملوءاً بكنوزٍ بديعة، وذوقي حاداً وصعبَ الإرضاء، وعضلاتي في حالة ممتازة، وشهيتي قوية، ورياحي عاتية. لم يكن أمامي إلا أنْ أطوِّرَ نفسي. وكدتُ أقتربُ من الجنون بفعل التطورات التي أحدثتُها كل يوم. وحتى لو توفَّرَ لي عملُ لأشغله لما استطعتُ قبوله، لأنَّ ما احتجتُ إليه لم يكن عملاً بل حياة أكثر وفرة. لم أستطع أنْ أضيِّع الوقت بأنْ أكون مُعلّماً، أو محامياً، أو فيزيائياً، أو سياسياً أو أي شيء يُقدّمه المجتمع. كان من الأسهلْ قبول أعمال وضيعة لأنها تترك ذهني حراً. وبعد أنْ طُردتُ من عمل سيارات النفاية أذكُرُ أني رافقتُ شخصاً أنجليكانياً وثقَ بي ثقة كبيرة. كنت له بمثابة مدخل، وجابي وسكرتير خاص. وقد أعادَ إلى انتباهي عالم الفلسفة الهندية كله. وحين أكون حراً في الأمسيات

---

١ - فلاديمير نيجنسكي (١٨٩٢- ١٩٥٠) : راقص باليه روسي مُبدع . أصيب بالجنون . له مذكرات .

أجتمعُ بأصدقائي في منزل إد بوريس القاطن في الجزء الأرستقراطي من بروكلن. وكان إذ بوريس عازف بيانو غريب الأطوار لا يُحسن قراءة النوتة الموسيقية، ولديه صديق مُقرَّب اسمه جورج نيوملر وغالباً ما كان يعزفُ معه ألحاناً ثنائية. ومن الأشخاص الإثني عشر أو نحوهم الذين قابلتهم عند إد بوريس كان الجميع تقريباً يُحسنون العزف على البيانو. وفي ذلك الوقت كانت أعمارنا تتراوح بين الحادية والعشرين والخامسة والعشرين، ولم نكن نُحضِر أي امرأة ونادراً ما تطرقنا إلى موضوع النساء أثناء تلك الجلسات. كان هناك الكثير من البيرة لنشربها، والمنزل الكبير كله تحت تصرّفنا. فقد كانت اجتماعاتنا تنعقد في فصل الصيف، أثناء غياب أهله. وعلى الرغم من وجود عدد من البيوت التي أستطيع أنْ أتحدَّث عنها، فإني أذكر بيت إد بوريس لأنه كان يتميَّز بشيءٍ لم أعرفه في أي مكانٍ آخر في العالم. لم يشكّ إد بوريس ولا أيٍ من أصدقائه في نوعية الكتب التي أقرأها ولا في الأشياء التي شغلتْ ذهني. فحين أدخل أُقابَلُ بالترحيب الحماسي - كمُهرّج. وكان يُتوقَّع مني أنْ أبدأ سير الأمور. كان هناك أربع آلات بيانو موزَّعة في أرجاء المنزل الكبير ناهيك عن السيليستا، والأرغن، والقيثارات، وآلات المندولين، والكمان وما إليها. وكان إد بوريس مخبولاً، ودمثاً جداً، وعطوفاً وكريماً أيضاً. كانت الشطائر المُقدَّمة من أفضل الأنواع والبيرة وافرة، وإذا أردتَ قضاء الليل يمكنه أنْ يُدبّر لك خواناً جميلاً على ذوقك. وأثناء عبوري الشارع - الشارع الكبير، العريض، الناعس، المُرفّه، شارع من خارج العالم كله - أسمعُ أنغام البيانو الكائن في الصالون الكبير في الطابق الأول. النوافذ مفتوحة على مصاريعها وأصل

إلى مسافة أرى منها آل برغر أو كوني غريم متمددين على كرسييهما الكبيرين المريحين، أقدامهما موضوعة على حافة النافذة، ويحملان في أيديهما كأسين كبيرين من البيرة. وقد يكون جورج نيوملر جالساً عند آلة البيانو، يرتجل لحناً، قميصه ممزق والسيجار في فمه، وهم يتحدثون ويضحكون بينما جورج يعبث باحثاً عن افتتاحية. وحالما يعثر على اللحن الأساسي ينادي على إد ويجلس إد إلى جانبه، ويبدأ بدراسته بطريقته المفتقرة إلى البراعة، ثم يضرب فجأةً على المفاتيح مُبدّلاً تيت بتات. وأحياناً أثناء ولوجي من الباب يكون أحدهم يُحاول أنْ يقف على يديه في الغرفة المجاورة - ففي الطابق الأول كان هناك ثلاث غرف كبيرة ينفتح بعضها على بعض وإلى الخلف منها تقعُ حديقة، حديقة هائلة الحجم، مملوءة بالأزهار، وأشجار الفاكهة، وكروم العنب، والتماثيل والنوافير وكل شيء. أحياناً حين يزداد الحرّ ينقلون السيليستا أو الأرغن الصغير إلى الحديقة (مع برميل البيرة طبعا) ونتحلّق في الظلام نضحك ونغني - إلى أنْ يُجبرنا الجيران على السكوت. وأحياناً تنبعث الموسيقى في جميع أرجاء المنزل الكبير دفعة واحدة. وفي كل طابق منه. كان شيئاً جنونياً حقاً، مُسكِراً، ولو كان معنا نساء لأفسدنَ كل شيء. كان الأمر أشبه بمشاهدة مسابقة في القُدرة على التحمُّل - إد بوريس وجورج نيوملر على البيانو الكبير، كل منهما يحاول أنْ يهلك الآخر، يبدلان مكانيهما بلا توقف، يتشابكان بالأذرع وأحياناً يقعان كعودَين ضعيفين، وتارةً يستمران مثل أرغن فوليتزر. وهناك دائماً أمرٌ يدفعنا إلى الضحك طوال الوقت. لا أحد يسألك ماذا تفعل، وبماذا تفكِّر، الخ. لا أحد يسألك عن حجم القبعة التي تعتمرها ولا كم دفعَتْ فيها. إنه ترفيه

منذ الكلمة الأولى - والشطائر والمشروب موجودة في المنزل. وحين تبدأ الأمور، مع ثلاث آلات بيانو أو أربع دفعةً واحدة، وسيليستيا، وأرغن، وآلات مندولين، وقيثارات، وتجري البيرة في القاعات، وتمتلئ رفوف المدافئ بالشطائر والسيجار، ويهبُّ النسيم من الحديقة، ويتعرّى جورج نيوملر حتى وسطه وهو يُبدِّل الأنغام كجنّي، يكون هذا أفضل من أفضل عرضٍ مسرحي شاهدته ولا يُكلِّف سنتاً واحداً. وفي الحقيقة أثناء تكرار ارتداء الملابس وخلعها كنتُ أخرجُ دائماً بحفنة من الفراطة وبملء جيب من السيجار الجيد. ولم أكنْ أقابل أبداً أياً منهم بين تلك الزيارات - أراهم فقط في أمسيات أيام الاثنين طوال فصل الصيف، حين يفتحُ إد أبواب بيته.

حين كنتُ أقفُ في الحديقة أصغي إلى الضجيج كدتُ لا أصدِّق أنّني لا زلتُ في المدينة نفسها. ولو أني فتحتُ فمي وعرضتُ أحشائي لانتهى كل شيء. ولم يتوصَّل أي من أولئك المعتوهين إلى أي شيء، كما قد يعتقد العالم كله. كانوا شباناً طيبين، أطفالاً، أصحاباً، يحبّون الموسيقى وقضاء الوقت الممتع. يحبون هذا حباً جمّاً، حتى كنا نضطر أحياناً إلى استدعاء الإسعاف. كما حدثَ ليلة آل برغر وهو يُرينا إحدى حركاته البهلوانية. كان الجميع من شدة السعادة، والامتلاء بالموسيقى، والبهجة، بحيث استغرق الأمر منه ساعة لإقناعنا بأنه قد أوذي فعلاً. ونحاول حمله إلى المستشفى لكنَّ المكان بعيد جداً، ثم إنّ الحادث كان نكتة جيدة حتى صرنا نوقّعه بين الحين والآخر مما يجعله يصرخ كالمهووس. وأخيراً نطلب نجدة من هاتف مركز الشرطة، وتأتي سيارة الإسعاف ومعها سيارة الدورية أيضاً. ويأخذون آل برغر إلى

المستشفى والباقين منا إلى السجن. وفي الطريق نغني بأعلى ما أوتيت رئاتنا من قوة. وبعد الإفراج عنا نكون لا نزال مبتهجين ورجال الشرطة مبتهجين أيضاً، فنذهب جميعاً إلى الطابق الأرضي حيث يوجد بيانو مشروخ ونتابع الغناء والعزف. تبدو هذه الفترة وكأنها من زمن ما قبل المسيح في تاريخٍ ينتهي ليس بسبب نشوب حرب بل لأنه حتى بيت مثل بيت إد بوريس ليس منيعاً ضد التسمُّم المتسلّل إليه من المحيط الخارجي؛ لأنَّ كلّ شارع يتحوَّل إلى جادة آس، لأنَّ الخواء يملأ القارة كلها من الأطلسي إلى الباسيفيكي، لأنه بعد فترة معيَّنة لن تتمكَّن من دخول أي منزل في طول البلاد وعرضها لتجد رجلاً يقف على يديه ويُغني، لنْ يحدث هذا بعد الآن. ولن يعزف على آلتيّ بيانو معاً أبداً في أي مكان، ولن يكون هناك رجلان يرغبان في العزف على البيانو لمجرّد المتعة. إنَّ رجلَين يعزفان مثل إد بوريس وجورج نيوملر صارا يستأجران للعمل في الإذاعة أو السينما ولا يُستفاد إلا من مقدار ضئيل من موهبتهما أما الباقي فيُلقى في حاوية القمامة. لا أحد يعرف، إذا حكمنا من المشاهد العامة، حجم الموهبة المتوفرة في القارة الأميركية العظيمة. بعد ذلك صرتُ أقضي فترات ما بعد الظهر أستمع إلى المحترفين وهم يُحاولون إخراج تلك الموهبة غصباً، مما دفعني إلى قضاء الوقت في الجلوس على عتبات الأبواب في زقاق تن بان[1]. وهذا أيضاً كان شيئاً ممتعاً، لكنه مختلف؛ يفتقرُ إلى المرح؛ فقد كان مجرَّد تدرُّب متواصل للحصول على الدولارات والسنتات. فكل مَنْ توفَّرَ لديه قدرٌ ضئيل من الفكاهة في

١ – زقاق تن بان : في لندن ، هو الحي الذي يقطنه موسيقيو الموسيقى الشعبية وناشريها ومَنْ شابههم .

أميركا يوفّرها ليربح شيئاً من ورائها. وكان بينهم بعض المدانين أيضاً، رجال لن أنساهم أبداً، رجال لا يُخلّفون وراءهم أسماء، وكانوا من أفضل ما أنتجنا قاطبة. أذكُرُ عازفاً مجهول الاسم في سيرك كيث ربما كان أكثر رجال أميركا جنوناً، كان يحصل على خمسين دولاراً أسبوعياً من عمله. يظهر ثلاث مرات في اليوم، وكل يوم من الأسبوع، ليجعل المشاهدين يتسمّرون كالمسحورين. لم يكن يؤدي فصلاً مُعداً - يرتجل فقط. ولم يكن يُكرر نكاته أو حركاته البهلوانية أبداً. ومنح نفسه بإعجاز، ولا أظنه كان حتى شيطاناً رجيماً. كان من أولئك الشبان الذين وُلدوا بين طيور السلوى، والطاقة والبهجة فيه كانا من العنف بحيث لا شيء أمكنه استيعابهما. كان يُحسنُ العزفَ على أي آلة ويرقص أي رقصة ويخترع قصة على الفور ويظل يُطيلها حتى يدقّ الجرس. ولم يكن قانعاً فقط بالقيام بدوره بل ويساعد الآخرين. كان يقف في مكانٍ مُستتر خلف الخشبة وينتظر اللحظة المناسبة ليتدخّل في عرض زميله. كان يستحوذ على العرض كله وكان عرضاً بمثابة المعالجة الطبية أكثر مما يحتويه مستودع العلم الحديث. كان جديراً بهم أنْ يدفعوا لرجل كهذا كل الأجور التي يتلقّاها رئيس الولايات المتحدة. كان خليقاً بهم أنْ يعزلوا رئيس الولايات المتحدة وجميع أعضاء المحكمة العليا ويُنصّبوا رجلاً كهذا حاكماً. لقد تسنّى لهذا الرجل أنْ يُشفي من أي مرض معروف. وزيادة على ذلك، كان من النوع الذي يقوم بهذا دون مقابل، إذا طلبتَ منه. هذا هو النمط من الرجال الكفيل بإخلاء مصحّات المجانين. إنه لا يعرضُ علاجاً - إنه يجعل الجميع مجانين. بين هذا الحل وحالة حربٍ مستمرّة تُدعى الحضارة لا توجد غير طريقة واحدة للخلاص - هي طريق

سنسلكها جميعاً في نهاية المطاف لأنَّ كل ما عداها مُقدَّر له الفشل. النموذج الذي يمثّل هذه الطريقة الواحدة والوحيدة يحمل رأساً بستة وجوه وثمان عيون، الرأس منارةٌ دوّارة، وبدلاً عن التاج الثلاثي في أعلاها، كالمعتاد، هناك ثغرة لتهوية العقول القليلة الموجودة هناك. فكما قلت ليس هناك إلا القليل من العقل، لأنه لا يوجد غير القليل من الأمتعة لتُحمَلْ، لأنَّ العيش بوعي تام يجعل الزاوية المُعتمة تتعرَّض للنور. هذا هو النموذج الوحيد للرجل الذي يمكن وضعه فوق المهرِّج؛ إنه لا يضحك ولا يبكي، إنه يتجاوز المعاناة. نحن لم نلاحظه بعد لأنه شديد القُرب منا، تحت الجلد مباشرةً، والحق يُقال. حين يدفعنا المهرج إلى الإمساك بأحشائنا فإنَّ هذا الرجل، الذي قد يكون اسمه الله، على الأرجح، إنْ كان لابد أنْ يحمل اسماً، يرفع صوته بالكلام. حين يكون الجنس البشري كله يهتزُّ من الضحك، أعني أنْ يضحك بقوة حتى يتأذّى، يكون الجميع قد خطوا أول خطوة على الطريق. في تلك اللحظة يمكن لأي مخلوق أن يصبح الله تماماً كأي شيءٍ آخر. عندئذٍ يُلغى الوعي الثنائي، والثلاثي، والرباعي أو المتعدِّد، مما يجعل الجانب المُعتِمْ يلتفُّ بالتفافات ميّتة عند قمة الجمجمة. في تلك اللحظة تشعر فعلاً بالفجوة الموجودة في أعلى الرأس، وتعلم أنه كان لديك مرة عين مكانها وتلك العين كانت قادرة على رؤية كل شيء دفعة واحدة. لم يعُدْ هناك عين الآن، ولكن حين تضحك حتى تنهمر الدموع وتؤلمك بطنك، فأنتَ في الواقع تفتح الكوّة وتُهوّي العقول. ولا يمكن لأحد في تلك اللحظة أنْ يقنعك بتناول بندقيتك لتقتل عدوك، ولا يمكن لأحد أنْ يُقنعك بفتح مجلّد ضخم يحوي حقائق العالم الميتافيزيقية لتقرأ. إنْ كنتُ تعرف ما معنى الحرية، الحرية المُطلقة

وليس الحرية النسبية، فيجب أن تُدرك أنْ هذا هو أقرب ما يمكنك الوصول إليه منها. إنْ كنتُ أقف ضد الوضع العالمي فليس هذا لأني أخلاقي - بل لأنني أريد أنْ أضحك أكثر. لا أقول إنَّ الله هو ضحكة كبيرة: بل أقول إنَّ عليك أنْ تضحك بشدّة قبل أنْ يسعك الاقتراب بأي مقدار من الله. هدفي الوحيد في الحياة هو أنْ أقترب من الله، بمعنى، أنْ أقترب من نفسي. لذلك لا يهمّ أي سبيل أسلك. لكنَّ الموسيقى هامة جداً. الموسيقى هي المقوّية للغدّة الصنوبرية. الموسيقى ليست باخ أو بيتهوفن؛ الموسيقى هي فتّاحة الروح. إنها تجعلك شديد الهدوء من الداخل، تجعلك واعياً لوجود سقف لكيانك.

رعب الحياة القاتل لا يوجد في الكوارث والنكبات، لأنَّ هذه الأشياء توقظ المرء حتى يغدو مُتآلفاً ومتلائماً معها وتُمسي في آخر الأمر مُدجَّنة... كلا، بل إنَّ الأمر أقرب شبهاً بوجودك في غرفة فندق في هوبوكن مثلاً، وفي جيبك ما يكفي من النقود لتناول الوجبة التالية. أنت في مدينة لا تتوقَّع أبداً أنْ تعود إليها وليس أمامك إلا أنْ تقضي الليل في غرفة الفندق، لكنَّ بقاءك في تلك الغرفة يتطلَّب كل ما تتحلّى به من شجاعة وجرأة. لابد أنَّ هناك سبباً وجيهاً لكون بعض المدن، بعض الأماكن، تُثير كل ذلك الاشمئزاز والرعب. لابد أنَّ هناك نوعاً من الجريمة المستمرة تحدث في تلك الأماكن. الناس هم من سلالتك نفسها، يتوجهون إلى مراكز أعمالهم كما يفعل الناس في كل مكان، يبنون النوع نفسه من البيوت، لا أفضل، ولا أسوأ، لديهم المستوى نفسه من الثقافة، العملة المتداولة نفسها، الجرائد نفسها - ومع ذلك يختلفون اختلافاً تاماً عمَّن تعرفهم من الناس، الجو كله مختلف، الإيقاع مختلف،

التوتُّر مختلف، كأنك تنظر إلى نفسك في تجسُّد آخر. أنتَ تعلم، بأشد أنواع اليقين إزعاجاً، أنَّ ما يحكم الحياة ليس المال، ولا السياسة، ولا الدين، ولا المهارة، ولا العِرق، ولا اللغة، ولا العادات، بل شيءٌ آخر، شيءٌ تحاولُ خنقه طوال الوقت وهو الذي يخنقك في الواقع، لأنكَ إنْ لم تفعل فلن ترتعب على حين غرّة وتتساءلُ كيف ستهرب. هناك بعض المدن لا تضطر إلى قضاء الليل فيها - تكفي ساعة أو ساعتان لتتجرَّد من رِباطة جأشك. وأفكِّر في مدينة بيون في هذا المجال. فقد أتيتُ إليها ذات مساء مع بعض العناوين التي أُعطيَتْ إليّ : كنتُ أحمل حقيبة صغيرة تحت ذراعي مع نشرة تمهيدية من مؤسسة الموسوعة البريطانية. وكان من المفترض أنْ أذهب تحت جنح الظلام لأبيع الموسوعة اللعينة إلى بعض المساكين ممن يودّون تطوير أنفسهم. ولو أنَّ النعاس غلبني في مدينة هلسنكفور لما كان قلقي أكبر مما لو مشيتُ في شوارع بيون. لم تكن بالنسبة إليّ مدينة أميركية. لم تكن مدينة على الإطلاق، بل أخطبوطاً هائلاً يتلوّى في الظلام. أول باب اقتربَتْ منه كان مُنفِراً إلى درجة أني لم أزعج نفسي بقرعه، استمرَّ الحال كذلك مع عدّة عناوين قبل أنْ أتمكَّن من استجماع شجاعتي لأطرق أحدها. وأول وجه وقع عليه بصري أفزعني حتى الموت. لا أقصد أنْ أقول إنه جبن أو ارتباك - هو خوف. كان وجهاً لمساعد بنّاء، صعلوك جاهل يسرّه أنْ يشقّ رأسك بفأس ويبصق في عينك. وتظاهرت بأني أخطأت الاسم وهرعتُ إلى العنوان التالي. في كل مرة يفتح لي الباب يطلّ منه وحش آخر. وأخيراً أتيتُ إلى رجلٍ ساذج مسكين على الأقلّ وكان يودّ حقاً أنْ يتطوَّر وهذا ما سبَّبَ لي الانهيار. وشعرت بخجلٍ حقيقي من نفسي، من بلدي، من

سلالتي، من زمني، وأمضيتُ وقتاً طويلاً لأقنعه بعدم شراء الموسوعة اللعينة. فسألني ببراءة ما الذي أتى بي إذن إلى هذا المنزل - ودون دقيقة تردّد كذبت عليه كذبة صاعقة، كذبة ثبتَ فيما بعد أنها حقيقة عظمى. قلتُ له إني أتظاهر فقط ببيع الموسوعات لأقابل الناس وأكتب عنهم، فأثار ذلك اهتمامه بشكلٍ هائل، بل أكثر من الموسوعة نفسها، وأراد أنْ يعرف ماذا سأكتب عنه، إذا سمحت. لقد استغرقت مني الإجابة عن هذا السؤال عشرون عاماً، ولكن ها هو. إنْ كنتَ لا تزال تريد أنْ تعرف، يا جون دو[1] من مدينة بيون، فها هو... إنني أدينُ لك بالكثير لأنني بعد تلك الكذبة التي ألقيتها على مسمعك تركت منزلك ومزّقتُ النشرة التمهيدية التي زوَّدتني بها الموسوعة البريطانية ورميتها إلى المجرور. قلت في نفسي لنْ أتوجّه إلى الناس بادّعاءات زائفة حتى من أجل أنْ أعطيهم الكتاب المقدَّس. لن أعود إلى بيع أي شيء، حتى لو متُّ جوعاً. أنا ذاهب إلى المنزل الآن وسوف أجلس لأكتب حقاً عن الناس. وإذا قرع أحدهم بابي ليُبيعني شيئاً سوف أدعوه إلى الدخول وسأقول له " لماذا تفعل هذا؟ " فإذا قال إنه يقوم به لأنه يجب أنْ يكسب عيشه سأدفع له كل ما بحوزتي من نقود وأتوسّل إليه مرةً أخرى كي يُفكّر ملياً فيما يفعل. أريد أنْ أمنع أكبر عدد ممكن من الناس من الادّعاء بأنَّ عليهم أنْ يقوموا بهذا العمل أو ذاك لأنه يجب أنْ يكسبوا عيشهم. فهذا أفضل بكثير. إنَّ كل مَنْ يموت جوعاً طواعيّة يرمي مُسنّناً آخر في المسيرة الآليّة. أفضّل أنْ أرى رجلاً يتناول بندقيةً ويقتل جاره

---

١ - جون دو : هو أي إنسان عادي من بين الناس .

ليحصل على ما يحتاج من طعام، على أنْ يُحافظ على المسيرة الآليّة بالادّعاء أنَّ عليه أنْ يكسب عيشه. هذا ما أودّ أنْ أقوله للسيد جون دو.

وأتابعُ طريقي. أقول، ليس رعب الكوارث والنكبات هو القاتل، بل الحركة الرجعية الآليّة، المشهد العريض الشامل لصراع الروح الأبدي. واقفُ على جسر في كارولاينا الشمالية، قرب الحدود مع تنيسي، وأخرجُ من حقول التبغ المُزهِر. هناك أكواخ واطئة في كل مكان ورائحة خشب طري يحترق. أمضيتُ النهار في بحيرة عميقة بتموجات خضراء. أكاد لا أرى أثراً لإنسان في الأفق. وفجأةً أصلُ إلى بقعة جرداء ومن ثم إذا بي أطلُّ على وادٍ سحيق يجري فيه الماء ويمتد عبره جسر خشبي متداع. هذه هي نهاية العالم ! كيف وصلتُ إلى هنا بحق الله ولماذا أنا هنا لا أعلم. ***كيف سأتدبّر طعامي؟*** وحتى لو تناولتُ أكبر وجبة يمكن تصوّرها سأبقى حزيناً، حزناً مرعباً. لا أعرف إلى أين أذهب من هنا. هذا الجسر هو النهاية، النهاية بالنسبة إليّ، نهاية عالمي المعروف. وهذا الجسر هو الجنون، ولا مُبرّر لوجوده هنا ولا مُبرِّر لعبور الناس له. وأرفضُ أنْ أخطو خطوة أخرى، أُحجمُ عن عبور ذلك الجسر الجنوني. وبالقرب مني جدار واطئ أستند عليه محاولاً التفكير فيما سأفعل وأين سأذهب. وأدركُ بهدوء كم أنا شخص متحضِّر بشكلٍ شنيع - من حاجتي إلى الناس، وتبادل الأحاديث، والكتب، وارتياد دور المسرح، وسماع الموسيقى، وشرب القهوة، ومختلف أنواع المشروبات. ومن المريع أنْ تكون متحضّراً لأنكَ حين تصل إلى نهاية العالم لن يكون لديك ما يعينك على احتمال

رعب وحدتك. أنْ تكون متحضّراً يعني أنْ تكون لك حاجات معقَّدة. وحين يغدو الإنسان في كامل ازدهاره يجب أنْ لا يحتاج إلى شيء. طوال نهاري وأنا أتنقَّل في حقول التبغ، وأزداد قلقاً على قلق. ماذا سأفعل بكل هذا التبغ؟ إلامَ أبغي؟ الناس في كل مكان ينتجون المحاصيل والبضائع لأناس آخرين - وأنا أنزلق كشبح بين كل هذه الحيوية الغامضة. أريد أنْ أجد عملاً ما، ولكن لا أريد أنْ أكون جزءاً من هذا الشيء، هذه المسيرة الآليّة الجحيمية. أعبر البلدة وألقي نظرة على الصحيفة التي تحكي عما يحدث في البلدة وضواحيها. ويبدو لي أنَّ لا شيء يحدث، وأنَّ الساعة قد توقّفتْ لكنَّ تلك المخلوقات المسكينة لا تعي الأمر. بل أكثر من ذلك، لدي حدس قوي بأنَّ هناك جريمة تلوح في الجو. أكاد أشمّها. قبل بضعة أيام عَبَرتُ الخطَّ الوهمي الذي يقسم الشمال عن الجنوب. لم أعِ وجوده إلى أنْ اقتربَ زنجيٌّ يقود عربة تجرها الدواب فقامَ عن مقعده ونقرَ طَرَف قبعته باحترامٍ جمّ. كان شعره أبيض كالثلج ووجهه فائق الوقار. مما جعلني أشعر بشعور رهيب: جعلني أدرك أنه لا يزال هناك رقيق. لقد توجّبَ على ذلك الرجل أنْ ينقر طرف قبعته احتراماً لي- لأني من العرق الأبيض. بينما كان من الواجب أنْ أرفع أنا قبعتي له! كان يجب أنْ أحيّيه باعتباره المثال الحي لكل العذابات الخسيسة التي سبّبها البيض للسود. كان من المفترض أنْ أسبقه إلى رفع قبعتي، لأجعله يفهم أني لست من هذا النظام، وأني ألتمسُ منه المغفرة نيابة عن جميع إخواني البيض الذين هم من الجهل والقسوة ليقوموا بإيماءة شريفة صريحة. اليوم أشعر بعيونهم موجّهة إليّ

طوال الوقت، يراقبونني من خلف الأبواب، والأشجار. كلهم هادئون، كلهم مُسالمون، في الظاهر. الأسود لا يقول أي شيء. الأسود يُهمهم طوال الوقت. الأبيض يظن أنَّ على الأسود أنْ يعرف حدوده. الأسود لا يعرف شيئاً. الأسود ينتظر. الأسود يُراقب ما يفعله الأبيض. الأسود لا يقول أي شيء، لا يا سيدييبي. لكنَّ مع ذلك الأسود يقتل الأبيض ! في كل مرة ينظر أسود إلى أبيض يطعنه بخنجر. ليست الحرارة، ليست دودة الأنكليستوما، ليس المحصول السيئ ما يقتل الجنوب - إنه الزنجي ! الزنجي ينفثُ سُمّاً، سواء قصدَ أم لم يقصد. والجنوب مُلوَّن ومُخدَّر بسُمّ الزنوج.

وأتابع طريقي... أجلسُ على عتبة دكان حلاق بمحاذاة نهر جيمس. سأبقى هنا عشر دقائق فقط، ريثما أريِّح قدمي من التعب. هناك فندق وبضعة مخازن قبالتي، سرعان ما تتلاشى، وتنتهي كما بدأتْ - بلا سبب. إنني أشفقُ من أعماق روحي على المساكين الذين يولدون ويموتون هنا. لا سبب على الأرض يُبرِّر وجود ذلك المكان. لا سبب يُبرر عبور أي إنسان الشارع ليحلِق ذقنه ويقصّ شعره، أو حتى ليشتري قطعة لحم طريّة. يا ناس، اشتروا بنادق واقتلوا بعضكم بعضاً ! امسحوا هذا الشارع من الأذهان إلى الأبد - فليس فيه أي قدر من المعنى.

لا أزال في اليوم نفسه، بعد هبوط الظلام؛ لا أزال أغزّ السير، أحفرُ أعمق فأعمق في الجنوب. إنني أبتعد عن بلدة صغيرة على درب قصيرة تُفضي إلى الطريق العامة. أسمعُ فجأةً وقع خُطى خلفي وسرعان ما يجتازني شابٌ يخبّ، لاهث الأنفاس يُكيل اللعنات بكل ما أوتي من قوة. أقفُ مكاني لحظة، أتساءل ماذا في الأمر. وأسمع رجلاً آخر يقترب

خبباً؛ إنه رجل أكبر سناً مني ويحمل مسدساً، يتنفّسُ بارتياحٍ أكبر، ولا يتفوَّه بكلمة واحدة. وحالما يظهر أمام ناظري يسطعُ القمر من بين الغيوم فأرى وجهه بوضوح، إنه قنّاص. أتنحّى عن الطريق لأفسح المجال لمرور آخرين من خلفه. أرتعشُ من الخوف. إنه الشريف، أسمع أحدهم يقول، وسوفَ ينال منه. شيء مريع. وأتابع سيري إلى الطريق العامة منتظراً أنْ أسمع طلقة تُنهي كل شيء. فلا أسمع شيئاً - ما عدا لهاث الشاب الثقيل وخطوات سريعة متلهّفة للغوغاء الآتين خلف الشريف. وحين أقتربُ من الشارع الرئيسي يخرجُ رجلٌ من الظلام ويقترب مني بهدوء، ويقول "إلى أين أنتَ ذاهب، يا بنيّ؟ "، هكذا بهدوء يُشبه الرقة. وأتلعثمُ بشيءٍ عن البلدة التالية. فيقول " من الأفضل لك أنْ تبقى مكانك يا بني "، ولا أزيد كلمة أخرى. وأدعه يُعيدني إلى البلدة ويسلّمني كلص. أجلسُ على الأرض مع حوالي خمسين من الشبان. وأحلم حلماً جنسياً رائعاً انتهى بإعدام على المقصلة.

وأسير... وصعوبة التراجع توازي صعوبة التقدُّم. لم يعُد لديّ أي شعور بكوني مواطناً أميركياً. فالجزء من أميركا الذي أتيت منه، حيث كانت لي بعض الحقوق، وشيئاً من الحرية، أمسى بعيداً جداً خلفي حتى بدأ يبدو مشوَّشاً في ذاكرتي. أشعرُ كأنَّ أحدهم يصوِّب مسدساً إلى ظهري طوال الوقت. ولا أسمع إلا، تحرَّك. حين يتحدَّث إليّ إنسان أحاول ألاّ أبدو ذكياً جداً. أحاولُ أنْ أظهر اهتماماً بالغاً بالمحاصيل، بالطقس، بالانتخابات. إذا وقفتُ ينظرون إليّ، بيض وسود - ينظرون وينفذون ببصرهم وكأني ريّان صالح للأكل. يجب أنْ أمشي ألف ميل آخر أو نحوه وكأني بصدد بلوغ هدف عميق، وكأني ذاهب حقاً إلى مكانٍ

معيَّن. وعليَّ أيضاً أنْ أكون ممتنّاً بما أنه لم يشعر أحد برغبة في أنْ يضربني. أمر مؤسٍ ومُثير معاً. أنتَ رجل مُستهدف - ولا أحد يضغط على الزناد. يتركونك تمشي بلا تحرُّش إلى خليج مكسيكو حيث يمكنك أنْ تُغرِق نفسك.

نعم يا سيدي، وصلتُ إلى خليج مكسيكو وولجته لأُغرِقَ نفسي. فعلت هذا بلا مقابل. وحين أخرجوا الجثة وجدوا عليها عبارة " تُشحَنْ مجاناً " إلى جادة الآس، بروكلن. وأُعيدتْ وقد كُتِبَ عليها " التسديد نقداً عند التسليم ". وحين سُئلَتُ لماذا قتلتُ نفسي لم أفكّر إلا في قول واحد - لأني أردتُ أنْ أكهرب الكون ! وقصدتُ بهذا شيئاً بسيطاً جداً - وهو أنَّ الديلاوير، واللاكاوانا والغربي زوّدوا بالطاقة الكهربائية، والخطوط الجوية أيضاً، لكنَّ روح الإنسان لا تزال في مرحلة العربة المغطّاة. لقد وُلِدتُ وسط حضارة وقبلتُها بعفوية تامة - ماذا يعني أنْ أفعل أكثر من ذلك؟ لكنَّ النكتة هي أنه لا أحد كان يأخذ الأمر على محمل الجد. كنتُ الوحيد في المجتمع المُتحضّر حقاً. ولا مكان لي - مع ذلك. ومع ذلك فالكتب التي قرأتُ، والموسيقى التي سمعتُ أكَّدتْ لي أنَّ هناك رجالاً آخرين مثلي. كان عليّ أنْ أذهب لأُغرِق نفسي في خليج مكسيكو ليتوفّر لي عذر للاستمرار في هذا الوجود الحضاري الزائف؛ أنْ أتخلّص من جسدي الروحي.

حين استيقظتُ على حقيقة أنه طالما الأمور تسير على هذا النمط فأنا أقلّ من قذارة، سعدتُ كل السعادة. وسرعان ما فقدتُ كل إحساس بالمسؤولية. ولولا تململْ أصدقائي من قرضي النقود لتابعتُ تبوُّل الوقت هكذا بلا نهاية. كان العالم بالنسبة إليّ كمُتحف: لم يكن أمامي إلا أن

أقضم قطعة من كعكة الشوكولاة الرائعة تلك التي أسقطها الأسلاف بين أيدينا. الجميع ينزعجون من الطريقة التي استمتع بها بنفسي. كان منطقهم يقول إنَّ الفن جميل جداً، أوه نعم، حقاً، ولكن عليك أنْ تعمل لتكسب عيشك وبعدئذٍ ستجد أنك أكثر تعباً من أنْ تفكّر بالفن. وحين هدَّدتُ بإضافة طبقة أو طبقتين على حسابي إلى هذه الكعكة المغطّاة بالشوكولاة الرائعة انفجروا في وجهي. وكانت تلك هي اللمسة الأخيرة. يعني أني مجنون رسمي. في أول الأمر اعتبروني طائشاً، جثة اتّكالية شهيتها هائلة، والآن صرتُ مجنوناً *(اسمعْ، يا ابن الحرام، جدْ لنفسكَ عملاً... لقد سئمناك !)* وبشكلٍ ما كان ذلك التعبير في الموقف منعشاً. كنتُ أشعرُ بالريح تهبُّ خلال الأروقة. على الأقلّ لم يعُدْ في الإمكان تهدئة الـ " نحن ". ونشبتْ الحرب، على الرغم من أني جثة كان لا يزال بي بعض النشاط لأقوم بمعركة صغيرة. الحرب تُحيّي. الحرب تُثير الدم. وسط جحيم الحرب العالمية هذا، التي كنتُ قد نسيتُ أمرها، حدثَ ذلك التغيُّر في القلب. وتزوجتُ بين ليلة وضحاها، لأبيِّن للعالم كله أني لا آبه في كل حالٍ ووضْع. فبالنسبة إليهم كان الزواج شيئاً حَسَناً. وأذكُر أني، وبقوة هذا الإعلان، ربحتُ خمسة دولارات على الفور. ودفع صديقي ماكغريغور كُلفة الوثيقة بل ودفعَ أجرة الحلاقة وقصّ الشعر وأصرّ على أنهما ضروريان للزواج. قالوا إنه لا يمكنني الاستمرار في المراسيم إذا لم أحلق، ولم أفهم على الإطلاق لماذا لا تستطيع أنْ ترتبط إذا لم تحلق وتقص شعرك، ولكن بما أنها لن تكلّفني شيئاً قبلت. شيء مُسلٍ أنْ ترى الكلّ مُشتاقين للمساهمة بشيء لأجل خاطرنا. وفجأة ولمجرَّد أني أبديت أقلّ قدرٍ من العقلانيّة هرعوا ليحوموا حولنا - ألا

يستطيعون أنْ يقوموا بهذا وألا يستطيعون أنْ يقوموا بذاك لأجلنا؟ وطبعاً بات من المفترض الآن أني سأذهب حتماً إلى العمل، الآن سأرى أنَّ الحياة هي عملٌ جادّ. لم يتبيَّن لهم أبداً أنه في إمكاني أنْ أدع زوجتي تعمل لأجلي. لقد كنتُ مهذّباً معها حقاً في البداية. فلستُ سائس عبيد. وكل ما طلبت هو أجرة المواصلات لأفتش عن العمل الأسطوري - ومبلغاً صغيراً جداً أيضاً للسجائر، والسينما الخ. أما الأشياء المهمة كالكتب، وألبومات الموسيقى، وأجهزة الغرامافون وشرائح اللحم الطرية وما شابهها، فوجدتُ أنه في إمكاننا استدانتها، وقد تزوجنا الآن. إنَّ طريقة الأقساط قد وُجِدَتْ خصيصاً لأشخاصٍ مثلي. وكانت الدفعات المريحة مريحة جداً - أما الباقي فتركتُه للعناية الإلهية. لطالما قالوا إنَّ على المرء أنْ يعيش. والآن، هذا ما قلته لنفسي وحق الله - ***إذن على المرء أنْ يعيش! عِشْ الآن وادفع لاحقاً***. فإذا رأيتُ معطفاً أعجبني أدخلُ وأشتريه. وأشتريه أيضاً قبل موسم التخفيضات، لأبرهن على أني شاب يفكّر بجدّية. خراء، أنا رجل متزوج وقد أصبح أباً عن قريب - وجديرٌ بي أنْ أرتدي معطفاً شتوياً على الأقلّ، أليس كذلك؟ وبعد أنْ اشتريتُ المعطف رحتُ أفكّر في حذاءٍ متين يتماشى معه - زوج من الجلد القرطبي كالذي طالما رغبتُ في شرائه طوال حياتي ولم أتمكّن. وحين كان يشتد البرد وأكون خارج المنزل أفتش عن عمل ينهشني الجوع أحياناً - فمن الصحيّ حقاً الخروج هكذا يوماً بعد يوم لكي أجول في المدينة مُعرَّضاً للمطر والثلج والرياح والبرد - لذلك بين الحين والآخر كنتُ آوي إلى حانة دافئة وأطلبُ قطعة لحم ريّانة طرية مع البصل والبطاطا الفرنسية المقلية. ثم أخرجتُ وثيقة للتأمين على الحياة وأخرى للتأمين

ضد الحوادث - فمن المهم، حين تكون متزوجاً أنْ تفعل أشياء كهذه، هكذا قالوا لي. فلنفرض أني سقطتُ ميتاً ذات يوم - فماذا عندئذٍ؟ أذكُرُ أن الشاب قال لي هذا ليُثبت كلامه. وكنتُ قد أخبرته لتوّي أني سأوقِّع، ولكن يبدو أنه نسيَ. قلتُ له، نعم، على الفور، بدافع العادة، وبينما أنا أتكلّم أخذَ يتفحّصه صراحةً - إذ من المخالف للقانون أنْ تدع رجلاً، كنتُ على وشك أنْ أسأله متى يمكن للمرء أنْ يقترض بفائدة بسند حين أطلق سؤالاً افتراضياً : ***لنفرض أنكَ وقعت ميتاً يوماً*** - فماذا إذن؟ أعتقد أنه ظنَّ أني مجنون قليلاً من طريقة ضحكي على سؤاله. وضحكت حتى جرت الدموع على خدي. وأخيراً قال - " لا أعتقد أني قلتُ شيئاً مُضحكاً "، فقلتُ متوسماً الجدّية للحظة، " حسن، انظرْ إليّ جيداً. والآن قُلْ لي، هل ترى أني من النوع الذي يأبه لأي شيء بعد أنْ يموت؟ "، وبوغتَ تماماً وبشكلٍ ظاهر، لأنَّ ما قاله بعد ذلك هو : " لا أظن أنه موقف أخلاقي جداً يا سيد ميللر، لا أظن أنك تريد لزوجتك أنْ... ". قلتُ " اسمعْ، لنفرض أني قلتُ لكَ إني لا آبه لِما يحدث لزوجتي بعد أنْ أموت - فماذا عندئذٍ؟ ". ولما بدا أنَّ ذلك يؤذي مشاعره الأخلاقية أضفت قائلاً - " ما دام الأمرُ يتعلّق بي فلستُ مُلزماً بدفع قيمة الضمان حين أموت - إني أفعل هذا فقط لأسعدك. إنني أحاولُ أنْ أساعد العالم كله، ألا تفهم؟ يجب أنْ تعيش، أليس كذلك؟ حسن، إنني أضع قليلاً من الطعام في فمك، هذا كل شيء. إنْ كان لديك أي شيء آخر تبيعه، هاته. أنا أشتري كل ما هو جيد. إنني مُشترٍ، ولستُ بائعاً. أحب أنْ أرى الناس سعداء - لهذا أشتري الأشياء. والآن اسمع، كم قلتَ إنَّ هذا سيدرٌّ في الأسبوع الواحد؟ سبعة وخمسين سنتاً؟ رائع. وما قيمة

السبعة والخمسين سنتاً؟ أترى ذلك البيانو - هذا يدرُّ تسعة وثلاثين سنتاً في الأسبوع، على ما أعتقد. انظر حولك... إنَّ كل ما تراه يُكلّف الكثير كل أسبوع. وتقول، لو متُّ فماذا عندئذٍ؟ هل تفترض أني سأموت على حساب كل أولئك الناس؟ يا لها من نكتة فظيعة. كلا، أفضّل أنْ يأتوا ويأخذوا هذه الأشياء - أعني، إذا لم أتمكّن من السداد... ". كانَ يتململ بعصبية في مكانه وفي عينيه نظرة جامدة، كما رأيت. قلتُ مُقاطعاً نفسي " معذرة، ولكن ألا تودّ أنْ تتناول كأساً صغيرة من الشراب - لترطِّب البوليصة؟ " قال إنه لا يعتقد ذلك، لكنني أصررت، ثم إني لم أوقِّع على الأوراق بعد وينبغي فحص بولي وقبوله وينبغي تثبيت جميع البصمات والأختام - كنتُ أعرفُ كل ذلك عن ظهر قلب - ففكّرتُ في أنه ربما نتناول أولاً جرعة صغيرة وبذلك نحافظ على جدّية العمل، لأنَّ شراء وثيقة تأمين - وبشرفي - أو أي شيء آخر كان متعة حقيقية بالنسبة إليّ ويمنحني الشعور بأني أشبه أي مواطن آخر، فأنا ***إنسان، طبعاً*** ! وليس قرداً. وهكذا أخرجت زجاجة من الشيري (وهي كل ما سُمِحَ لي به) وصببتُ كأساً مترعة له، وأنا أقول لنفسي إنه من الرائع رؤية الشيري يجري فربما قدَّموا لي شيئاً أفضل في المرة القادمة. قلت، رافعاً الكأس إلى شفتي، " وأنا أيضاً كنتُ ذات مرة أبيع وثائق تأمين. طبعاً يمكنني أنْ أبيع أي شيء. لولا أمر واحد - هو أني كسول - خذ مثلاً يوماً كهذا - أليس من الأفضل أنْ يلازم المرء المنزل، يقرأ كتاباً أو يستمع إلى الفونوغراف؟ وماذا يُجبرني على الخروج وسلوك سُبُل الخداع في البيع لصالح شركة التأمين؟ لو كنتُ أعمل هذا اليوم لما قابلتني - أليس كذلك؟ كلا، أعتقد أنَّ من الأفضل تناول

الأمور برويّة ومساعدة الناس على التخلُّص من الورطة حين يأتون... مثلك أنت، مثلاً. من الأجمل شراء الأشياء أكثر من بيعها، ألا تعتقد؟ اللهم إذا كان معك نقود! في هذا المنزل لا نحتاج إلى الكثير من النقود. وكما كنتُ أقول، البيانو يدرُّ تسعة وثلاثين سنتاً في الأسبوع، أو ربما اثنين وأربعين، وال... "

وقاطعني " معذرة يا سيد ميللر، ولكن ألا تظن أنَّ علينا أنْ ننزل لتوقيع تلك الأوراق؟ "، وقلتُ بمرح، " ولمَ لا، طبعاً، هل أحضرتها كلها معك؟ أي ورقة في ظنك يجب أنْ نوقّع أولاً؟ بالمناسبة، هل لديك قلم حبر تريد بيعه لي؟ ". قال متجاهلاً ملاحظاتي، " فقط وقِّعْ هنا، وهنا، هذا كل شيء. والآن يا سيد ميللر، أعتقد أنه يجب أنْ نفترق - وسوف تصلك أخبار من الشركة خلال بضعة أيام "

وأنوِّه وأنا أرشده إلى الباب " الأفضل أن تستعجل الأمر، فقد أُغيِّر فكري وأنتحر ". " طبعاً بلا أدنى شك، طبعاً نعم يا سيد ميللر، سنفعل حتماً. نهارك سعيد الآن، نهارك سعيد! "

وطبعاً ينهار عقد الدفع بالتقسيط في آخر الأمر، حتى وإنْ كنتَ مُشترٍ مواظب مثلي. لقد بذلت جهدي حقاً لإبقاء رجال الصناعة والدعاية في أميركا مشغولين، ولكن يبدو أني خيَّبتُ أملهم. كان الكلّ ييأس مني. ولكن هناك رجلاً واحداً بصورة خاصة كان أكثر من غيره شعوراً باليأس مني وقد فعلَ المستحيل لكسب صداقتي وخذلته. أفكّر فيه وكيف اتّخذني مساعداً له بمنتهى الطيبة والكرم، لأنني بعد ذلك، حين أخدع في كل الجهات، ولكن في ذلك الحين كنتُ من التورُّط بحيث لم يعُدْ يهمّني شيء. بيد أنَّ ذلك الرجل حادّ عن الطريق السويّ ليُبرهن

لي أنه يؤمن بي. كان يُحرر كتيباً يفيد البيوت التي يصلها بريد كثير. كان عبارة عن مُلخَّص ضخم من الهراء يصدر مرة في العام ويستغرق إعداده العام كله. لم تكن لدي أدنى فكرة عن مغزى وسبب مجيئي إلى مكتبه، ربما بسبب الدفء، بما أني كنتُ أسير بغير هدى طوال النهار محاولاً الحصول على عمل كرقعة شطرنج أو أي شيء لعين. كان الجو مُريحاً في مكتبه وألقيتُ على مسامعه خطبة طويلة كيما أذوب. لم أعرف أي عمل أطلب - بل مجرد عمل، هكذا قلت. كان رجلاً حساساً وطيب القلب جداً. ويبدو أنه عرفَ أني كاتب، أو هكذا أرادني، لأنه سرعان ما سألني ماذا أريد أنْ أقرأ وما رأيي في هذا وذاك من الكتَّاب. وحدثَ مصادفة أنْ كان في جيبي لائحة كتب - كتبٌ كنتُ أفتش عنها في المكتبات العامة - وهكذا أخرجتها وعرضتُها عليه. وأشار متعجّباً "يا لسكوتْ العظيم ! أحقاً تقرأ هذه الكتب؟ ". هززتُ رأسي إيجاباً بتواضُع، وكما يحدث لي عادةً كلما أثَّرتْ بي ملاحظة بلهاء كهذه، بدأت الحديث عن كتاب " ألغاز " لهامسن الذي كنتُ أقرأه. منذ ذلك الحين صار الرجلُ كالعجين في يدي. عندما طلبَ مني أنْ أصبح مساعداً له اعتذرَ لأنه يعرض عليّ عملاً وضيعاً كهذا، وقال إنَّ في وسعي أنْ أتعلّم أسرار العمل على راحتي، وهو متأكِّد من أنه عمل سهل عليّ. ثم سأل إنْ كان في وسعه أنْ يُقرِضني بعض النقود من جيبه الخاص ريثما أنال أجري. وقبل أنْ أقول نعم أو لا كان قد أخرَجَ عشرين دولاراً وحشرها في يدي. وطبعاً تأثرت. وكنتُ على استعداد للعمل كابن عاهرة لأجله. مساعد مُحرر - يبدو شيئاً جيداً تماماً، وخاصة بالنسبة للدائنين في المنطقة. وأمضيتُ فترة لا بأس بها سعيداً جداً لأنني آكل لحم البقر

والدجاج المشوي وقطع لحم الخنزير الطريّة حتى رحت أدَّعي أني أحب العمل. وطبعاً كان صعباً عليّ أنْ أبقى يقظاً. تعلّمت كل ما ينبغي تعلّمه خلال أسبوع. وبعد ذلك؟ بعد ذلك رأيتُ أني أقوم بأشغال شاقة مدى الحياة. ولكي أستفيد من وضعي أفضل استفادة رحتُ أقتل الوقت بكتابة قصص ومقالات ورسائل طويلة لأصدقائي. ويبدو أنهم اعتقدوا أني أدوّنُ أفكاراً جديدة للشركة، لأنه مرّ وقتٌ لا بأس به لم ينتبه لي خلاله أحد. وحسبتُ أنه عمل رائع. كنتُ أملك اليوم كله لنفسي، لكتابتي، بعد أنْ تعلّمتُ كيف أتخلّص حتى إني وجّهتُ الأوامر لمساعديّ بعدم إزعاجي إلا في اللحظات الحاسمة. كنتُ أشقّ طريقي كالنسيم، فالشركة تدفع لي بانتظام وسائسو العبيد يقومون بكل العمل الذي أحيله إليهم، وذات يوم، في غمرة كتابتي مقالاً عن " المسيح الدجّال " يتقدَّم من مقعدي رجلٌ لم يسبق أنْ رأيته في حياتي، وينحني عبر كتفي، وبصوت ذي نبرةٍ تهكّميّة يبدأ بالقراءة بصوتٍ عالٍ ما كتبتُ. لم أكن في حاجة إلى أنْ أسأله مَنْ هو وماذا يريد - الشيء الوحيد الذي دار في ذهني، ورحتُ أُردّده في نفسي بهياج - هل سأحصل على دفعة أسبوعية إضافية؟ عندما حان وقت وداع المُحسنِ إليّ شعرتُ بشيءٍ من الخجل من نفسي، خاصةً حين قال، هكذا وعلى الفور - " لقد حاولتُ أنْ أحصل لكَ على دفعة أسبوعية إضافية لكنهم لم يصغوا إليّ. ليتني أستطيع أنْ أفعل شيئاً لأجلك. الحق أقول لك، لا زال لدي إيمان كبير بك - لكنني أخشى أنكَ ستعيش أوقاتاً عصبيّة على هذا الأساس، ولبعض الوقت. إنك لا تصلح في أي مكان. وذات يوم ستغدو كاتباً عظيماً أنا متأكد من هذا. والآن اعذروني "، هكذا أضاف وهو يُصافحني بحرارة، " يجب أنْ أرى الرئيس. حظاً سعيداً ! "

بعد تلك الحادثة أصابني شيء من التمزّق، وتمنّيتُ لو أمكنَ أنْ أثبتَ له في ذلك الزمان والمكان أنَّ إيمانه بي له ما يُبرّره. تمنّيتُ لو استطعتُ أنْ أبرِّر نفسي أمام العالم كله في تلك اللحظة : لكنتُ قفزتُ من فوق جسر بروكلن إنْ كان هذا سيُقنِع الناس بأني لستُ مجرَّد ابن عاهرة قاسي القلب. وكان لي قلب بحجم قلب الحوت، وهذا ما أُتيح لي أنْ أثبته سريعاً، ولكن لم يكن أحد يتفحَّص قلبي. لقد خذلتُ الجميع وبقوة - ليس فقط شركات القرض بالتقسيط، بل وصاحب المنزل، واللحام، والخبّاز، وشياطين الغاز والماء والكهرباء، ***الكل***. ليتني فقط استطعتُ أنْ أؤمن بهذا النوع من العمل ! لم أفكِّر في إنقاذ حياتي. فكَّرتُ في أنَّ الناس يعملون حتى يُرهقون خصياتهم لأنهم لا يُحسنون أي شيء آخر. فكَّرتُ في الخطبة التي ألقيتُها وأكسبتني العمل. كنتُ من بعض النواحي أشبه كثيراً الهر ناغل[1] Nagel. لا أعرف ماذا سأفعل من لحظةٍ إلى أخرى. لا أعلم إنْ كنتُ وحشاً أم قديساً، كالعديد من رجالنا الرائعين. والهر ناغل يائس - وهذا اليأس بالذات هو الذي جعل منه شخصاً مُحبّباً. هامسن نفسه لم يعرف ماذا يصنع منه : لقد عرفَ أنه موجود، وأنَّ في انتظاره شيئاً أكثر من أي شخصية ابتدعها. ولماذا ؟ لأنَّ الهر ناغل كان القديس المجهول الذي هو كل فنان - الرجل المُثير للسخرية لأنَّ حلوله، العميقة حقاً، تبدو أشدّ بساطة من أنْ تفيد العالم. لا أحد يريد أنْ يصبح فناناً - بل يُدفَع ليكون هكذا لأنَّ العالم يرفض أنْ يرى صفاته القيادية المُميَّزة. لم يعنِ العمل لي أي شيء، لأنَّ العمل

١ - الهر ناغل : إحدى شخصيات الكاتب كنوت هامسن الروائية .

الحقيـقي الواجب التنفيـذ اجتُنِبَ. اعـتبرني الناس كسـولاً لا هدف لي، لكنني كنتُ على العكس شـخـصاً يزدادُ فـاعليـة باطراد. حـتى لو كـان الفعل مجرد اقتفاء أثر امرأة، فهو أمر هام جداً، ويستحق العناء، خاصة إذا قـورنَ بأشكـال النشـاط الأخـرى - مـثـل تركـيب الأزرار أو تثـبـيت البـراغي، أو حتى التـخلُّص من الزوائد الدودية. لماذا يُصغي النـاس إليّ بهـذا اليُسر حين أعيَّنْ في عـملٍ مـا ؟ لماذا يجدونني مسلّياً؟ السبب، بلا شك، يعـود إلى أني دائماً أستـفـيد من وقـتي. كنتُ أنفحهم الهدايا - مستمدَّة من الساعات التي أقضيها في المكتبة العامة، من تسكعي المتمهِّل في الشوارع، من تجاربي الحميمة مع النساء، من أوقات بعد الظهر التي أقضيها في مسرح المنوعات، من زياراتي إلى المتحف وصالات الفن. لو كنتُ شخصاً فاشلاً، أو مجرد إنسان شريف مسكين يرغبُ في إنهاك خصيتيه في العمل طوال الأسبوع، لما عرَضوا عليّ الأعمال التي عرضوها ، ولما نفحوني السيجار أو دعوني إلى الغداء أو أقرضوني النقود كما كانوا يفعلون غالباً. وكان يجب أنْ يكون لدي ما أدفعه في المقابل وقد قدَّروا طاقتي دون أنْ يعلموا بقوة الحصان أو بالقدرة الميكانيكية. ولم أقدِّر نفسي حقَّ قدرها ، لأنني لم أكن مغروراً، ولا تافهاً، ولا حاسداً. كنتُ واضحاً تجاه القضايا الكبرى، ولكن حين تجابهني تفاصيل الحياة الحقيرة أرتبك. وقد حُكِمَ عليّ بالتعرُّض لذاك الارتباك نفسه بمقدار هائل قبل أنْ أفهم سببها. العاديون من الناس هم غالباً الأسرع في الإحاطة بالموقف العملي : فأناهم (ego) متكافئة مع المتطلبات المفروضة عليها : والعالم ليس مختلفاً عمّا يتخيلونه. لكنَّ الرجل المنفصل عن باقي العالم كل الانفصال إما أنه يعاني من تضخُّم

هائل في أناه أو تكون الأنا غائصة لا وجود عملياً لها. لقد غاص الهر ناغل إلى أعمق الأعماق بحثاً عن أناه الحقيقية، كان وجوده لغزاً، بالنسبة له ولكل شخص آخر. ولم أقوَ على ترك الأمور مُعلّقة هكذا - فقد كان اللغز مُحيّراً جداً. حتى إني لو اضطررتُ إلى حك نفسي كالقطة بكل كائن بشري، لفعلتُ إلى أقصى مدى. حكّ أطول مدة ممكنة وبأقوى ما يمكن وستأتي الشرارة!

سُبات الحيوانات، والتخلّي عن نمط الحياة الذي تِعيشه بعض الأشكال الدنيا من المخلوقات، والحيوية الرائعة لبقّ الفراش الراقد منتظراً بلا نهاية خلف ورق الجدران، ونشوة ممارس اليوغا، وإغماء المريض التخشّبي، والاتحاد الصوفي مع الأكوان، وخلود الحياة السيللوزية، كل تلك الأشياء يتعلّمها الفنان ليوقظ العالم في اللحظة المواتية. الفنان ينتمي إلى سلالة الجذر x للإنسان، هو الميكروب الروحي، الذي ينتقل من سلالة جذرية إلى أخرى. لا يسحقه سوء الحظ، لأنه ليس جزءاً من النظام المادي العرقي للأشياء. مظهره دائماً متواقت مع الكارثة والفناء، هو المخلوق الحلقي الذي يعيش في الفُلك التدويري epicycle. التجربة التي يكتسبها لا تُستخدَم أبداً لأهداف شخصية، بل تخدم الهدف الأكبر الذي أعدّ له. لا شيء يضيع هباءً لأجله، مهما كان تافهاً. إذا قوطع مدة خمسة وعشرين عاماً أثناء قراءته لكتاب يستطيع متابعته من الصفحة التي تركها وكأنّ شيئاً لم يحدث في الفترة الفاصلة، وهو " الحياة " بالنسبة إلى معظم الناس، هو مجرّد قَطع في دورته المتقدّمة. أبدية عمله، وهو يُعبّر عن نفسه، مجرد انعكاس للحركة الآلية للحياة المُجبر على السبات فيها، نائم على ظهر النوم، ينتظر الإشارة التي ستعلن

لحظة الميلاد. هذه هي القضية الكبرى، وطالما كانت جليّة لعيني، حتى عندما أنكرتها. إنَّ الاستياء الذي يحثّ المرء على التقدُّم من كلمة إلى كلمة، ومن خَلق إلى آخر، هو ببساطة احتجاج على عقم التأجيل. وكلما زادت يقظته، وكونه ميكروباً فنياً، قلَّتْ رغبته في القيام بأي عمل. في اليقظة التامة يكون كل شيء عدلاً ولا داعي للخروج من النشوة. والفعل، كما يُعبّر عنه في عملٍ فني إبداعي، هو استسلام للمبدأ الآلي للموت. بعد أنْ أغرقت نفسي في خليج مكسيكو صرتُ قادراً على المشاركة في حياةٍ فعّالة تسمح للذات الحقيقية بالسبات إلى أنْ أصبحَ قابلاً للولادة. فهمتُ هذا تماماً، على الرغم من أني تصرّفتُ بلا تبصُّر وفوضى. وسبحت عائداً إلى تيار النشاط الإنساني حتى وصلت إلى منبع الفعل كله وهناك شققتُ طريقي عنوة، مُسمّياً نفسي مُديراً شخصياً لشركة البرق، تاركاً للمد الإنساني أنْ يعلو ويغسلني كأمواج عظيمة مُتكسّرة بيضاء الرأس. كل هذه الحياة النشطة، السابقة للفصل الختامي لليأس، قادتني من شكٍ إلى شك، حاجبة عني أكثر فأكثر الذات الحقيقية، كقارّة مُختنقة بالبراهين على وجود حضارة عظيمة مُزدهرة، غاصت لتوّها تحت سطح البحر. لقد غرقت الأنا الجبّارة، وما رآه الناس يتحرَّك باهتياج فوق السطح كان منظار أفقٍ للروح الباحثة عن هدفها. كان يجب أنْ أُدمِّر كل ما يقع ضمن مجال النظر، لو قُدِّرَ لي أنْ أنهضَ ثانية وأركب الأمواج. هذا الوحش الذي كان يبرز بين آنٍ وآخر ليُركِّز على هدفٍ ميتْ، ويغوص من جديد وهو يجول ويسلب بلا هوادة سيرتفع، عندما يحين الوقت، للمرة الأخيرة ليتّضح أنه سفينة نوح، سيتجمّع على متنها زوج من كل نوع على الأقلّ، وحين يتراجع الفيضان

ستستقر على قمة جبلٍ منعزل وهناك ستفتح أبوابها واسعاً وتعيد إلى العالم ما بقي من الكارثة.

إذا ارتجفت أحياناً، وأنا أفكّر في حياتي النشطة، إذا شاهدتُ كوابيساً، فذاك لأني، ربما، أفكّر في كل مَنْ سرقتُ واغتلتُ أثناء نومي النهاري. لقد قمتُ بكل ما أوحتْ لي به طبيعتي. فالطبيعة تهمس دائماً في أذن الإنسان - " إذا أردتَ أنْ تعيش يجب أنْ تقتل ! "، وبما أنكَ كائن بشري فأنت لا تقتل كالحيوان بل تقتل آلياً، والجريمة مُستترة وتشعّباتها لا حصر لها، لذلك تقتل حتى دون أنْ تفكّر في الأمر، تقتل دون ما حاجة. والرجال الأرفع مقاماً هم أعظم القَتَلة. هم يؤمنون بأنهم يخدمون إخوانهم البشر، وهم مُخلصون في إيمانهم هذا، لكنهم قتلة لا قلب لهم وفي لحظات معيَّنة، وهم يقظى، يدركون جرائمهم ويقومون بتصرفات دونكيخوتية مسعورة من الطيبة تكفيراً عن آثامهم. إنَّ طيبة الإنسان تفوحُ نتانة أكثر من الشر الكامن فيه، فالطيبة لم تُعرَف حتى الآن، ولا إثبات لوجود الذات الواعية. وبما أنَّ المرء سيُدفع من جرف الهاوية، فمن السهل حتى اللحظة الأخيرة أنْ يتخلّى عن جميع ممتلكاته، أنْ يُعيد ويمدّ من أَمَدْ العناق الأخير مع كل مَنْ سيتركهم وراءه. كيف لنا أنْ نوقف التهوُّر الأعمى؟ كيف لنا أنْ نوقِف المسيرة الآلية، وكل واحد يدفع الآخر من فوق الهاوية؟

حين جلستُ على مقعدي، الذي وَسمته بيافطة تقول " لا تتخلَّ عن كل الأمل أنتَ يا مَنْ تدخل هذا المكان ! " - وبينما أنا جالس أقول نعم، لا، نعم، لا، أدركتُ، وبيأس كان يتحوَّل إلى سُعرٍ أبيض، أني دمية وَضَعَ المجتمع بين يديها مسدساً رشّاشاً. إذا أنجزتُ عملاً جيداً فالوضع

لا يختلف، على الإطلاق، عما لو إني أنجزت عملاً سيئاً. كنتُ أشبه بعلامة مساواة يمر خلالها الحشد الإنساني الجبري. كنتُ علامة مساواة هامة، نشطة، كجنرال في زمن الحرب، ولكن مهما بلغَتْ قدرتي فلم أكن لأتحوَّل إلى علامة زائد أو ناقص، ولا قَدرَ على هذا أي إنسان آخر، حسب تقديري. كانت حياتنا كلها مبنيّة على مبدأ التعادل هذا. وأضحت الأعداد الصحيحة رموزاً متناثرة بلا نظام لصالح الموت. كانت الشفقة، واليأس، والانفعال، والأمل، والشجاعة - هي الانكسارات الزمنية التي سبّبها النظر إلى المعادلات من زوايا مختلفة. وما كان ليفيد أيضاً أنْ يوقِف المرء الشعوذة المتواصلة بإدارة ظهره لها، أو بمواجهتها مباشرة والكتابة عنها. ففي قاعة مملوءة بالمرايا لا سبيل لإدارة ظهرك لنفسك. ***أنا لن أفعل هذا... بل سأفعل شيئاً آخر!*** عظيم! ولكن هل تُحسِن القيام بأي عمل مهما كان؟ هل يمكنك أنْ تكفّ عن التفكير في أنكَ لا تفعل أي شيء؟ هل تستطيع أنْ تقف جامداً مكانك، ودون أنْ تفكر، تشعّ بالحقيقة التي تعرفها؟ هذه هي الفكرة التي سكنت مؤخّر رأسي وراحت تحترق وتحترق، وربما حين كنتُ أكثر صراحة وإشعاعاً بالطاقة، وتعاطفاً، ورغبة، وقُدرة على المساعدة، وإخلاصاً، وطيبة، كانت هذه الفكرة الثابتة هي المتوقدة أبداً، وأقول لنفسي آلياً - " لا، لا داعي... لا تقُل أي شيء، أؤكد لك... لا، أرجوك لا تشكرني. إنه لا شيء " الخ الخ. ومن كثرة عدد مئات المرات التي أطلقتُ فيها الرصاص في اليوم لم أعد ألاحظ التفجيرات، وربما حسبتُ أني أفتح محابس الحمَام وأملأ السماء بالطيور البيضاء كالحليب. هل سبق أنْ رأيتَ وحشاً مزيّفاً على الشاشة، أو فرانكشتاين بلحمه ودمه؟ هل تتصوَّر كيف يمكن

أنْ يدرِّب على الضغط على الزناد وأنت ترى الحمائم مرفرفة في وقت واحد؟ إنَّ فرانكشتاين ليس أسطورة : فرانكشتاين خلقٌ حقيقي جداً وُلِدَ من تجربة شخصية لإنسانٍ حسّاس. الوحش دائماً أكثر واقعية حين لا يتلبَّس نِسب اللحم والدم. وحش الشاشة لا شيء بالمقارنة مع وحش الخيال، حتى الوحوش المَرَضيّة الحيّة التي تشقّ طريقها إلى مركز الشرطة ما هي إلا مظاهر ضعيفة للحقيقة الهائلة التي يُعايشها الاختصاصي في الأمراض. أما الجمع بين الوحش والاختصاصي في الأمراض معاً - فمُخصَّص لأنواع معيَّنة من الناس، المُتخفّين كفنّانين، الواعين تماماً أنَّ النوم هو أشدّ خطراً من الأرق. ولكي لا يستغرقوا في النوم، لكي لا يصبحوا ضحايا ذلك الأرق المُسمّى " العيش " يلجؤون إلى الإدمان على وضع الكلمات بعضها مع بعض بلا نهاية. هذه ليست عملية آليّة، كما يقولون، فهناك دائماً وهمُ الاعتقاد بأنهم يستطيعون إيقافهم حين يشاؤون. لكنهم لا يستطيعون، فهم لم ينجحوا إلا في خلق وهم، وربما هو شيء ما سقيم، لكنه أبعد ما يكون عن اليقظة التامة ثم لا هو حيوي ولا خامل. أردتُ أن أكون تامَّ اليقظة دون أن أضطر إلى الكلام أو الكتابة عن ذلك، لكي أقبل الحياة قبولاً مُطلقاً. ذكرت الرجال القدامى الموجودين في أماكن قصيّة من العالم وغالباً ما كنتُ أتّصل بهم. لماذا ظننت أنَّ أولئك " المتوحشين " أكثر قدرة على فهمي من الرجال والنساء المُحيطين بي؟ أكنتُ مجنوناً حتى أؤمن بشيء كهذا؟ لا أعتقد أبداً. فأولئك " المتوحشون " هم البقايا المنحطّة من سلالات بشرية مُبكّرة كانت لهم، كما أعتقد، سطوة أكبر على الواقع. إنَّ خلود السلالة مُتمثِّل دائماً أمام عيوننا في عيّنات الماضي هذه الباقية وسط فخامة واهية. وكون

الجنس البشري خالداً أم لا ليس من شأني، ولكن ما يعنيني هو حيوية هذا الجنس، ويعنيني أكثر أنْ يكون أشد حيوية أو سبات. وفي حين تتراجع حيوية السلالة الجديدة تبدو حيوية السلالات القديمة للعقل اليقظ على قدر متعاظم من الأهمية. إن حيوية السلالات القديمة تتردد حتى في الموت، أما حيوية السلالة الجديدة التي تشرفُ على الموت فيبدو منذ الآن أنها لم تعد موجودة. ليت رجلاً يحمل خليّة تعجّ بالنحل إلى النهر ويُغرقهم... هذه هي الصورة التي حملتها داخلي. ليتني كنتُ ذلك الرجل، وليس النحلة ! وعلمت بطريقة غامضة لا تفسّر أنني أنا ذلك الرجل، وأني لن أغرق مع الخلية، كالآخرين. فدائماً، حين أوجد بين جماعة تأتيني إشارة لأنفصل. تميزت بهذا منذ ولادتي، وعلى الرغم من كثرة المحن التي خضتها عرفتُ أنها ليستْ قاتلة أو دائمة. وأيضاً كلما دعيتُ للصمود يحدث لي شيء غريب آخر. كنت أعلم أني أتفوّق على الرجل الذي يدعوني ! لم تكن المذلّة التي تعرّضتُ لها كذبة بل حالة أوجدها إدراكي لطبيعة الوضع الحتمية. وقد أخافني الذكاء الذي تحلّيتُ به، حتى وأنا مراهق، فقد كان ذكاء " إنسان متوحش " وهو متفوّق دائماً على ذكاء المتحضّرين في كونه أكثر ملائمة لمتطلبات الظرف. إنه ذكاء حياة كاملة، على الرغم من أنه بدا أنَّ الحياة قد تجاوزتهم. شعرت وكأني قذفت إلى دائرة من الوجود لم يكتمل إيقاعها بالنسبة لبقيّة البشر. وكنتُ مضطراً إلى مُراعاة الزمن إذا بقيتُ معهم ولم أُقذَف إلى فلك آخر من الوجود. من ناحية أخرى، كنتُ من نواحٍ متعددة أدنى مرتبة من البشر من حولي. وكأني خرجتُ من نيران الجحيم غير مُكتمل التطهُّر. فلا يزال لديّ ذَنَب وقرنان، وكلما أُثيرتْ انفعالاتي أتنفّس سمّاً

كبريتياً قاتلاً. وكانوا ينعتونني دائماً بـ " الشيطان المحظوظ ". والخير الذي وقعَ عليّ سمّوه " الحظ "، واعتُبِرَ الشر دائماً نتيجة عيوبي، أو بالأحرى، ثمرة جهلي. ولكن نادراً ما حدَّد أي إنسان موقع السر بي! لقد كنتُ، على هذا الأساس، حاذقاً كالشيطان نفسه. والكلّ يعرف أني في الغالب أعمى. وفي تلك الأوقات كنتُ أُترَك وحيداً، منبوذاً، كالشيطان أيضاً. ثم غادرت العالم، عدتُ إلى لظى الجحيم - طوعاً. وهذا المجيء والذهاب المتكرِّر هو الواقعي بالنسبة إليّ، بل هو أكثر واقعية، في الحقيقة، من أي شيء حدث بينهما. والأصدقاء الذين يظنون أنهم يعرفونني لا يعرفون عني أي شيء لأنَّ ذاتي الحقيقية تناقلتها الأيدي عدداً لا يُحصى من المرات. فلا الذين شكروني، ولا الذين لعنوني عرفوا مع مَنْ يتعاملون. لم يقف أحد معي فوق أرضٍ صلبة، لأنني كنتُ دائماً أُصفّي شخصيتي. أبقيتُ ما سُمّيَ بـ " الشخصية " مُعلّقة مؤقتاً لتتّخذ، وهي تتخثَّر، إيقاعاً إنسانياً ملائماً. كنتُ أخفي وجهي بانتظار أنْ أجد نفسي متزامناً مع العالم. وكان هذا كله، طبعاً، خاطئاً. فحتى دور الفنان يستحق الأداء أثناء حساب الوقت. والحركة مهمة، حتى وإنْ ترتَّبَ عليها نشاط عقيم. ينبغي على المرء ألا يقول نعم، لا، نعم، لا، حتى وإنْ تبوأً أعلى المراتب. يجب ألاّ يغرق في الموجة الإنسانية الجامحة، ولو ليُصبح سيداً مُسيطراً. عليه أنْ يوقّع على إيقاعه الخاصّ - وبأي ثمن. لقد كدّست آلاف السنين من التجربة في بضعة أعوام قصار، لكنَّ التجربة ذهبت هباءً لأنه لم تكن لي حاجة إليها. صُلِبتُ وتُرِكَتْ عليّ علامات الصليب، ووُلدتُ متحرّراً من الحاجة إلى المعاناة - ومع ذلك لم أعرف طريقة أخرى لمتابعة الجهاد عدا تكرار المسرحية. كان ذكائي كله

يرفضها. المعاناة عقيمة، هذا ما قاله لي ذكائي مراراً وتكراراً، لكني تابعتُ معاناتي طوعاً. ولم تعلّمني المعاناة شيئاً، ربما لا تزال ضرورية للآخرين، أما لي فليست أكثر من دليل جبري على اللا تكيّف الروحي. إنَّ كل المسرحية التي يمثّلها الإنسان الحاضر بمعاناتها لا وجود لها بالنسبة إليّ : لم توجد أبداً، في الحقيقة. كل جمجماتي[1] هي أصلابٌ وردية، مآسٍ كاذبة للإبقاء على لظى الجحيم متوهجاً لاستقبال الخُطاة الحقيقيين الذين يُهددهم خطر الغياب في النسيان.

هناك شيء آخر... فكلما اقتربت من دائرةِ أقرب الأقرباء يُصبح اللغز الذي غَلّفَ تصرفاتي أعمق. والأم التي خرجت من رحمها كانت غريبة عني تماماً. فأولاً، بعد أنْ ولدتني ولدتْ أختي، وأشير إليها عادةً كأنها أخي. وأختي هي نوع من الوحش الأنيس، ملاك وُهِبَ جسم أبله. ووجدتُ أنَّ من الغرابة أني، وأنا لا أزال صبياً، أكبر وأنمو جنباً إلى جنب مع هذه المخلوقة التي قُدِّرَ لها أنْ تبقى قاصرة العقل طوال حياتها. كان من المستحيل عليّ أنْ أكون أخاً لها لأنه من المستحيل اعتبار هذه الكتلة الرجعية من الجسم " أختاً ". وأعتقد أنها كانت ستزدهر حقاً بين بدائيي أستراليا. وربما امتلكتُ القوة والشهرة بينهم، وأؤكد أنها كانت جوهر الطيبة، ولم تعرف الشر. أما فيما يتعلّق بالعيش حياةً متحضّرة فكانت عاجزة : ليس فقط لم تكن لديها رغبة في القتل بل ولا رغبة في الكفاح على حساب الآخرين. ولم تكن مؤهّلة للعمل، لأنهم حتى لو تمكّنوا من تدريبها على صنع كبسولات للمتفجرات العالية الانفجار،

---

١ - جمع الجمجمة : وهو المكان الذي صُلِبَ فيه السيد المسيح .

مثلاً، فكانت سترمي وهي شاردة الذهن أجرتها في النهر وهي في الطريق إلى المنزل، أو تعطيها لشحاذ يقفُ في الشارع. في حضوري كانت غالباً ما تُضرَب لأنها قامت بعملٍ خيِّر، جميل، أثناء شرود ذهنها، كما سمّوه. وتعلّمتُ وأنا طفل صغير، إنه لا أسوأ من إنجاز عملٍ طيب لغير ما سبب. كنتُ في البداية أتلقّى مثل عقوبة أختي، فأنا أيضاً كانت لدي عادة وهب الأشياء، خاصة الأشياء الجديدة التي تكون قد أُعطيَتْ إليّ تواً. وذات مرة، وأنا في سن الخامسة، تلقيتُ الضرب لأني نصحتُ أمي بأنْ تقطع الثؤلول عن إصبعها. فقد كانت قد سألتني ذات يوم ماذا تفعل بها، فأخبرتها، بما لديّ من معلومات طبيّة محدودة، أنْ تقطعها بالمقصّ، وهكذا فعَلَتْ، كالبلهاء. بعدها بعدّة أيام أُصيبت بتسمُّم الدم فأمسكت بي وقالت - " وقلتَ لي أنْ أقطعها، هه؟ "، ولطمتني بقوة. ومنذ ذلك اليوم علمتُ أني ولدتُ في المنزل الخاطئ. منذ ذلك اليوم صرتُ أتعلّم بسرعة البرق. ويتحدثون عن التكيُّف ! في حوالي سن العاشرة كنتُ قد عايشتُ جميع جوانب نظرية التطوُّر. وهكذا رحتُ أتطوّر عبر جميع مراحل حياة الحيوان وأنا مُقيَّد إلى هذه المخلوقة المُسمّاة " أختي " والتي كانت كما هو واضح مخلوقة بدائيّة ما كان لها أن تتوصّل، حتى بعد أنْ تبلغ التسعين، إلى فهم الحروف الهجائية. وبدل أنْ أنمو كشجرة قوية بدأتُ أميل إلى أحد جانبيّ، بلا أي اعتبارٍ لقانون الجاذبية. وبدل أنْ أُنْبِتْ أطرافاً وأوراقاً أنبتُّ نوافذ وأبراجاً. وصار كياني كله يتحجّر، وهو ينمو، وكلما ارتفعتُ تحدَّيتُ قانون الجاذبية. كنتُ وسط المشهد العام ظاهرة فريدة، ظاهرة جذبتْ الناس وأثارتْ الإعجاب. ولو قامتْ الأم التي حملتنا بمجهودٍ أكبر لولَدَتْ ثوراً أبيض رائعاً ولوضعنا

نحن الثلاثة في المتحف مدى الحياة لحمايتنا. كانت الأحاديث التي دارتْ بين برج بيزا المائل، وسارية الجَلد، والآلة الهادرة وحيوان الطائر المُجنَّح على شكل إنسان هي على أقلّ تقدير، شاذة قليلاً. كان يمكن لأي شيء أنْ يصبح موضوع حديث - كفُتاتة خبز تغاضَتْ عنها الـ " أخت " وهي تنظف مفرش المائدة أو معطف يوسف المتعدد الألوان الذي كان يمكن أنْ يكون، بتقدير العجوز المتمرِّس في الخياطة، مزدوج الصدر أو سترة مُذيّلة أو بذلة كاملة. حين أعود إلى البحيرة المتجمّدة، لكي أمارس التزلُّج طوال فترة بعد الظهر، لا يكون أهمّ شيء هو أوكسجين الأوزون الذي أستنشقه مجاناً، ولا الالتفافات الهندسية التي تقوّي عضلاتي، بل بقعة الصدأ الصغيرة الموجودة تحت الملزمة التي، إنْ لم تُكشَط فوراً، قد تُفسِد المزلج كله وتسبب فناء إحدى القيَمْ الذرائعية التي لم تكن مفهومة لدى منحى تفكيري المُعجِز. ولنأخذ مثالاً صغيراً، فهذه البقعة الصغيرة من الصدأ يمكن أنْ تُفضي إلى أشد النتائج هسترية. وقد تقلب " الأخت" أثناء بحثها عن تنكة الكيروسين، قطرميز الخوخ المطهو وبذلك تعرّض حياتنا جميعاً للخطر بسلبنا الوحدات الحرارية اللازمة وتتلقّى ضرباً مُبرّحاً، ليس بغضب، لأنَّ هذا قد يُزعج الجهاز الهضمي، بل بصمت وفعالية، كما يُخفق الكيميائي بياض بيضة استعداداً للقيام بتحليلٍ ثانوي. لكنَّ " الأخت "، التي لا تفهم طبيعة العقاب الوقائية، تُطلق أعلى الصراخ إثارة للروع ويترك هذا العجوز بالغ الأثر حتى إنه يخرج ليتمشّى ويعود بعد ساعتين أو ثلاث وهو سكران حتى العماء، والأنكى من ذلك، يكشط قليلاً من الدهان عن الباب الدوّار أثناء ترنّحه الأعمى. وتسبِّب بقعة الدهان المكشوطة مشادة عنيفة مما ترك أسوأ الأثر على

حياة أحلامي، لأنه داخلَ حياة أحلامي كنتُ أتبادلُ الأماكن مع أختي، متقبّلاً التعذيب الموجَّه إليها وأغذّيه بعقلي المُفرِط الحساسية. في هذه الأحلام، المُرفقة دائماً بصوت تكسُّر زجاج، وصراخ، ولعنات، وأنين، ونشيج، جمعت معرفة غير مُنسّقة بالأسرار القديمة، بطقوس التعرُّف على الأمور الأوليّة، بتناسُخ الأرواح وما إليها. قد تبدأ أحياناً بمشهد حقيقي من الحياة - كأنْ تكون الأخت واقفة قرب لوح الكتابة في المطبخ، والأم تحومُ فوقها تحمل المسطرة، وتقول كم يساوي حاصل جمع اثنين مع اثنين؟ وتزعقُ الأخت ***خمسة***. بانغ ! كلا، ***سبعة***، بانغ ! كلا، ***ثلاثة عشر، ثمانية عشر أو عشرين*** ! وأكون أنا جالساً على طاولة الكتابة، أؤدي دروسي، وسط تلك المشاهد من الحياة الواقعية، وعند استدارة خاطفة أو التواء، حين أرى المسطرة تنهال على وجه الأخت، أنتقل فجأةً إلى عالمٍ آخر لا يعرف الزجاج، مثلما هو غير معروف لدى شعوب تاكيكابو أو لينيلينابي. وجوه من حولي مألوفة لدي - هم أقربائي المُقرّبين، ولسببٍ غامض، لم يتعرّفوا عليّ في هذا المحيط الجديد. كانوا يرتدون ملابس سوداء جلودهم، لونها رمادي، كشياطين التيبت. كلهم مدججون بالسكاكين وأدوات أخرى للتعذيب، وينتمون إلى فرقة جزّاري القرابين. شعرتُ أني أتمتع بحرية مُطلقة وبسيطرة إله، ومع ذلك وبتحوُّلٍ نَزَوي للأحداث أجد نفسي مستلقياً على وَضَم القرابين وقد انحنى أحد أقاربي المُقرّبين السَحَرة فوقي وهو يحملُ سكيناً تلمعُ ليقطع قلبي. وأبدأ بترديد "دروسي " مرتعباً، أتعرّق، وبصوتٍ عالٍ زاعق، أسرع فأسرع، وأشعر السكين تتلمّس طريقها إلى قلبي. اثنان واثنان أربعة، خمسة وخمسة عشرة، تراب، هواء، نار، ماء، اثنين، ثلاثاء، أربعاء، هيدروجين،

أوكسجين، بيتروجين، ميوسين، بليوسين، إيوسين، الآب، الابن، الروح القُدس، آسيا، أفريقيا، أوروبا، أستراليا، أحمر، أزرق، أصفر، الأسمر المحمرّ، شجر البرسيمون، الباو باو، الكاتالبا... أسرع فأسرع... أودين، ووتان، بارسيفال، الملك الفرد، فريدريك العظيم، الحلف الهانسيتي، معركة الهستنغ، الترموبيله، ١٤٩٢، ١٧٨٦، ١٨١٢، أدميرال فاراغوت، تهمة بيكيت، فرقة النور، إننا مجتمعون هنا اليوم، الرب راعينا، يوف لن، واحد أحد، لا، ١٦، لا، ٢٧، النجدة ! جريمة ! يا شرطة ! - وأصرخ أعلى فأعلى وأسرع فأسرع وأنا فاقد لعقلي تماماً ولا يعود هناك أي ألم، ولا رعب، كأنهم يغرزون السكاكين في كل مكان. وفجأةً أصبحُ هادئاً تماماً والجسدُ المستلقي على الوَضَم، ولا يزالون يحفرونه بمرح ونشوة، لا يشعر بأي شيء لأنني، أنا مالكه، هربت وأصبحت برجاً من حجر يميل على المشهد ويُراقب بفضول علميّ. يكفيني أنْ أخضع لقانون الجاذبية حتى أقع عليهم وأسحقهم. لكنني لم أستسلم لقانون الجاذبية لأنني مذهول تماماً من فظاعة كل شيء. إنني مذهول جداً في الحقيقة، إلى درجة أني أنمّي المزيد فالمزيد من النوافذ. وبينما النور يخترق داخل كياني الحجري أشعرُ بأنَّ جذوري، الضاربة في الأرض، حيّة، وبأني سأتمكّن ذات يوم من النأي بنفسي كما أريد عن تلك النشوة المُثبَّتْ فيها.

ولا أكاد أتحمَّل الحلم المُثبَّتْ فيه دون إرادتي. ولكن في عالم الواقع، حين يأتي أقرباؤنا المقرَّبون الأعزّاء، أُصبحُ كعصفور انطلقَ مُسرعاً جيئةً وذهاباً كإبرة مغناطيسية. فإذا سألوني سؤالاً أعطيهم خمسة أجوبة، كل واحد أفضل من سابقه، وإذا طلبوا أنْ أعزف فالساً

أعزفُ سوناتة مزدوجة الصدر باليد اليسرى، وإذا طلبوا مني أنْ أتفضَّل وأتناول فخذ دجاج آخر ألتهمُ الصحن، والتوابل وكل شيء، وإذا حثّوني على الخروج واللعب في الشارع أخرج وفي غمرة حماستي أشقُّ رأس ابن عمي بعلبة تنك: وإذا هدَّدوا بسلخ جلدي أقول هيا اضربوا، لا يهمني! وإذا مسحوا على رأسي لتقدُّمي في المدرسة أبصقُ على الأرض لأريهم أنه لا يزال هناك شيء أتعلّمه. كنتُ أفعل كل ما يريدونه وزيادة. إذا أرادوا أنْ أهدأ ولا أتفوَّه بكلمة أصمتُ كصخرة: ولا أسمع حين يتحدثون إليّ، ولا أتحرَّك حين أُلمَسْ، ولا أبكي حين أُقرَص، ولا أتزحزح من مكاني حين أُدْفَع. وإذا اشتكوا من عنادي أصبحُ طيِّعاً لدِناً كالمطاط. وإذا أرادوا أنْ أتعب حتى لا أُبدد الكثير من الطاقة أتركهم يسندون إليّ كافة أنواع العمل لأؤديها وأقوم بالمهمة على أكمل وجه حتى أنهار على الأرض في آخر الأمر ككيسٍ من القمح. وإذا أرادوا أنْ أكون عاقلاً أُصبحُ سوبر-عاقل، حتى أكاد أُصاب بالجنون. وإذا أرادوا أنْ أطيعَ أطيعُ إلى أبعد الحدود، مما يُسبب فوضى لا تنتهي. هذا كله لأنَّ الحياة الجزيئية لأخٍ وأخت تتعارض والأوزان الذريّة التي أُعطيَتْ لنا. ففي حين انها لم تكن تنمو على الإطلاق تموتُ كالفطر، ولأنه ليست لها شخصية أصبحتُ عملاقاً، ولأنها كانت متحرّرة من الشر أصبحتُ شمعداناً من الشر له اثنان وعشرون فرعاً، ولأنها لم تطلب أيّ شيء من أي إنسان طلبتُ كلَّ شيء، ولأنها أوحَتْ بالسخرية في كل مكان أوحيتُ بالخوف والاحترام، ولأنها مُذلّة ومُعذَّبة رحتُ أنتقمُ من كل إنسان، صديق وعدو على قدم المساواة، ولأنها عاجزة ملأتُ نفسي بالقوة. العملقة التي عانيتُ منها كانت ببساطة نتيجة الجهد الذي بذلته لأمسح بقعة الصدأ

الصغيرة التي زجَّتْ بنفسها في مزلجة العائلة، إنْ صحَّ التعبير. هذه البقعة الصغيرة من الصدأ الموجودة تحت الملزمة جعلتني بطلاً في التزلُّج. جعلتني أتزلَّج بسرعة وحمية إلى حد أنه بعد ذوبان الجليد كنتُ لا أزال أتزلَّج، وأتزلَّج، في الوحل، وعلى الإسفلت، وخلال المروج والأنهار ومزارع البطيخ والنظريات الاقتصادية وإلى آخره، أمكنني أنْ أتزلَّج مُخترقاً الجحيم، إلى ذلك الحد وصلتْ سرعتي ورشاقتي.

ولكنْ لم يكن لكل ذلك التزلُّج الرائع أي فائدة - فقد كان الأب كوكسكوكس، نوح شركة بان أميركان، دائماً يستدعيني إلى السفينة، وكلما توقّفتُ عن التزلُّج يحدث طوفان - تنشقّ الأرض وتبتلعني. كنتُ أخاً لكل إنسان وفي الوقت نفسه خائناً لنفسي. قدَّمتُ أكثر التضحيات إثارة للذهول، واكتشفتُ في آخر الأمر أنَّ لا فائدة منها على الإطلاق. فما فائدة إثبات قدرتي على أنْ أكون ما يتوقَّع مني في حين لم أردْ أنْ أكون أياً منها؟ فكلما اقتربتَ من حدود ما يُطلَبْ منكَ، تواجهك المشكلة نفسها - أنْ تكون نفسك! ومع أول خطوة تتخذها في هذا الاتجاه تدرك أنَّ ليس هناك زيادة أو نقصان، فترمي المزالج بعيداً وتسبح. ولا يعود للمعاناة وجود لأنه لا شيء يُهدِّد أمنك. ولا تشعر برغبة في مساعدة الآخرين أيضاً، فلماذا تسلبهم امتيازاً يجب أنْ يُنال كسباً؟ وتمتد الحياة من لحظةٍ إلى لحظة في أبديّةٍ عجيبة. لا شيء يمكن أنْ يكون أكثر واقعية مما تفترض أنه كذلك. كيفما افترضت الكون يكون ولا يمكن أنْ يكون شيئاً آخر ما دمت أنتَ نفسك وأنا نفسي. إنكَ تعيش على ثمار عملك وعملك هو حصاد فكرك. والتفكير والعمل شيء واحد، لأنكَ في السباحة ومنها، وهي كل ما ترغب في تحقيقه، لا أكثر ولا

أقلّ. كل حركة باليد لها حسابها وإلى الأبد. وجهاز التدفئة والتبريد جهاز واحد، ولا يفصِل مدار السرطان عن مدار الجدي غير خط وهمي. ولا تصبح منتشياً ولا تغرق في حزنٍ عنيف، لا تصلّي ليهطل المطر، ولا ترقص برشاقة. إنكَ تعيش كصخرة سعيدة وسط المحيط : أنتَ مُثبَّتٌ بينما كل ما حولك في حركة مضطربة؛ مُثبَّتٌ إلى واقعٍ يسمح بالتفكير لأنَّ لا شيء ثابتٌ، وأنه حتى أسعد وأقوى صخرة ستتلاشى تماماً في يوم وتتدفَّق كالمُحيط الذي وُلِدتُ منه.

هذه هي الحياة الموسيقية التي كنتُ أقتربُ منها من أول مرة تزلّجتُ فيها كمهووس خلال الردهات والأروقة كلها المؤدية من الخارج إلى الداخل. لم تُقرّبني صراعاتي منها، ولا حيويتي المتوثّبة، ولا مرفقيّ المحتكّين بالإنسانية. كل ذلك كان ببساطة حركة من قوة موجّهة إلى أخرى في دائرة مهما امتدّ فيها المحيط، يبقى موازياً مع ذلك للعالم الذي أتحدَّث عنه. يمكن لدولاب القَدَر أنْ يسمو في أي لحظة لأنه عند كل نقطة من سطحه يلمس العالم الحقيقي ولا يلزم إلا شرارة من الضوء لإحداث الإعجاز، لتحويل المتزلّج إلى سابح والسابح إلى صخرة. والصخرة هي مجرَّد صورة للعمل الذي يوقف دوران الدولاب العقيم ويُغرِق الوجود في وعيٍ تام. والوعي التام يُشبه بحقّ مُحيطاً لا ينضب يهبُ نفسه للشمس والقمر ويحتوي أيضاً الشمس والقمر. إنَّ كل ما هو كائن مولود من محيط النور السرمدي - حتى النور.

أحياناً، أثناء دوران الدولاب المتواصِل، ألمحُ قَبَساً من طبيعة القفزة الضرورية الواجب القيام بها. والفكرة المُحرِّرة كانت - القفز خارج النظام الروتيني. أن يكون المرء أشدّ غزارة، واختلافاً، عن أشدّ المهووسين

اللامعين على وجه الأرض! أثارت في نفسي السأم حكاية الإنسان على الأرض. والانتصار، حتى الانتصار على الشرّ، أثار فيّ الضجر. إنّ إشعاع الطيبة رائع، لأنه مقوّ، ينعش، ينشط. ولكن مجرّد الوجود هو الأكثر روعة، لأنه أبديّ ولا يتطلّب إظهاراً. الوجود موسيقى، وهي تدنيس الصمت لصالح الصمت، لذا فهي تتجاوز الخير والشر. الموسيقى هي تجلٍ للعمل من دون حيوية؛ هي عملٌ إبداعي محض يسبح في حضن نفسه. الموسيقى لا تحثّ ولا تحمي، لا تبحث ولا تُفسِّر؛ الموسيقى صوتٌ بلا ضجيج يُصدره السابح في محيط الوعي، جائزة لا ينالها الإنسان إلا من نفسه، هِبة الإله الذي هو عليه لأنه لم يعُد يفكِّر في الإله، هي تنبّؤ بالله الذي سيكونه كل امرئ في الوقت المناسب، حينما يغدو كل ما هو **موجود** يفوق الخيال.

تقفيلة

منذ زمن ليس بالبعيد كنتُ أجوبُ شوارع نيويورك. في برودواي العزيز القديم. الوقت ليل وزُرقة السماء شرقية، كزُرقة الذهب على سقف الباغودا، في شارع البابيون، حين بدأتْ الآلة تقرقع. كنت ماراً من تحت المكان الذي تقابلنا فيه بالضبط. توقفتُ هناك أرنو إلى الأضواء الحمراء في النوافذ. وصَدَحَتْ الموسيقى كما صدحتْ دائماً - خفيفة، لاذعة، ساحرة. شعرتُ بالوحدة وملايين الناس من حولي. وخطر لي، وأنا أقفُ هناك، أني لم أعد أفكّر فيها على الإطلاق، بل أفكّر في هذا الكتاب الذي أكتبه، وقد أصبح الكتاب أهمّ بالنسبة إليّ منها، من كل ما حدث لنا. هل سيكون هذا الكتاب هو الحق، كل الحق، ولا شيء غير الحق، فليساعدني الرب؟ وأصارعُ مسألة " الحق " وأنا أغوصُ في الحشد. منذ سنين وأنا أحاول أنْ احكي هذه القصة ومسألة الحق تجثمُ بكل ثقلها عليَّ كالكابوس. ومرةً بعد مرة سردتُ على مسامع الآخرين ظروف حياتنا، ودائماً كنتُ أقول الحق. لكنَّ الحق يمكن أنْ يكون كذبة أيضاً. فالحق ليس كافياً. الحق هو فقط لب وحدة كاملة لا تنضب.

أذكر حين افترقنا إلى الأبد أنَّ هذه الفكرة استولت عليّ. فقد

ادَّعَتْ، حين تركتني، لعلها صدَّقتْ، أنه ضروري لصالحنا. وأدركتُ من أعماقي أنها تحاولُ أنْ تتحرَّر مني، لكنني كنتُ من الجبن بحيث لا أعترف بذلك لنفسي. وحين علِمتُ أنَّ في وسعها أنْ تعيش من دوني، ولو لفترةٍ من الزمن، أخذتُ مسألة الحق التي حاولتُ أنْ أثيرها تنمو بسرعةٍ مخيفة. كانت أكثر إيلاماً من أي شيء مارسته من قبل، لكنها شافية. وحين بُتُّ خاوياً تماماً، حين تمادى العدم في إيغاله حتى لم يعُد بالإمكان أنْ يغدو أكثر حِدّة، شعرتُ فجأةً أنه، إذا أردتُ الاستمرار في الحياة، يجب دمج هذا الحق غير المحتمل بشيء يتجاوز إطار المحنة الشخصية. شعرتُ بأنَّ عليَّ أنْ أنتقل برهافة إلى عالم آخر، عالم من نسيجٍ أقوى، وأكثر مرونة، تعجز أشد الحقائق بثّاً للرعب عن تدميره. جلستُ لأكتب لها رسالة أخبرها فيها إني أشعر ببؤسٍ بعد فقدانها بحيث قرّرتُ أنْ أبدأ بتأليف كتابٍ عنها، كتاب سيخلّدها. سيكون كتاباً، كما قلت، لم يوجد له مثيل من قبل. ورحتُ أهيم بانتشاء، وبينما أنا كذلك انطلقتُ فجأة أتساءل لماذا أنا سعيد إلى هذا الحد.

أثناء مروري من تحت صالة الرقص، أفكِّرُ من جديد في ذلك الكتاب، أدركتُ فجأةً أنَّ حياتنا قد انتهتْ. أدركتُ أنَّ الكتاب الذي أُخطِّطُ له لم يكن غير ضريح سيضمّها - مع ذاتي المُسخَّرة لها. كان ذلك قبل بعض الوقت، ومنذ ذلك الحين وأنا أحاولُ تأليفه. لماذا هو شديد الصعوبة؟ لماذا؟ لأنَّ فكرة " النهاية " أكبر مني.

يكمنُ الحقُ في هذه المعرفة بالنهاية القاسية الوحشية. في وسعنا أنْ نعرف الحق ونقبله، أو نرفض معرفته دون أنْ نموت أو نولد من جديد.

وعلى هذا الأساس يستحيل العيش إلى الأبد، حياةً سلبيّة بصلابة وكمال، أو تشتُّتْ وتجزّؤ الذرَّة. وإذا طرقنا هذا السبيل حتى بُعدٍ كافٍ، فيمكن حتى لهذه الأبدية الذريّة أن تستسلم للعدم وينفرط تماسُك الكون.

منذ سنين وأنا أحاولُ أن أحكي هذه الحكاية، وفي كل مرة بدأتُها كنتُ أختار مساراً مُختلفاً. إنني أشبه بمُكتشِف رأى، رغبةً منه في أنْ يُبحِرَ طائفاً الكرة الأرضية، أنَّ ليس من الضروري حمل حتى بوصلة. زيادة على ذلك، من طول حُلمي بها، أصبحتْ الحكاية أشبه بمدينةٍ هائلة مُحصَّنة، وكنتُ أنا الذي يحلم بها أقعُ خارجها، جوّالاً، أنتقلُ من بوابة إلى أخرى وأنا من فرط التعب بحيث لا أقوى على دخولها. وكما يحدث مع الجوّال، كانت تلك المدينة التي وَقَعَتْ فيها أحداث قصّتي تتملَّص مني على الدوام. إنها دائماً مرئية ومع ذلك تبقى قصيّة، كأنها قلعة وهميّة تطفو فوق الغيوم. ومن فتحات إطلاق النار هبطتْ أسرابُ الإوز البيضاء في تشكيل مُنظَّم يشبه الإسفين. وبأطراف أجنحتها البيضاء المزرقَّة تمسح الأحلام التي تُبهِرُ بصري. قدماي تتحركان باضطراب، وكلما ربحتُ موطئ قدم أضيعُ من جديد. أهيم على غير هدى، أحاولُ أنْ اكسب موطئ قدم صلب وثابت، أستطيع أنْ أطل منه على حياتي، لكنَّ ورائي لا يوجد إلا فوضى من الدروب المتقاطعة، تتلمَّس مسارها مضطربة، دائرية الحركة، كمناورة الدجاجة التشنجية التي قُطِعَ رأسها للتو.

كلما أحاول أنْ أشرحَ لنفسي الأسلوب الخاصّ الذي اتّسَمَتْ به حياتي، حين أعود إلى السبب الأول، أفكِّر وبلا مواربة، بأول فتاة

أحببتُها. يبدو لي أنَّ كل شيء يبدأ من تلك المغامرة المُجهِضة. كانت مغامرةً غريبة، مازوشية، مثيرة للسخرية ومأساوية في آن. ربما أُتيحَ لي أنْ أستمتع بتقبيلها مرتين أو ثلاث دفعة واحدة، قبلات من النوع الذي تدَّخره لإلاهة. ربما انفردتُ بها مرات عديدة. ومن المؤكَّد أنها لم تكن لتحلم بأني بقيتُ أكثر من عام أمرُّ من أمام منزلها كل ليلة آملاً في أنْ ألمحها من النافذة. كل ليلة بعد العشاء أنهضُ عن المائدة وأتبعُ طريقاً طويلة تؤدي إلى بيتها. لم أكن أجدها مرةً عند النافذة لدى مروري ولم أملك الشجاعة أبداً لأتوقف أمام الباب وأنتظر. كنتُ أمرُّ جيئة وذهاباً، جيئة وذهاباً دون أنْ أرى لها طَرَفاً. لماذا لم أكتب لها؟ أذكُرُ مرة أني استجمعتُ ما يكفي من الشجاعة لأدعوها إلى المسرح. وصلتُ إلى منزلها مع باقة بنفسج، وكانت المرة الأولى والوحيدة التي أشتري فيها زهوراً لامرأة. وبينما نحن نغادر المسرح سقطتْ البنفسجات عن صدرها، ومن شدة اضطرابي دستُ عليها. ورجوتها أنْ تدعها مكانها، لكنها أصرَّتْ على جمعها، وكم شعرتُ أني فظيع - ولم أتذكَّر ابتسامتها لي وهي تنحني لتلتقط أزهار البنفسج إلا بعد وقتٍ طويل.

كان إخفاقاً تاماً. وفي النهاية هربت. في الواقع أني هربتُ من امرأةٍ أخرى. ولكن في اليوم السابق لتركي المدينة قرَّرتُ أنْ أراها مرةً أخرى. كان الوقت منتصف الظهيرة وخرجت لتتكلَّم معي في الشارع، في ممرٍ صغير بين الأبنية تكتنفه الجدران من كل جوانبه. كانت قد خُطِبَتْ إلى شابٍ آخر، وتظاهرت بالسعادة، لكنني فهمتُ، مع جهلي، أنها لم تكن سعيدة كما ادَّعتْ. ولو قلتُ الكلمة المطلوبة فأنا متأكد من أنها

كانت ستترك الشاب الآخر، بل وربما كانت هربت معي. وفضّلتُ أنْ أعاقب نفسي. قلت وداعاً بلا مبالاة وهبطتُ الشارع كالميت. وفي صباح اليوم التالي، اتّجهتُ صوب الساحل، وقد قررتُ أنْ أبدأ حياةً جديدة.

وكانت الحياة الجديدة إخفاقاً آخر. وانتهيتُ إلى مزرعةٍ لتربية الماشية في تشولافيستا، وأنا أتعسُ إنسان مشى على سطح الأرض. لديّ فتاة أحبها وأخرى لا أكنُّ لها إلا أعمقُ الشفقة. عشتُ معها سنتين، لكنهما بدتا لي دهراً كاملاً. كنتُ في الحادية والعشرين من العمر واعترفتْ بأنها في السادسة والثلاثين، وكلما نظرتُ إليها أقولُ لنفسي - حين أصبحُ في الثلاثين ستكون هي في الخامسة والأربعين، وحين سأغدو في الأربعين ستكون في الخامسة والخمسين، وحين سأبلغ الخمسين ستكون هي في الخامسة والستين. كانت تُظلل عينيها تجاعيد رقيقة، ضاحكة، لكنها تجاعيد على أي حال. حين أُقبّلها تتضاعف مرات عديدة. كانت تضحك بسهولة، وعيناها حزينتين، عظيمتيّ الحزن، عينين أرمينيتين، وشعرها، الذي كان أحمر ذات مرة، أمسى الآن أشقرَ من البيروكسايد. وما عدا ذلك كانت تستحق العبادة - فينوسية الجسد، فينوسية الروح، معشوقة وفيّة، ممتنة، كما يجدر بالمرأة أنْ تكون، ***غير أنها كانت تكبرني بخمسة عشر عاماً***. وجرفتني هذه الخمسة عشر عاماً من الفرق إلى حافة الجنون. وحين كنتُ أخرج معها لا أفكّر إلا في - كيف ستكون بعد عشرة أعوام؟ أو، كم تبدو من العمر الآن؟ هل أبدو مناسباً لها؟ وما أنْ نعود إلى المنزل حتى يغدو كل شيء على ما يرام. حين كنا نصعد الدرج أدخِلُ أصابعي في فرجها، فتصهل كالحصان.

وإذا كان ابنها، الذي يُعادل عمره عمري، في سريره، نغلقُ الأبواب ثم نقفل باب المطبخ على نفسينا. وتتمدَّد على طاولة المائدة الضيقة وأسلخه فيها. كان شيئاً رائعاً. وما جعله أكثر روعة أنه مع كل مضاجعة أقول لنفسي - هذه آخر مرة... غداً سأهرب! ومن ثم، وبما أنها كانت تعمل حاجبة، أنزلُ إلى القبو وأدحرج لها براميل الرماد إلى الخارج. وفي الصباح، بعد أنْ يذهب ابنها إلى العمل، أصعد إلى السطح وأهوّي البطانيات والشراشف. فقد كانت هي وابنها مُصابين بالسل... أحياناً لم يكن يوجد طعام على مائدة الغداء، وتارة أخرى يتملّكني اليأس من كل شيء حتى يقبض عليّ من حنجرتي فأرتدي ملابسي وأخرج لأتمشّى. وأحياناً كنتُ أنسى أنْ أعود. وحين أفعلْ أكون أتعس مخلوق قاطبة، لأني أعلم أنَّ في انتظاري تلك العينين الكبيرتين المفعمتين بالألم. فأعود إليها كرجل ينتظره أداء واجب مقدَّس. وأستلقي على السرير وأتركها تداعبني، وأدرس التجاعيد التي تحت عينيها وجذور شعرها التي تتحوَّل إلى اللون الأحمر. أستلقي هكذا، أفكّر غالباً بالأخرى، التي أحبها، أتساءل إنْ كانت مستلقية مثلي للسبب نفسه، أو... يا لتلك المشاوير الطويلة التي مشيتها على مدى ٣٦٥ يوماً في العام! كنتُ أستعرضها في خاطري وأنا مُضطجع بجانب الأخرى. كم من مرة عشتُ تلك المشاوير! في أفظع، وأشد الشوارع عتمة وبشاعة التي شقّها الإنسان. عشتُ تلك المشاوير بألم، وتلك الشوارع، وتلك الآمال الأولى المُحطَّمة. وها هي النافذة، ولكن لا ميليساند، الحديقة أيضاً موجودة، ولكن بلا بريق ذهب. وأمرُّ وأُعيد المرور، والنافذة فارغة

دائماً. نجم المساء يتدلّى واطئاً، وتظهر تريستان، ثم فيديليو، وأوبيرون. والكلب الأسطوري ينبح بأفواهه جميعها وعلى الرغم من عدم وجود مستنقعات أسمعُ ضفادع تنقُّ في كل مكان. المنازل هي نفسها، أرتال السيارات هي نفسها، كل شيء نفسه. إنها مختبئة خلف الستارة، تنتظر مروري، تفعلُ هذا وتفعلُ ذاك... ***لكنها ليست هناك، أبداً، أبداً، أبداً***، هل ما يحدث هو أوبرا عظيمة أم صوت أرغن يدوي؟ إنه أماتو Amato يُفجِّر رئتيه الذهبيتين، رباعيات الخيّام، قمة إفريست، أمسية بلا قمر، نشيجٌ عند الفجر، صبيٌ بمظهر كاذب، قطة داخل حذاء، مونا لو، ثعلب أو حَمَل صغير، شيءٌ ليس له قِوام ولا زمان، لا نهائي ويبدأ مراراً وتكراراً، تحت القلب، خلف الحنجرة، أسفل القدمين، ولِمَ ليس مرة واحدة، ولو كذبة، شيءٌ يوقِف الألم، يوقفُ تلك المشاوير التي لا تنقطع... نحو المنزل. المنازل هي نفسها، أعمدة النور نفسها، كل شيء نفسه. أمشي مُجتازاً منزلي، مجتازاً المقبرة، وسيارات الغاز، ومواقف السيارات، والمستودع، وأصلُ إلى الريف المنفتح. أجلسُ على حافة الطريق ورأسي مدفون بين يديّ وأجهشُ بالبكاء. يا لي من مسكين أحمق، لا أستطيع أنْ أقلِّص قلبي بما يكفي لأفجِّر شراييني. أودُّ لو أختنق من الألم ولكن بدل ذلك ألِدُ صخرة.

في تلك الأثناء، الأخرى تنتظر. أكادُ أراها ثانية جالسة على الدرجة السفليّة تنتظرني، عيناها كبيرتان كئيبتان، ووجهها شاحب يرتجف اشتياقاً. خسارة، لطالما اعتقدتُ أنَّ هذا ما يُعيدني، ولكنْ الآن وأنا أتقدَّم منها وأرى النظرة في عينيها لم أعد أعرفُ ما هو، لا أعرفُ

غـيـر أنـا سندخل ونتـمـدَّد وسوف تنهض نصف باكـيـة، نصف ضـاحكة، وسـوف تزداد صـمـتـاً وتراقـبني، تدرسني وأنا أتنقَّل، ولا تسـأل مـاذا يُعـذّبني، أبداً، أبداً، لأنَّ هذا هو الشيء الوحـيـد الذي تخـشـاه، الشيء الوحيد الذي ترهب معرفته. ***لا أحبكِ!*** ألا تسـمعينني؟ أصرخُ بهذا، لا ***أحبكِ***! أصرخ مراراً، وشـفـتـاي مـقـفلتـان، والحقـد يفعمُ قلبي، واليـأسُ والغضبُ العقـيـم. لكنَّ الكلمـات لا تفارقُ شفـتـيّ. أنظرُ إليـهـا مـعـقـود اللسـان. لا أستطيع أنْ أقول... وقت، وقت، وقتُ أبديّ بين أيدينا وليس لدينا غير الأكاذيب نملأه بها.

حسن، لا أريد أنْ أكرر حياتي كلها المؤدية إلى اللحظة المميتة - المسافة طويلة جداً، ومؤلمة جداً. ثم، هل تؤدي حيـاتي حقـاً إلى هذه اللحظة المتأوجة؟ أشك في هذا. أعتقد أنه مرّتْ عليَّ أوقات لا حصرَ لها أُتيحَتْ لي الفرصة فيها لأبدأ. ولكني افتقرتُ إلى القوة والإيمان. في الليلة المذكورة خرجت من نفسي بتأنٍ : خرجتُ مباشرةً من حياتي القديمة إلى الجديدة. لم أبذل في ذلك أدنى جهد. وكنتُ عندئذٍ في الثلاثين. ولي زوجة وولد وما يُسمّى بموقع " مسؤولية ". هذه هي الوقائع، والوقـائع لا تعني أي شيء، والحقيقة هي أنَّ رغبتي كانت من العِظَم بحيث صـارتْ واقـعاً. في لحظة كتلك لا يهمّ ماذا يفعل الإنسـان، المهم مـاذا هو. في لحظات كتلك يتحوَّل الإنسان ملاكاً، وهذا بالضبط ما حصل لي : صرت مـلاكـاً. ليس نقـاء الملاك هو العظيم القـيـمـة، بقدر مـا هو قدرته على الطيـران. يمكن للمـلاك أنْ يُحطِّم التـقـليـد فـي أي مكان وفـي أي وقت ويجد جنّتـه، ولديه القدرة على هبـوط أسفل الأمـور وعلى التـحـرُّر متى

يشاء. الليلة المذكورة أفهمها تماماً. لقد أصبحت نقياً ولا إنسانياً، منفصلاً، ونبتَ لي جناحان. تحرَّرتُ من الماضي ولم يبقَ لدي أي اهتمام بالمستقبل. وتجاوزتُ النشوة. وحين كنتُ أخرجُ من المكتب أطوي جناحيَّ وأخفيهما تحت معطفي.

كانت قاعة الرقص تقع تماماً قبالة المدخل الجانبي لدار المسرح حيث تعوَّدتُ الجلوس في أوقات المساء بدل البحث عن عمل. كان شارعاً للمسارح وكنتُ أجلسُ هناك ساعات طوال أحياناً وأحلمُ أشد الأحلام عنفاً. كانت الحياة المسرحية لنيويورك متمركزة في ذلك الشارع، كما بدا. إنه شارع برودواي، النجاح، والشهرة، والبريق، والدهان، وستارة الحرير الصخري. أجلسُ على دَرَج المسرح أحدِّقُ إلى قاعة الرقص المقابلة، وخيط المصابيح الحمراء المُضاءة حتى في أوقات بعد الظهر الصيفية. في كل نافذة مروحة دائرة وكأنها تدفع الموسيقى إلى الشارع، وهناك تتكسَّر بجلجلة حرمة المرور العالية. وقبالة الجانب الآخر من قاعة الرقص قامت محطة الاستراحة، وعلى مستوى الشارع يقع كشك يبيع الصحف الأجنبية والمجلات، كان مجرَّد رؤية تلك الصحف، المكتوبة بلغات أجنبية، كافية لتشويش ذهني نهاراً كاملاً.

ارتقيتُ الدَرَج بلا أدنى تصميم مُسبَق إلى قاعة الرقص، واتّجهتُ مباشرةً إلى كوّة المقصورة التي جلس فيها نِكْ اليوناني وأمامه لفّة كبيرة من بطاقات الدخول. وكالمبولة في أسفل دَرَج المسرح، تبدو لي يد اليوناني الآن شيئاً منفصلاً فريداً - يد غول هائلة الحجم، مُشعرة مُستعارة من أسطورة اسكندنافية رهيبة. واليد هي التي كانت تحدثني

وتقول " لن تأتي الآنسة مارا هذه الليلة " أو " نعم، الآنسة مارا ستأتي في وقتٍ متأخِّر هذه الليلة ". تلك اليد هي التي حلمتُ بها وأنا طفل حين أهجع في غرفة النوم بالنافذة ذات القضبان. وأثناء نومي المحموم تُضاء تلك النافذة فجأةً ليظهر منها الغول متشبّثاً بالقضبان ويُبرِز أسنانه، فأستيقظ منقوعاً بالعرق البارد، المنزل مظلم، والغرفة يشملها صمتٌ تام.

ألمحها قادمة نحوي وأنا واقف متنحياً جانب حلبة الرقص، تتقدَّم منشورة الأشرعة، والوجه الكبير الممتلئ متوازن بجمال على العنق الطويل الرخامي. أرى امرأةً ربما في الثامنة عشرة، ربما في الثلاثين، بشعرٍ أسود مزرقّ، ووجهٍ أبيض كبير ذي عينين تشعان بتألُّق. ترتدي ثوباً أزرقَ أنيقاً من المخمل. أذكرُ الآن بوضوح امتلاء جسمها، وشعرها المنسدل ناعماً، مفروقاً عند الجانب، كشعر الرجال. أذكرُ الابتسامةَ التي منحَتْها لي - عارفة، غامضة، متملّصة - ابتسامة تقفز فجأةً، كهبّة هواء.

كان كيانها كله متمركزاً في الوجه. كان في إمكاني أنْ آخذ الرأس فقط وأذهب به إلى المنزل، وأضعه إلى جانبي ليلاً على الوسادة، وأمارس الحب معه. حين كان الفم والعينان تنفتح، يتوهّج كيانها منها. كان هناك ضياء صادر من منبع مجهول، من مركزٍ خفيّ عميق في الأرض. لم أستطع أنْ أفكّر في شيءٍ آخر غير الوجه، والابتسامة الغريبة الشبيهة بالرحم، وظهورها المفاجئ الغامر. كانت الابتسامة عابرة بصورة مؤلمة وتلاشيها أشبه بومض سكين. تلك الابتسامة، ذلك الوجه، وُلِدَ

شامخاً على العنق الأبيض الطويل، والعنق القوي، الشبيه بعنق البجعة في اعتداله - وضياعه ولعنته.

أقفُ عند الناصية تحت الأضواء الحمراء، أنتظر نزولها. الساعة تُقارب الثانية صباحاً وهي تتنهَّد، أقفُ في شارع برودواي وزهرة في عروة سترتي، أشعرُ أني بنظافة ووحدة تامّين. أمضينا السهرة بأكملها تقريباً في الحديث عن ستريندبرغ[1]، عن إحدى شخصياته الأدبية واسمها هنرييت. أنصتُّ بانتباه شديد حتى غبتُ في نشوة. وكأننا بالعبارة الافتتاحية بدأنا سباقاً - في اتّجاهَين متعاكسين. هنرييت ! وفور ذكر الاسم بدأتْ تتحدث عن نفسها دون أنْ تفقد الصِلة بهنرييت تماماً. كانت هنرييت تتصل بها بخيط طويل خفيّ تحرّكه برهافة بإصبع واحد. كالبائع المتجوّل الذي يقفُ مبتعداً قليلاً عن الثوب الأسود، على الرصيف، يبدو عليه اللا مبالاة بالآليّة الصغيرة المجلجلة على الثوب، لكنها تفضحه من حركة الإصبع الصغير المتقطعة الموصول به الخيط الأسود. كأنها تقول هنرييت هي أنا، ذاتي الحقيقية. أرادتني أنْ أعتقد أنَّ هنرييت كانت حقاً تجسيداً للشر. قالت ذلك بطريقة طبيعية تماماً، وببراءة تامة، بصدقٍ يكاد يكون فوق إنساني - فكيف لي أنْ أؤمن بأنها كانت تعني ما تقول؟ واكتفيتُ بالابتسام، وكأنما لأريها أني مُقتنع.

وفجأةً شعرتُ بها آتية. أدرتُ رأسي. نعم، ها هي آتية بكُلّيتها، الأشرعة منشورة، والعينان تتوهجان. الآن أرى وللمرة الأولى روعة

---

١ - يوهان أوغست ستريندبرغ (١٨٤٩ - ١٩١٢) : كاتب مسرحي سويدي . له " مس جوليا "

العربة التي تملك. تقدَّمَتْ كطائرٍ إنساني متدثّر بفروٍ كبير ناعم. المُحرِّك دائر بأقصى سرعته : وددتُ لو أصرخ، أو أُحدِثُ انفجاراً يجعل العالمَ برمّته يسدُّ أذنيه. وأي مشية ! لم تكن مشية، بل انزلاقاً حراً. ممشوقة القامة، جليلة، ممتلئة، رابطة الجأش، تخترقُ الدخانَ وموسيقى الجاز والضوء الأحمر تتوهَّج كالملكة الراعية لجميع عاهرات بابل الفاسقات. يحدثُ ذلك عند مفترق شارع برودواي، مقابل محطة الاستراحة بالضبط. برودواي - إنه عالمها. هذا هو برودواي، هذه هي نيويورك، هذه هي أميركا. أميركا تقفُ على قَدَمين، مُجنَّحة وممتلئة بالجنس. هي الشبق، البغيض منه والمتسامي - ممزوج بحمض الهيدروكلوريد، والنيتروغليسيرين، وصبغة اليود ومسحوق العقيق. تملك الثروة والفخامة : أميركا بخيرها وشرّها، والمحيط بشاطئيه. وللمرة الأولى في حياتي تضربني القارة كلها بأقصى قوتها، تضربني بين عينيّ. هذه هي أميركا، بثيرانٍ أو بلا ثيران. أميركا دولاب جلخ الأمل والخيبة. ما يُكوِّنْ أميركا يُكوّنها هي، عِظاماً، ودماءً، وعضلات ومُقلة، وسرعة، وإيقاعاً، وتوازناً، وثقة، وأحشاءً نحاسية فارغة. إنها فوقي تقريباً، ووجهها يومض كالكالسيوم. الفرو الكبير الناعم ينزلق عن كتفيها. ولا تلاحظه. يبدو أنها لا تأبه إنْ انزلقت عنها ملابسها كلها. لا تهتم بأي شيء. هي أميركا تتحرَّك كتعرُّجِ البرقِ نحو المخزن الزجاجي الذي تعجُّ فيه الهستريا باردة الدم. آموريكا، بفروٍ أو بلا فرو، بحذاءٍ أو بلا حذاء. أموريكا، " التسديد نقداً عند التسليم "، وانصرفوا حالاً، يا أولاد الحرام، قبل أنْ ننسفكم ! إنها تقبض عليَّ من أحشائي، وأرتعش. هناك

شيء يتملّكني ولا مناص منه. إنها تحثّ خُطاها، خلال زجاج النافذة، ليتها تتوقف ولو لحظة، ليتها فقط تتركني لأوجَد ولو للحظة واحدة. ولكن كلا، إنها لا تمنحني لحظة واحدة. سريعة قاسية، متغطرسة، كالقدر نفسه، هكذا كان تأثيرها عليّ، سيف يقطعني ويقطعني...

وأمسكتني من يدي، وأحكَمَتْ. ومشيتُ إلى جانبها دون خوف. في داخلي نجومٌ تتلألأ؛ في داخلي قبة زرقاء عظيمة وقبل لحظة كانت هناك آلات تهدرُ بغضب.

في وسع المرء أنْ ينتظر عمراً كاملاً لحظةً كتلك. المرأة التي لم تأمل أبداً بمقابلتها تجلس أمامك الآن، وتتكلّم، وتبدو تماماً كشخصٍ حلمتَ به. لكنَّ أغرب شيء على الإطلاق أنكَ لم تدرك من قبل أبداً أنك حلمتَ بها. وماضيك كله يُشبه نوماً طويلاً كان يمكن أنْ يُنسى لولا الذاكرة، لكنَّ التذكُّر موجود في الدم والدم كالمحيط يغسل فيه كل شيء ما عدا ذلك الجديد والأكثر جوهرية من الحياة نفسها : الواقع.

نحن جالسان في مقصورة صغيرة من مطعمٍ صيني يقع في الطرَف الآخر من الطريق. وألمح من زاوية عيني وهج الأحرف المُضاءة تجري صاعدة هابطة السماء. إنها لا تزال تتحدث عن هنرييت، أو ربما عن نفسها. وقبعتها السوداء الصغيرة، وحقيبتها مُلقاتان إلى جانبها على المقعد. وبعد كل بضع دقائق تُشعِل سيجارة جديدة تحترق كلها وهي تتكلّم. وليس هناك بداية ولا نهاية، يتدفَّق الكلام منها كاللهب وتلتهم كل ما تقع عليه. لا أحد يعرف كيف أو أين تبدأ. وإذا بها فجأةً وسط حكاية طويلة، جديدة، لكنها نفسها دائماً. حديثها بلا شكل كالحلم : لا

أخاديد، لا جدران، لا مخارج، لا مواقف. وأشعر كأني أغوص في شَرَكٍ عميق من الكلمات، كأني أزحفُ إلى الخلف وأتألّم أبغي قمة الشبكة، كأني أنظرُ في عينيها محاولاً أنْ أجد فيهما بعض انعكاس لأهمية كلماتها - فلا أجد شيئاً، لا شيء غير صورتي تتماوجُ في بئرٍ لا قرار لها. على الرغم من أنها لا تتحدث إلا عن نفسها لا أستطيع أنْ أصيغ أبهت صورة لشخصيتها. وتميل إلى الأمام، ومرفقاها على الطاولة، وكلماتها تُغرِقني، والموجة بعد الموجة تطويني، ومع ذلك لا شيء يُبنى داخلي، لا شيء يمكنني أنْ أمسكه بعقلي. إنها تُحدثني عن أبيها، عن الحياة الغريبة التي تعيشها في طَرَف غابة شروود حيثُ ولِدَتْ، أو هذا على الأقل ما روَتْه لي، أما الآن فتعود من جديد إلى هنرييت، أم هو دوستويفسكي؟ - لستُ متأكداً - على أي حال، أدركُ فجأةً أنها لم تعُد تتكلم عن أيٍ من تلك الأشياء، بل عن رجل اصطحبها إلى المنزل ذات مرة وبينما هما واقفان عند الدَرَج يتبادلان تحية المساء اقتربَ منها فجأةً ورفعَ ثوبها. وتتوقف لحظة وكأنما لتؤكد لي أنَّ هذا ما تودّ الحديث عنه. أنظرُ إليها وأنا في حيرة. لا أذكر في أي شارع كنا آنئذٍ. وأي رجل؟ ماذا كان يقول لها؟ أتركها تتابع، ظناً مني أنها قد تعود إليه، ولكن كلا، إنها تسبقني من جديد والآن يبدو أنَّ الرجل، هذا الرجل، قد مات، انتحر، وهي تحاول أنْ تفهمني أنها كانت صدمة عنيفة لها، ولكنْ ما تحاول التعبير عنه حقاً هو أنها دفعَتْ برجلٍ إلى الانتحار. لا أتصوَّر الرجل ميتاً، أتصوَّره فقط واقفاً على دَرَج بيتها ويرفع ثوبها، رجلٌ بلا اسم لكنّه حي وموجود دائماً في حركة الانحناء ليرفع ثوبها. وهناك رجل

آخر هو أبوها وأراه مع مجموعة من أحصنة السباق، أو أحياناً في حانة صغيرة خارج فيينا، بل وأراه على سطح الحانة ينشر طائرات ورقيّة ليُنفق وقته. ولا يمكنني أنْ أفصل بين هذا الرجل، أبيها، والرجل المولهة بحبه. إنه شخص في حياتها تفضّل ألا تتحدث عنه، ومع ذلك تعود إلى ذِكره طوال الوقت، وعلى الرغم من أني لستُ متأكداً من أنه ليس الرجل الذي رفع ثوبها أو ليس الرجل الذي انتحر. ربما هو الرجل الذي بدأتْ تتحدث عنه حين جلسنا لنأكل. فبينما نحن جالسان أذكرُ الآن أنها بدأتْ تتحدث بإيقاع محموم عن رجل رأته يدخل الكافيتيريا. بل وذكرَتْ اسمه، لكني نسيته على الفور. أذكرها تقول إنها عاشتْ معه وإنه فعل شيئاً لم يعجبها - لم تقُلْ ما هو - لذا تركته، وتركت شقّته، بلا أي كلمة تبرير. ومن ثم، وبينما نحن ندخل محلاً صينياً، اصطدمتْ به وكانت لا تزال ترتجف من تأثير ذلك حين جلسنا في المقصورة الصغيرة... وانتابني للحظة شعور عظيم بالقلق. ربما كل كلمة تفوَّهَتْ بها كانت كذبة! ليست كذبة عادية، كلا، بل شيء أسوأ، شيء لا يوصَف. إلا أنَّ الحقيقة تخرج أحياناً بالصورة نفسها أيضاً، خاصة إذا اكتشفت أنكَ لن ترى الشخص أبداً. أحياناً يمكنك أنْ تُخبر شخصاً غريباً تماماً ما لا تجرؤ على كشفه لأقرب أصدقائك الحميمين. إنه كالنوم وسط حفلة، حين تهتم بنفسك إلى درجة أنْ تغط في النوم. وبينما أنت غارق في النوم تبدأ بالحديث مع أحدهم، مع شخص كان موجوداً معك طوال الوقت ويفهم كل شيء مع أنك تبدأ من منتصف الجملة. وقد يكون هذا الشخص الآخر غاطّاً في النوم أيضاً، أو كان نائماً دائماً، لهذا كان من السهل مُخاطبته، وإذا لم

يقُلْ أي شيء يزعجك تعلم عندئذٍ أنَّ ما تقوله واقعي وحقيقي وأنك في كامل يقظتك ولا حقيقة أخرى غير كونك نائماً في يقظة تامة. لم أكن مرةً في حياتي قبلها في يقظتي الكاملة وغارقاً في النوم مرةً واحدة. لو أنَّ الغول في أحلامي خلع القضبان حقاً وأمسكني بيده لُمتُّ رعباً ولكنتُ الآن ميتاً، أي، نائماً إلى الأبد وحراً دائماً، ولما ظلَّ أي شيء غريب، أو غير حقيقي، حتى وإنْ كان ما حدثَ لم يحدث. وما حدث كان يجب أنْ يحدث قبلها بوقتٍ طويل، ليلاً بلا شك. وما يحدث الآن يحدث أيضاً في زمن بعيد، ليلاً، ولم يعُد هذا حقيقياً أكثر من الحلم بالغول والقضبان التي لا تنهار، غير أنَّ القضبان قد تحطّمتْ الآن والتي خشيتُها أمسكتني من يدي ولا فرق بين ما أخافه وما هو موجود، لأني كنتُ نائماً والآن أنا نائم في يقظةٍ تامة وليس هناك ما أخاف، أو أتوقَّع، أو أصبو إليه، ما عدا ما هو موجود ولا يعرف الفناء.

تريد أنْ تذهب، تذهب... وركها من جديد، وذلك الانزلاق وهي تهبط من قاعة الرقص متجهة نحوي. وكلماتها من جديد... " وفجأةً، وبلا أي سبب انحنى ورفعَ طرف ثوبي ". وتترك الفراء الُملتفّ حول عنقها ينزلق، وتُبرِز القبعة الصغيرة السوداء وجهها كحجرٍ كريم عليه نقش. والوجه المستدير الممتلئ بالخدّين السلافيين البارزَيّ العظام. كيف أمكنني أنْ أحلم بذلك، مع أني لم أرِه أبداً؟ كيف عرفت أنها ستنهض هكذا، قريبة وممتلئة، الوجه أبيض تماماً ونضرِ كزهرة مانيوليا؟ وأرتجفُ حين يلمسني ردفاها. تبدو أطول حتى مني، وليستْ أطول. إنه بسبب الطريقة التي ترفع بها ذقنها. وهي لا تنتبه أين تمشي. تمشي على

الأشياء، تمشي وتمشي، مفتوحة العينين حتى آخرهما تحملقُ في الفراغ. لا ماضٍ، ولا مستقبل. حتى الحاضر يبدو مُلتبساً. وكأنَّ نفسها قد فارقتها، والجسم يندفع إلى الأمام، العنق ممتلئ وقوي، أبيض بلون الوجه ممتلئ كما الوجه. ويستمر الحديث، بذلك الصوت المنخفض الحَلَقي. لا بداية، لا نهاية. أنا لا أعي الزمن وانصرامه، بل اللا زمن. لقد علَّقَتْ رحم الحنجرة على رحم الحوض الكبير. التاكسي واقف عند حافة الطريق وهي لا تزال تمضغ الهراء الكونيّ للذات الخارجية. ألتقط أنبوب الكلام وأصله بالرحم المزدوج. مرحباً، مرحباً، هل من أحدٍ هنا؟ هيا بنا! فلنُنهِها - سيارات، قوارب، قطارات، لنشات النفط، شواطئ، بق، شوارع عامة، شوارع جانبية، أطلال، آثار، عالم جديد، دعامات، حاجز الماء، كلاّبات عالية، أرجوحة البهلوان المهتزة، القناة، الدلتا، القاطرات، التماسيح، كلام، كلام، مزيد من الكلام، ثم دروب جديدة ومزيد من الغبار في العيون، مزيد من أقواس قزح، مزيد من المطر الغزير، مزيد من طعام الإفطار، مزيد من الكريما، مزيد من الغسول. وبعد أنْ نعبر جميع الطُرُق ولا يتبقّى غير الغبار في أقدامنا المهتاجة تبقى ذِكرى وجهك الكبير الممتلئ الناصع البياض، والفم الكبير ذي الشفتين المنفرجتين، والأسنان التي بلون الطباشير وكلها سليمة، وفي تلك الذِكرى لا يمكن أنْ يتغيَّر شيء لأنها، كأسنانك، تامة...

*

إنه يوم أحد، أول يوم أحد في حياتي الجديدة، وأنا أرتدي طوق الكلاب الذي أحطتُ به عنقي. هناك حياة جديدة تمتد أمامي. تبدأ مع يوم الراحة. أتمدَّد على ظهري فوق ورقة خضراء فسيحة وأراقبُ الشمس تتلظّى في رحمك. ويا للقرقعة والطرطقة التي يُثيرها ! كل هذا هو لي خصيصاً، ماذا ؟ ليتَ بك مليون شمس ! ليتني أستطيع أنْ أتمدَّد هنا وإلى الأبد أستمتع بالألعاب النارية السماوية !

أستلقي مُعلّقاً على سطح القمر. العالم في نشوةٍ كنشوة الرحم : الذات الداخلية والخارجية في حالة توازن. لقد أغدقَتْ عليّ الوعود بحيث إذا لم أنته من هذا الوضع فلا فرق. ويبدو لي أنه قد مرَّ بالضبط ٢٥٩٦٠ عاماً على سُباتي في رحم الجنس الأسود. يبدو أني نمتُ ربما ٣٦٥ عاماً زيادة. على أي حال أنا الآن في المنزل المناسب، بين الأسداس، ورائي خير وأمامي خير. تأتين إليّ بصورة فينوس، لكنكِ ليليث[1]، وأعلم هذا. حياتي كلها في وضع توازن، سوف أستمتع بهذا النعيم طوال النهار. غداً سوف أنقر قوس الميزان؛ غداً سوف ينتهي التوازن، وإذا وجدته ثانية فسوف يكون في دمي وليس في النجوم. طالما وعدتني بالخير. أحتاجُ إلى أنْ أوعَد بكل شيء تقريباً، فقد أطلتُ المكوث في ظل الشمس. أريد نوراً وطهارة – وناراً شمسية في الأحشاء. أريد أنْ أُخدَع ويخيبُ أملي حتى أُكمِل المثلث العُلوي ولا أبقى طائراً في الفضاء بعيداً عن الأرض. أؤمنُ

١ – ليليث : عند اليهود ، هي شيطان مؤنث ، استُنبِطَتْ شخصيتها من إلاهة الخصب البابلية ننليل . وفي بعض الثقافات هي زوجة آدم ، جعلها التراث الشعبي مصّاصة دماء وقاتلة للأطفال .

بكل ما تقصّينه عليّ، لكنني أعلمُ أيضاً أنه سيتحوّل بأكمله إلى شيءٍ مختلف. أراكِ كنجم وفخ، كحجرٍ يخلُّ بتوازن الميزان، كقاضٍ معصوب العينين، كحُفرةٍ أقعُ فيها، كدربٍ أمشي عليه، كصليب وسهم. حتى الآن سافرتُ في عكس اتّجاه الشمس، ومن الآن فصاعداً أسافرُ على طريقين، كالشمس وكالقمر. من الآن فصاعداً سأتّخذُ جنسين ونصفيّ الكرة الأرضية، وسماء ين، واثنين من كل شيء. من الآن فصاعداً سأكون مُضاعَفاً، وثُنائي الجنس. وكل ما يحدث سيحدث مرّتين. سأكون زائراً بالنسبة إلى هذه الأرض، أشاركُ في نِعَمها وأحملُ هِباتها. لن أخدِم ولن أُخدَم. وسوف أبحث عن النهاية في نفسي.

أنظرُ من جديد إلى الشمس - نظرتي الأولى المتفحّصة. إنها حمراء بلون الدم والرجال يتجولون على أعالي الأسطح. وكل ما يقع فوق الأفق واضح لي. إنه كيوم أحد الفصح. الموت خلفي والمولد أيضاً. سوف أعيش اليوم بين أمراض الحياة. سوف أعيش الحياة الروحية للقزم في بريّة الأدغال. تبادُل الداخل والخارج مكانيهما ولم يعُد التوازن هو الهدف - ويجب تدمير الميزان. دعيني أؤمن وليومٍ واحد - بينما أرتاح في الهواء الطلق، بأنَّ الشمس تجلب الأنباء الطيبة. دعيني أتعفَّن بجلال بينما الشمس تتلظّى في رحمك. أُصدِّقُ كل أكاذيبك دون استثناء. أراكِ تجسيداً للشر، مُدمّرة الروح، مهرانة[1] الليل.

---

١ - المهرانة : زوجة المهراجا .

ألصقي رحمك على جداري، حتى أبقى على ذِكراك. يجب أنْ نذهب. غداً، غداً...

أيلول ١٩٣٨

فيلا سورا، باريس

لوحة الغلاف : للفنان نوري الراوي

رواية "مدار الجدي" هي ثالث ثلاثيّة ميللر الأولى : "مدار السرطان" ، و "ربيع أسود" وأخيراً "مدار الجدي" . صدرتْ في عام 1939 ، وبقيَتْ ممنوعة من النشر في الولايات المتحدة الأميركية على مدى ثلاثين عاماً ، بسبب ما تحتوي من تفصيلات جنسية . هذا التوأم لرواية "مدار السرطان" يؤرِّخ لحياته في حقبة العشرينيات من القرن العشرين في مدينة نيويورك . وأبرز ما تتصف به هو طريقته الغريبة في الكتابة ، وأسلوبه الذي يقترب كثيراً من السرد السريالي لحياته في حي بروكلن ، الذي يعجّ بالجنسيات المتباينة من الناس .

يتميَّز ميللر بأسلوب تيار الوعي الذي يُطلق العنان للذكريات والأحاسيس والانطباعات بالتدفّق دون كابح ، والنتيجة قصيدة من السرد تحكي عن انحطاط الحلم الأميركي في أحياء نيويورك الخلفية ، بلغةٍ شديدة الحيوية وبصور إبداعيّة تعكس عبقرية هذا الكاتب .

هذا الكتاب يُحرِّك القارئ إلى درجة النشوة . إذا كنتَ أحد أولئك اليائسين المساكين الذين تخلّوا عن كل أملٍ في الحياة فعليكَ بقراءة ميللرٍ ، لأنه كفيل ببثّ الحياة والنشوة في الجمادً . هذا الرجل يقول نعم دائماً للحياة ، حتى في أسوأ حالاته النفسية والمادية انحداراً . هذا الرجل كرّسَ نفسه للفرح وللحياة ، على الرغم من كل شيء .

ISBN 2-84306-024- X
9 782843 080241